الجمهورية العربية السورية

جـامـعة دمشــق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ



الساحل الشامي من الحملة الصليبية الأولى حتى نهاية الدولة النورية

إدارياً وسياسياً ٤٩٢-٥٦٩هـ /١٠٩٨-١١٧٣م

رسالة أعدت لنيــــل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب و الإسلام

إعداد الطالب: هاني صالح الموعد

إشراف الأستاذ الدكتور: عمار محمد النهار

العام الدراسي

٢٠١٨/٢٠١٧م

١٤٣٩/١٤٣٨ هـ

جامعة دمشق

قرار مجلس البحث العلمي والدراسات العليا رقم /١١٦٨/ المتخذ
بالجلسة رقم /١٢/ تاريخ ٢٠١٨/٢/٢٦

اطلع مجلس البحث العلمي والدراسات العليا على قرار مجلس كلية الآداب رقم /٩٣٨/ تاريخ ٢٠١٨/٢/٤.
وبعد الرجوع إلى اللائحة التنفيذية لقانون تنظيم الجامعات الصادرة بالمرسوم /٢٥٠/ لعام ٢٠٠٦ .
قرار مجلس جامعة دمشق رقم /٤٣٤٠/ص.م تاريخ ٢٠١٣/٩/٩ بشأن الموافقة على تسجيل رسالة الطالب.
قرار مجلس كلية الآداب رقم /٢١٣/ص.م تاريخ ٢٠١٧/١٠/٢٢ بشأن الموافقة على تمديد تسجيل رسالة الطالب اعتباراً من ٢٠١٧/٩/٩ لغاية ٢٠١٨/٩/٩.

وبنتيجة المذاكرة قرر مجلس البحث العلمي والدراسات العليا :

الموافقة على تأليف لجنة الحكم على رسالة الدكتوراه في قسم التاريخ التي أعدها الطالب **هاني الموعد** بعنوان :((الساحل الشامي من الحملة الصليبية الأولى حتى نهاية الدولة النورية - إدارياً وسياسياً ٤٩٢- ٥٦٩هـ/ ١٠٩٨ -١١٧٣ م)) بكلية الآداب من السادة الأساتذة :

د. سميحة أبو الفضل	الأستاذ في قسم التاريخ	كلية الآداب
جامعة دمشق	الاختصاص : تاريخ عرب وإسلام	عضواً
د. اكتمال اسماعيل	الأستاذ في قسم التاريخ	كلية الآداب
جامعة دمشق	الاختصاص : تاريخ عرب وإسلام	عضواً
د. عمار النهار	الأستاذ في قسم التاريخ	كلية الآداب
جامعة دمشق	الاختصاص: تاريخ عرب وإسلام	عضواً مشرفاً
د. غطاس نعمة	الأستاذ المساعد في قسم التاريخ	كلية الآداب
جامعة دمشق	الاختصاص: منهج بحث تاريخي	عضواً
د. بسام علوش	الأستاذ المساعد في قسم التاريخ	كلية الآداب
جامعة البعث	الاختصاص: تاريخ عرب وإسلام	عضواً

ملاحظة: يرجى إرسال نسخة عن الإعلان الخاص بتحديد موعد المناقشة فور صدوره إلى مكتب نائب رئيس الجامعة لشؤون البحث العلمي والدراسات العليا.

إهـداء

إلى روح من غرس في نفسي حب العلم والوطن والإخلاص والوفاء

والدي رحمه الله

إلى الصدر الحنون التي صبرت علّي كثيراً ... والدتي الغالية.

إلى من شاركني لحظات الفرح و الحزن ... أخواتي و أخواي.

إلى الأخوة الأعزاء أيمن، عبد الفتاح، علي، لؤي.

شكر و تقدير

أتوجه بالشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور عمار النهار، الذي تكرم بقبول الإشراف على رسالتي هذه، وعلى جميع النصائح التي قدمها لي، والتي أغنت هذه الدراسة. كما أتقدم بالشكر إلى جميع أعضاء الهيئة التدريسية في قسم التاريخ .

و أتقدم بالشكر إلى أعضاء لجنة الحكم الذين وافقوا على تحكيم رسالتي.

وأنتهز هذه المناسبة لأتقدم بالشكر لكل شخص قدم لي المساعدة، من أجل إنجاز هذا العمل، وأخص بالشكر الأستاذ عبد الفتاح السعدي على جهوده الكبيرة في تدقيق الرسالة من الناحية اللغوية، وعلى جميع النصائح التي قدمها لي لإخراج هذه الرسالة بأفضل صورة من الناحية اللغوية والنحوية.

- الفهرس العام:

- المقدمة:

شهدت بلاد الشام خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين هجمات شرسة قادها الغرب الأوربي ضد سكان بلاد الشام بمختلف انتمائهم العرقي والديني، وتعد الحملات الصليبية إحدى الظواهر التي ميزت العصور الوسطى، من كونها استغرقت ما يقارب القرنين، وما تركته من أثار على مختلف نواحي الحياة من فكرية واجتماعية وسياسية وعسكرية سواء في بلاد الشام ومصر من جهة، والغرب الأوربي من جهة أخرى، إذ لم يقتصر ذلك التأثير على الناحية العسكرية فحسب، والتي أخذت نصيبها الوافر من الدراسة، بل هذه الحملات كانت تمثل العلاقات بين الشرق والغرب على مختلف مستوياتها.

وقد امتاز تاريخ الحروب الصليبية منذ بداياته المبكرة بالصبغة الدموية، إذ ارتكب الصليبيون العديد من المذابح التي ذهب ضحيتها مئات الألوف من الأبرياء والمدافعين عن أراضيهم سواء في منطقة البلقان أو بلاد الشام ، وهذا يدل على انتشار التعصب الديني بين صفوف الصليبيين تجاه المسلمين والمسيحيين الذين لا يتبعون المذهب الكاثوليكي، ولا أدل على ذلك من المذابح التي شهدتها بلاد الشام خلال زحف الحملة الأولى والتي توجت بقتل الغالبية العظمى من سكان مدينة بيت المقدس، فضلاً عن المذابح الأخرى التي ارتكبوها عند الاستيلاء على المدن الواقعة على الساحل الشامي، مثل مدن قيسارية، جبيل، طرابلس، بيروت ... وغيرها.

ونتج عن قدوم الحملة الصليبية الأولى تأسيس أربع كيانات صليبية، امتلك ثلاثة منها إطلالة على الساحل الشامي، واتبع الصليبيون في تلك الكيانات النظام الإقطاعي السائد في أوربا، فقسمت تلك الكيانات إلى إقطاعيات صغيرة، وهذه الأخيرةقسمت أيضاً إلى وحدات إقطاعية محدودة المساحة، وساد في تلك الكيانات علاقات الظلم والاضطهاد بحق السكان الأصليين للبلاد، الذين لم يستكينوا لذلك بل قاوموا الصليبيين بكل الوسائل المتاحة، فأخذوا يشنون الغارات على معسكرات القوات الصليبية، وبذلك ظهر ما يسمى بالمقاومة الشعبية، التي لم تقتصر على الجانب العسكري، بل شملت وجوه أخرى فكان تمسك الفلاحين الأصليين بالبقاء في قراهم والعمل في أراضيها نوعاً من أنواع المقاومة، فضلاً عن مساندتهم للقوات العربية الإسلامية التي كانت تهاجم المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية.

وشهدت العديد منمناطق ساحل بلاد الشام على إثر الحملة الصليبية الأولى تغييراً جذرياً في التركيبة السكانية، فقد أدت سياسة المذابح والتهجير التي انتهجها الصليبيون إلى تفريغ مدن الساحل من سكانها العرب، وأحلت مكانهم القادمين من الغرب الأوربي، كما حاول الصليبيون السيطرة على المناطق الريفية من خلال إقامة المستوطنات في المواقع ذات الأهمية الجغرافية، وبذلك تضاءلت أعداد العرب المسلمين بخاصة في المدن، حتى أصبحوا أقلية في بعضها.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن العلاقات بين الطرفين العربي الإسلامي والصليبي دائماً علاقات صراع وحروب، بل تخلل تاريخ الحروب الصليبية بعض العلاقات السلمية، وكان لذلك أثر في حصول نوعاً من تبادل المؤثرات بين الطرفين في مختلف نواحي الحياة، وبالطبع كان هذا التأثير يظهر جلياً على الصليبيين الذين اتصفوا بدنو قيمهم الحضارية والاجتماعية إذا ما تم مقارنتها بالحضارة العربية الإسلامية التي كانت قد بلغت ذروة توجهها الحضاري والفكري، إلا أن هذا الجانب يحتاج إلى الكثير من الأبحاث والدراسة لإظهاره.

ولا شك فإن المتمعن في تاريخ بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية يلاحظ بأن معظم الدراسات قد انصبت على دراسة الجوانب العسكرية، بينما اكتنف الغموض كثيراً من النواحي الاجتماعية والفكرية لتاريخ أفراد المجتمع العربي والإسلاميالذي خضع للسيطرة الصليبية فضلاً

عن العلاقات الصليبية - الصليبية، أو العلاقات الصليبية - العربية الإسلامية، فكان ذلك من الأسباب التي دفعت إلى اختيار موضوع " الساحل الشامي من الحملة الصليبية الأولى حتى نهاية الدولة النورية "محوراً لهذه الدراسة.

كما تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول سبقها تعريف بأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في هذه الدراسة، ثم مقدمة تضمنت التعريف بالموضوع، ثم تلاها تمهيد للتعريف بالأوضاع السائدة في بلاد الشام وما كانت تعانيه من التمزق السياسي والمذهبي قبيل قدوم الحملة الصليبية، وأثر ذلك على تسهيل الظروف للصليبيين على احتلال العديد من مناطق بلاد الشام، ثم تم التعريف بالظروف السائدة في غرب أوربا قبيل الإعلان عن الحروب الصليبية، والتعرف على دوافع قيام الحملة الصليبية الأولى.

بينما تناول الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان" مسير الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام" أحداث حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية والاستيلاء عليها، وما تخلل ذلك من مقاومة شرسة لصد العدوان، والتطرق إلى ما عانته جموع الصليبيين من المجاعة والضعف نتيجة انتشار الأمراض وقلت الأقوات، وإظهار مدى الوحشية التي ارتكبها الصليبيون بحق سكان المدينة، كما تعرضت الدراسة في هذا الفصل لمتابعة زحف الحملة الصليبية صوب مدينة بيت المقدس، واجتياحها خلال ذلك لمناطق بلاد الشام وحصار العديد من المدن وارتكاب المذابح بحق سكانها، وقد كانت مدينة معرة النعمان خير مثال على ذلك، كما تم إظهار مدى الضعف الذي كانت تعاني منه الدويلات والإمارات القائمة في بلاد الشام، إذ أظهر العديد منها رغبته في التعامل والتواصل مع تلك الحشود إلى حد قيام بعض الحكام بتقديم فروض الطاعة والولاء للصليبيين، وتقديم الوعود لهم بالتنصر في حال استيلائهم على مدينة بيت المقدس، التي سقطت بأيدي الصليبيين بعد مذبحة وحشية بحق سكانها في يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/١٥ تموز ١٠٩٩م.

ثم تناولت الدراسة الحديث عن التوسع الصليبي في مناطق الساحل الشامي والاستيلاء على جميع مدنه بشكل تدريجي استغرق ما يزيد عن ستين سنة، وكان آخر تلك المدن هي مدينة عسقلان التي كانت تعد منطلقاً لقوات الدولة الفاطمية لمجاهدة القوات الصليبية سواء في البر أو البحر . وأخيراً تم التطرق للحديث عن نشاط القوى البحرية الأوربية ومساهمتها في تقديم العون للقوات البرية الصليبية في الاستيلاء على مدن الساحل الشامي.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان:" التقسيمات الإدارية للساحل الشامي خلال السيطرة الصليبية ما بين ٤٩١- ٥٦٩هـ / ١٠٩٨- ١١٧٣م" ، الذي تناول الحديث عن ظهور ثلاث كيانات صليبية تطل على الساحل الشامي، والتعريف بحدودها وامتدادها الجغرافي، وطبيعة نظام الحكم الإقطاعي السائد فيها، والوحدات الإقطاعية التي تتألف منها، ومن ثم الحديث عن ممتلكات المؤسسات الدينية في الإمارات الصليبية، فقد حظيت الكنائس اللاتينية ورجالها على العديد من الممتلكات والهبات التي قدمت لها من قبل أمراء الكيانات الصليبية، وبذلك أصبحت الكنيسة تشكل قوة اقتصادية وإقطاعية كبيرة، وقسمت الإقطاعيات التي حازتها الكنيسة إلى نوعين هما: أ- الإقطاعيات النقدية ب- الإقطاعيات العينية، وتم التركيز في هذا الفصل على الحديث على الإقطاعيات العينية والممتلكات التي حازتها الكنيسة.

كما تناول هذا الفصل الحديث عن ممتلكات المدن الإيطالية على الساحل الشامي، إذ شهدت الحروب الصليبيةنشاطاً مهماً لأساطيل المدن الإيطالية في الاستيلاء على المدن الساحلية في بلاد الشام، إلا أن هذه الخدمات التي قدمتها للصليبيين لم تكن دون مقابل، فسرعان ما أخذت تفرض شروطها للاشتراك في حصار المدن الشامية، وكان من أهم شروطها الحصول على أحياء ومتاجر

في المدن التي تم الاستيلاء عليها، ونمت تلك الممتلكات حتى أصبحت عبارة عن دولة مستقلة داخل الكيانات الصليبية، وكانت أهم تلك المدن الإيطالية: جنوى، بيزا، البندقية.

وفي نهاية هذا الفصل تم الحديث عن ممتلكات أنظمة الفرسان الرهبان التي ظهرت في العقد الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وتمثلت تلك الأنظمة بثلاث منظمات هي: الإسبتارية، الداوية، وفرسان القديس لعازر، وتمتعت هذه الأنظمة باهتمام ورعايا ملوك بيت المقدس وباقي أمراء الكيانات الصليبية الأخرى، وأخذوا يمنحوها الكثير من الهبات التي تمثل أغلبها على شكل بيوت وقطع من الأراضي الزراعية، ثم شهدت ممتلكاتها توسعاً واضحاً في الربع الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأصبحت أيضاً تشكل خطر على الإقطاعيين العلمانيين.

أما الفصل الثالث وعنوانه: " العلاقات السياسية بين الصليبيين والإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام" فتناول الحديث عن الأسباب التي دفعت الحكام العرب المسلمين لإقامة علاقات سياسية مع الصليبيين والتي تمثلت في نقمة الأسر العربية الحاكمة لبعض المناطق من السيطرة السلجوقية وتحيينها للفرصة المناسبة للتخلص من تلك السيطرة وقد وجدت تلك الفرصة بقدوم الحشود الصليبية، فهادنتها في محاولة لاستخدامها ضد السلاجقة، إضافة لخوف العديد من الأمراء السلاجقة المتواجدين في بلاد الشام من الحملات العسكرية الكبرى التي أرسلها السلاطين السلاجقة لقتال الصليبيين، فقد وجد أولئك الأمراء في تلك الحملات محاولة من السلاطين لفرض الحكم المركزي عليهم، فقاموا بمهادنة أو التحالف مع الصليبيين، ومن جانب أخر ما نتج عن حالة الحرب الدائمة بين العرب المسلمين والصليبيين من تدمير وتخريب للأراضي الزراعية وإيقاف حركة القوافل التجارية، كل ذلك ألحق بالمسلمين خسائر كبيرة مما دفعهم لإيجاد نوع من المهادنة مع الصليبيين للتفرغ لإصلاح ما خربته الحروب، إضافة لسعي بعض الحكام المسلمين التدخل لإنقاذ سكان بعض المدن الساحلية التي تتعرض للحصار الصليبي والتي على وشك السقوط، فقاموا بالاتصال مع الصليبيين لتأمين خروجهم، ثم تم التطرق للحديث عن الأسباب التي دفعت الصليبيين لمهادنة العرب المسلمين، التي منها العامل الجغرافي، فإن سيطرة الصليبيين على مساحة ضيقة من الساحل الشامي وإحاطة الإمارات و المدن العرية الإسلامية بها، وفضلاً عن قلة عدد الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام مقارنة بأعداد السكان العرب الذين أحاطوا بهم، وتأقلمهم مع نمط الحياة الشرقية وضرورة استمرار العلاقات التجارية كل ذلك فرض على الصليبيين مهادنة العرب المسلمين والتعامل معهم.

كما تناولت دراسة هذا الفصل العلاقات السياسية التي نشأت بين قادة الحملة الصليبية الأولى وحكام بلاد الشام ومصر، ثم الحديث بشكل مفصل عن العلاقات السياسية للكيانات الصليبية الناشئة مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام، كما تم التطرق للحديث عن العلاقات الصليبية - الصليبية.

أما الفصل الرابع فجاء عنوانه:" آثار الحروب الصليبية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية"، فتناول الحديث عن موقف مسيحيي بلاد الشام من قدوم الحملة الصليبية الأولى، وتضارب روايات المصادر التاريخية حول ذلك فبعض المصادر الصليبية اتهمتهم بالتجسس على القوات الصليبية لصالح حاكم مدينة أنطاكية، في حين البعض الآخر أظهرهم بمظهر المتعاون مع الصليبيين ضد أخوانهم العرب المسلمين. ثم تناولت دراسة هذا الفصل الحديث عن أوضاع السكان العرب الذين بقيوا في المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، والممارسات الظالمة بحقهم وما لحق بهم من اضطهاد ديني، والضرائب التي فرضت عليهم، والتعرف على كيفية التقاضي فيما بينهم، ومن ثم التعرف على المناصب الإدارية التي اضطر الصليبيون لإبقائها في أيدي بعض العناصر المحلية، ليكونوا بمثابة صلة الوصل بين الفئات الصليبية الحاكمة من جهة، والفئات المحلية المضطهدة من جهة أخرى.

كما تناول هذا الفصل الحديث عن المقاومة الشعبية التي واجهها الصليبيون، والتي تشكلت على إثر فشل الأوساط الحاكمة الإسلامية في التصدي لاستيلاء الصليبيون على مدن الساحل الشامي وبعض المناطق الداخلية، وتنوعت أشكال تلك المقاومة ما بين مهاجمة القوات العسكرية الصليبية، ونصب الكمائن على طول الطرق التي تصل الساحل ببعض المدن الداخلية وبخاصة مدينة بيت المقدس، أو تعبير السكان العرب عن سخطهم عن طريق الانتفاضات، والتمرد عن دفع الضرائب أو زراعة الحقول كي تفتك المجاعة بالصليبيين، ومن الأشكال الأخرى لتلك المقاومة هي مساندة الجيوش العربية الإسلامية التي تقوم بمهاجمة الأراضي الخاضعة للسيطرة الصليبية.

ثم الحديث عن الاستيطان الصليبي لمناطق الساحل الشامي، والأسباب التي دعت إلى ذلك ومنها مغادرة الكثير من الأشخاص الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى لبلاد الشام وعودتهم إلى أوطانهم في أوربا، مما أدى لنقص أعداد الصليبيين وقلتها مقارنتاً مع أعداد السكان الأصليين، مما دفع الصليبيين لتشجيع القادمين من أوربا بقصد الحج على الاستقرار في الإمارات الصليبية ، إما بشكل دائم أو لمدة طويلة ، وقدموا لهم مقابل ذلك الكثير من الميزات . ثم تم التطرق لأهداف الاستيطان، والنمط الذي اتبع في إدارة المستوطنات الأوربية الناشئة في بلاد الشام، وأشهر المستوطنات التي أسست على أيدي الصليبيين، ونتائج الاستيطان. كما تم الحديث عن أثر الحروب الصليبية على التقارب السياسي والعسكري الإسلامي - الإسلامي وتناسي الخلافات الدينية لمواجهة الخطر الصليبي.

وفي نهاية هذا الفصل تم الحديث عن تأثر الصليبيون بالمجتمع الشرقي من الناحية الاجتماعية، والفكرية والاقتصادية.

وأخيراً تم وضع خاتمة للبحث، تم التطرق فيها لأهم النتائج التي تم التوصل إليها .

أما فيما يتعلق بالعقبات التي واجهت البحث فتتمثل بندرة المادة العلمية عن أوضاع السكان العرب في المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، وتناثرها في المصادر، وتركيز معظم مصادر تلك الحقبة على الجوانب السياسية والعسكرية، وقلما تم الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والفكرية.

أما فيما يتعلق بمنهج البحث العلمي الذي اتبع في هذه الدراسة، فقد بدء بجمع المعلومات من المصادر الأساسية، ثم المقارنة بين الروايات والمعلومات الواردة في تلك المصادر، للوصول إلى المعلومة الصحيحة، واستنتاج الحقائق العلمية.

ولكن على الرغم من كل ذلك، لا أخفي مقدار الفائدة والسعادة التي حصلت عليها من خلال البحث و جمع المعلومات، مما أتاح لي التعرف على العديد من الحقائق والمعلومات التاريخية والجغرافية التي كنت أجهلها.

وفي الختام أتمنى أن أكون قد تمكنت في هذا البحث، من تطبيق خطوات منهج البحث التاريخي، و ألا يكون الخطأ قد تسلل إلى فقرات هذا البحث.

والله الموفق

- التعريف بأهم مصادر ومراجع هذه الدراسة:

تنوعت الكتب التي اعتمدت في هذه الدراسة ما بين المصادر والمراجع ، ومنها:

أولاً - المصادر العربية:

١- المصادر التاريخية:

- ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م):

يعد كتاب ذيل تاريخ دمشق من أهم المصادر العربية الإسلامية التي عالجت تاريخ بلاد الشام بصفة عامة، وتاريخ دمشق خاصة، ويؤرخ ابن القلانسي لقرنين من الزمان من سنة ٣٦٠هـ /٩٧٠هـ إلى حوالي ٥٤٠هـ /١١٤٥م، وتحدث ابن القلانسي في كتابه عن قدوم السلاجقة إلى بلاد الشام، وسيطرتهم على أجزاء كثيرة منها ، وعن أحداث الحروب الصليبية ومارافقه من أعمال قتل ونهب، وتعد معلوماته عنها بغاية الأهمية؛ لكونه عاصرها وكان شاهداً على الكثير من أحداثها، إذ تحدث عن التوسع الصليبي في بلاد الشام، وسعي العرب المسلمون لتحرير المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، والحديث عن مشاريع الوحدة العربية الإسلامية الهادفة لقتال الصليبيين وطردهم.

كما تعرض ابن القلانسي للعلاقات الودية بين حكام الإمارات العربية الإسلامية والكيانات الصليبية، وبخاصة تلك التي عقدت ما بين حكام دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية، من أجل ضمان عدم مهاجمة الصليبيين لأعمال دمشق في أثناء قتالهم لإخوانهم أمراء شمال بلاد الشام.

وشرح ابن القلانسي منهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق بقوله: **" قد انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ ورتبته وتحفظت من الخطإ والخطل والزلل فيما علقته، من أفواه الثقات نقلته وأكدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث إلى أن صححته إلى هذه السنة المباركة، وهي سنة أربعين وخمسمائة، وكنت قد منيت منذ سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وإلى هذه الغاية بما شغل الخاطر عن الاستقصاء عما يجب إثباته في هذا الكتاب، من الحوادث المتجددة من الأعمال، والبحث عن الصحيح منها، وجميع الأحوال فتركت بين كل سنين من السنين بياضاً في الأوراق ليثبت فيه ما يعرف صحته من الأخبار، وتعلم حقيقته من الحوادث والآثار..."**[1].

- تاريخ حلب، للعظيمي(ت٥٥٦هـ /١١٦١م):

يعد كتاب تاريخ حلب من المصادر العربية الإسلامية التي تناولت الأحداث التاريخية منذ الخليقة وحتى أحداث سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، وعلى الرغم من أن العظيمي اتبع في إيراد المعلومات بشكل مختصر في كتابه، إلا أن هذا الكتاب احتوى على العديد من المعلومات ذات الأهمية، التي تتحدث عن الحملة الصليبية الأولى وتوسعها في مناطق بلاد الشام، وخاصة أن العظيمي كان شاهد عيان على الكثير من تلك الأحداث، وقد اعتمد المؤرخون الحلبيون الذين جاؤوا من بعده، على ما دونه من معلومات عن تلك المدة، وتعد روايته على أحداث الحروب الصليبية مكملة لما ورد عند ابن القلانسي.

[1]- ابن القلانسي (حمزة بن أسد)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٨٣م، ص ٤٤١،٤٤٢.

- الكامل في التاريخ، لابن الأثير(ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):

امتاز ابن الأثير في كتابه هذا بحسن الإطلاع، والرؤية الدقيقة للأحداث التي عاصرها، ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر العربية الإسلامية التي تناولت الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة، وحتى احداث سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وهو مرتب على نظام الحوليات، وعلى الرغم أن ابن الأثير لم يكن معاصراً لأحداث الحملة الصليبية الأولى، فقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب من خلال ما احتواه من معلومات عسكرية وسياسية واجتماعية عن أحداث أواخر القرن الخامس والقرن السادس الهجريين/ أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلاديين.

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م):

يعد كتاب الروضتين من كتب التاريخ المحلي وصنفه أبو شامة حسب طريقة الحوليات والتي بدأها بالحديث عن عماد الدين زنكي، وأنهاها بأحداث سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، وتحدث فيه أبي شامة عن سيرة نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والوقائع والأحداث التي جرت في عهدهما.

ويحتل كتاب الروضتين منزلة مرموقة كمصدر موثوق به؛ لقربه من الفترة الزمنية التي ألف لها، وتم الاستفادة من هذا الكتاب في الحقبة المتعلقة بحكم نور الدين محمود.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، للمقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م):

يتحدث المقريزي في هذا الكتاب عن تاريخ الدولة الفاطمية، وقد كان تاريخ هذه الدولة موزعاً في كتب التاريخ والأدب والعقائد، ممتزجاً بغيره من تواريخ الدول المعاصرة لها، إلى أن جاء المقريزي فجمع أشتاته، وجمع إليه ما حصل عليه من معلومات جديدة، ويعتبر الجزء الثالث الهام لارتباطه بهذه الدراسة، إذ تناول الحديث عن تقدم الصليبيين في بلاد الشام، واستيلائهم على المدن الشامية التابعة للدولة الفاطمية، وقدم صورة عن موقف الفاطميين تجاه ذلك.

كما أفاد هدذه الدراسة عند الحديث عن قيام المراسلات بين أمراء بلاد الشام والدولة الفاطمية، ومحاولتهم جمع القوى لمواجهة الصليبيين، متناسيين الخلافات المذهبية، وخاصة في عهد نور الدين محمود ومعاصريه من الوزراء الفاطميين، الذين اتفقوا على تنسيق عملهم العسكري ضد الصليبيين.

٢- المصادر الجغرافية والرحلات:

قدمت المصادر الجغرافية وكتب الرحلات معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقرى الواردة في الدراسة، كما حددت هذه المصادر المواقع الجغرافية لتلك المدن والقرى، أما كتب الرحلات فكان لأصحابها دوراً مهماً في جمع المعلومات من خلال مشاهداتهم، وتجاربهم ، وعلاقاتهم، ومن أهم المصادر الجغرافية والرحلات التي أفادت هذه الدراسة :

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للإدريسي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م):

يعد هذا الكتاب من أهم كتب الرحلات الجغرافية التي شهدها القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وتأتي أهمية المعلومات الواردة فيه عن بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، من كون الإدريسي عبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للوجود الصليبي، إذ تحدث عن المدن الرئيسة في الساحل الشامي، وقدم أوصافاً دقيقة عنها، فضلاً عن العديد من المعلومات التي تتعلق بالاقتصاد، والثروات الطبيعية التي تمتاز بها العديد من مناطق بلاد الشام.

- رحلة ابن جبير أو "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م):

وعلى الرغم من أن ابن جبير قد قام برحلته في حقبة لاحقة لفترة هذه الدراسة، ولكن تم الاعتماد على رحلة ابن جبير للتعرف على الأوضاع الاجتماعية للعرب المسلمين الذين بقيوا في المناطق التي خضعت للسيطرة الصليبية، والتعريف ببعض المناصب الإدارية التي بقيت بيد السكان العرب وبخاصة المسيحيين منهم، ومن تلك المناصب منصب الريس الذي عد أحد الأتباع للأسياد الإقطاعيين، وكان يمثل صلة الوصل بين السكان العرب وأولئك السادة، كذلك تحدث عن اعتماد الصليبيين على السكان العرب المسيحيين لاستلام مراكز فرض الضرائب (الأمور الجمركية المتعلقة بإخوانهم التجار العرب المسلمين القادمين من المدن الداخلية لبلاد الشام.

كما قدم العديد من المعلومات عن التوزع الجغرافي في داخل الكيانات الصليبية، إذ أشار إلى أن العرب المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان العديد من المناطق الخاضعة للصليبيين، مثل منطقة تبنين، والمنطقة الممتدة بين بحيرة طبرية ومدينة عكا. وتمتاز المعلومات الواردة في كتابه بأهمية كبيرة، نظراً لكونه شاهد عيان عليها.

- معجم البلدان، لياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):

يعد معجم البلدان من أهم المصادر العربية الإسلامية في مجال الجغرافية، إذ قدم الكثير من المعلومات عن مدن بلاد الشام الخاضعة للصليبيين. من حيث كثافة السكان فيها.فضلاً عن تحديد الموقع الجغرافي للعديد من المدن والقرى.

٣- كتب التراجم:

وهي تتناول سير الأمراء والعلماء، و الفقهاء، والمحدثين، فضلاً عن الشخصيات التي مارست دوراً مهماً؛ ويمكن أن يطلق على هذه الكتب اسم (المعجم)، ويتم الحديث فيها عن الشخصيات حسب الترتيب الأبجدي، أو المعجمي[1]، ومن أهم كتب التراجم التي اعتمد عليها في هذه الدراسة:

[1]- الصباغ (ليلى): دراسة في منهجية البحث التاريخي، جامعة دمشق، ١٩٩٩م، ص٥١.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):

يعد هذا الكتاب من كتب التراجم الهامة؛ تكمن أهميته في اعتماد مؤلفه على العديد من المصادر لاستقصاء المعلومات التي أوردها فيه، وقد ترجم ابن خلكان للعديد من الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً، في مختلف نواحي الحياة السياسية والعسكرية والفكرية و الدينية، وقد أفادت الدراسة كثيراً من تلك التراجم.

- كتابا سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي(ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

يعد كتاب سير أعلام النبلاء من أكبر الموسوعات التاريخية التي تبحث في التراجم والطبقات، ومن خصائص هذا الكتاب أنه غطى ما يزيد عن سبع قرون من تاريخ أعلام العرب المسلمين، منذ بداية الدعوة الإسلامية ولغاية سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، وتتمثل أهمية هذا الكتاب باحتوائه على تراجم لمختلف طبقات العلماء والمشهورين في التاريخ العربي الإسلامي.

أما كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، يعد من كتب التراجم الهامة، وقد قسم الذهبي الأعلام الواردة في هذا الكتاب إلى عدة طبقات(٧٠طبقة)، إذ ترجم لرجال التاريخ الإسلامي منذ السنة الأولى للهجرة / ٦٢٢م ولغاية سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م.

- الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م):

يعد هذا الكتاب دائرة معارف تاريخية، إذ احتوى على عدد ضخم من التراجم، وجمع فيه تراجم الأعلام من كل صنف دون تفريق بينهم في العصور والأمصار، فضلاً عن ذلك فقد احتوى الكتاب أسماء كتب ومؤلفات العديد من الشخصيات، وأخبارهم الأدبية والتاريخية والسياسية والدينية، وبالرغم من أن صلاح الدين عاش في حقبة لاحقة للحقبة التي تتحدث عنها هذه الدراسة، إلا أن كتابه ضم العديد من التراجم لشخصيات عاشت خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

ومن المصادر العربية الإسلامية الأخرى التي تميزت بالأهمية، كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، وتم الإستفادة في هذه الدراسة من المعلومات التي تحدث فيها أسامة بن منقذ عن العلاقات السياسية ما بين حكام دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية من جهة، والعلاقات بين نور الدين محمود وعدد من الوزراء الفاطميين من أجل توحيد الجهود لقتال الصليبيين.

ثانياً- المصادر الاجنبية:

١- المصادر التاريخية:

- يوميات صاحب أعمال الفرنجة، لمؤلف مجهول (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي):

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها الأستاذ الدكتور سهيل زكارمن خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، يعد مؤلف هذا الكتاب أحد مرافقي بوهيموند الاول، وقد اهتم بتدوين أخباره، ثم رافق الحملة الصليبية خلال زحفها صوب بيت المقدس.

أرخ هذا الشخص المجهول للحملة الصليبية الأولى منذ مسيرها من أوربا ولغاية موقعة عسقلان بين الصليبيين والقوات الفاطمية سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، وقد روى أخباره بكل بساطة ودونما تصنع، كما احتوى كتابه العديد من المعلومات الهامة عن سير الحملة في بلاد الشام والمجازر التي ارتكبها الصليبيون عند استيلائهم على عدد من المدن، مثل أنطاكية ومعرة النعمان و بيت المقدس. وعلى الرغم من أهمية المعلومات الواردة في هذا الكتاب، إلا أن مؤلفه صبغ العديد من المعلومات بالصبغة الدينية لدرجة المبالغة.

- تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس، لريمون دي جيل(القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي):

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب الي قام بها الأستاذ الدكتور سهيل زكار من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، يعد ريمون دي جيل أحد أفراد الحملة الصليبية الذين انطلقوا من مناطق فرنسا، ورافق الكونت ريموند" كونت تولوز"، وبدء ريمون دي جيل في تدوين هذا الكتاب بالتعاون مع فارس يدعى بونز بالازون أحد فرسان الكونت ريموند، لكنه لقي حتفه بالقرب من طرابلس، لذلك تابع ريمون تدوين هذا الكتاب بمفرده.

لم يمتلك ريمون ثقافة عالية، اشتهر بكونه رجل دين متعصب، ساهم في الترويج لقصة الحربة المقدسة أثناء تعرض مدينة أنطاكية للحصار من قبل القوات العربية الإسلامية – بقيادة الأتابك كربوغا حاكم الموصل- التي جاءت لتحريرها عقب استيلاء الصليبيين عليها. تضمن كتاب تاريخ الفرنجة الكثير من المعلومات عن علاقات الصليبيين مع السكان العرب المسيحيين، كما أن ريمون انطلاقاً من تعصبه الديني، برر الأعمال القمعية التي ارتكبها الصليبيون بحق سكان بلاد الشام وخاصة العرب المسلمين، من طهي جثث العرب المسلمين، والتنكيل بهم مثل شق البطون بحثاً عن الذهب و الأموال، بأن الإرادة الإلهية رغبت بذلك.

- تاريخ الحملة إلى القدس، لفولتشر أوف تشارترز (ت حوالي٥٢١هـ/١١٢٧م)

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها الأستاذ الدكتور سهيل زكار من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، شارك فولتشر في الحملة الصليبية الأولى وكان شاهداً على الكثير من أحداثها،فضلاً عن استقائه الكثير من المعلومات من الأشخاص الذين اشتركوا في تلك الحملة، ويعد من مرافقي الأمير بلدوين الأول(ت ٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م)- والذي

أصبح فيما بعد ثاني الملوك الصليبيين لبيت المقدس- ، إذ ذهب معه إلى الرها وأقام فيها مدة عامين، ثم ارتحل مع بلدوين الأول إلى بيت المقدس، لذا اهتم بتدوين أعمال الملك بلدوين الأول.

وتعد المادة التاريخية التي قدمها فولتشر هامة، إذ غطت جوانب كثيرة من تاريخ الكيانات الصليبية، وبخاصة مملكة بيت المقدس خلال العقود الثلاثة الأولى للاستقرار الصليبي في بلاد الشام، وتم الاستفادة من هذا الكتاب من خلال المعلومات التي احتواها عن استيلاء الصليبيين على مدن الساحل الشامي، والأعمال الوحشية التي ارتكبوها بحق سكانها، كما تحدث في كثير من الأحيان عن الاتفاقية التي عقدت بين الصليبيين وحكام الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

كما قدم فولتشر معلومات عن الدور العسكري الذي لعبته حامية مدينة عسقلان في مهاجمة المناطق الجنوبية من مملكة بيت المقدس، مما دفع ملوك بيت المقدس لتشييد العديد من القلاع والحصون بالقرب من عسقلان؛ بغية تضييق الخناق عليها ومنع حاميتها من شن الغارات على المملكة.

كما قدم فولتشر عدة إشارات تدل على تأثر الصليبيين بنمط الحياة السائدة لدى سكان بلاد الشام، واختلاطهم بالسكان العرب والأرمن، وزواجهم بالعديد من المسيحيات الشرقيات.

- كتاب تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار أو الحروب الصليبية ، لوليم الصوري(ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م):

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب، التي قام بها كلُ من الأستاذ الدكتور سهيل زكار من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، والأستاذ الدكتور حسن حبشي التي ترجمه تحت عنوان الحروب الصليبية، يعد هذا الكتاب من أهم مصادر الحروب الصليبية، وهو يعالج الحقبة الممتدة ما بين ٤٨٧- ٥٨٠هـ /١٠٩٤- ١١٨٤م. ويعد وليم الصوري من مؤسسي علم التاريخ لدى الصليبيين.

واعتمد وليم في تأليف هذا الكتاب على استقاء المعلومات المتعلقة بالحملة الصليبية الأولى، وما تلاها من أعمال قتالية على المصادر الصليبية التي دونت من قبل المؤرخين الصليبيين الذين سبقوه، إضافة للعديد من المصادر العربية الإسلامية التي امتلكها أو اطلع عليها، وعمل على احتوائها، أما القسم الثاني من المعلومات التي أوردها فقد عاصر معظم أحداثها.

وقد قدم وليم الصوري العديد من المعلومات الهامة، التي تم الاستفادة منها في هذه الدراسة، وبخاصة فيما يتعلق بصراع الصليبيين مع حامية عسقلان، كما تعد روايته عن الاستيلاء عليها، رواية شاهد عيان لتلك الأحداث، كما قام بتدوين أخبار الملك عموري الأول الذي تولى حكم مملكة بيت المقدس ما بين (٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م)، وأرخ لحملاته العسكرية سواء في بلاد الشام، أو مصر. كما ورد العديد من المعلومات عن أوضاع السكان العرب، والانتفاضات التي قاموا بها ضد الصليبيين، كما قدم بعض المعلومات عن العلاقات السياسية الودية ما بين دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية.

٢- كتب الرحالة الأجانب:

وإلى جانب المصادر التاريخية الصليبية، تم الاعتماد على كتب الرحلات التي قام بها العديد من الشخصيات من مختلف الأصول الأوربية أو البيزنطية، وتتمثل أهمية هذه الرحلات باحتوائها على العديد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية، والمقاومة الشعبية التي أبداها السكان العرب ضد الصليبيين، ومن أهم هذه الرحلات:

- رحلة حج سيولف الإنكلو سكسوني:

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها الأستاذ الدكتور سهيل زكارمن خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، وقد قام سيولف برحلة إلى المناطق الخاضعة للصليبيين بين سنتي ٤٩٦-٤٩٧هـ/ ١١٠٢-١١٠٣م، وتتمتع هذه الرحلة بأهمية خاصة بين جميع كتب الرحالة الأجانب إلى بلاد الشام خلال الحروب الصليبية؛ نظراً لأنها تمت خلال السنوات الأولى للاستقرار الصليبي، كما احتوت على العديد من المعلومات عن المقاومة الشعبية التي أبداها السكان العرب، ونصبهم الكمائن للصليبيين على طول الطرق التي تصل يافا وبيت المقدس والمناطق المحيطة بمدينة الرملة، وقد وصف تلك المقاومة بوصف اللصوصية، وفي هذا الأمر اجحاف كبير بتلك المقاومة.

- وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، للراهب دانيال الروسي:

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، قام الراهب الروسي دانيال برحلته هذه بين سنتي ٥٠٠-٥٠١هـ/ ١١٠٦-١١٠٧م، وتتجلى أهمية هذه الرحلة بحديث دانيال عن المقاومة الشعبية للوجود الصليبي في فلسطين، إضافة لتقديمه للعديد من المعلومات عن المواقع الجغرافية.

- وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، لثيودريش "ثيودريك":

اُعتمد على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها كلُ من الأستاذ الدكتور سهيل زكار من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، وسعيد البيشاوي ورياض شاهين، وتم الاستفادة من هذا الكتاب من خلال المعلومات التي قدمها عن المواقع الجغرافية، بالإضافة لبعض الإشارات عن الأوضاع الاجتماعية والعسكرية السائدة، وبعض المعلومات عن القلاع التي كانت موجودة خلال رحلته.

وبالإضافة لهذه الرحلات، تم الاعتماد في هذه الدراسة على عدد أخر من الرحلات التي لاتقل أهمية عن سابقاتها التي تم الحديث عنها، وهي:

- رحلة يوانس فوقاس البيزنطي، الذي قام بزيارة الساحل الشامي وفلسطين في سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م.

- رحلة بنيامين التطيلي، الذي زار بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

ثالثاً - المراجع الحديثة:

كما تم الاعتماد في هذة الدراسة على عدد من المراجع الحديثة ، منها ما هو باللغة العربية، أو معرب ، وبعضها باللغة الإنكليزية، ولاتقل المعلومات الواردة فيها من ناحية الأهمية عن تلك التي تحتويها المصادر، ومن أهم تلك المراجع:

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية(المشرق)" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية "، للأستاذ الدكتور سهيل زكار، والذي تحدث في هذا الكتاب عن أوضاع بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية، وما كانت تعانيه من التمزق السياسي و الديني.

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية الحركات الدينية في أوربا الوسيطة" في الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، للأستاذ الدكتور سهيل زكار، الذي تحدث فيه عن تطور الحركات الدينية في أوربا ، ودورها في الدعوة للحروب الصليبية.

- الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، للمؤلف سعيد البيشاوي، الذي يعد من أهم المراجع التي تتحدث عن النظام الإقطاعي الصليبي وتطوره في مملكة بيت المقدس، كما أفادت الدراسة من هذا الكتاب فيما يتعلق بتطور الإقطاع الكنسي، وأنواع المنح والهبات التي حصلت عليها الكنائس اللاتينية

- أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية١٠٩٩/١١٨٧م، للمؤلف محمد فتحي الشاعر، الذي تحدث عن الأوضاع الاجتماعية للسكان العرب المسلمين في مملكة بيت المقدس، والاضطهاد الديني التي تعرضوا له.

- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، للمؤلف عمر كمال توفيق، الذي قدم معلومات عن العلاقات السياسية الودية التي نشأت بين الحكام العرب المسلمين و الصليبيين.

- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، للمؤلف السيد عبد العزيز سالم، وتم الإستفادة من المعلومات الواردة فيه، والتي تحدثت عن توسع كونتية طرابلس الصليبية، والتعرف على حدودها، وأعمال حكامها.

- منتخبات التواريخ والآثار حول عكار والجوار، للمؤلف جوزف عبد الله، الذي قام بجمع عدد من النصوص باللغات الأجنبية، وقام بترجمتها إلى العربية، وتظهر أهمية المعلومات الواردة فيها من خلال حديثها عن الممتلكات التي منحت للمنظمات الدينية (الإسبتارية- الداوية)، التي قلما تحدثت عنها المراجع العربية.

ومن أهم المراجع الأجنبية المعربة التي اعتمد عليها:

- تاريخ الحملات الصليبية، للمؤلف ستيفن رانسيمان، تم الإستفادة من الجزء الثاني، الذي تحدث فيه ستيفن عن الحملة الصليبية ونشأت الكيانات الصليبية، وأعمالها التوسعية.

- الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، للمؤلف يوشع براور، ويعد كتابه ذا أهمية كبيرة لاحتوائه الكثير من المعلومات عن الاجراءات التي اتخذها الصليبيون لاستيطان الأراضي العربية، وتهجير السكان الأصليين عنها.

كما تم الاعتماد على عدد من المراجع المدونة باللغة الإنكليزية، التي أثرت هذه الدراسة بالكثير من المعلومات، كما قامت بسد النقص الوارد في المراجع العربية عن التقسيمات الإدارية للكيانات الصليبية، أو الحديث عن ممتلكات الكنيسة والمنظمات الدينية، ومن الأمثلة على ذلك:

- Adrian J .Boas, Archaeology of the Military Orders.

وقد احتوى هذا الكتاب على معلومات قيمة عن الإقطاعيات والممتلكات الممنوحة للمنظمات الدينية الصليبية.

- Jonathan Riley Smith, The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem 1174-1277

ضم هذا الكتاب معلومات عن الأسر الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، وتطورها تبعاً للأحداث التاريخية.

-Thomas Asbridge , The Creation of The Principality of Antioch 1098-1130**.**

ضم هذا الكتاب معلومات قيمة عن تطور واتساع إمارة انطاكية، والحديث عن عدد من الوظائف الإدارية التي استمر الموظفون العرب بإدارتها.

مدخل - أوضاع بلاد الشام وأوربا خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي:

لابد قبل الحديث عن الحملة الصليبية الأولى ،من التعرف على الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في كل من بلاد الشام وغرب أوربا، وأثرها على نشوء الحروب الصليبية:

أوّلاً – أوضاع بلاد الشام :

عانت بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من عدة اضطرابات في شتى مناحـــي الحياة وخاصة السياسية والدينية والاجتماعية منها، فمع بداية هذا القرن شهدتْ تحالفاً قبليًّاً بزعامة كلٍّ من صالح بن مرداس، وسنان بن عليان، وحسَّان بن مفرج الطائي[١]؛ كان هدفه إزالة السيطرة الفاطميّة. فتمكّن صالح بن مرداس من السيطرة على حلب سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م، ثم مدّ نفوذه على أجزاء من الساحل الشامي وحماة، بينما تمكّن حسّان بن مفرج من السيطرة على فلسطين، كما قام سنان بن عليان بمحاصرة دمشق ونهب ضواحيها.

ولكن هذا التحالف لم يدمْ طويلاً فقد تمّ القضاء عليه في معركة الأقحوانة[٢] سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٩ م حيث سقط صالح بن مرداس قتيلَ أحلامِهِ، وعلى إثر ذلك شهد شمالُ بلاد الشام صراعاً داخليّاً بين أمراء العائلة المرداسية - التي استمر حكمها ما بين ٤١٤-٤٧٢هـ/ ١٠٢٣-١٠٧٩م- [٣]. ونتيجة لهذا الصراع قُسِّمت بلاد الشام إلى منطقتين: أولهما – المنطقة الشمالية : وقد حُكمت من قِبل آل مرداس بشكلٍ مستقل في الفترة الواقعة بين ٤١٤- ٤٤٩هـ/ ١٠٢٤-١٠٥٧م ومابين ٤٥٢-٤٦٩هـ/١٠٦٠-١٠٧٩م، كما أنهم حكموها تحت السيطرة الاسميَّة للخلافة الفاطمية ما بين ٤٤٩-٤٥٢هـ/١٠٥٧-١٠٦٠م .

---

[١]- صالح بن مرداس: هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حميد بن مدرك بن شداد بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب ابن ربيعة الكلابي، استغل اضطراب أوضاع الدولة الفاطمية في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عش الميلادي فاستولى على مدن الرحبة وحلب وبعلبك والعديد من مناطق شمال بلاد الشام، وبقي متغلباً عليها إلى أن أرسلت الدولة الفاطمية حملة عسكرية بقيادة أمير الجيوش أنوشتكين الدِّزبِري، الذي تمكن من القضاء على تمرد صالح وقتله في معركة الأقحوانة ٤١٩هـ/ ١٠٢٩م.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، مج٢، ص ٤٨٧.
- الذهبي (محمد بن أحمد)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، مج ١٧، ص ٣٧٥.
- سنان بن عليان أمير الكلبيين، سيطر على دمشق والأعمال التابعة لها، توفي سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٩م.
- الأنطاكي (يحيى بن سعيد)، تاريخ الأنطاكي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٠م، ص ٤١٠.
- حسان بن مفرج: هو حسان بن مفرج بن دعفل من بني طيء، استغل اضطراب أحوال الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فسيطرعلى بلاد فلسطين، توفي حوالي سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٣٠م.
- الصفدي (خليل بن أيبك)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، مج ٢٢، ص ١٤٩.
- الزركلي (خير الدين بن محمود)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ط١٥، مج٢، ص ١٧٧.
[٢]- الأقحوانة: هي **" موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية"**. - ياقوت الحموي (أبي عبد الله)، معجم البلدان، دار صادر، د.ت، مج١، ص٢٣٤.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص١١٩.
- العظيمي (محمد بن علي)، تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور، د.ن، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩.

وثانيهما – المنطقة الجنوبية : التي صارت تحت الحكم المباشر للخلافة الفاطمية، ومن أهم مدنها دمشق .

وبقيت أوضاع بلاد الشام على هذه الحال حتى قيام حركة البساسيري[١] في العراق الذي تمكن من السيطرة على مدينة بغداد، إلا أنّه اضطرَّ في سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥ م من التوجُّه نحو بلاد الشام بعد هزيمته أمام السلطان السلجوقي طغرلبك، وتقدّم إلى بالس[٢]، فاجتمعت إليه العرب والأتراك؛ مما أفزع حاكم حلب معزّ الدولة ثمال المرداسي الذي اضطرَّ أن يعرض مدينة الرحبة[٣] كمستقرٍّ للبساسيري[٤]، وكان لحركة هذا الأخير أثرٌ كبيرٌ على الحياة السياسية في بلاد الشام حيث اضطرَّ ثمال المرداسي أن يراسل الخلافة الفاطميَّة كي يسلِّمها مدينة حلب. وبالفعل دخل الجيش الفاطمي المدينة في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م [٥].

وإضافة إلى ذلك: شهدت هذه المرحلة علاقاتٍ سيئةً بين الخلافة الفاطميَّة والإمبراطورية البيزنطية بسبب الصراع على المناطق الشمالية للساحل الشامي، فقد شنّ الفاطميون حملاتٍ عسكرية بدءً من عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م تمكنوا عبرها من السيطرة على اللاذقيَّة، والإغارة على أعمال أنطاكية، فردّ الأسطول البيزنطي بالهجوم على مدينة طرابلس سنة ٤٤٧هـ/١٠٦٥م إلا أنه فشل في السيطرة عليها، فاتّجه شمالاً ، وأعاد السيطرة على اللاذقيّة ، كما هاجم طرطوس وحِصن الخوابي [٦].

وما لبثت بلاد الشام أن عانت من تغلغل العنصر الغزي التركي، فقد ذكر العظيمي أنّ بداية تسرّبهم يعود إلى عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م عندما طلب الأمير محمود المرداسي[٧] مساعدة مجموعة

---

[١]- البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري نسبة لبلدة في فارس تدعى بسا، كان مقدم الأتراك ببغداد خلال حكم الدولة البويهية، استولى على حكم مدينة بغداد، وطرد منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، واستمر في حكم بغداد لمدة سنة كاملة إلى أن قتل على يد عسكر السلطان السلجوقي طغرلبك.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج١، ص١٩٢.

[٢]- بالس: بلدة تقع في بلاد الشام بين حلب والرقة، ووصفها الإصطخري بقوله:" **فهي مدينة على شط الفرات صغيرة، وهى أول مدن الشام من العراق، والطريق إليها عامر، وهى فرضة الفرات لأهل الشام".**
- الإصطخري (إبراهيم بن محمد)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ت، ص ٤٦.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج١، ص ٣٢٨.

[٣]-تقع على نهر الفرات إلى الجنوب من مدينة قرقيسيا، وكانت تعرف قديماً باسم رحبة مالك بن طوق نسبة لأحد الأشخاص المقربين من الخليفة هارون الرشيد، أما حالياً تسمى الميادين.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص ٣٤.

[٤]- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٤٢. - ابن العديم (عمر بن أحمد)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٧م، ج١، ص ٢٢٩.

[٥]- المؤيد في الدين الفاطمي، سيرة المؤيد في الدين، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ١٧١. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٢٤.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٢٣٢.

[٦]- تدمري (عمر عبد السلام)، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، دار الإيمان، طرابلس لبنان،١٩٩٤ م، ص٩٤-٩٥.
حصن الخوابي: يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة طرطوس، وهو حصن منيع .
- الإدريسي (محمد بن محمد)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، مج١، ص٣٧٥.

[٧]- هو عز الدولة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي ولي حلب سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م، لكنه اضطر للتنازل عنها لعمه ثمال بن صالح بمساعدة القوات الفاطمية، إلا أن ثمال توفي بعد سنة، فولي حلب عطية بن صالح إلى أن استولى عليها محمود بن نصر سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، وانتهج سياسة تقوم على التوازن في علاقاته ما بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية؛ لتوسط بلاده بينهما، توفي سنة ٤٦٧هـ /١٠٧٤م.

غزيّة يقودها ابن خان في حصاره لعمّهِ عطيّة حاكم حلب[١]، وتعد معرّة النعمان من أوائل المناطق التي أُقطعت للغز في بلاد الشام ويعود ذلك إلى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٥م، ثمّ توالى توافد مجموعات الغز سنة ٤٦٠ هـ/١٠٧٦م بقيادة أفشين بن بكجي، وفي سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩م بقيادة صندوق التركي، وقد تميّزت بأعمال النهب[٢]، كما شَهدتْ هذه السنة محاولة الوزير الفاطمي بدر الجمالي القضاء على استقلال بني أبي عقيل في صوْر[٣]، فاستنجد صاحبها بقرلو مقدم الأتراك المقيمين في بلاد الشام فاتجه قرلو بصحبة ستة آلاف مقاتل لمحاصرة صيدا التابعة لبدر الجمالي للضغط عليه في رفع الحصار عن صور [٤]، وفي السنة نفسها قام الأمير محمود المرداسي حاكم حلب بإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله[٥]، وقد أُتخذ هذا الإجراء على ما يبدو للتخفيف من هجمات المجموعات الغزية التي سعت للنهب.

وهكذا يمكن اعتبار سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م بداية تقهقر نفوذ الخلافة الفاطمية في بلاد الشام، فقد قاد السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م) حملة لحصار حلب، وعمل على التضييق عليها. وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٦٣ هـ/ شهر أذار ١٠٧٠ م إلى أن امتلكها من الأمير محمود بن نصر بن صالح دونما قتال بالأمان، إلاّ أنّ السلطان ألب أرسلان اضطرّ لمغادرة شمال بلاد الشام نتيجة لتحركات الجيش البيزنطي في آسيا الصغرى[٦] تاركاً في حلب قوّة كلّفها بمهاجمة أملاك الخلافة الفاطمية في بلاد الشام [٧].

- الذهبي (محمد بن أحمد)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م، ج١٠، ص ٢٥٥.
- بامخرمة (الطيب بن عبد الله)، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري، خالد زواري، دار المنهاج، جدة، ٢٠٠٨م، ج٣، ص ٤٥٥. - الزركلي، الأعلام، مج٧، ص ١٨٩.

[١]- العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٤٥.

[٢]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩.

[٣]- يعود نفوذ هذه الأسرة في مدينة صور إلى عهد القاضي عبد الله بن بشر بن علي بن عياض بن أحمد بن أبي عقيل الذي توفي سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، فخلفه ابنه محمد الذي استبد بأمور المدينة وخلع طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، وتمكن من بسط سيطرته على مدينة صيدا إلى أن استعادتها الدولة الفاطمية سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م، وحاول الوزير الفاطمي بدر الجمالي استعادة مدينة صور سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ولكن دون جدوى، وفي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م توفي محمد بن أبي عقيل فخلفه ابنه الملقب بالنفيس، واستمرت عائلة أبي عقيل في حكم مدينة صور لغاية سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م، إذ تمكنت الدولة الفاطمية استعادة السيطرة على المدينة.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ١٦٥، ١٩٧.
- المقريزي (أحمد بن علي)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م، ج٣، ص٣٠٣، ٣٢٥.
- تدمري، لبنان، ص١١٩-١٢٩

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص١٦٥. - ابن الأثير(علي بن أبي الكرم)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ج٨، ص ١٢٧.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص١٦٥-١٦٦.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٢٧.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٢٥٩، ٢٦٠.
- أما ابن الأثير فيذكر بان إقامة الخطبة للخليفة العباسي كانت في سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢١.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص١٦٧. - العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٤٧.
- البنداري(الفتح بن علي)، تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،١٩٨٠م، ص ٣٩.

[٧]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٩.

وفي السنة ذاتها تمكن أحد المغامرين الغز؛ ويدعى أتسز بن أوق الخوارزمي - وقد وصفه ابن الأثير: بأنّه أحد أمراء السلطان ملكشاه[1]- من الاستيلاء على الرملة، وبيت المقدس وعكا سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤م ، وفي السنة التالية (٤٦٨هـ /١٠٧٥م) أغار على المناطق الجنوبية لإمارة حلب، كما استطاع في السنة نفسها السيطرة على مدينة دمشق بعد محاصرتها، والتضييق عليها لمدّة ثلاث سنوات، وأقام فيها الخطبة للخليفة العباسي المقتدي بالله، وبذلك تغلّب على معظم بلاد الشام، وأساء معاملة سكانها [2].

وفي سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م زحف أتسز بقواته نحو مصر بهدف السيطرة عليها، والقضاء على الخلافة الفاطمية فيها؛ إلاّ أنّ الجيش الفاطمي بقيادة الوزير بدر الجمالي[3] تمكن من إلحاق الهزيمة بقوات أتسز؛ الذي انسحب إلى مدينة الرملة، ثمّ اتجه نحو بيت المقدس، إلا أنّ أهل المدينة تحصّنوا فيها،ورفضوا السماح له بدخولها، فقاتلهم، ودخل المدينة عنوة، وقتل عدداً من أهلها، حتى من التجأ منهم إلى المسجد الأقصى[4].

وما إن انتهى العقد السابع من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حتى صار الغزّ هم السلطة الحاكمة في معظم مناطق بلاد الشام، وقد قام السلطان ملكشاه بإقطاع البلاد لأخيه تتش[5] سنة ٤٧٠ هـ /١٠٧٧م، وأصدر أمره لأمراء الغز المتواجدين في بلاد الشام بطاعته[6].

وقد أثارت هذه الأحداث ردود فعلٍ من قِبل الخلافة الفاطمية التي أرسلت سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م حملة عسكرية بقيادة ناصر الدولة الجيوشي، فقامت بحصار دمشق؛ إلاّ أنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها، فعاودت الكرَّة ثانية سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م فأرسلت حملة تمكنت عبرها من الاستيلاء على أعمال دمشق وفلسطين، مما اضطرَّ أتسز لطلب العون من القائد الجديد القادم إلى الشام " تتش " الذي كان يحاصر مدينة حلب . وبعدما وصلت الأنباء عن قرب قوات تتش سارعت القوات الفاطمية بالرحيل نحو الساحل، فدخل تتش دمشق وقتل أتسز ، ثمَّ استطاع في شهر ربيع الأوّل من السنة ذاتها

[1]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٢٦.
- ولكن الأصح القول: أنه أحد قادة السلطان ألب أرسلان، إذ نشط في بلاد الشام خلال حكم هذا السلطان، وربما كان من مجموعة السرايا التي تركها السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م للاستيلاء على أعمال بلاد الشام.
[2]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص١٦٦. - ابن العديم، زبدة الحلب،ج١، ص٢٨١.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢٦.
- ابن شداد (محمد بن علي)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،/ تاريخ لبنان والأردن ودمشق/، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م، ص ١٨٣. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٤،٣١٥.
[3]- بدر الجمالي: من أصل أرمني، لقب بالجمالي نسبة لجمال الملك ابن عمار حاكم طرابلس، إذ كان أحد مماليكه، ارتقت به الأحوال فتولى حكم دمشق مرتين في عهد الخليفة المستنصربالله، ولكنه اضطر لتركها نتيجة ثورة الجند، ثم تولى حكم عكا، وعلى إثر اضطراب أوضاع الخلافة الفاطمية في مصر استدعاه الخليفة إلى مصر سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م، فقدم إليها وتمكن من ضبط أمورها واستبد بمقاليد الحكم حتى لم يبق للخليفة سوى السلطة الإسمية، كما واجه التمدد السلجوقي في بلاد الشام، واستمر في حكم مصر لمدة ٢١ سنة ، وتوفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.
- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٢٩- ٣٣١.
[4]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص١٧٦-١٨٠. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٦٠. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ، ص ٢٠٠. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٠١٧- ٣١٨.
[5]- هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن السلطان السلجوقي ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق، سيطر على اغلب بلاد الشام، وعلى إثر وفاة أخيه السلطان ملكشاه دخل في صراع مع السلطان الجديد بركياروق - ابن أخيه- وقتل في أثناء ذلك بالقرب من مدينة الري سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٢٩٥.
[6]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٦٨.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٨٨.

من استعادة أعمال فلسطين من الفاطميين، ثمَّ توجّه لحصار، حلب واستولى على الحصون المحيطة بها [١].

كما شهدت سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م خروج أفشين التركي عن طاعة تتش، وارتحاله شمالاً إلى أنطاكية، وقام خلال ذلك بنهب مناطق بعلبك ورفينة[٢]، وجبل السمّاق[٣] وسرمين[٤] ومعرّة النعمان ولم يبق وجود لأيٍّ قرىً مسكونة ما بين معرّة النعمان وحلب؛ إذ شتّتَ أهلها الجوع أو الارتحال إلى بلاد الموصل [٥].

ومالبثت بلاد الشام أن شهدت صراعاً بينَ كلٍّ من مسلم بن قريش العقيلي[٦] الذي استولى على حلب وأعمالها سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م وتتش حاكم دمشق، حيث استمرَّ هذا الصراع إلى سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م.

وفي السنة ذاتها تمكن أحد أفراد أسرة السلاطين السلاجقة سليمان بن قتلمش من الاستيلاء على مدينة أنطاكية من البيزنطيين مما أدى لحدوث خلاف بينه وبين مسلم بن قريش؛ الذي طالبه بالأموال التي كان يدفعها سابقاً حاكم أنطاكية البيزنطي، ولكن سليمان رفض طلبه لأنها كانت عبارة عن جزية وأنف سليمان دفعها لكونه من المسلمين، فقام مسلم بن قريش بنهب أعمال أنطاكية، فرد سليمان بنهب أعمال حلب، ثم ما لبث أن التقى الطرفان في ٢٤ صفر ٤٧٨هـ/شهر حزيران ١٠٨٥ م على نهر عفرين[٧]، فانهزم مسلم بن قريش وقتل. وعلى أثر ذلك زحف سليمان نحو حلب للاستيلاء عليها لكنه لم يبلغ غرضه، فاتجه ليعسكر في منطقة قنسرين، ثم عاود حصار حلب مع بداية سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، ولذلك راسل مقدم الأحداث فيها كلاً من السلطان ملكشاه[٨]، وأخيه تتش حاكم دمشق طلباً للنجدة، وسرعان ما استجاب تتش لذلك بعد أن تخلص من حصار القوات الفاطمية لمدينة دمشق، وما لبث أن اشتبك مع سليمان بن قتلمش في موقعة عين سيلم في ١٨ صفر ٤٧٩هـ/ شهر حزيران ١٠٨٦م فقتل سليمان وتابع تتش زحفه نحو حلب فرفض أحداثها تسليمها، ولكنه تمكن من السيطرة

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص١٨١-١٨٣.- العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٥٠.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٦٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا،ج٢، ص٣١٩- ٣٢٠.

[٢]- رفينة:هي بلدة تقع بالقرب من مدينة طرابلس. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص ٥٥.

[٣]- جبل السماق: هو **" جبل عظيم من أعمال حلب الغربية، يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع ... وقيل: إنه سمي بذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق".** - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ١٠٢.

[٤]- سرمين: تعد من أعمال حلب الجنوبية. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص ٢١٥.

[٥]- ابن العديم، زبدة الحلب،ج١، ص٢٩٧- ٢٩٨.

[٦]- هو شرف الدولة أبو المكارم، مسلم بن قريش بن بدران بن مقلد بن المسيب بن رافع العقيلي، تولى ديار ربيعة ومضر على إثر وفاة والده سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، وتمكن من الاستيلاء على حلب والقضاء على الدولة المرداسية، ودخل في صراع مع تتش للسيطرة على جنوب بلاد الشام، كما دخل في صراع مع سليمان بن قتلميش السلجوقي ، الذي تمكن من الاستيلاء على مدينة أنطاكية، وانتهى هذا الصراع بمقتل مسلم سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.
- الذهبي، سير أعلام ، ج ١٨، ص ٤٨٢، ٤٨٣.

[٧]- نهر عفرين: ينبع من شرقي جبال اللكام في شمال بلاد الشام ويمر بالراوندن، فيصب في بحيرة العمق حيث يختلط بمياه النهر الأسود.
- الغزي (كامل بن حسين)، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ١٩٩٨م، ط٢، ج١، ص ٣٨، ٣٨١.

[٨]- هو أبو الفتح جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق تولى منصب السلطنة على إثر وفاة والده سنة٤٦٤هـ/١٠٧١م، وبلغت الدولة السلجوقية أقصى توسعها في عهده، **" فكان في مملكته جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والشام وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب..."**، توفي في بغداد سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ثم نقل جثمانه إلى مدينة أصبهان.- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٥، ص٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٨.

على المدينة باستثناء القلعة، التي بقي فيها سالم بن مالك العقيلي إلى أواخر شهر ربيع الآخر/ شهر آب لحظة وصول طلائع جيش السلطان ملكشاه، مما اضطر تتش للانسحاب[١].

وأدى قدوم السلطان ملكشاه إلى ترسيخ طابع الحكم الغزي السلجوقي لبلاد الشام حيث منح ولاية حلب، وأعمالها لقسيم الدولة آق سنقر، وأنطاكية ليغي سيان، والرها لبوزان، في حين بقيت دمشق وأعمالها بيد تتش . أما مدن الساحل، فبقي أكثرها بيد بني عمار وبني أبي عقيل إضافة إلى بعض الممتلكات الفاطمية[٢].

وفي سبيل القضاء على النفوذ الفاطمي، سعى السلاجقة للاستيلاء على ما تبقى من مناطق تابعة للخلافة الفاطمية، ولذلك زحف تتش بقواته تجاه الساحل الشامي سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م فاستولى على مدن بيروت وصيدا وعكا.وردًّا على ذلك أرسلت الخلافة الفاطمية في السنة ذاتها حملة تمكنت من استعادة تلك المدن، والقضاء على إمارة بني أبي عقيل في صور، كما قام السلاجقة بمحاربة صاحب حمص الموالي للفاطميين خلف بن ملاعب الذي شكل بغاراته خطراً على المناطق المجاورة لحمص، فاستولى تتش على حمص سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م في حين استولى قسيم الدولة آق سنقر على أفاميا سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٣]، كما قام الأمراء السلاجقة بقيادة تتش بمهاجمة وحصار طرابلس سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م إلا أن حاكمها جلال الملك ابن عمار[٤] قام باستغلال الخلاف بين الأمراء السلاجقة عن طريق شراء وزير قسيم الدولة آق سنقر، كما أنَّ جلال الملك أظهر مناشير صادرة عن السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس مما أدى لفك الحصار[٥].

وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م تحوّلت بلاد الشام إلى مسرح للصراع بين أتباع السلطان بركياروق بن ملكشاه وعمه تتش الذي سعى للاستيلاء على السلطنة، ففي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م زحف تتش شطرَ حلب، والتقى مع قسيم الدولة آق سنقر على نهر السبعين بالقرب من تل السلطان[٦]، مما أدى لهزيمة قوات قسيم الدولة، ومقتله ثمّ استولى تتش على حلب، وتابع زحفه حتى وصل إلى مدينة الري حيث هزم وقُتل من قبل السلطان بركياروق[٧] في ١٧ صفر ٤٨٨هـ/نيسان ١٠٩٥ م [٨].

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ١٩٠- ١٩٦.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٥٢، ٣٥٣. - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٢٩٤- ٢٩٦ ،٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣١٣، ٣١٦- ٣١٨، ٣٢٣.

[٢]- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٥٤. - ابن العديم ، زبدة الحلب، ج١، ص٢٢٣-٢٢٤.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ١٩٧- ١٩٩.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٥٥.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ٣٢٩،٣٣٠، ٣٥٢. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢٦.- تدمري، لبنان من السيادة، ص١٧٣، ١٧٤.

- سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزاوغلي)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"حوادث ٤٨١-٥١٧هـ/١٠٨٨-١١٢٣م" تحقيق: مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٧م، ج١، ص١٢٩، ١٣٠، ١٣٥،١٤٦.

[٤]- تولى جلال الملك ابن عمار حكم طرابلس ما بين ٤٦٤-٤٩٢هـ / ١٠٧١- ١٠٩٨م.

[٥]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٢.- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص١٥٣،١٥٤.- تدمري، لبنان من السيادة، ص١٧٤، ١٧٥.

[٦]- تل السلطان: يقع إلى الجنوب من مدينة حلب على بعد حوالي خمسة فراسخ، ويصفه ياقوت الحموي بقوله:**"موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وفيه خان ومنزل للقوافل، وهو المعروف بالفنيدق"** .

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص ٤٢. - الغزي، نهر الذهب، ج١، ص ٣٦٧.

[٧]- هو أبو المظفر ركن الدين بركياروق ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، تولى منصب السلطنة بعد وفاة أبيه ملكشاه، ودخل في صراع على الحكم مع عمه تتش ومن ثم مع أخيه محمد، توفي بركياروق سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج١، ص ٢٦٨.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٠٣،٢٠٦-٢١٢. - العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٥٧. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦٧،٣٧٠، ٣٧٨،٣٨٠، ٣٩٠. - سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص١٩٩، ٢٠٠.

وفي خضم هذا الصراع تمكنت الخلافة الفاطمية من القضاء على تمرد والي صور منير الدولة الجيوشي في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وقد عانى السكان جرّاء ذلك من جَور العسكر الفاطمي، فالقلانسي يصف تلك المعاناة بقوله:" **فهجم العسكر المصري على البلد ... ونهب وأسر منه الخلق الكثير ... وقطع على أهل البلد ستون ألف دينار أجحفت بأحوالهم**"[١].

وقد أدى مقتل تتش إلى حدوث صراع بين ابنيه رضوان حاكم حلب، ودقاق حاكم دمشق، وسعى كل منهما للاستيلاء على أملاك أخيه، وشارك في هذا الصراع يغي سيان حاكم أنطاكية الذي تميز بتغيير ولائه بين الأخوين، كما سعى رضوان للحصول على دعم الخلافة الفاطمية للسيطرة على دمشق مقابل إقامة الخطبة للخليفة المستعلي إلا أن هذه الخطبة لم تستمر أكثر من أربع جمع وذلك في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م[٢]، وفي السنة ذاتها أعادت الخلافة الفاطمية سيطرتها على مدينة صور، وقد قُتل أثناء السيطرة هذه العديد من السكان هناك[٣].

وإضافة إلى هذا الوضع السياسي الممزق شهدت بلاد الشام تنوعاً دينياً، إذ كان غالبية السكان خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من المسلمين الشيعة معظمهم من أتباع مذهب الإمامية "الاثنا عشرية" ومن أتباع المذهب الإسماعيلي، وقد تمركزوا في شمال بلاد الشام وساحلها[٤]، وما يؤكد ذلك وصف ناصر خسرو (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م) لمدينة طرابلس: "**وكل سكان طرابلس من الشيعة ...**"[٥]، وكذلك وصفه لمدينة صور بقوله:"... **وأغلب أهلها من الشيعة وقاضي المدينة رجل سني ...**"[٦].

كما انتشر أتباع المذهب الإسلامي الشيعي في جبال بهراء[٧]، في حين قطن أتباع المذهب السني في المدن الكبرى، وبخاصة في جنوب الشام، كما أقام أتباع مذهب الموحدين في جبل السماق، وبعض مناطق جنوب الشام، وقد كان للنزاع الديني بين أتباع الطوائف الإسلامية أثره في تعميق التجزئة في بلاد الشام، هذا إضافة إلى تواجد المسيحيين الذين تنوعت مذاهبهم، وقد انتشروا في معظم ريف ومدن الشام الكبرى، كذلك وجدت طائفة من اليهود الذين أقاموا في المدن الكبرى[٨].

أما من الناحية العرقية فقد احتوت بلاد الشام على تمازج عرقي متعدد، ففضلاً عن العنصر العربي المنتشر في كل أنحاء البلاد، وجد سكان من أصول أرمنية سكنت المناطق الشمالية الغربية من بلاد الشام بخاصة في أعمال أنطاكية.

= ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي)، المنتظم في تاريخ الأمم و الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا - مصطفى عبد القادر عطا، مراجعة وصححه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١٧، ص٥.
- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، الروضتين في أخبار الدولتين النّورية والصّلاحيَّة، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ق١، ص ٦٥.

(١)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٠٤- ٢٠٥.

(٢)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٥٩. - ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٤٤. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٢- ٤١٣.

(٣)- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٠٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٢٠.

(٤)- زكار(سهيل)، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية (المشرق)،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية "، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج١، ص٧٥.

(٥)- خسرو (ناصر)، سفرنامه، ترجمة وتقديم: أحمد خالد البدلي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٤٤

(٦)- خسرو، سفرنامه، ص٤٥.

(٧)- جبال بهراء: يقصد بها السلاسل الجبلية التي تقع بمحاذاة الساحل السوري، والمحصورة ما بين وادي نهر العاصي شمالاً، وجبال لبنان جنوباً، سميت بهذه التسمية نسبة لقبيلة بهراء التي أستقرت فيها.

(٨)- زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج١، ص٧٥.

وهكذاكانت بلاد الشام تعيش وضعاً سياسياً مفككاً عشية الحروب الصليبية فقد كان حكم مدنها وأعمالها ينقل من أمير لآخر.كما سعى كل أمير التوسع على حساب من جاوره من الأمراء، فضلاً على أن الصراع المذهبي بين السلاجقة ممثلي المذهب السني من جهة والفاطميين ممثلي المذهب الشيعي قد ترافق مع صراع عسكري أفقد بلاد الشام مقدراتها الاقتصادية والبشرية وهذا يفسر سهولة اجتياح الحملة الصليبية الأولى للعديد من مناطق بلاد الشام.

ثانياً- أوضاع أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى:

سيطر على أوربا عدة عوامل دفعتها نحو الحملة الصليبية، منها النظام الإقطاعي، ورؤى نهاية العالم، ورحلات الحج، والحروب الدينية، وهذه تفاصيل ذلك:

إذ شهدت أوربا خلال القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي ترسخ النظام الإقطاعي بشكل نهائي، وأخذ الاقتصاد العيني في أوربا يتراجع شيئاًفشيئاً وطفقت النقود تقتحم حياة المجتمع الإقطاعي حيث أدخل الإقطاعيون فريضة المدفوعات النقدية عوضاً عن المدفوعات العينية الأمر الذي أرهق الفلاحين[1]، كما كرّس الإقطاع نظام البكورة الذي ينص على حصر إرث الممتلكات بأكبر أبناء السيد المتوفى، أما الأبناء الآخرون فلا يرثون سوى الأموال المنقولة من الخيل والأسلحة، مما أدى إلى ظهور عدد لا يستهان به من الفرسان المحرومين من الأراضي، والذين تحوّل حلمهم إلى إيجاد أية وسيلة تمكنهم من إعالة أنفسهم، ومن اقتناء العقارات.والذين وجدوا أن العنف المسلح هو أسهل وسيلة لإصلاح أمورهم[2]، لذلك أخذوا يشكلون عصابات لنهب القرى وقطع الطرق. وحيث نشبت الحروب باع هؤلاء مجهودهم الحربي[3].

وبذلك شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سلسلة من الحروب الداخلية التي سعى كل أمير إقطاعي خلالها إلى توسيع أملاكه على حساب الأمراء الآخرين، ويصف فولتشر أوف تشارترز ذلك بقوله:**" وأهملوا السلام أيما إهمال، وتنازع أمراء البلاد أحدهم مع الآخر في حروب لم تعرف التوقف"**[4]، وأدى ذلك إلى إلحاق الأذى بالإنتاج الزراعي، كما كان الفلاحون هم الخاسر الأكبر خلال هذا الصراع، وترافق هذا مع اشتداد النير الإقطاعي مما دفعهم في كثير من الأحيان إلى الفرار من قراهم بشكل جماعي[5]، وهذه الأوضاع المضطربة أقلقت الكنيسة البابوية على مصالحها لكونها تمثل قمة الهرم الإقطاعي.

كلّ ذلك دفع الأديرة الكولونية[6]- التي تعد أقوى المؤسسات الكنسية من الناحية الاقتصادية- إلى اتخاذ عدة إجراءات كان الهدف منها توطيد ورفع مكانة الكنيسة، ومن تلك الإجراءات السعي للتقليل من الحروب الإقطاعية سواء لمدة قصيرة من خلال فرض "الهدنة الربانية" أو لفترة طويلة

---

[1] - زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون في الشرق، ترجمة دار التقدم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص١٥.

[2]- سميث (جوناثان)، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩م، ص ٢٤.

[3]- زابوروف، الصليبيون، ص١٨، ٤٥.

[4]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة إلى القدس، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦، ص٣٠٩.

[5]- زابوروف، الصليبيون، ص١٦.

[6]- تأسس دير كلوني سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م على يد دوق أكوتين، ويعد أسقفه أهم وأقوى شخصية دينية في الكنيسة اللاتينية بعد البابا، هدف لعدم ربط الكنيسة بأية التزامات إقطاعية، وسرعان ما انتشرت ظاهرة تأسيس العديد من الأديرة التي تتبنى مبادئ دير كلوني في مختلف أنحاء أوربا، وأدى ذلك إلى حركة إصلاح ديني هدفها إصلاح الكنيسة وتحريرها من سيطرة الحكام العلمانيين ونفوذهم، وكذلك تحررت من سيطرة الاساقفة المحليين، لتصبح هذه الأديرة تحت سيطرة البابا مباشرة، وكان البابا أوربان الثاني قبل تسلم سدة البابوية يعد أحد رجال دير كلوني.

- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، أوربا العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ج٢، ص٣١،٣٢.

- محمد (فتحي عبد العزيز)، محمد سيد (أشرف صالح)، الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية (١٠٩٩-١١٨٧)، دار ناشري، الكويت، ٢٠١٣م، ص ٤٦، ٤٧.

من خلال فرض " السلام الرباني"، كما سعت من وراء ذلك أيضاً إلى الحفاظ على مصالح الفئات العليا للإقطاعيين من غضب الفرسان الذين لا أرض لهم[١].

كما انتشرت في أوربا منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي الأفكار التي تتحدث عن نهاية العالم بعد الألف الأول من معاناة السيد المسيح عليه السلام، إضافة إلى قيام الأوربيين بتفسير بعض الظواهر الطبيعية على أنها من دلائل نهاية العالم، وبدا لأهل ذلك القرن أنّ الخلاص يتجلى في الحج إلى بيت المقدس، ثم ما لبثت هذه الرغبة أن ازدادت خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٢]؛ ومما ساعد على ذلك أيضاً طريق الحج البري الذي غدا آمناً بعد اعتناق ملك المجر للديانة المسيحية، إضافة للانتصارات البيزنطية على البلغار وعلى العرب المسلمين خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي[٣]، كما شهد القرنان الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين - ازدهار تجارة الذخائر المقدسة المتمثلة برفات القديسين وأدواتهم وملابسهم، ونسب المسيحيون الأوربيون لهذه الرفات صفات خارقة مثل الشفاء من الأمراض[٤]، وقامت الكنيسة البابوية والأديرة الكولونية باستغلال ظاهرة الحج إلى بيت المقدس، لإفراغ أوربا من العناصر التي تسبَّبت بإثارة الفتن والإضرار بمصالح الكنيسة، ففرضت على مرتكبي الذنوب الكبرى الحج للتكفير عما ارتكبوه[٥]؛ وبالرغم من أن رحلات الحج تبدو مشروعاً دينياً صرفاً إلا أن دوافع المشتركين فيها تنوعت؛ فأفراد الفئات الدنيا من المجتمع رأت فيها تعبيراً عن أمانيها بالتحرر من سلطة الإقطاعيين، كما أن الأسياد رؤوا فيها فرصة للحصول على سلع الشرق الثري .ورغبة في التخلص من رتابة الحياة القروية، كما أن الحج بالنسبة للفرسان الذين لا أرض لهم عُدَّ فرصة لتحسين أوضاعهم، فضلاً عن ذلك غدث رحلات الحج بمثابة قَسَم إلزاميٍّ لا غنىً عنه لمن يريد أن يخلق لنفسه صفة الزهد والتنسّك[٦].

وأدت رحلات الحج خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين إلى تعرف الأوربيين على الطريق البري المؤدي إلى الشرق، وعلى أوضاع بلاد الشام، وما تعانيه من تمزق سياسي، كما أنها هيجت آمال الإقطاعيين في الحصول على أملاك جديدة في الشرق المليء بالثروات[٧].

كما شهدت أوربا خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر عدة حروبٍ دينيّة أهمها حروب الاستغلاب التي تسمى في التاريخ الأوربي بحروب الاسترداد " Reconquisto" في شبه الجزيرة الإيبرية، والتي هدفت لاستعادة الأراضي التي يسيطر عليها العرب المسلمون. ولقيت هذه الحروب استحساناً، ودعماً من قِبَل الأديرة الكولونية التي شجعت الفرسان الفرنسيين على المشاركة فيها، حيث عدتها وسيلة لتوظيف القدرات القتالية للفرسان الصغار، وإرضاء لغرائزهم اللصوصية، وبالتالي تخليص أوربا من شرورهم، ومُنح المشاركون في هذه الحروب الغفران من الخطايا وأحيط من قُتِلَ منهم بهالة الشهادة، ففي سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م انطلق إلى ماوراء جبال البيرنيه فرسان دوقية اكيتين ودوقية تولوز، وفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م اشترك الفرسان الفرنسيون والألمان في انتزاع مدينة طليطلة من العرب المسلمين، وعلى أثر انتصار المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين في معركة

---

(١)- زابوروف، الصليبيون، ص٢٠.
(٢)- قاسم (عبدو قاسم)، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، ١٩٩٠م، ص ١٣،١٤.
(٣)- سميث، الحملة الصليبية ص٤٥.
(٤)- قاسم، ماهية الحروب، ص١٨.- سميث، الحملة الصليبية، ص٣٠- ٣١.
(٥)- قاسم، ماهية الحروب، ص ١٩.- زابوروف، الصليبيون، ص ٢٤.
(٦)- زابوروف، الصليبيون، ص ٢٢-٢٣.
(٧)- قاسم، ماهية الحروب، ص٢٠.- زابوروف، الصليبيون، ص٢٤.

الزلاقة[١] سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م انطلق فرسان جنوب فرنسا تحت قيادة هوغ دوق بورغونيا وريموند دي سانجيل كونت تولوز؛ لنجدة الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبرية[٢].

ومن الحروب الأخرى التي لقيت مباركة البابوية: استيلاء النورمانديون بقيادة وليم غليوم على انكلترا في سنة٤٥٩هـ/١٠٦٦م، إضافةً إلى دعمها لمشاريع النورماندين في الاستيلاء على جنوب ايطاليا وصقيلية واستخلاصها من أيدي العرب المسلمين والبيزنطيين.

وبذلك ساعدت تلك الحروب على تكريس سلطة الكنيسة البابوية على القوى الإقطاعية في الغرب الأوربي، وغدت هي المركز الوحيد الذي يستطيع أن يوحد قوى الإقطاعية، في وقت كانت فيه سلطة ملوك أوربا تزداد ضَعفاً، ففي سنة٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م عقد البابا غريغورس السابع مجمعاً دينياً في روما أصدر عدة قرارات كانت تهدف لإصلاح أوضاع الكنيسة، ومنها تكريس حق البابا في تعيين وعزل رجال الدين، والملوك والأمراء، وإجبار الملوك على أداء يمين التبعية الإقطاعية للبابا[٣]، وأدت هذه القرارات إلى حدوث صدام ما بين البابا والإمبراطور الألماني هنري الرابع الذي وجد نفسه لا يستطيع أن يعين أي رجل دين في امبراطوريته، فتمسك الإمبراطور بحقه في تعيين رجال الدين - وهو الذي كان والده بالأمس القريب يقوم بتعين البابا نفسه- ، وتطور الأمر إلى الصدام المسلح بين الطرفين إلا أنهما لم يصلا إلى نتيجة حاسمة إلى أن تمكن الإمبراطور هنري الرابع من عزل البابا غريغوريوس السابع في المجمع الديني في بركسن سنة٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م ونصب مكانه كلمنت الثالث، واستمر يقوم بتعيين الباباوات إلى أن مرت جموع الصليبيين بمدينة روما حيث استعاد أوربان الثاني منصب البابوية، وفي خضم هذا الصراع تمكنت عدة مدن في شمال إيطاليا من تحقيق الاستقلال السياسي عن القوى الإقطاعية والكنيسة البابوية معتمدة في ذلك على نشاطها التجاري[٤].

وهكذا شهدت أوربا خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ عدة تطورات ساعدت على التمهيد لفكرة الحروب الصليبية التي أطلقها البابا أوربان الثاني، حيث مهدت حروب شبه الجزيرة الإيبرية الروح التعصبية العدائية ضد العرب المسلمين، كما أن الأوضاع البائسة للفلاحين دفعتهم للبحث عن أفق جديد للتخلص من نير الإقطاع فكانت الحروب الصليبية خيرَ وسيلة لذلك، في حين كانت أطماع وأحقاد الفرسان الصغار تزداد ، كما أنهم شكلوا خطراً على مصالح الكنيسة التي سعت لتنظيم جشعهم، وتوجيهه نحو قتال المسلمين في جنوب وجنوب غربي القارة الأوربية ومن ثَمَّ في الشرق، فضلاً عن المعتقدات الدينية التي انتشرت عن قرب نهاية العالم، وعلى أن الخلاص الوحيد يتمثل بزيارة بيت المقدس . كلُّ ذلك أجج العواطف الدينية لدى الفئات الفقيرة والبسيطة في أوربا.

---

[١]- الزلاقة: تقع في الأندلس بالقرب من مدينة قرطبة. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ١٤٦.
[٢]- زابوروف، الصليبيون، ص٢٤-٢٦.
[٣]- عمران (محمود سعيد)، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ت، ص٢٠١.
- زابوروف، الصليبيون، ص٢٥-٢٦.
[٤]- عمران، معالم تاريخ أوربا، ص٢٠٢،٢٩٠.

ثالثاً- دوافع الحملة الصليبية:

عقد البابا أوربان الثاني مَجْمَعاً دينياً في مدينة كليرمونت في سنة٤٨٩هـ/ شهر تشرين الثاني ١٠٩٥م، وألقى خطاباً أشار فيه إلى المصاعب التي يتعرض لها الحجاج الأوربيون[١]، وإلى ضرورة تقديم العون للإمبراطورية البيزنطية التي خسرت جزءاً كبيراً من أراضيها على يد السلاجقة، وأشار إلى ضرورة تحرير القبر المقدس للسيد المسيح، وأعلن عن قيام الحملة الصليبية. أدى هذا الخطاب إلى إثارة العواطف الدينية للحشود المجتمعة واعداً إياها بالغفران من الخطايا التي اقترفوها[٢]. ويذكر فولتشر أوف تشارترز ذلك بقوله:" **اعلموا بأن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامر، إنّ جميع الذين يذهبون إلى هناك ويفقدون حياتهم في البر أو البحر أثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار سيتم غفران ذنوبهم بالحال...**"[٣]، ولم يكتفِ أوربان الثاني بإثارة العواطف بل أمضى عدة شهور يسافر في أنحاء فرنسا للعمل على إقناع النبلاء المشاركة في الحملة الصليبية،كما أرسل وعاظاً إلى مختلف أنحاء أوربا للتبشير بين عامة الناس من أمثال بطرس الناسك الذي سبق له أن شاهد القبر المقدس خلال حجه إلى بيت المقدس حوالي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[٤].

وتم تحديد موعدٍ لانطلاق الحملة الصليبية في سنة ٤٩٠هـ/ ١٥ أب ١٠٩٦م، إلاأن حشوداً شعبية بدأت بالزحف نحو فلسطين في شهر آذار ١٠٩٦م/٤٩٠هـ دون أن يكون لها قيادة ذاتُ خبرة[٥].

وتعددت دوافع العناصر المشاركة في الحملة الصليبية الأولى، فالفرسان الصغار الذين لا يملكون أيَّ أرضٍ والذين يفكرون ليلاً نهاراً بالقتال لتأمين حياتهم، لم يكن من الممكن أن يرفضوا دعوة البابا للمشاركة في الحملة؛ وخاصة أن هذا الأخير أقام مقارنةً في خطابه بين الفقر والعوز الفعلي لكثير من النبلاء والفرسان من جهة، والرخاء الذي سيتمتعون به عند الاستيلاء على أراضي الشرق[٦].

أما الفلاحون والأقنان، فقد وجدوا في اشتراكهم في الحملة الصليبية طريقة للحصول على حريتهم من نير الإقطاع والتخلص من حياة الفقر والاضطهاد الذي يعانون منه في أوربا، زيادةً على آمالهم بأن يصبحوا من ملاك الأراضي.

---

[١]- قدم العظيمي إشارة لذلك عن حديثه عن أحداث سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م، بقوله:" **ومنع أهل السواحل حجاج الفرنج والروم العبور إلى بيت المقدس، وانتشر الخبر ممن سلم منهم إلى بلادهم بذلك، فتأهبوا للغزاة، واتصلت الأخبار إلى السواحل وبلاد المسلمين كلها**". - العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٥٦.

[٢]- زكار(سهيل)، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية الحركات الدينية في أوربا الوسيطة،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، دمشق، ١٩٩٥م، ج٤، ص ٧٤.- زابوروف، الصليبيون ،ص ٤٣،٤٤.

[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣١٤.

[٤]- زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية " من خلال الموسوعة الشامية، ج٤، ص ٧٥.

- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧م، ج٥١، ص ٩.

[٥]- باركر(أرنست)، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص٣٢. - زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٤، ص٧٦.

[٦]- زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، " من خلال الموسوعة الشامية "،ج ٤، ص٧٤.- زابوروف، الصليبيون، ص٤٤.

بينما كبار النبلاء فقد اصطدموا خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بواقع عدم قدرتهم على توسيع أملاكهم، إذ سرعان ما ترسخت حدود كل إقطاعية، فوجدوا في الحملة الصليبية فرصة لإقامة إمارات جديدة لهم في الشرق[١].

أما الكنيسة البابوية وعلى الرغم من أنها صبغت دعوتها للحملة الصليبية بالصبغة الدينية سعياً لتحرير الأراضي المقدسة، فقد كانت هذه الحملة مشروعاً يهدف إلى القضاء على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية التي انفصلت بشكل نهائي عن الكنيسة البابوية في سنة٤٤٦هـ/١٠٥٤م[٢]، كما سعت إلى حماية ممتلكاتها في القارة الأوربية من تطلعات الفرسان الجشعة المتحرِّقة للنهب والقتل، وذلك بتوجيه هذا النشاط واستغلاله باحتلال الشرق العربي .

وهكذا يمكن القول: إنَّ الحروب الصليبية لم تكن عبارة عن حروب دينية هدفت إلى نصرة مسيحيي الشرق وحماية القبر المقدس لسيد المسيح، بل كانت مشروعاً بدأ منذ عهد البابا غريغوريوس السابع هدف للسيطرة على كنائس الشرق، كما تنوعت أهداف مختلف الفئات الإجتماعية التي اشتركت في الحملة الصليبية الأولى، ما بين السعي للتخلص من العبودية السائدة في غرب أوربا، والرغبة في الحصول على الثراء السريع، وامتلاك الإقطاعيات.

---

[١] - زابوروف، الصليبيون، ص٤٦.

[٢]- زابوروف، الصليبيون، ص ٢٩، ٤٠.

الفصل الأول:

سير الحملة الصليبية في بلاد الشام

أولاً- مسير الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام.

١ - الإستيلاء على أنطاكية.

٢- متابعة الزحف نحو بيت المقدس.

ثانياً- التوسع الصليبي في الساحل الشامي.

١- الاستيلاء على حيفا.

٢- الاستيلاء على أرسوف وقيسارية.

٣- الاستيلاء على طرطوس.

٤- الاستيلاء على عكا.

٥- الاستيلاء على اللاذقية.

٦- الاستيلاء على طرابلس وأعمالها.

٧- الاستيلاء على بيروت.

٨- الاستيلاء على صيدا.

٩- الاستيلاء على صور.

١٠- الصراع بين مدينة عسقلان والصليبيين.

ثالثاً- نشاط القوى البحرية الأوربية ودورها في الحروب الصليبية لغاية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

رابعاً- نشاط الأسطول الفاطمي منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى ولغاية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

أولاً - مسير الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام:

في خضم الظروف القاسية التي تمر بها بلاد الشام ومصر قام البابا أوربان الثاني خلال مؤتمر كليرمونت (الذي عقد في فرنسا) بتحديد يوم ١٥أب ١٠٩٦م/٤٩٠هـ موعداً لانطلاق الحملة الصليبية، وسرعان ما اندفع الراغبون في الاشتراك بالحملة ببيع أملاكهم كما قام الأمراء بتنظيم شؤون إماراتهم لحفظها في أثناء غيابهم عنها، وقبل الموعد المحدد لانطلاق الحملة الرسمية، وفي شهر آذار ١٠٩٦م/٤٩٠هـ انطلقت عدة مجموعات شعبية يقودها عدد من الوعاظ من أمثال بطرس الناسك في حملة عرفت بحملة الفقراء ثم ما لبثت حملة الأمراء أن انطلقت في الموعد المحدد(١)، وتورد آنا كومنين(٢)وصفاً لخروج الصليبيين بالرغم من المبالغة بقولها:" **أنه لأمر رهيب حقاً، فالغرب كله، جميع شعوب البرابرة التي عاشت ما بين شواطئ البحر الأدرياتيكي ومضيق جبل طارق انطلقت مهاجرة في كتلة واحدة نحو آسيا، وقد زحفت عبر أوربا بلداً بلداً، تحمل معها جميع ما كانت تمتلكه وتقتنيه** "(٣)، وبعد رحلة طويلة خلال البلقان وما تخللها من أعمال السلب والنهب والتدمير، وصلت حملة الفقراء إلى العاصمة البيزنطية ثم عبرتْ إلى آسيا الصغرى إلا أنها هُزمت على أيدي سلاجقة الروم، وما لبثت حملة الأمراء أن وصلت إلى العاصمة البيزنطية. ولم يتمكنوا من العبور إلى آسيا إلا بعد أن قدموا فروضَ التبعية للإمبراطور البيزنطي الكسيوس (٤٧٤-٥١٢هـ/١٠٨١- ١١١٨م)، كما تعهدوا بإعادة جميع المدن التي فقدتها الإمبراطورية البيزنطية خلال صراعها مع السلاجقة(٤)، أمّا في سهول دوريليوم(٥) سنة٤٩١هـ/١٠٩٧م، فقد انتصر الصليبيون على سلاجقة الروم وتابعوا زحفهم نحو مدينة هرقلة وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً لهم للوصول إلى الدروب المؤدية إلى بلاد الشام .

١- الاستيلاء على أنطاكية:

وفي مدينة هرقلة بدأت الأطماع الشخصية للأمراء الصليبيين بالظهور، فسرعان ما اندفع كلاً من تانكرد وبلدوين دي بويون للانفصال عن الجيش الرئيس، واتجها نحو منطقة كيليكية، وقاما بمهاجمة مدينة طرسوس(٦) الخاضعة للسلطة الإسلامية وتمكنا من الاستيلاء عليها، وسرعان ما دب الخلاف بين الأميرين، فاضطر تانكرد نتيجة لقلة عدد قواته نسبة لقوات بلدوين التنازل لهذا الأخير عن طرسوس، وما لبث أن اشتبك الطرفان عند مدينة المصيصة ثم سوَّيا خلافهما، وعاد بلدوين إلى الجيش الرئيس للصليبيين.

(١)- باركر، الحروب الصليبية، ص٢٣.- زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية " من خلال الموسوعة الشامية "، ج٤، ص٧٦.

(٢)- آنا هي ابنة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الذي كان يتولى عرش بيزنطة عند قدوم الحملة الصليبية الأولى.

(٣)- آنا كومنين، الألكسياد، " من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦، ص ١٠.

(٤) - مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦، ص ٧٩-٨٩.

(٥)-تقع حالياً ضمن أراضي الجمهورية التركية.

(٦)- مدينة طرسوس: تقع في منطقة كيليكية، ويصفها الإدريسي بقوله:" **مدينة كبيرة لها سوران من حجارة، وهي كثيرة المتاجر والعمارة والخصب الزائد، وبينها وبين حد الروم جبال متشعبة من اللكام كالحاجز بين العملين وبين طرسوس والبحر اثنا عشر ميلاً** ".

- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ٢، ص ٦٤٧.

أما تانكرد فاستطاع السيطرة بعد ذلك على مدن أدنة[١]، والمصيصة إضافة إلى مرفأ الإسكندرونة[٢]. كما يذكر ألبرت فون آخن أن تانكرد سيطر على عدد من القلاع التي تقع بالقرب من الأسكندرونة[٣]، ولم تقف الأطماع الشخصية لقادة الحملة الصليبية عند هذا الحد، فعندما وصل الرئيس إلى مشارف بلاد الشام، أرسل الكونت ريموند على الفور خمسمئة من مقاتليه للاستيلاء على أنطاكية قبل بقية الأمراء، وخاصة بعد وصول أنباء عن انسحاب الحامية السلجوقية من المدينة، وما إنْ وصلت هذه القوة لأطراف المدينة حتى أدركت أنَّ أنباء الانسحاب غير صحيحة، فتابعت زحفها إلى منطقة الروج[٤] حيث استولت عليها بمساعدة السكان المحليين من أصول أرمنية [٥].

مما دفع يغي سيان المنشغل في الصراع القائم بين رضوان وأخيه دقاق للعودة إلى أنطاكية في شهر شعبان سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وفي ٢ شوال سنة ٤٩٠هـ/ ٢٢ تشرين الأول[٦] ١٠٩٧م[٧]، وصلت جموع الصليبيين الرئيسية إلى مشارف أنطاكية وأقامت معسكرها في بغراس[٨] وأخذت بالإغارة على أعمال أنطاكية، واستولت قوة على ارتاح[٩]، و**"عند ذلك عصى من كان في الحصون، والمعاقل المجاورة لأنطاكية وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها..."**[١٠]، فأخذ يغي سيان

---

[١]- مدينة أدنة: تعرف أيضاً باسم أذنة، تقع على نهر جيحان، بنيت من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد، وأتمها الخليفة المأمون، يصفها الإدريسي بقوله:**" مدينة جليلة عامرة ذات أسواق، وصناعات، وصادر ووارد وهي على نهر سيحان...".**

- الحميري (محمد بن عبد الله)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٠.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص ٦٤٧. - الغزي، نهر الذهب، ج٣، ص٦.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ج١، ص٢٤٦،٢٤٥.

- توديبود (بطرس)، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، نقله إلى الانكليزية: جون هيوج هيل، لوريتال هيل، نقله للعربية: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، مصر،١٩٩٩م، ص ١١٧،١١٦.

- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٣٣٤.- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ١٠٣،١٠٢.- زابوروف، الصليبيون، ص ٨٠،٧٩.- باركر، الحروب الصليبية، ص٣٤.

- مدينة الإسكندرونة:**"هي مدينة في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام وبينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ ".**

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج١، ص ١٨٢.

[٣]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٥٤، ٥٥.

[٤]- تقع بين أعمال حلب وأنطاكية ومعرة النعمان، ويصفها ياقوت الحموي بقوله:**" كورة من كور حلب المشهورة في غربيها بينها وبين المعرة ".**- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٧٦.

[٥]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية "،ج ٦، ص١٠٤،١٠٥.

- توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٨،١١٩. - ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص٥٥. - زابوروف، الصليبيون، ص٨١.

[٦]- بينما يذكر ألبرت فون آخن أن الحصار بدء في يوم الأربعاء ٨ تشرين الأول . - ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٦٠.

[٧]- يذكر وليم الصوري بأن الحصار الصليبي لمدينة أنطاكية بدء في ١٨ تشرين الأول ١٠٩٨م. أنظر وليم الصوري، الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٨١.

[٨]- يصف ياقوت الحموي موقعها بقوله:**" ... مدينة في لحف جبل اللُّكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب...".**- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص٤٦٧.

[٩] - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢١٨.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص٣٤٥.

- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥ م، ج٦، ص ٢٠٩.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٦٧.

[١٠]- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٩.

بتحصين المدينة وتزويدها بالمؤن وأخرج السكان المسيحيون منها، كما قام بمراسلة الأمراء المسلمين المجاورين له طلباً للنجدة[١] .

وعند اقتراب الصليبيين من أنطاكية: تشاور القادة حول كيفية قتال العرب المسلمين، فاقترح البعض تأجيل حصار أنطاكية حتى مطلع فصل الربيع؛ مسوغين ذلك بقرب فصل الشتاء، وصعوبة حشد القوات نتيجة توزعها في القلاع والمدن المجاورة، فضلاً عن ضرورة انتظار وصول التعزيزات القادمة من بيزنطة، ومن تانكرد المتواجد في الإسكندرونة، إلا أن القادة الآخرين ومنهم بوهيموند وريموند رفضوا ذلك، واقترحوا مهاجمة المدينة في الحال[٢].

وما لبث الصليبيون أن زحفوا لحصار أنطاكية، فقاموا بعبور الجسر المُقام على نهر العاصي بعد مقاومة عنيفة من قبل المدافعين عنه [٣]، وقام الصليبيون بالانتشار بشكل عشوائي؛ حيث وصف ريمون دي جيل ذلك بقوله:" **وعند وصولنا اتخذنا مواقع لنا بشكل عشوائي، ولم نعين حرّاساً، وتصرفنا بغباء كبير ولاشك أن الأعداء لو عرفوا ذلك لكان بإمكانهم اجتياح أي قطاع أرادوه في مخيمنا** "[٤]، كما اقترفوا الكثير من الأخطاء العسكرية ، فلم يقوموا بسد مداخل المدينة من الجهة الجنوبية، فكان بوسع حامية أنطاكية أن تخرج وتلحق الأذى بالقوات الصليبية[٥]، وقد يساعدهم على ذلك ما يحصلون عليه من معلومات من الأرمن والسريان المتواجدين بين صفوف الصليبيين[٦].

ومع قدوم فصل الشتاء ونتيجة للأعداد الضخمة للصليبيين الين يحاصرون المدينة قلّت المؤن. وخاصة بعد نهب ضواحي أنطاكية، مما دفع الصليبيين لإرسال حملات للبحث عن الطعام في المناطق البعيدة، ففي محرم سنة ٤٩١ هـ/أواخر كانون الأول ١٠٩٧م انطلقت قوة صليبية تتراوح بين العشرين والثلاثين ألف مقاتل بحثاً عن الطعام، فوصلت إلى منطقة البارة[٧]، وفي الوقت نفسه وجدت قوة عسكرية قادمة من دمشق لنجدة أنطاكية، فاشتبكت معها. وقد اختلفت المصادر التاريخية حول هوية المنتصر[٨]، ولكن وعلى الرغم من هذه الغارات، فإن الصليبيين تعرضوا للمجاعة لعدم كفاية الطعام .

وفي أواخر صفر ٤٩١ هـ/شباط ١٠٩٨م استطاع الصليبيون بقيادة بوهيموند من صد هجوم القوات القادمة من حلب لنجدة أنطاكية وملاحقتها إلى قلعة حارم، وفي الوقت ذاته كان الصليبيون يفاوضون رسل الخلافة الفاطمية ، كما أرسلوا مندوبين عنهم إلى مصر[٩]. وهنا يظهر التناقض بين الإدعاءات الدينية الظاهرية التي زحف من أجلها الصليبيون، وبين حقيقة رغبتهم في الحصول على أيّة أرض؛ حتى ولو كان ذلك بالتحالف مع أعداء دينهم.

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٦.- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص ٢٧٩.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٨٠.- زابوروف، الصليبيون ، ص ٨٥، ٨٦.

[٣]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦ ، ص١٠٨.

[٤]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٩٠.

[٥]- مؤلف مجهول ، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٠٨. - زابوروف، الصليبيون، ص٨٦،٨٧.

[٦]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ١٣٥.

[٧]- البارة: "**بليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن...**".- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص٣٢٠.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢١٩.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٤٦.- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص٣٠٠.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٣٩.- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦ ، ص١١٠-١١١.

[٩]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١١٦- ١١٨.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٩٨-٢٠٠. - توديبود، تاريخ الرحلة، ص ١٣٦. - زابوروف، الصليبيون، ص٨٨.

ومع استمرار الحصار دونما تحقيق أي نتيجة بفضل صمود المدافعين عن المدينة ، وتمكنهم من الإغارة على معسكر الصليبيين وإلحاق الأذى بهم، أدرك الصليبيون ضرورة استكمال إطباق الحصار على المدينة، فقاموا بحفر خندق حول معسكرهم لحمايته من الإغارة، كما سعوا لإنشاء حصن أمام المدينة,ولكن هذا العمل كان يتطلب توفّر المواد اللازمة للبناء فضلاً عن الأيدي العاملة الخبيرة، ولذلك أرسلوا إلى ميناء السويدية قوة عسكرية بقيادة بوهيموند وريموند لتأمين مستلزمات بناء الحصن إلا أن حامية أنطاكية قامت بالانقضاض عليها عند عودتها وتمكنت من إلحاق الهزيمة بها[١]. ورداً على ذلك هاجم الصليبيون الجسر الذي يؤدي إلى أنطاكية وتمكنوا من هزيمة العرب المسلمين، وفي اليوم التالي للمعركة اكتشف الصليبيون بالقرب من موقع الحصن الذي يرغبون بإنشائه على مقبرة للمسلمين، فقاموا بنبش الأضرحة والتنكيل بالموتى، واستخدموا حجارتها لبناء الحصن، كما قام تانكرد بتحصين أحد الأديرة بالقرب من نهر العاصي، وبذلك تم تشديد الخناق على مدينة أنطاكية[٢]، وتمكن بوهيموند من الاتصال مع أحد متولي أبراج المدينة ويدعى فيروز وأقنعه بتسليم البرج للصليبيين مقابل الحصول على المال، والدخول في الديانة المسيحية[٣]. علماً بأن فيروز كان ينحدر من أصول أرمنية، وهو من بقايا الحامية البيزنطية للمدينة قبل سيطرة السلاجقة عليها، وبالتالي فإن فيروز كان يتبع الديانة المسيحية. وهذا ما يؤكده المؤرخ روجر أوف ويندوفر بقوله:" **فقد كان هناك في أنطاكية رجلاً من أصل نبيل وكان متميزاً في ميدان المسيحية، وكان اسمه فيروز Emifer، وكان رجلاً صاحب سلطان كبير ونفوذ لدى يغي سيان، وكان مسؤولاً في قصره عن ديوان الوثائق"**[٤]، أما ابن القلانسي فيذكر أن جماعة من الزرّادين[٥] قد اتفقت على تسليم أنطاكية نتيجة إساءة يغي سيان لها، ومصادرته لأموال أفرادها[٦].

وبذلك بدأ بوهيموند بتنفيذ الخطوة الأولى لإنشاء إمارة خاصة به في أنطاكية، إلا أن العقبة الأولى أمام ذلك كانت القوة البيزنطية المرافقة للصليبيين، فحاول التخلص منها. وتمكن كما تذكر آنا كومنين من إقناع القائد البيزنطي بالانسحاب؛ وذلك عندما أخبره بأنّ القادة الصليبيين يتآمرون على قتله؛ نتيجة اعتقادهم أن جيش كربوغا القادم لنجدة أنطاكية قد أتى بناء على طلب الإمبراطور البيزنطي، وإضافة إلى ذلك تذكر أيضاً أنّ القوة البيزنطية كانت تعاني من المجاعة ولذلك انسحبت بحراً إلى قبرص[٧].

أما مؤلف أعمال الفرنجة، فيسوغ انسحاب البيزنطيين بقوله:**"وتناهت الأخبار إلى عدونا تاتيشوس بأن جيوشاً من التركمان زاحفة نحونا فاستبد به الخوف الشديد، وخيل إليه أنه قد فتك بنا من قبل عدونا..."**[٨]، أما ريمون دي جيل فيذكر أن قائد القوة البيزنطية عندما طال حصار

---

[١]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ١٢٠. - توديبود، تاريخ الرحلة، ص ١٦٤، ١٦٥. - ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٤٧.

[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٢٢، ١٢٣، ١٢٥. - ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥.- توديبود، تاريخ الحملة، ص ١٦٥-١٦٧، ١٧٠. - زابوروف، الصليبيون، ص ٨٩.

[٣]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص١٨١. - مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٢٦. - آنا كومنين، الألكسياد، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٦، ص٤٦. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٧.

[٤]- روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، " من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق وترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ج٣٩، ص٥٢.

[٥]- هم صانعي الدروع .- ابن منظور(محمد بن مكرم)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير- محمد حسب الله- هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مج٣، ص١٨٢٤.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص ٢٢٠.

[٧]- آنا كومنين، الألكسياد،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٧، ٤٨

[٨]-مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١١٥.

أنطاكية أخذ يبحث عن أعذار لترك القتال، فادّعى رغبته الانضمام إلى جيش الإمبراطور البيزنطي القادم إلى أنطاكية[١]. كما يذكر توديبود أن القائد البيزنطي خشي من الهزيمة أمام السلاجقة فسوغ انسحابه مخاطباً الصليبيين **" لا بد أنكم تدركون أننا نمر بظروف شنيعة ولا نتوقع أية مساعدة، فكروا في هذا؛ دعوني أعود إلى بيزنطة... سأحاول تدبير العديد من السفن لنا محملة بالحنطة و النبيذ ... وسأسارع بإرسال السلع من كل أرجاء بلاد الإمبراطور"**[٢].

وعلى الرغم من اختلاف المصادر حول أسباب انسحاب القائد البيزنطي، يمكن القول بأن هذا العمل قد تمّ بالتنسيق مع بوهيموند؛ ربما للأسباب السابقة فضلاً عن حصول القائد البيزنطي على رشوة مالية. حيث تنازل هذا الأخير لبوهيموند عن مدن طرسوس والمصيصة وأدنة[٣].

وعندما تيقن بوهيموند من إمكانية سقوط المدينة بيده فضلاً عن الأنباء التي انتشرت عن وصول جيش كربوغا لنجدة أنطاكية، استغل ذلك؛ كي يعرض على بقية القادة الصليبيين امتلاكه وسيلة للاستيلاء على المدينة شرط وضعها تحت حكمه، إلا أن ذلك اصطدم بمطامع القادة الآخرين؛ فكل واحد منهم يطمع بأن يمتلك المدينة[٤]، ولكنّهم ومع اقتراب وصول جيش كربوغا وافقوا على تسليم حكم المدينة بعد سقوطها لبوهيموند، شرط الالتزام بعهودهم تجاه الإمبراطور البيزنطي واحترام حقوقه[٥]، وعلى أثر ذلك شرع بوهيموند بتنفيذ مشروعه، ففي صباح ١رجب سنة ٤٩١هـ/ ٣حزيران ١٠٩٨م تسلّم الأبراج من فيروز وقام برفع راياته عليها، وعندما رأى بقية الصليبيين ذلك بادروا بالهجوم وسرعان ما سقطت المدينة، وفي خضم ذلك فقدَ يغي سيان صوابه وظن بأن القلعة سقطت، فهرب مع بعض خاصته، وتمكن بعض الفلاحين الأرمن من قتله وأهدوا رأسه للصليبيين[٦]. وعندما دخل الصليبيون المدينة قاموا بقتل كل شخص وجدوه فيها دون النظر إلى دينه[٧]، ولم ينجُ إلا من تمكن من الهرب إلى قلعة أنطاكية التي بقيت صامدة، وقد قدِّر هؤلاء بحوالي ثلاثة آلاف شخص[٨]. ويصف ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) خسائر سكان أنطاكية بقوله:**" استشهد في ذلك اليوم بأنطاكية ما يفوق الإحصاء ويجاوز العدد، ونهبت الأموال والآلات والسلاح، وسبي من كان**

---

[١]-ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٩٦، ١٩٧.
[٢]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ١٤٠.
[٣] -ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٩٧.
[٤]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص١٨١. -زابوروف، الصليبيون، ص٩١،٩٠.
[٥]-مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٢٧. - توديبود، تاريخ الرحلة، ص١٨٢.
[٦]-توديبود، تاريخ الرحلة، ص١٨٣، ١٨٤. - مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٢٩، ١٣٠.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٠٨. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٤٤. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٢٠.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٤٩.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٧،٤١٨ .- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص٣٠٨.
- وبالنسبة لمقتل يغي سيان يصف ابن القلانسي ذلك بقوله: **" وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص، ولما حصل بالقرب من أرمناز ضيعة بالقرب من معرة مصرين، سقط عن فرسه على الارض، فحمله بعض أصحابه واركبه، فلم يثبت على ظهر الفرس، وعاود وسقط ، فمات رحمه الله"**. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٠.
[٧]- ولكن المؤرخ روجر أوف ويندوفر ينفرد هنا بالحديث عن تلقي الصليبيين عند دخولهم المدينة للمساعدة من المسيحيين المحليين الذين هبوا لقتل العرب المسلمين، ويذكر ذلك بقوله:**" وتطاير المسيحيون الذين سكنوا في إجزاء مختلفة من المدينة إلى السلاح، والتحقوا بمحرريهم، وألحقوا خسائر فادحة بالأعداء"**. - روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٣٩، ص٥٥.
[٨]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ١٨٤. - ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٠٧، ٢٠٨.- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٢٩. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٤٣. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٠.

بأنطاكيـة"[١]. بينمـا قـدر روجـر أوف وينـدوفر عـدد قتلـى العـرب والمسـلمين بـأكثر مـن عشـرة آلاف شخص[٢].

وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصـار استمر من ٢ شوال سنة ٤٩٠هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٠٩٧م ولغاية ١رجب سنة ٤٩١هـ/ ٣حزيران ١٠٩٨م نتيجة عدة عوامل، منها:

- ضعف الاستعدادات العسكرية للمدينـة، فـابن الأثيـر يـذكر أن المـدة الزمنيـة التـي فصـلت بـين عـودة يغي سيان بقواتـه مـن المشـاركة فـي صـراع كـل مـن الملك رضـوان، والملك دقـاق علـى السيادة علـى كامـل بـلاد الشـام، ووصـول القـوات الصـليبية لـم تتجـاوز ثلاثـة أيـام[٣]، وهـي مـدة غيـر كافيـة لتـأمين مستلزمات الصمود في وجه حشود الصليبيين.

-الوضع داخل المدينة حيث كان مضطرباً، فقد قـام يغـي سـيان عند قدوم الصـليبيين بـإخراج السـكان المسحيين المحليين(العرب والأرمن) إلى خارج المدينة [٤]، ويؤكد ذلك صـاحب أعمـال الفرنجـة الـذي يذكر تواجد السكان الأرمن والسريان بين صفوف الصليبيين - إلا أنه اعتبرهم عيون للأتراك[٥].

- علاقة يغي سيان مـع المقاتلين المتواجدين داخـل أنطاكيـة كانـت سيئة ممـا دفـع بعضـهم للتعـاون مـع الصليبيين؛ ويؤكد ذلك ابن القلانسي بقوله :**" وورد الخبـر بـأن قومـاً مـن أهـل أنطاكيـة مـن جملـة يغـي سيان من الزرّادين عملوا على أنطاكية وواطؤا الإفرنـج علـى تسليمها إلـيهم لإسـاءة تقدمت منـه فـي حقهم ومصادراتهم..."**[٦].

- ضخامة عدد الصليبيين من مقاتلين وفئات شعبية مقارنة بأعداد المدافعين عن مدينة أنطاكية، إذ قدر ألبرت فون آخن عدد القوات الصليبية بقوله**:" بلغ عدد الجيش الكبير ثلاثمائة ألف رجل مكـافح، عدا الأطفال والنساء وكان عددهم أيضاً بالألوف"**[٧].

وفـي يـوم الثلاثـاء ٦ رجـب سـنة٤٩١هــ/ ٥أو٦ حزيـران ١٠٩٨م وصـلت النجـدات العربيـة الإسلامية بقيادة أتابك الموصل كربوغا إلى مشارف أنطاكية بعد فوات الأوان؛ حيث وجد المدينـة قد سقطت، وسرعان ما أقام معسكره في بغراس، وبـذلك غدا الصـليبيون محاصـرين مـن الخـارج بجيش كربوغا من جهة وبحامية قلعة أنطاكية من جهة أخرى، ولـم يجـرؤ أحـد مـن الصـليبيين علـى الخـروج من المدينة[٨]، حتى أنهم اضطروا إلى تدمير قلعة الجسر المقامه على نهر العاصيخوفاً من وقوعهـا بأيدي العرب المسلمين، كما تمكن كربوغـا مـن إدخـال قـوات جديدة إلـى قلعـة أنطاكيـة والضـغط علـى الصليبيين داخل المدينـة، كـل ذلك دفـع العديـد مـن الصـليبيين إلـى الهـروب[٩]، حيـث **" فقد الكثيـرون الأمل، وربطوا أنفسـهم بحبـال ودلّوهـا مـن أعـالي الأسـوار وفـي المدينـة نشـر الجنـود العائـدون مـن**

---

[١]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٤٩.
[٢]- روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣٩، ص٥٦.
[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤١٣.
[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤١٦.
[٥]- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٠٩.
[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٠.
[٧]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٦٠.
[٨]- آنا كومنيين، الألكسياد، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٩. - مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية" ج٦، ص١٣٨، ١٤١. - ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٤٩.- زابوروف، الصليبيون، ص٩٣.
[٩]- آنا كومنيين، الألكسياد، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٩.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٠٩، ٢١٠.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦ ، ص ٣٤٥.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥٠.

القتال إشاعة فيها أن قتلاً جماعياً ينتظر المدافعين ..."[١]، كما هاجمت القوات العربية الإسلامية ميناء السويدية حيث أحرقت عدداً من السفن الراسية فيه[٢]، وفي هذه الأثناء قام الصليبيون ببناء سور يفصل بينهم، وبين قلعة المدينة التي يسيطر عليها العرب المسلمون[٣]، وأدى اشتداد الحصار، وقيام الصليبيين باستهلاك جميع المواد الغذائية التي غنموها عند استيلائهم على المدينة إلى انتشار المجاعة بينهم حتى اضطروا إلى أكل لحوم الخيول والحمير وزاد الأمر تعقيداً إبلاغ بعض الصليبيين المسلمين بالحالة التي تعيشها مدينة أنطاكية[٤].

وأدت هذه الظروف القاسية التي عانى منها الصليبيون إلى انبعاث الخيال الديني بينهم، حيث انتشرت قصص التجليات والرؤى الدينية للعديد من القديسين، وللسيد المسيح عليه السلام، وحاول العديد من رجال الكنيسة استغلال ذلك، وأخذوا يفسرون تلك الرؤى على أنها دلائل عن رضا الله وعطفه على جموع الصليبيين بهدف درء خيبة الأمل، والإخفاق فضلا عن إثارة التعصب الديني بينهم[٥]، كما حاول عدد من الأمراء الصليبيين استغلال ذلك ، لتعزيز موقفهم السياسي والعسكري بين القادة من أمثال ريموند كونت تولوز؛ وكان من بين أهم تلك التنبؤات رؤية أحد الفلاحين البروفانسين المدعو بارثليمو للقديس أندراوس الذي اخبره بأنه سيعثر في كنيسة القديس بطرس في أنطاكية على الحربة التي طُعن بها السيد المسيح، وعند ذلك سيكون النصر من نصيب الصليبيين[٦]، وعلى إثر ذلك قاموا بالحفر في المكان المشار إليه في سنة٤٩٢هـ/يوم١٤ حزيران١٠٩٨م، وتمكنوا من إخراج حربة صدئة وما إن انتشر الخبر حتى ارتفعت معنويات الصليبيين، وأخذوا يتحرقون للقتال، وذلك لتحقيق الجزء الثاني من النبوءة[٧]، وخلال ذلك أجرى الصليبيون مفاوضات مع كربوغا طلبوا فيها حسب الرواية العربية الإسلامية الأمان للخروج من المدينة[٨]، في حين تذكر الروايات الصليبية أنهم طلبوا منه الانسحاب من منطقة أنطاكية[٩].

وعلى الرغم من الاختلاف حول مجرى المفاوضات، فإن الصليبيين قاموا بالاستعداد للمعركة حيث قسموا قواتهم إلى عدة فرق، كما ابقوا بعض القوات داخل المدينة لصد هجمات حامية قلعة أنطاكية، وعلى إثر ذلك خرج الصليبيون في ٢٨حزيران ١٠٩٨م/٤٩٢هـ لمواجهة جيش كربوغا، ولكن سرعان ما انسحب هذا الجيش من المعركة دونما قتال باستثناء عدد قليل أصر على المقاومة. وقد وجد الصليبيون الكثير من الغنائم في معسكر جيش كربوغا ، كما قتلوا كل من وجدوه[١٠].

---

[١]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢١١.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ٢٠٥.

[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٣٩.

[٣]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ٢٠٥.

[٤]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص١٤٤.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢١.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ٢٠٥، ٢٢٤، ٢٢٥.

[٥]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٠٥-٢٠٧. - زابوروف، الصليبيون، ص٩٥.

[٦]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٤٠، ١٤١.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٤٤.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٠٨.

[٧]- ريمود دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ص٢١٨.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥٠.- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص٣٤٤.- توديبود، تاريخ الحملة ، ص ٢٢٧.- زابوروف، الصليبيون، ص٩٧.

[٨]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٨.

[٩]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٣.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٣٤٧.

[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢١.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٢٩-٢٣١.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٩.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥١.- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٧.- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٠٤.

ولكن هذا النصر الذي تحقق للصليبيين لم يكن نتيجة قوتهم وكفاءتهم الحربية، ففي حقيقة الأمر كانوا عبارة عن مجموعات غير متجلسة عرقياً، فضلاً عن كونهم قد أنهكوا نتيجة المجاعة التي أصابتهم ، بل نتيجة عوامل التشتّت والتفرق الذي ألمّ بمعسكر المسلمين، وقد وصف ابن الأثير ذلك بقوله:" **أساء كربوغا السيرة فيمن معه من المسلمين، واغضب الأمراء، وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك، وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال...**"[1]، أما ابن العديم ، فقد وصف عوامل الفرقة بين صفوف القوات العربية الإسلامية بقوله:" **ترادفت رسل الملك رضوان ... إلى كربوغا، فتوهّم دقاق من ذلك، وخاف جناح الدولة[2] من أصحاب يوسف بن أبق[3] ... وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثّاب منافرة عادوا لأجلها وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان** "[4].

ومن الأسباب الأخرى للهزيمة التي لحقت بالقوات العربية الإسلامية، توقف كربوغا في أراضي إمارة الرها الصليبية في محاولة منه للاستيلاء على مدينة الرها من بلدوين؛ لما تشكله من خطر على أملاكه في الموصل وأعمالها، وبذلك أضاع الوقت في أراضي الرها دون جدوى، إذ وصل أنطاكية بعد سقوطها بعدة أيام.

أما المصادر الصليبية فقد نسبت هذا الانتصار إلى وصول مساعدة ربانية، حيث يصف توديبود ذلك بقوله:" **اندفع من جهة الجبل جيش ضخم يمتطي أفراده صهوة جياد بيضاء يحملون رايات بيضاء خفاقة، وعندما شاهد رجالنا هذا الجيش أصابهم الذهول، حتى أدركوا أن هذه هي المساعدة التي وعدهم بها المسيح ... وكان على رأس هذا الجيش السماوي القديس جورج**" [5].

وبعد الانتصار اتجه الصليبيون إلى مدينة أنطاكية، للقضاء على أخر معاقل العرب المسلمين فيها ألا وهي القلعة حيث بقيت صامدة، ولكن ما لبث قائدها أحمد ابن مروان أن دخل في مفاوضات معهم سرعان ما انتهت باستسلام الحامية مقابل ضمان حياة أفرادها في ٢شعبان سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م[6]، كما تذكر المصادر الصليبية : أن من شروط التسليم: السماح لمن يرغب منهم بالبقاء في أنطاكية، واعتناقهم الديانة المسيحية، إضافة إلى تأمين حياة الحامية[7].

وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بيد الصليبيين بعد كفاح طويل، سطر فيه سكان المدينة ومقاتليها أروع صور الصمود والمقاومة، ولم تلق المساندة العسكرية المناسبة من قبل الإمارات العربية الإسلامية المجاورة لها، التي اقتصرت جهودها على إرسال بعض القوات لمنع القوات الصليبية من الاعتداء على المناطق التابعة لها، مثل ما قام به الملك رضوان صاحب حلب عند إرساله لقوة عسكرية لمواجهة الصليبيين عند حارم وأيضاً تلك القوة التي أرسلها الملك دقاق حاكم دمشق والتي اصطدمت مع الصليبيين بالقرب من مدينة البارة، كما أن الحملة العسكرية التي أتت بقيادة كربوغا

---

[1]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٨.

[2]- هو جناح الدولة حسين صاحب حمص، وأتابك الملك رضوان سلطان حلب، إذ تولى تدبير أمور رضوان وهو صبي، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الطرفين، فاستقل بحمص إلى أن قتل على يد الحشيشية سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م.

- ابن العديم (عمر بن أحمد)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٦، ص ٢٨٠٦، ٢٨٠٧.

[3]- صاحب مدينة الرحبة (الميادين حاليا).

[4]- ابن العديم، زبدة الحلب،ج١، ص٣٥٠.

[5]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ٢٣٠.

[6]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥١.- زابوروف، الصليبيون، ص٩٨.

[7]- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٧. - مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٥١.- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٥٤. - توديبود، تاريخ الرحلة، ص ٢٣٢.

كانت تفتقد للوحدة بين قادتها، مما انعكس سلباً على أوضاع أنطاكية والمناطق المحيطة بها، كما أن كربوغا على ما يبدو هدف أولاً لاستغلال الحملة لمناوشة الرها التي سيطر عليها الصليبيون؛ وذلك لقربها من الموصل مقر حكمه.

٢- متابعة الزحف نحو بيت المقدس:

وعقب انتصار الصليبيين، وسيطرتهم على أنطاكية ظهرت الأطماع الشخصية لقادة الحملة الصليبية، إذ سعى بوهيموند، لتعزيز الأماكن التي سيطر عليها، كما طالب القادة الآخرين بتسليمه القلعة والأبواب التي يتولون حمايتها، فخضعوا لبوهيموند باستثناء ريموند كونت تولوز[١]، كما اتفق القادة على تأجيل مواصلة الزحف نحو بيت المقدس حتى شهر تشرين الثاني ١٠٩٨م/٤٩٢هـ، نتيجة عدة عوامل تمثلت بحاجة القوات للراحة من القتال المتواصل، وتجنب فصل الصيف الحار، ونقص المؤن والخيول[٢]، إضافة إلى انتشار وباء الطاعون بين صفوف الصليبيين، حيث وصفه وليم الصوري بقوله:**" وما كاد حصار أنطاكية ينتهي ... حتى ضرب الناس طاعون لا يعلم أحد أسبابه، وتزايد عدد ضحاياه زيادة مفزعة، وفشى حتى قل إن كان ينقضي يوم إلا ويخرج الناس لدفن ثلاثين جثة أو أربعين..."**[٣].

لذلك ترك عددٌ من القادة مدينة أنطاكية هادفين النهب والسلب في المناطق المجاورة؛ وكل منهم كان يسعى لاستباق الآخر للاستيلاء على المدن والقرى، فقصد بوهيموند منطقة كيليكية حيث استولى على مدن طرسوس والمصيصة وآذنة، وعيّن عليها ولاة من قبله[٤]، كما قام أحد الفرسان التابعين للكونت ريموند ويدعى ريموند بيليه باستئجار مجموعة من الفرسان، واستولى على قلعة تل منس[٥]، في حين اتجه الدوق غودفروي للإقامة في منطقتي تل باشر[٦]، ورّاوندان[٧] التابعتين لأخيه بلدوين الذي أصبح حاكماً للرها، أما روبرت النورماندي، فاتجه إلى اللاذقية لكنه طرد من قبل السكان المحليين الذين فضلوا عليه البيزنطيين[٨].

---

[١]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٨.

[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٥٤.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٥٥.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨.

[٤]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٨.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١١٢. - زابوروف، الصليبيون، ص١٠٨- ١١٠.

[٥]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٥٤. - توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٥٦.

- تل منس: حصن يقع بالقرب من معرة النعمان. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٤٤.

[٦]- تل باشر: **" قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٠.

[٧]- رّاوندان: تقع شمال حلب، وهي**" قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص١٩.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٦.- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص١١٢. - زابوروف، الصليبيون، ص١٠٨.

وقبل شهر تشرين الثاني أيضاً زحف الكونت ريموند، وبصحبته أتباعه وعدد كبير من الفقراء وتمكن من الاستيلاء على مدينة البارة[١]، وقام بقتل، واستعباد الآلاف من سكانها وباعهم في أنطاكية، كما نُصّب أحد الأساقفة حاكماً على البارة[٢].

وعند قدوم شهر تشرين الثاني عاد القادة الصليبيون إلى أنطاكية واجتمعوا لتحديد موعدٍ لاستئناف الزحف، كما طرحت مسألة مَن يتولى حكم أنطاكية. مما أدى لحدوث خلافات بين القادة؛ فالبعض طرح فكرة تسليم المدينة للإمبراطور لبيزنطي تنفيذاً لقسم التبعية له، في حين تمكن بوهيموند من الحصول على تأييد معظم القادة ليتولى حكم المدينة باستثناء الكونت ريموند الذي طَمِحَ سراً بحكم المدينة وتظاهر بالدفاع عن حقوق الإمبراطور، فاشتدّ الخلاف بين القادة[٣]، إلا أنهم اضطروا لتسوية خلافاتهم نتيجة لخوفهم من تحرك فقراء الصليبيين(الذين يسموا في المصادر الغربية بالطيفور) الذين قرروا أن يختاروا لهم قائداً جديداً لمتابعة الزحف نحو القبر المقدس.

كما طرحوا مسألة هدم أسوار أنطاكية لإجبار القادة على التحرك[٤]، لذلك قرر القادة القيام بأي عمل لإخماد غضب الفقراء، فقرروا التوجه للاستيلاء على معرة النعمان[٥] في محرم سنة ٤٩٢هـ/ أواخر شهر تشرين الثاني ١٠٩٨م، وكان الكونت ريموند وكونت فلاندرز أول الزاحفين، ثم ما لبث بوهيموند أن انضمّ بعد أيام إلى تلك الحشود، فقاموا بحصار المدينة، لكن سكان معرة النعمان أظهروا مقاومة شديدة، فلجأ الصليبيون لقطع الأشجار المحيطة بالمدينة لصناعة الأبراج لتشديد الخناق عليها، وتمكنوا من الاقتراب إلى أسوارها[٦]، مما دفع سكان المدينة لطلب النجدة من رضوان حاكم حلب، ولكن دون فائدة[٧].

وخلال الحصار عانى الصليبيون أيضاً من المجاعة نتيجة قلة مُؤنهم حيث أخذوا يبحثون عن الغذاء في المناطق المجاورة لمعرة النعمان[٨]، لكنهم سرعان ما تمكنوا من الاستيلاء على المدينة في ٢٤محرم سنة ٤٩٢هـ/١١ كانون الأول ١٠٩٨م، وذلك نتيجة حدوث خلاف بين المدافعين عنها، وقام الصليبيون بنهبها و بقروا بطون القتلى بحثاً عن الأموال[٩]، كما تجدد الخلاف بين بوهيموند وريموند بسبب استيلاء جنود بوهيموند على معظم الغنائم والأبراج على الرغم من عدم قتالهم بضراوة في المعركة، فضلاً عن رفض بوهيموند تسليم المدينة لأسقف البارة إلا بعد أن يتنازل

---

[١]- البارة: مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب، يصفها ياقوت بقوله:" **بليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة**". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج١، ص ٣٢٠.

[٢]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٣٦.- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٥٦.- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٥٦.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٥٧. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٢، ٣٣.

[٣]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٣٧، ٢٣٨.- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٥٦.

[٤]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٣٨.

[٥]- معرة النعمان: هي " **بليدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون**". - القزويني (زكريا بن محمد)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٧٢.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٢.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٣٩.- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٥٨،١٥٩. - فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٥٦.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ٢٦٠-٢٦٢.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٥.

[٧]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥٥.

[٨]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٣٩.

[٩]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٠.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٣٥٥.- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٠.

ريموند عن الأبراج التي سيطر عليها في أنطاكية[١]، وعلى إثر ذلك عاد بوهيموند إلى أنطاكية، كما عقد القادة اجتماعاً في قلعة الروج لحل الخلاف، وتحديد موعدٍ لمتابعة الزحف، لكنهم لم يتوصّلوا إلى نتيجة تذكر، وخلال ذلك عانت جموع الصليبيين المقيمة في معرة النعمان من انتشار الأوبئة والمجاعة مما دفع العديد منهم إلى أكل جثث سكان المدينة التي قتلوا أهلها قبل عدة أسابيع[٢]، ونتيجة لكلّ هذه الظروف، ولتجدد الخلافات بين القادة ، كل ذلك دفع فقراء الصليبيين إلى تدمير مدينة معرة النعمان، لذلك عندما عاد ريموند إليها اضطر لمتابعة الزحف في ١٣ كانون الثاني ١٠٩٩م/٤٩٣هـ وسار معه كل من تانكرد وروبرت كونت نورماندية، ومرت هذه الجموع بمناطق شيزر وحماة وحمص، فقام حكامها بتقديم المؤن والخيول والأموال للصليبيين شراء لودهم، وقد أدى ذلك لتحسين أوضاعهم[٣].

وبعد مسيرة عدة أيام في المناطق الداخلية في بلاد الشام قرر الصليبيون التوجه نحو المناطق الساحلية؛ لكي يبقوا على اتصال مع الأمراء المتواجدين في أنطاكية، فضلاً عن بقائهم على اتصال مع السفن الأوربية القادمة من قبرص وأنطاكية والمحملة بالمؤن، وبعد المرور بوادي النضارة وقلعة الحصن، وفي منتصف شباط ١٠٩٩م/٤٩٣هـ وصل الصليبيون إلى عرقة[٤] وأطبقوا الحصار عليها، فقام المدافعون عنها بتحصينها، واستبسلوا في الدفاع عنها، وقد قام الصليبيون أثناء الحصار بالإغارة على المناطق المجاورة، فقامت قوة تتألف من ٣٠٠ مقاتل بمهاجمة مدينة طرطوس، ففي بداية الأمر واجهوا مقاومة عنيفة من قبل سكان المدينة الذين أدركوا أن النجدات لن تصلهم، فقاموا بالانسحاب من المدينة ليلاً ، وبذلك استطاع الصليبيون الاستيلاء عليها.

وفي شهر آذار شرع القادةُ الصليبيون المتواجدون في أنطاكية بالزحف بمحاذاة الساحل وسرعان ما وصلوا إلى مدينة اللاذقية وهناك انسحب بوهيموند عائداً إلى أنطاكية مسوغاً ذلك بحاجة المدينة لمن يحميها[٥]، وربما؛ لأن اللاذقية كانت خاضعة لسلطة الإمبراطورية البيزنطية التي نقمت على بوهيموند لاستيلائه على أنطاكية.

وعندما تابع الصليبيون زحفهم التحق بهم عدد من المسيحيين المحليين حيث يذكر وليم الصوري ذلك بقوله:**" وقد اشتد بأسه بالمسيحيين من أهل تلك المدينة، كما جاء غيرهم من أنطاكية وقيليقية ..."**[٦]، فوصلوا إلى مدينة جبلة وشرعوا بحصارها، فقام حاكمها ابن صليحة[٧] - والذي

---

[١]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٣٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٨.- زابوروف، الصليبيون، ص١١١.

[٢]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٤٤-٢٤٦.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٢،٤٠،٣٩.

[٤]- عرقة: هي مدينة تقع إلى الشرق من مدينة طرابلس، وقدم ياقوت الحموي وصفاً لموقعها بقوله: **"بلدة في شرقي طرابلس بينها أربعة فراسخ، ... وهي في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة لها"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص١٠٩.

[٥]- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦١-١٦٤ .- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٥٠- ٢٥٢.- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٥٧.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٢٩١.- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٢٣. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٤٢،٤٣،٤٥،٤٦،٤٨،٤٩.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥١.

[٧]- ابن صليحة: أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة، كان والده قاضي جبلة خلال حكم البيزنطيين لها في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وعند ضعف السلطة البيزنطية فيها، قام بتسليمها لابن عمار، تولى ابن صليحة حكم جبلة بعد وفاة والده، وما لبث أن أعلن عصيانه على ابن عمار، وأقام الخطبة للعباسيين، وعند قدوم الحملة الصليبية الأولى تعرضت مدينة جبلة للحصار، إلا أن ابن صليحة صمد في وجهها، ثم أدرك عدم قدرته الاستمرار في مقاومة الصليبيين ومحاولات ابن عمار لاستعادتها، فبادر لتسليمها لدقاق حاكم دمشق .

كان منذ فترة قد تمرد على سلطة ابن عمار حاكم طرابلس- بمقاومتهم ، ثم قام بشراء ودّهم عن طريق تقديم الأموال والهدايا، كما وصلت إليهم رسل الكونت ريموند طالبةً العون حيث انتشرت أنباء عن إرسال السلطان السلجوقي بركياروق جيشاً كبيراً، ففك الصليبيون الحصار عن جبلة، واتجهوا نحو عرقة إلا أن الأنباء كانت كاذبة[١].

وفي أثناء حصار عرقة عاد رسل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مصر للتفاوض، حاملين اقتراح الخلافة الفاطمية - التي سيطرت على مدينة بيت المقدس سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م - السماح للصليبيين بزيارة بيت المقدس في مجموعات صغيرة مما أغضبهم[٢]، كماقدم أيضاً رسل الإمبراطور البيزنطي الذين احتجوا على تصرفات بوهيموند، واقترحوا انتظار الصليبيين قدوم الإمبراطور حتى شهر حزيران لمواصلة الزحف، أدى ذلك لحدوث خلافات بين القادة الصليبيين، فريموند أيد فكرة انتظار الإمبراطور سعيا لاستغلال الوقت لاحتلال عرقة، أما القادة الآخرون فأصروا على مواصلة الزحف نحو بيت المقدس[٣]، ونتيجة لذلك، ولاستمرار الحصار لمدة ثلاثة أشهر دونما فائدة رفع الصليبيون الحصار وتابعوا زحفهم مروراً بالمدن الساحلية، ففي منتصف شهر أيار أقاموا أياماً أمام مدينة طرابلس مما دفع حاكمها فخر الملك ابن عمار لشراء رضاهم، فقدم لهم الأموال والهدايا والخيول فضلاً عن اقتراحه إطلاق سراح ما يقارب ثلاثمئة أسير صليبي لديه[٤]، كما زودهم بدليل ليرشدهم[٥]، ثم تابع الصليبيون زحفهم إلى جبيل[٦]، فبيروت وقد أمدّهم حاكمها بالمال والمؤن، ثم وصلوا إلى صيدا فهاجموا ضواحيها و تابعوا زحفهم مروراً بصور وعكا حيث سارع حاكمها بتقديم الهدايا، وقد ذكرت المصادر الصليبية أن هذا الحاكم وعد الصليبيين بتسليم المدينة إذا تمكنوا من الاستيلاء على بيت المقدس، أو بقوا في فلسطين لمدة عشرين يوماً واستطاعوا هزيمة قوات الخلافة الفاطمية[٧]، ثم واصلوا الزحف مروراً بمدن حيفا وقيسارية[٨] وأرسوف[٩] إلى أن وصلوا إلى مدينة الرملة التي هجرها سكانها خوفاً منهم، وبعد أيام توجهت قوة صليبية بقيادة تانكرد نحو مدينة بيت

= ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٤٦، ٤٤٧. - الذهبي، سير أعلام، ج١٩، ص ٢٩٨.

[١]- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٤.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٥٦، ٢٥٧.- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٢٣. - وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٢، ص٥١، ٥٢.

- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٤٤٧.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٥٦، ٥٧.

[٣]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٧٢،٢٧١.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٥٩.

[٤]- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦٥.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٢.

[٥]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٢٥.

[٦]- جبيل: مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط، وصفها الإدريسي بقوله: " .. **هي مدينة حسنة على البحر لها سور من حجر حصين ...**". - الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٢.

[٧]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٤.

[٨]- قيسارية: مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط وتعد من أعمال فلسطين، ووصفها الإدريسي بقوله:" **قيسارية بلد كبير عظيم له ربض عامر وحصن منيع حسن**"، كما يصفها ياقوت الحموي بقوله:" **كانت قديماً من أعيان أمهات المدن واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل....**".

- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٥٦.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٤٢١

[٩]- أرسوف: تقع على ساحل البحر المتوسط إلى الشمال من مدينة يافا على بعد ستة أميال.- أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٣٩.

لحم، فاستولتْ عليها، حيث تدعي المصادر الصليبية أن السكان العرب المسيحيين هم مَن طلب النجدة من الصليبيين[١].

ولكن هنا لابد من الوقوف عند هذه الروايات والتأكد من صحتها، وبخاصة أن المصادر العربية الإسلامية لا تورد ذكر لها، كما أن قيام عدد من مسيحيي بيت لحم بمراسلة الصليبيين للاستيلاء على مدينتهم، لا يعني وجود إجماع عام للسكان المسيحيين في المدينة على هذا الموقف، ويمكن تسويغ توجه تانكرد إلى بيت لحم لدواعي عسكرية، إذ تقع إلى الجنوب من مدينة بيت المقدس، وإن السيطرة عليها تعد من مقتضيات عملية حصار بيت المقدس؛ لمنع وصول الإمدادات التي قد ترسلها الدولة الفاطمية، والتي ستسلك الطريق الواصل بين عسقلان، بيت لحم ، فمدينة بيت المقدس.

وبعد السيطرة على بيت لحم، اتجه الجيش الرئيس للصليبيين نحو مدينة بيت المقدس، فوصلها في رجب سنة ٤٩٢هـ/ ٧ حزيران١٠٩٩م وقام بحصارها إلا أنه لم يمتلك المواد اللازمة لبناء آلات الحصار، وفي هذه الآونة رست عدة مراكب جنوية في ميناء يافا، فبعث الصليبيون قوة لحمايتها، وقد أنزلت تلك المراكب حمولتها داخل يافا، ولكن الأسطول الفاطمي باغت الصليبيين في يافا، ونتيجة إدراكهم عدم قدرتهم على مقاومة هذا الأسطول، قام الصليبيون بتفكيك المراكب وحملوا كل تجهيزاتها نحو بيت المقدس حيث استفادوا منها في صناعةآلات الحصار فضلاً عن أن الأسطول الجنوي ضمَّ العديد من الخبراء بصناعة تلك الآلات[٢]، وعلى الرغم من استماتة المدافعين إلا أن مدينة بيت المقدس لم تلقَ أيةَ نجدة سواء من الخلافة الفاطمية، أو من الحكام السلاجقة في بلاد الشام، لذلك سرعان ما سقطت بعد حصار استمر ما يقارب إحدى وأربعين يوماً، وذلك في يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٥ تموز ١٠٩٩م، وعلى أثر ذلك قام الصليبيون بقتل جميع سكانها ونهب بيوتهم وقم مؤرِّخو الحملة الأولى وصفاً دقيقاً لأعمال القتل والذبح في داخل المدينة، فالمؤرخ المجهول صاحب كتاب أعمال الفرنجة وصف ذلك بقوله: "**... لما دخل حجاجنا المدينة جدوا في قتل المسلمين وطاردوهم حتى المسجد العمري حيث تجمعوا هناك واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أبشع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله، حتى فاض المعبد كله بدمائهم...**"[٣].

في حين قدم المؤرخ ريمون دي جيل وصفاً أبشع للممارسات الفرنجية بقوله:" ... **فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة، ... وفي الوقت نفسه عذب آخرون بشدة لوقت طويل وأحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهاباً وإياباً فوق الجثث**"[٤]، وأيضاً خلال وصفه قتل السكان الذين تحصنوا داخل المسجد الأقصى:"**...وفي الأروقة خاض حملة الصليب بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم**"[٥]، ويؤكد ذلك وليم الصوري بقوله:" **ودخل المسجد حشد من الفرسان والمشاة، فذبحوا ذبح الشاة كل من لجأ إلى هنا يبتغي الحماية، وأعملوا القتل فيهم لم تأخذهم رحمة بأحد ما، حتى فاض المكان بدماء الضحايا**"[٦].كما يقدم نقلاً عن مصادره الكتابية والشفهية وصفاً لتلك الأعمال الوحشية بقوله:" ... **كانت الأشلاء البشرية في كل ناحية،**

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٥٩.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٩.

[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٧. - ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٨٦،٢٨٥.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٤، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٦، ١٠٧ .

[٣]- المورخ المجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٧٠.

[٤] - ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٩٥.

[٥]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٩٥.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢٧.

وغطت الأرض دماء المذبوحين، ولم تكن مطالعة الجثث ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة في جميع الأرجاء هي وحدها التي أثارت الرعب في نفوس جميع من شاهدوها، بل كان هناك ما هو أبعث على الفزع ألا هو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا بالدماء فغطتهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم ..."[١].

كما يصف ألبرت عمليات القتل بقوله:" واتجهوا **إلى الهيكل وأخذوا يذبحون بقية المسلمين بطريقة بشعة، وسالت دماء كثيرة كالسواقي على بلاط الساحة الكبيرة، حتى غطس الحجاج في الدماء الحمراء إلى الكعبين"**[٢].

ومن صور الوحشية الفرنجية أيضاً قيامهم ببقر بطون الموتى بحثاً عن الكنوز لاعتقادهم بأن العديد من سكان بيت المقدس خوفاً من قيام الفرنجة بسرقة نقودهم قاموا بابتلاعها، وأظهر ذلك فولتشر بقوله:" **كم كانت دهشتك عظيمة لو أنك شاهدت رجالنا من الرجالة وحملة الدرق**[٣]**، يبقرون بطون من ذبحوا من المسلمين ليستخرجوا من بطونهم الدنانير الذهبية التي كانوا ابتلعوها وهم ما يزالون على قيد الحياة ..."**[٤]، ويذكر هذا الامر أيضاً ألبرت بقوله:" **بعد المجزرة الرهيبة الدموية للمسلمين ... عملوا على ذبح بقية جيش الكفار الذين كانوا في حالة خوف وقتلوهم بالسيوف، كما ذبح الصليبيون النساء، وبقروا بطونهن بالحراب، كما نزعوا الاطفال الرضع عن صدور أمهاتهم، ومن أسرتهم، وقذفوهم على عتبات البيوت وذبحوهم، ولم يسلم من الكفار أحد لا كبير ولا صغير، ولا ذكر ولا أنثى، ولا نساء ولا أطفال من الذبح"**[٥].

وهكذا ارتكب صليبيو الحملة الأولى أفظع عمليات القتل والذبح ضد السكان الأبرياء يدفعهم إلى ذلك حب النهب والتعصب الأعمى ضد العرب والإسلام، حتى أنهم أبادوا سكان المدينة أجمعها باستثناء عدد قليل تعرض للاضطهاد والعبودية، وتمثلت أبشع صور الاضطهاد بإجبار الناجين على إخلاء شوارع وأحياء المدينة من جثث القتلى ونقلها إلى خارج المدينة ومن ثم العمل على إحراقها[٦].

أما فيما يتعلق بأعداد من قتل من سكان مدينة بيت المقدس فالمؤرخون الصليبيون لم يتمكنوا من تقديم إحصاء دقيق للعدد الإجمالي لمن سقط قتيلاً داخل المدينة، إلا أن كتاباتهم تضمنت بعض المعلومات التي تدل على كثرة عدد القتلى، فالمؤرخ المجهول يظهر دهشته من عدد القتلى الذين أحرقوا خارج المدينة بقوله:"**... ولا يعلم غير الرب عدد الذين أحرقوا..."**[٧]. بينما توديبود يصف تلك الجموع التي طرحت للحرق خارج المدينة بأنها بلغت بارتفاعها ارتفاع البيوت[٨]، وهذا دليل على كثرة من سقط قتيلاً . أما ريمون دي جيل فقد قدم خلال حديثه عن أعداد القوات المدافعة عن بيت المقدس إشارة إلى كثرة السكان داخلها سواء من المدنيين أو العسكريين، إذ قدر عدد تلك القوات بحوالي الستين ألفاً فضلاً عن تواجد أعداد لا يمكن إحصائها من النساء والأطفال[٩]. ويمكن تبرير رواية ريمون دي جيل بوجود هذا العدد من المقاتلين إلى مشاركة جميع سكان المدينة بمختلف فئاتهم في مقاومة الصليبيين.

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢٧.
[٢]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٤٣.
[٣]- درق: هي تروس جلدية. ـ ابن منظور، لسان العرب، مج٢، ص١٣٦٤.
[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٦٥.
[٥]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٤٤.
[٦]- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٧١. - توديبود، تاريخ الرحلة، ص٣١٩. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٣٤.
[٧]- مؤلف مجهول، صاحب يوميات أعمال الفرنجة" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٧١
[٨]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٣١٩.
[٩]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٢٩٢.

في حين أن فولتشر أوف تشارترز قدر عدد القتلى في المسجد الأقصى لوحده بما يقارب عشرة آلاف شخص[١]. كما قدر وليم الصوري عدد من قتل في أرجاء المدينة باستثناء المسجد الأقصى ما يقارب عشرة آلاف شخص[٢].

وهنا يمكن الاستنتاج من الروايات الصليبيةبأن عدد من سقط شهيداً في مدينة بيت المقدس سواء في أثناء الحصار أو بعد استيلاء الفرنجة عليها كان يتراوح ما بين عشرين ألفاً وما يزيد عن الستين ألفاً وبخاصة إذا اعتمدنا على رواية ريموند دي جيل حول أعداد القوات المدافعة عن المدينة. بينما اختلفت المصادر العربية الإسلامية في تقدير عدد من قتل على أيدي الفرنجة، فكل من ابن الأثير وابن الجوزي(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) وابن كثير(ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ذكروا بأن عدد من قتل في جميع أنحاء المدينة ما يزيد عن سبعين ألفاً [٣]، في حين ذكر المقريزي أن عدد من قتل داخل المسجد الأقصى فقط بلغ ما يزيد على سبعين ألفاً [٤]. أما عند تغردي بردي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) فقد بلغ من قتل داخل الحرم القدسي مائة ألف وسبوا مثلهم[٥]. ويبدو بأن كل من المقريزي وابن تغردي قاما بالمبالغة في تقدير أعداد من سقط شهيداً في المدينة، ولم يقوما بذكر مصادر معلوماتهما عن تلك التقديرات.

وعلى الرغم من مبالغة بعض المؤرخين العرب المسلمين في تحديد أعداد شهداء بيت المقدس، لكن يمكن القول:أن كلاً من روايات ابن الأثير وابن الجوزي وابن الكثير التي تحدثت عن عدد الشهداء صحيحة نوعاً ما إذا ما قورنت ببعض الروايات الصليبية وبخاصة رواية ريمون دي جيل الذي قدر عدد القوات المدافعة عن المدينة بحوالي الستين ألفا[٦].

وبذلك وصلت الجموع الصليبية إلى هدفها المنشود والمتمثل بادعائهم - تحرير قبر السيد المسيح من سيطرة المسلمين.

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٦٥.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢٧.

[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٥. - ابن الجوزي، المنتظم ،ج ١٧، ص٤٧.- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)، تاريخ الصالحي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ٢٠١٠م، ج١، ص ١٥٥.

- ابن كثير(إسماعيل بن عمر)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ١٩٩٨م، ج١٦، ص١٦٦.

[٤]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣.

[٥]- ابن تغردي بردي (يوسف)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٥، ص ١٤٨.

[٦]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٩٢.

ثانياً- التوسع الصليبي في الساحل الشامي:

وما إن سيطر الصليبيون على مدينة بيت المقدس حتى صاروا على تخوم الدولة الفاطمية، التي استشعرت الخطر الصليبي، وخاصة أنّ بيت المقدس كانت إحدى المناطق التابعة لها، لذلك قام الوزير الأفضل بجمع قواته، وزحف بها نحو عسقلان، فوصلها في ١٤ رمضان سنة ٤٩٢هـ/١٢ أب ١٠٩٩م ، وقد ضمّ إليه عسكر الثغور، فنزل بظاهرها، وقام بمراسلة الصليبيين، وأنكر عليهم ما فعلوه في مدينة بيت المقدس من قتل وتدمير، وتوعّدهم في خطابه هذا. وبعيد عودة الرسول حاملاً جواب الصليبيين كان الدوق غودفروي قد جمع قواته التي بلغت -حسب المصادر الصليبية -ألفاً ومئتي فارس وتسعة آلاف راجل، فزحف بهم سريعا[١] نحو معسكر جيش الأفضل، وهاجمه في غفلة، فانسحب بجيشه إلى داخل عسقلان، وعلى إثر ذلك عاد بخواصه إلى مصر، فاستولى الصليبيون على كل موجودات معسكر الأفضل[٢]، وقد بلغ عدد قتلى العرب المسلمين - حسب ما أورده ابن القلانسي- عشرة آلاف شخص[٣]، ثم قاموا بحصار عسقلان؛ إلا أن تحصينها حال دون سقوطها، لذلك اكتفى الصليبيون بمطالبة سكانها بدفع ضريبة تراوح مقدارها بين ١٢و٢٠ آلف دينار، إلا أنّ سكان عسقلان لم يدفعوا هذا المبلغ نتيجة حدوث خلافات بين القادة الصليبيين، الذين اضطروا للعودة إلى بيت المقدس[٤].

وفضلاً عن الخطر الفاطمي واجه الصليبيون مشكلة كبيرة تمثلت بقلة أعدادهم مقارنة بأعداد السكان العرب في المناطق التي استولوا عليها، خاصة بعد الاستيلاء على بيت المقدس حيث اعتبر الكثيرون ممن شاركوا في الحملة الصليبية الأولى أن المهمة التي جاؤوا من أجلها قد تحققت، فعادوا إلى بلدانهم في القارة الأوربية، في حين اتجه البعض الآخر إلى شمال بلاد الشام يسعى لتأسيس ممالك خاصة به[٥].

وأدى ذلك لحدوث نقص في القوة المقاتلة لدى الصليبيين الذين أدركوا ضرورة ترسيخ نفوذهم من خلال الاستيلاء على المدن والموانئ الساحلية؛ لكي يبقوا على اتصال بالأساطيل الأوربية التي تزودهم بالمؤن والمقاتلين القادمين من أوربا، فقاموا بالاستيلاء على المدن التالية[٦]:

١- الاستيلاء على حيفا:

في سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م وصل إلى ميناء مدينة يافا أسطول بندقي، فقام الدوق غودفروي حاكم بيت المقدس بمفاوضته من أجل تقديم المساعدة في الاستيلاء على المدن الساحلية القريبة من بيت المقدس، فاشترط البنادقة أن يكون لهم ثلث كل مدينة ساحلية يتم الاستيلاء عليها بمساعدتهم، فضلاً عن العديد من الإمتيازات التجارية، وتم الإتفاق على مهاجمة مدينة عكا، إلا أن وفاة الدوق غودفروي أدت إلى تأجيل هذه الحملة، إلا أن تانكر الذي سيطر على معظم مناطق الجليل، سعى

[١]- يمكن تبرير إسراع الدوق غودفروي بقواته لمواجهة القوات الفاطمية؛ بخوفه بأن يحدث للصليبيون من مجاعة وضيق الحال، كما حصل لهم عند قيام الأتابك كربوغا بمحاصرة مدينة أنطاكية.
[٢] - مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٧٥.- توديبود، تاريخ الرحلة، ص٣٣٩،٣٤١.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٢٣.
[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٢٣. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٤.
[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٧١.- زابوروف، الصليبيون، ص١٢٦.
[٦]-تم الحديث عن هذه المدن تبعاً لتاريخ استيلاء الصليبيين عليها.

لعدم تضويع فرصة وجود أسطول البندقية، فعرض عليهم مهاجمة مدينة حيفا، وحظي اقتراح تانكرد تأييد البطريرك ديمبرت[١].

وقد هدف الأمير تانكرد من وراء اقتراح مهاجمة حيفا، إلى تحقيق أهدافه الشخصية المتمثلة في الحصول على منفذ بحري لإمارة الجليل، ومن أجل ذلك قام بجمع قواته من نابلس، ومدن الجليل، وتحضير آلات الحصار، إذ تم تحضير سبع منجنيقات وعدد من الأبراج، وعند اكتمال التجهيزات اللازمة للحملة، زحفت القوات الصليبية البرية صوب المدينة في أواخر رمضان ٤٩٣هـ/ تموز ١١٠٠م، وفرضت الحصار عليها، وأبدى سكان حيفا مقاومة شديدة، واستمر ذلك لمدة خمسة عشر يوماً[٢].

وبعد عدة أيام من الحصار لم يسهم تانكرد في القتال؛ إذ علم بأن الدوق غودفروي قد وعد الفارس جالديمار بمنحه مدينة حيفا في حال سقوطها، وهدد تانكرد بالإنسحاب، إلا أن البطريرك ديمبرت استطاع ان يرضي تانكرد واعداً له بالحصول على المدينة، فضاعف جهوده في الحصار، وما لبثت قوات الصليبيين والبنادقة باقتحام المدينة وقتل كل من وجدوه، ونهب الأموال[٣]، ولكن سرعان ما نشب قتال بين قوات تانكرد وقوات منافسه جالديمار للتفرد في السيطرة على المدينة، وكان النصر من نصيب تانكرد نظراً لتفوق قواته وكثرتها على قوات جالديمار[٤]. وبذلك استطاع تانكرد بتحقيق حلمه في الحصول على منفذ بحري لإمارته الناشئة والتي ضمت مناطق الجليل ونابلس.

٢- الاستيلاء على أرسوف وقيسارية:

سعى غودفروي منذ توليه عرش المملكة الصليبية في بيت المقدس إلى تأمين موانئ تحقق اتصال الصليبيين مع السفن الأوربية، لذلك زحف نحو مدينة أرسوف سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م ، ففرض الحصار عليها، إلا أن المدينة صمدت نتيجة شجاعة حاميتها، وتوفّر المؤن، في وقت كان الصليبيون يعانون من قلة المؤن، كما افتقروا لوجود أسطول يستطيع منع سكان المدينة من الخروج والدخول إليها بحرية من جهة البحر، وكل ذلك دفع غودفروي لرفع الحصار والعودة إلى بيت المقدس[٥].

وعندما تسلم بلدوين الأول حكم مملكة بيت المقدس الصليبية سنة٤٩٤هـ/١١٠١م كانت الطرق البرية التي تصل ما بين الساحل ومدينة بيت المقدس غير آمنة[٦]، ولذلك سعى للاستيلاء على المدن الساحلية والمناطق المجاورة لها، وحاول تلافي أخطاء أخيه غودفروي من خلال تأمين أسطول يساعده في حصار المدن بحرياً، فقام بالتحالف مع أسطول جنوي كان يرسو في ميناء يافا، وعقد معه اتفاقاً لحصار أرسوف مقابل حصوله على ثلث الأسرى والغنائم وتخصيص شارع وحي في كل مدينة؛ يسهم الجنويون في الاستيلاء عليها[٧]، وعلى اثر ذلك اتجه بلدوين لحصار المدينة براً وبحراً، وقام الصليبيون بتشييد برج؛ لتشديد الحصار، ولكنه دمر نتيجة ثقل العدد الكبير من المقاتلين

---

[١]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٥١، ص١٧٧.
- عاشور(سعيد عبد الفتاح)، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠١٠م، ج١، ص٢٢٣.

[٢]- عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٢٣.

[٣]- آلبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٧٨. - عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٢٤.

[٤]- آلبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٨٠.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨١.

[٦]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩٢،٣٩١.

[٧]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢١٦، ٢١٧. - رانسيمان (ستيفن)، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د. ت، ج٢، ص١٠٥.

المتواجدين داخله[١]، ومع استمرار الحصار وعدم وصول العون من الدولة الفاطمية، اضطر سكان المدينة للتفاوض مع الصليبيين على تسليم المدينة مقابل منحهم الأمان على أنفسهم وأن يخلّوا وراءهم كلّ أمتعتهم[٢].

وبعد ذلك زحف الملك بلدوين الأول نحو مدينة قيسارية ففرض عليها الحصار في سنة ٤٩٤هـ/ ٢أيار ١١٠١م، إلا أن المدينة كانت تمتاز بحصانة ومتانة أسوارها[٣]، لذلك قام الصليبيون ببناء أبراج خشبية لتشديد الحصار على المدينة، واستمر الحصار لمدة ١٥ يوماً، ولم يستطع سكان المدينة مواصلة الدفاع، فقام الصليبيون باقتحام المدينة في رجب سنة٤٩٤هـ/١٧ أيار ١١٠١م، وأخذوا يعيثون فساداً وقتلاً في أرجائها[٤]، حيث يصف فولتشر أوف تشارترز ذلك بقوله:" **ولم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور، لكننا احتفظنا بكثير من النساء، حيث من الممكن الإفادة منهن على الأقل في تحريك الطواحين، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفرنجة الجميلات منهن والقبيحات ...**" [٥]، وهذا يدل على وحشية الصليبيين تجاه سكان المدن والمناطق التي استولوا عليها.

ولم يكتفِ الصليبيون وحلفاؤهم الجنويون بذلك بل قاموا بإحراق جثث سكان المدينة، وبقر بطونهم بحثاً عن الكنوز التي أخفوها - بحسب ظن الصليبيين- كما قتلوا جميع من التجأ من سكانها إلى جامع المدينة[٦]، بينما حافظ الملك بلدوين الأول على حياة كلٍّ مِن حاكم المدينة، وقاضيها؛طمعاً في الحصول على الأموال التي قد يعينون بها أنفسهم[٧].

٣- الاستيلاء على طرطوس:

بعدما فشل الكونت ريموند في تحقيق حلمه في تأسيس إمارة خاصة به في أنطاكية وعرقة وعسقلان، غادر بلاد الشام إلى القسطنطنية، وأقام فيها حتى قدوم الحملة اللومباردية سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م، حيث اتجه معها إلى داخل أسيا الصغرى، وعند إخفاقها اتجه مع ما تبقى من مقاتليها إلى أنطاكية، وعند ذلك قام حاكمها تانكرد بإلقاء القبض عليه، ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بالتنازل عن كل إدعاءاته في أنطاكية[٨]، فاتجه ريموند إلى اللاذقية وقام بسحب قواته المتواجدة فيها، وأخذ يفكر في الاستيلاء على مدينة طرطوس وجعْلها نواة لإمارته المنشودة، ولتحقيق ذلك تحالف مع الأسطول الجنوي المتواجد بالقرب من اللاذقية فضلاً عن بقايا الحملة اللومباردية، ثمَّ زحف نحو طرطوس، فحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها سنة ٤٩٥هـ/ شباط١١٠٢م[٩].

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٨.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٥٥.- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٤. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٩.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٥٨. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٢٥٣.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٠٥.

[٣]- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٢٥٠.

[٤]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٥،٣٩٦. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٥. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٢٠، ٢٢١. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٥٨.

[٥]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٦.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٢١. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٠٥، ١٠٦.

[٧]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٧. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٠٦.

[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٥.

[٩]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٤٠٨. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٦، ٢٢٨. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨٩.

٤- الاستيلاء على عكا:

تميزت مدينة عكا بأهمية مينائها الذي يعد مرفأ آمناً لرسو السفن، وكان صليبيو بيت المقدس بحاجة لمثل هذا الميناء لاستقبال السفن القادمة من أوربا، ويؤكد ذلك فولتشر أوف تشارترز بقوله:**"وكنا بأمس الحاجة إلى هذه المدينة لأن فيها مرسى واسع جداً يمكن أن ترسو بين أبراجه الآمنة أعداد كبيرة من السفن"**[١]، كما أن وجود هذه المدينة بين الجبال والبحر جعلها ذات موقع فريد، فضلاً عن غنى أراضيها وحقولها[٢]، لذلك قام الملك غودفروي بحصار عكا في سنة٤٩٤هـ/١١٠١م إلا أنه أصيب بسهم أودى بحياته فاضطر الصليبيون لفك الحصار[٣].

ومع استلام بلدوين الأول حكم مملكة بيت المقدس الصليبية تواصلت هجمات العرب المسلمين من عكا على الطرق التي تصل الساحل ببيت المقدس، لذلك زحف بلدوين الأول بقواته القليلة العدد لحصار عكا بمساعدة بعض السفن الإنكليزية[٤]، إلا أن متانة تحصينات المدينة وشجاعة حاميتها فضلاً عن وصول اثنتي عشرة سفينة من صور وصيدا محملة بالمؤن والرجال، وتمكُنها من إحراق بعض السفن الصليبية، كل ذلك دفع بلدوين الأول لفك الحصار بعد تخريب البساتين المحيطة بالمدينة[٥]، وأدرك أن التمهيد للاستيلاء على عكا لن يتمّ إلا باحتلال المناطق المجاورة لها وخاصة جبل الكرمل[٦]، إلا أنه أصيب خلال إحدى المعارك التي خاضها في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م[٧].

وفي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م زحف بلدوين الأول نحو مدينة عكا، وتحالف مع أسطول جنوي قادم من شمال ساحل بلاد الشام للاستيلاء على المدينة، فقام الحلفاء بحصارها براً وبحراً، وأبدى المدافعون عنها شجاعة نادرة ومع استمرار الحصار لمدة عشرين يوماً وعدم وصول النجدات[٨]، دفع هذا الأمر والي المدينة لطلب الأمان له ولسكان المدينة إلا أن بلدوين الأول استمر في القتال نتيجة لما رآه من ضعف الوالي[٩]، ولكن الوالي استطاع التوصل إلى اتفاق مع الصليبيين لخروجه مع قواته إلى دمشق، تاركاً أهالي المدينة لمصيرهم، وما لبث أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على المدينة وفعلوا بأهلهاالأفعال الشنيعة[١٠]، حيث **" قتلوا كثير من المسلمين لكنهم أبقوا على حياة بعضهم بعدما انتزعوا منهم جميع ما يملكون"**[١١]. وبذلك يمكن القول أن مدينة عكا سقطت بيد الصليبيين نتيجة شراسة هجمات القوات الصليبية براًوبحراً، إضافة لخيانة والي المدينة الذي فضل النجاة بروحه وعساكره، دون تأمين المدينة عسكرياً.

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٤١٧.
[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٣.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٤. - العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٦٠.
[٤]- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٧٦.
[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٤١٦. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١١٨. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٧٦.
[٦]- جبل الكرمل: يعد امتداداً لجبال نابلس، ويبدأ من وادي الملح الذي تصب مياهه في نهر المقطع، وينتهي على شاطئ البحر المتوسط عند مدينة حيفا، يبلغ طوله نحو ١٥ميلاً، وعرضه يتراوح بين ٤- ٥ أميال، يبلغ ارتفاع أعلى قممه ٥٤٦م.- الدباغ (مصطفى مراد)، بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١م، ج٧، ق ٢، ص٤٧١.
[٧]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١١٨.
[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤١٧. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣٢. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٥.
[٩]- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٧٥.
[١٠]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٥.
[١١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤١٧.

٥- الاستيلاء على اللاذقية:

أدى استيلاء بوهيموند على مدينة أنطاكية إلى إثارة رغبة باقي القادة الصليبيين في الاستيلاء على المناطق المجاورة لأنطاكية سعياً لتأسيس إمارات خاصة بهم في بلاد الشام، ومنهم روبرت النورماندي الذي زحف صوب اللاذقية للاستيلاء عليها، فطرد من قبل السكان المحليين الذين فضلوا عليه الحامية البيزنطية التي قدمت من قبرص في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م[١]، كما حاول القرصان الصليبي غينمر الاستيلاء عليها، لكنه وقع أسيراً بيد البيزنطيين نتيجة قلة قواته وذلك أواخر سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م[٢]، وعند زحف باقي قوات الحملة الصليبية المتمركزة في أنطاكية، اتخذت الطريق الساحلي، وسرعان ما وصلت إلى مدينة اللاذقية في ٤٩٢هـ/آذار١٠٩٩م، حيث احتشد فيها حوالي خمسة وعشرون ألف مقاتل. تابعوا بعدها زحفهم نحو بيت المقدس[٣].

وفي أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي شكلت السيطرة البيزنطية على اللاذقيةوكيليكية خطراً يهدد كيان الإمارة النورماندية بأنطاكية، فقام تانكرد في سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م بمهاجمة كيليكية واستطاع الاستيلاء على مدن طرسوس والمصيصة وأضنة، ثم أخذ يعد العدة للاستيلاء على اللاذقية، فقام بالسيطرة على المناطق المحيطة بها، كما قام بالتفاوض مع مدينة جنوى للحصول على دعم أسطولها، إلا أن وجود الأسطول البيزنطي فيها إضافة إلى تمركز قوات الكونت ريموند هناك شكلا خطراً على مشروعه للاستيلاء على اللاذقية، لذلك استغل قدوم ريموند مع بقايا الحملة اللومباردية إلى أنطاكية، فقام باعتقاله ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تنازل عن أطماعه في أنطاكية، وعدم التدخل في شؤون شمال الساحل الشامي، وعلى إثر ذلك سحب ريموند قواته المتواجدة في اللاذقية وتوجه لحصار طرطوس، وبذلك بقيت الحامية البيزنطية العائق الوحيد في وجه تانكرد، فزحف بقواته في فصل الربيع سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م وفرض حصاراً على المدينة استمر عاماً كاملاً [٤]، فقام قائد الحامية البيزنطية بطلب النجدة والعون من قبرص، إلا أن الاستجابة لتلك النداءات كانت بطيئة، كما ازدادت أوضاع المدينة سوءاً بسبب المجاعة التي انتشرت فيها، وهذه الأمور دفعت الحامية البيزنطية إلى تسليم المدينة[٥]، أما رانسيمان فيذكر أن تانكرد تمكن من خلال خدعة حربية من قتل وأسر أعداداً من أفراد الحامية البيزنطية خارج أسوار المدينة ولذلك استسلمت المدينة له سنة ٤٩٧هـ/أوائل ١١٠٣م[٦].

وعند وصول أنباء سقوط المدينة إلى الإمبراطور البيزنطي سارع لإعداد حملتين الأولى لاسترداد منطقة كيليكية، و الثانية لاستعادة مدينة اللاذقية وذلك سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، وقد تمكن البيزنطيون من الاستيلاء على مدن كيليكية بسهولة، في حين اتجه أسطول بيزنطي إلى اللاذقية وتمكن من الاستيلاء عليها وعلى مينائها، إلا أن قلعة المدينة بقيت بيد مقاتلي بوهيموند، الذي سارع لجمع قواته واتجه صوب اللاذقية، واشتبك مع البيزنطيين واستطاع خلال تلك المناوشات دخول القلعة، ونتيجة عدم ثقته بقائد القلعة ورجاله قام باستبدالهم، كما قام بتدمير الكروم القريبة من الأسوار

---

[١]- زابوروف، الصليبيون، ص١٠٨.
[٢]- ولكن ألبرت فون آخن يذكر بأن غنمير احتل مدينة اللاذقية بجهوده الشخصية في أثناء حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية. ويبدو أنه سعى لتأسيس إقطاعية خاصة به.- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٥١، ص ٦٩.
[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٩، ٥٠.
[٤]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٦٥، ٦٦.
[٥]- آنا كومنين، الألكسياد، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٦١.
[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٦.

لإعطاء الفرسان الصليبيين حرية الحركة، وعلى إثر ذلك عاد إلى أنطاكية دون أن يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم نتيجة افتقاره لوجود قوة بحرية[١].

وما لبث بوهيموند أن غادر أنطاكية إلى إمارته في جنوب إيطالية، بعد أن عهد بإدارة شؤون إمارة أنطاكية لتانكرد وذلك سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، فسعى تانكرد لتأمين حدود الإمارة، وتمكن في ٤٩٩هـ/١١٠٥م من استعادة مدينة أرتاح، كما أعاد السيطرة على البارة ومعرة النعمان، واستولى في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م على مدينة أفاميا، وبذلك أمّن حدوده الشرقية والجنوبية، وتفرغ للصراع مع بيزنطة. وفي خضم هذه الأحداث قام بوهيموند في سنة٥٠١هـ/ ١١٠٧م بمهاجمة المقاطعات البيزنطية في البلقان، مما دفع الإمبراطورية البيزنطية لاستدعاء قواتها البحرية من اللاذقية مما أضعف موقف الحامية البيزنطية فيها، وعلى أثر ذلك طلب تانكرد مساعدة أسطول بيزا للاستيلاء على المدينة، بمقابل حصوله على أحد شوارع أنطاكية وأحد أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع، وفي سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م تمكن تانكرد وأسطول بيزا من الاستيلاء على اللاذقية[٢].

٦- الاستيلاء على طرابلس وأعمالها:

أخذ الكونت ريموند عند استيلائه على مدينة طرطوس سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م، يسعى للاستيلاء على مدينة طرابلس، وجعلها عاصمة لإمارته التي يطمح لتأسيسها في بلاد الشام، ولكنه لم يلق أية مساعدة من بقايا رجال الحملة اللومباردية الذين شاركوه في الاستيلاء على طرطوس، والذين أصروا على متابعة الزحف نحو بيت المقدس، فبقي ريموند بصحبة عدد قليل من مقاتليه قدّروا بثلاثمئة مقاتل[٣]، وأخذ يخطط لمهاجمة طرابلس، وعندما علم فخر الملك ابن عمار حاكم طرابلس[٤] بذلك طلب المساعدة من حاكمي دمشق وحمص (الملك دقاق و جناح الدولة حسين) اللذين أرسلا قوة لنجدة طرابلس، وعند ذلك قام ريموند بتقسيم قواته لمواجهة هذا التحالف، وتمكن من الانتصار على المسلمين، وقد اختلفت المصادر حول موقع هذه المعركة، فابن القلانسي يذكر أنها جرت عند مدينة طرطوس، في حين يذكر ابن الأثير بأنها جرت عند مدينة طرابلس[٥]، وقدر ابن الأثير عدد قتلى المسلمين بسبعة آلاف شخص[٦].

وهنا يطرح تساؤل: كيف تمكن ثلاثمئة مقاتل صليبي من الانتصار على قوة يزيد عددها عن سبعة آلاف مقاتل؟

---

[١]- آنا كومنين، الألكسياد، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٦٤، ٦٩، ٧٢، ٧٣. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٧٦.

[٢]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٨١-٨٣.

[٣]- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٠٦.

[٤]- هو فخر الملك أبو الفضل علي بن محمد بن عمار، تولى الحكم بعد وفاة أخيه جلال الملك سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، ومنذ بداية حكمه واجه الخطر الصليبي ، وتمكن من الوقوف في وجه الهجمات الصليبية لما يقارب ستة أعوام، وقد وصفه الذهبي بقوله:" **كان من دهاة الرجال وأفراد الزمان شجاعة وإقداماً ورأياً وحزماً، ابتلي بلده بحصار الفرنج خمسة أعوام، وهو يقاومهم وينكي في العدو، ويستظهر عليهم، ويراسل ملوك الأطراف، ويتحفهم بالهدايا، وهم حائرون في أنفسهم، ولم ينجده أحد، ...، وكان حسن التدبير في الحصار، جيد المكيدة والمخادعة، براً وبحراً، شتاء وصيفا، حتى تفانت رجاله".**

- الذهبي، سير أعلام، مج١٩، ص ٣١١. - ابن الفوطي (عبد الرزاق بن أحمد)، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ١٩٩٥م، ج٣، ص٩٣.

- سالم (السيد عبد العزيز)، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٦م، ص٧٣.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٨. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧٣.

[٦]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧٣.

ويمكن تسويغ ذلك أن الكونت ريموند قد حصل على مساعدة من بعض السكان العرب المسيحيين، ويؤيد ذلك ابن الأثير بقوله:" **ونازل صنجيل طرابلس وحصرها وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها وكذلك أهل السواد وأكثرهم نصارى..."**[١]، وعلى إثر هذه المعركة اتجه ريموند لحصار طرابلس إلا أنه فشل في الاستيلاء عليها نتيجة قوة تحصيناتها، كما قام فخر الملك ابن عمار بشراء الهدنة مع الصليبيين عن طريق دفع الأموال والخيل لهم[٢]، إلا أن ريموند عاد وحاصر المدينة في النصف الثاني من سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م ولكن دون فائدة، وعلى الرغم من ذلك لم يفتر ريموند عن الإغارة على أعمال طرابلس، واستمر في ذلك لمدة سنتين، بينما بقيت طرابلس صامدة ، وذلك لعدم وجود قوة بحرية صليبية قادرة على حصار المدينة من جهة البحر، وبالتالي الحيلولة دون وصول النجدات و المؤن إلى المدينة[٣].

كما قام ريموند بحصار طرابلس في سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م، إلا أن فخر الملك ابن عمار تمكن من إضعاف هذا الحصار عبر إغارة سفنه على البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون، مما دفعهم لفك الحصار عن مدينة طرابلس[٤].

وفي خضم صراع طرابلس مع الصليبيين بقيادة ريموند، تعرضت المدينة لحصار بحري من قبل الأسطول الفاطمي بقيادة سماء الملك حسين ابن الأفضل في سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م، وطُلب من فخر الملك ابن عمار تسليم المدينة إلا أنه رفض ذلك، وقام بإغلاق أبوابها، وأدرك الفاطميون عدم قدرتهم الاستيلاء على المدينة، فقاموا برفع الحصار والعودة إلى مصر[٥].

وقد أدرك ريموند ضرورة العمل على عزل طرابلس عن محيطها مما قد يؤدي لمنع وصول الإمدادات إليها وبالتالي إضعافها، فقام بالإغارة على منطقة البقاع في سنة٤٩٦هـ/١١٠٣م ولكنه فشل، فاتجه لحصار حصن الأكراد ثم حصار حمص، إلا أنه اضطر للانسحاب على إثر قدوم قوات دمشق[٦]، كما أدرك ريموند بأن الاستيلاء على طرابلس لن يتمّ بدون حصارها من جهة البحر، لذلك وفي سنة٤٩٦هـ/١١٠٣ وما أن علم بوجود أسطول جنوي في مدينة اللاذقية، حتى عقد معه اتفاقاً للمشاركة في حصار مدينة طرابلس، وعلى إثرها اتجه المتحالفون لحصار المدينة إلا أنهم فشلوا أمام صمودها، واضطر الصليبيون وحلفاؤهم الجنويون إلى أن يفكوا الحصار ويتوجّهوا جنوباً لمهاجمة مدينة جبيل، فقاموا بحصارها وضيقوا عليها وقاتلوها قتالاً شديداً، ومع عدم وصول العون أدرك سكان جبيل عجزهم عن مواصلة التصدي للصليبيين، فتفاوضوا معهم على تسليم المدينة مقابل الحصول على الأمان، إلا أن الصليبيين غدروا أهل المدينة بعد أن سيطروا عليها[٧]، حيث" **لم يفوا بما بذلوه من الأمان وصادروهم واستنفذوا أحوالهم وأموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب"**[٨]، بينما كوفئ أبناء جنوة على مشاركتهم في الاستيلاء على المدينة بأن منحوا ثلثها[٩]. وهكذا يمكن القول: إن ريموند وعند استيلائه على مدينة جبيل وضع حدود إمارته المنشودة في الشرق والتي ستمتد مابين طرطوس شمالاً وجبيل جنوباً، كما أنه بذلك ضيق الخناق على مدينة طرابلس.

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧٣،٤٧٤.
[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧٤. - رانسيمان، تاريخ الحملات،ج٢، ص٩٠.
[٣]- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٠٩.
[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٠.
[٥]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٢.
[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٠.
[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣١. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٥. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣١.
[٩]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.

ولكن على الرغم من ذلك فإن ريموند لم يكن باستطاعته حصارها من البحر بشكل دائم نتيجة عدم امتلاكه قوة بحرية خاصة به، فاستعاض عن ذلك بفرض حصار بري دائم على المدينة، حيث شرع في أواخر١١٠٣م/٤٩٦هـ بالمرابطة عند ظاهرها، كما قام ببناء حصن على إحدى التلال المحيطة بها ودعي هذا الحصن بتلة الحجاج[١]، والذي يسميه المسلمون بحصن صنجيل، وتلقى العون من قبل الإمبراطورية البيزنطية في بنائه وبحلول ربيع سنة٤٩٧ هـ/١١٠٤م اكتمل بناء الحصن. وتبرز أهمية موقعه؛ بأنه يشرف على طرابلس والربض المجاور لها، ويمكن عبرهُ رصد النجدات البرية، والبحرية القادمة لنجدة المدينة، ومراقبة تحرك قواتها، كما أنه قاعدة انطلاق غارات الصليبيين على المدينة، فضلاً عن التحكم بمياه النهر الذي يسقي المدينة[٢].

وبذلك شكل هذا الحصن خطراً كبيراً على طرابلس، فقام فخر الملك ابن عمار في ١٩ذي الحجة سنة٤٩٧هـ/١١٠٤م بمهاجمته وتمكن من إحراقه والاستيلاء على ما فيه من سلاح ومال، وأدى هذا الهجوم إلى اضطرار ريموند لمهادنة ابن عمار في أوائل سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م، ونص الاتفاق على أن يكون ظاهر طرابلس لريموند مع تعهده بعدم قطع الميرة والمؤن عن طرابلس[٣]، ولكن على الرغم من ذلك أخذ فخر الملك بن عمار بالبحث عن حليف، فقام بطلب المساعدة من الأمير سكمان بن أرتق حاكم ماردين الذي سارع لتلبية النجدة إلا أنه توفي عند وصوله إلى القريتين بالقرب من حمص، كما قام بمراسلة الملك رضوان حاكم حلب الذي سارع لتقديم العون لابن عمار، إلا أنه اشتبك مع قوات إمارة أنطاكية الصليبية فهزم وعاد إلى حلب[٤].

ولكن توفي الكونت ريموند في ٤ جمادى الأولى سنة ٤٩٨هـ[٥] /٢أذار١١٠٥م حسبما يذكر فولتشر في حين يذكر رانسيمان وفاته في ٢٨ شباط من العام ذاته دون أن يحقق أحلامه في الاستيلاء على طرابلس[٦]، وخلفه في قيادة الجموع الصليبية المحاصرة لطرابلس ابن أخته وليم جوردان الذي سار على نهج ريموند في مواصلة الحصار، والتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التي بقيت تمده بالمساعدات والمؤن[٧].

وأدى استمرار الحصار إلى قلة المؤن في طرابلس وانتشار الفقر فيها، مما دفع العديد من سكانها لهجرها. هذه الأوضاع دفعت ابن عمار لاتخاذ بعض الإجراءات الاقتصادية التي تؤدي إلى دعم صمود المدينة، حيث **" شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد"**[٨]، إلا أن هذه الإجراءات دفعت اثنين من تجار طرابلس للتسلل إلى معسكر الصليبيين، فقاموا بإرشادهم إلى المناطق التي تأتي المؤن والميرة منها إلى طرابلس، وعلى الفور سعى الصليبيون لمنع وصول الإمدادات من تلك المناطق مما أدى لاشتداد مأساة المدينة[٩].

---

[١]- يفسر وليم الصوري تسمية الحصن بهذا الاسم بقوله:**"ولما كان الحجاج هم الذين شيدوا هذه البناية فقد سماها الكونت- ريموند- اسما يعيد إلى الأذهان ذلك الحدث، ليعرف دائماً باسم تل الحجاج..."**.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٤.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٤.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٠١،٢١١ .

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٣٦- ٢٣٨.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣٦، ٢٣٩. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٠٩.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣٨.

[٦]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٢٢. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٢.

[٧]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٢٦.- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢١٥، ٢١٦.

[٨]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٢٧.

[٩]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٢٧. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٣. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢١٩.

ولكن على الرغم من ذلك فقد أظهر سكان طرابلس مقاومة شديدة، حيث تمكنوا في سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م من الحصول على إمدادات من الطعام عن طريق قبرص وأنطاكية والبندقية ساعدتهم على الصمود خلال هذه السنة[١]، وهذا ما يدل على مدى الصراع بين القادة الصليبيين فلابد أن تانكرد كان على علم بتلك الإمدادات القادمة من أراضي إمارة أنطاكية؛ وربما ما دفعه للتغاضي عنها هو عدائه للصليبيين التي تعود أصولهم إلى منطقة البروفانس، أما البندقية فربما كانت غاضبة من التحالف القائم بين الكونت ريموند ومدينة جنوى، فلذلك سمحت لتجارها ببيع الطعام لطرابلس.

إلا أن ذلك لم يكفِ فسرعان ما تردت الأوضاع داخل المدينة، كما لم تتلقَ أي دعم عسكري من الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام، لذلك قرر فخر الملك بن عمار طلب المساعدة من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، فغادر طرابلس في شعبان ٥٠١هـ/ أذار ١١٠٨م بعد أن رتّب أمور المدينة حيث **" استناب في حفظها أبا المناقب ابن عمه، ووجوه أصحابه وغلمانه، وأطلق لهم واجب ستة أشهر"**[٢]، وعلى إثر ذلك توجه إلى دمشق بصحبة خمسمائة مقاتل[٣]، وسرعان ما شهدت طرابلس اضطرابات نتيجة إعلان أبي المناقب العصيان على فخر الملك، وإعلانه الولاء للدولة الفاطمية، وعندها راسل فخر الملك أتباعه وأمرهم بالقبض على أبي المناقب وحبسه في حصن الخوابي[٤]، وفي دمشق استقبل فخر الملك بكل حفاوة من قبل الأتابك طغتكين، ثم غادر دمشق في ٨ رمضان سنة٥٠١هـ/نيسان ١١٠٨م متّجها نحو بغداد، وفيها تلقى وعوداً بتقديم العون لقتال الصليبيين من قبل السلطان السلجوقي، ولكن هذه الوعود بقيت أقوالاً ، ولم تترجم إلى أفعال، مما دفع فخر الملك للعودة إلى دمشق في منتصف محرم سنة٥٠٢هـ/ آب ١١٠٨م[٥]، وما إن وصل إلى دمشق حتى بلغته أنباء خروج مدينة طرابلس عن طاعته وإعلان سكانها الولاء لتبعية الدولة الفاطمية، وسرعان ما وصل إليها الأسطول الفاطمي محملاً بالمؤن والرجال، وتم تعيين شرف الدولة بن أبي الطيب الدمشقي والياً عليها، وعلى الرغم من فقدان فخر الملك لطرابلس بقيت مدينة جبلة تحت سيطرته، فاتجه إليها وأصبحت مقراً لحكمه. وأدت عودة السيادة الفاطمية إلى طرابلس إلى زيادة ضعفها، إذ قامت السلطة الجديدة بالقبض على أتباع فخر الملك بن عمار ومصادرة أموالهم، إضافة إلى القبض على عناصر البحرية[٦].

وفي هذه الأثناء تمكن الصليبيون بقيادة وليم جوردان من الاستيلاء على حصن عرقة سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وكان ذلك بمثابة نذير بقرب سقوط طرابلس، حيث أنهاحوصرت براً من كل الجهات[٧]،فضلاً عن تلقي وليم جوردان للإمدادات والعون من الإمبراطورية البيزنطية، التي لم

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٥٨. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٣.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٥٧.

[٣]- يذكر ابن شداد بأن فخر الملك قد خرج من طرابلس إلى بيروت بحراً ثم قصد دمشق. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١ ق٢، ص١١٠. أما رانسيمان فيذكر بأن فخر الملك عند توجهه إلى دمشق قد حصل على إذن من القائد الصليبي وليم جوردان بالمرور من المناطق التي يسيطر عليها الصليبيين. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٤.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٥٧. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٥٨. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٠٩.

- حصن الخوابي: يقع بالقرب من مدينة طرطوس إلى الشرق منها، وهو حصن منيع. - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٧٥.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٠٧، ٢٠٨. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٥٨، ٥٥٩.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٥٨. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٦٠. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١١٠.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٠، ٢٦١. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٦١. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٣٢.

تتوانى كما يورد رانسيمان عن إرسال جنودها للمشاركة في حصار طرابلس[١]؛ ومرد ذلك يعود إلى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت ترى في الكونت ريموند وخلفائه كأتباع لها.

بيدَ أنَّ وليم واجه خطراً أضعف نفوذه بين الصليبيين المحاصرين لطرابلس، حيث قدم إلى الشرق في هذه السنة برتراند ابن ريموند من مقاطعة تولوزمطالباً بإرث والده، ومصطحباً معه قوة عسكرية تتألف من أربعة آلاف مقاتل، وستين سفينة غالبيتها تتبع مدينة جنوى التي تحالفت مع برتراند[٢]، ولدعم مشروعه توجه إلى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية كي يضمن موازرة الإمبراطور، ثم اتجه نحو إمارة أنطاكية وهناك طلب من تانكرد تسليمه جميع الممتلكات التي كانت تعود لوالده قبل أن يستولي عليها بوهيموند، وأدى ذلك إلى حدوث خلاف بين الطرفين وفي نهاية الأمر أُجبر برتراند على مغادرة أراضي إمارة أنطاكية[٣]، فاتجه إلى طرطوس، واستولى عليها من أتباع وليم جوردان، مما أدّى إلى نشوب خلاف بين الطرفين،وسرعان ما زحف برتراند جنوباً لفرض الحصار على طرابلس،وقلعة الحجاج بآن معاً، مما اضطر وليم للانسحاب من قلعة الحجاج والتوجه نحو طرطوس، فاستطاع الاستيلاء عليها، ونتيجة لخطر برتراند والأسطول الجنوي المرافق له قام بطلب العون من تانكرد وأصبح تابعاً له، أما برتراند فقام بمراسلة الملك بلدوين الأول عارضاً عليه قضيته[٤]، فقدم إلى طرابلس لحل الخلاف، واجتمع القادة الصليبيون[٥] في شهر تموز١١٠٨م/ ٥٠٢هـ ، واتفقوا على تقسيم إرث ريموند بين طرفي الصراع على النحو التالي:

أ- يحتفظ وليم بطرطوس والمناطق التي غنمها غزوا(عرقة).
ب- يحتفظ برتراند بجبيل وطرابلس عند الاستيلاء عليها.
ت- يقسم وليم بالولاء لتانكرد، في حين يقسم برتراند الولاء للملك بلدوين الأول.
ث- عند وفاة أحد الطرفين يرث الأخر أراضيه[٦].

وبعد اتفاق جميع الأطراف الصليبية زحفوا جميعاً، لفرض الحصار على طرابلس في شهر شعبان سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، وقاموا ببناء أبراج خشبية لتمكين الحصار البري في الوقت الذي قامت السفن الجنويةوالبروفنسية بحصارها بحراً، وما لبث أن ضاق الأمر على سكان المدينة، وبخاصة مع تأخر وصول الأسطول الفاطمي، وقد أدى ذلك لتسرب اليأس إلى نفوس المدافعين عن المدينة، مما دفع واليها إلى مراسلة الصليبيين طلباً للأمان[٧]، فوافق الملك بلدوين الأول على ذلك ونص الاتفاق بين الطرفين على مايلي:

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٣.
[٢]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٤. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥.
[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥. - سالم، طرابلس، ص١٤٣، ١٤٤.
[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦١.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٤، ٤٣٥.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٨. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٧، ٩٨.- سالم ، طرابلس، ص١٤٤.
[٥]- شمل هذا الإجتماع جميع حكام الكيانات الصليبية، وقد وجد الملك بلدوين الأول في ذلك فرصة لفرض نفسه كالحاكم الأعلى للصليبيين، كما سعى لإزالة أسباب الفرقة والخلاف السائدة بين أولئك القادة.
[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٩.- سالم، طرابلس، ص١٤٥.
[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٩٩.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٤٣، ٤٤. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٣٥.

أ- إعطاء الأمان لسكان المدينة، والسماح للراغبين منهم بالرحيل[١].
ب- يسري على السكان الراغبين بالبقاء ما يسري على رعايا الصليبيين مع الاحتفاظ بممتلكاتهم .
ت- أن يدفع من يرغب بالبقاء ضريبة سنوية.
ث- السماح لوالي المدينة بالرحيل مع جنوده إلى دمشق[٢].

ولكن الروايات العربية تذكر أن الصليبيين لم يلتزموا ببنود هذا الاتفاق فقاموا بمهاجمة المدينة مستغلين على ما يبدو خروج الوالي مع جنوده إلى دمشق بعد حصولهم على الأمان دون التفكير بمصير المدينة[٣]، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها في ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م[٤]، فنهبوا المدينة وقتلوا وأسروا رجالها وسبوا نساءها، كما قاموا بإحراق مكتبة دار العلم التي كانت تضم ذخائر الكتب[٥]، ويصف ابن القلانسي ذلك بقوله:" **فشد الإفرنج القتال عليها وهجموها من الأبراج، فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لأحدى عشر ليلة خلت من ذي الحجة من السنة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها، وما كان في خزائن أربابها...**"[٦]، إلا أن فولتشر أوف تشارترز نسب عمليات القتل والتدمير إلى البحارة الجنويين، وذكر بأن الملك بلدوين الأول التزم بالاتفاق الذي عقد مع والي طرابلس، حيث يصف ذلك بقوله:" **وبموجب هذا الاتفاق سمح للملك ورجاله باحتلال جزء من المدينة والدخول إليه، وفي أثناء حدوث ذلك، تفجرت فتنة واندلع الشغب بين صفوف العامة من أهل جنوى، وذلك لأمر غير معروف السبب، فتسلق الجنويون الأسوار بالحبال والسلالم، ودخلوا إلى المدينة وقتلوا كل مسلم صدفوه، بيد أن الحماية قدمت للذين كانوا بجوار الملك**"[٧]، ومنح الجنويين لقاء مشاركتهم في الاستيلاء على طرابلس ثلث المدينة، كما مُنحوا الثلثين المتبقين من مدينة جبيل[٨].

ويمكن الإستنتاج هنا بأن الملك بلدوين الأول - حسب المصادر الصليبية - قد أدرك مدى الفوائد التي قد يحصل عليها نتيجة حفظه للمدينة وسكانها؛ إذ ذلك يوفر على مملكة بيت المقدس وكونت طرابلس نفقات إعادة بناء المدينة، فضلاً إلى حاجتها للأيدي العاملة، أو رغبة في الحصول على الأموال من السكان مقابل الحفاظ على حياتهم.

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٦.
[٢]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٩.
[٣]- ابن القلانسي، تاريخ ذيل، ص٢٦٢.
[٤]- اختلفت المصادر العربية في تحديد تاريخ استيلاء الصليبيين على طرابلس فابن القلانسي يذكر بأنه تم الاستيلاء عليها في ١١ذي الحجة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، أما العظيمي ففي ٣ ذي الحجة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، في حين ابن الأثير يذكر أن الصليبيون استولوا عليها في ١١ذي الحجة ٥٠٣هـ/١١٠٩م .- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢. - العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٦٣.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٨.
[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٩.
[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٥.
[٧]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٦.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣،ص٤٤. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٩، ١٠٠.

وترتب على سقوط طرابلس استيلاء الصليبيين على باقي المدن الساحلية القريبة من طرابلس مثل أنفة والبترون[١]، وما لبث تانكرد أن غادر طرابلس وزحف بقواته شمالاً ، فتمكن من الاستيلاء على مدينة بانياس، ثم تابع زحفه نحو مدينة جبلة، فحاصرها وبها فخر الملك بن عمار الذي اتخذها مقراً جديداً لحكمه بعد خروج طرابلس عن سلطته، فضيق تانكرد الخناق على المدينة، وبما أن ابن عمار يدرك أنه لن يتلقى أية مساعدة عربية إسلامية لذلك قبل بالأمان الذي عرضه تانكرد فقام بتسليم المدينة[٢] .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن سقوط مدينة طرابلس بأيدي الصليبيين، لم يكون نتيجة لضعف واضطراب الأوضاع فيها فقط، بل أسهم في ذلك العرب المسلمين أنفسهم، فخلال تعرض المدينة للحصار من قبل الصليبيين تصارع أفراد البيت المالك فيها على تسلم مقاليد الأمور، كما أن الدولة الفاطمية لم تكترث لمساعدة المدينة في قتالها للصليبيين، بل كان أسمى أمانيها استعادة المدينة لسلطتها.فضلاً عن تمرد أمراء الحصون التابعة لطرابلس على ابن عمار، ومن المنطقي في هذه الحالة بأنهم لم يمدوا يد العون لطرابلس، ومن الأمثلة على ذلك تمرد متولي حصن عرقة، الذي قام بتسليم الحصن فيما بعد للأتابك طغتكين؛ نتيجة نقص المؤن وانقطاعها نتيجة غارات الصليبيين على المناطق القريبة من الحصن[٣].

٧- الاستيلاء على بيروت:

تنقلت مدينة بيروت خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ما بين السيادة الفاطمية والسلجوقية، وعند قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام كانت المدينة تحت سيادة الآتابك طغتكين[٤]، وقد كانت مطمعاً للصليبيين منذ بداية مشروعهم، وحاول بلدوين كونت الرها الاستيلاء عليها سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م وهو في طريقه إلى بيت المقدس لتسلم عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، فقام بحصار المدينة، وطال مقامه، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها فاضطر لفك الحصار[٥]. وبعد إدراك الصليبيين ضرورة الاستيلاء على المدن الساحلية في بلاد الشام للبقاء على تواصل مع أوروبا، كانت بيروت إحدى تلك المدن.

ففي سنة٥٠٣هـ/٣ شباط١١١٠م زحف الملك بلدوين الأول بمساعدة كونت طرابلس برتراند لحصار مدينة بيروت، ففرضوا عليها حصاراًبرياً وبحرياً، وصنع الصليبيون برجاً خشبياً لتشديد الحصار على المدينة، لكن المدافعين عنها تمكنوا من تدمير ذلك البرج، مما اضطر الصليبيين لصنع برج آخر[٦].

وفي الوقت ذاته ارتفعت معنويات سكان المدينة نتيجة قدوم أسطول فاطمي مكون من تسعة عشر مركباً، تمكن من تدمير عدد من سفن الصليبيين[٧]، وهذا الأمر اضطر الملك بلدوين الأول لطلب المساعدة من الأسطول الجنوي المتواجد في ميناء السويدية، فتم إنجاده بأربعين مركباً مشحونة

---

[١]- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٤٤، ٢٤٥.
- أنفة: يورد الإدريسي ذكرها باسم أنف الحجر، وتقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس على بعد ٨ أميال عنها.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٢.
- البترون: **" حصن بين جبيل وأنفة على ساحل بحر الشام"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٣٨.
[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٩. - تدمري، لبنان من السيادة، ص ٢٤٣.
[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٥٧١.
[٤]- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٠٢. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٧٣.
[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٨.
[٦]- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٧٣.
[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٨.

بالمقاتلين، وبذلك تم إحكام الحصار على المدينة، وفي ٢١شوال سنة٥٠٣هـ/١٣أيار ١١١٠م شن الصليبيون الهجوم الأخير على المدينة، فقاموا بالاشتباك مع الأسطول الفاطمي، مما أدى إلى مقتل قائد ذلك الأسطول مع عدد كبير من البحارة العرب المسلمين[١]، وعلى إثر ذلك دبت الفوضى والفرقة بين صفوف المدافعين، فقام الواليبالهرب تاركاً المدينة لمصيرها، حيث يذكر ابن القلانسي ذلك بقوله:" **وهرب الوالي الذي كان فيه في جماعة من أصحابه، ثم أمسك وحمل إلى الإفرنج، فقتل ومن كان معه، وغنموا ما كان اصطحبه من المال"**[٢].

ولكن المقريزي يذكر قيام هذا الوالي بالخروج لقتال الصليبيين، حيث يصف ذلك بقوله:" **وهجم الفرنج من أخر النهار فملكوه بالسيف قهراً، وخرج متولّى بيروت في أصحابه وحمل في الفرنج، فقتل من كان معه، وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد..."**[٣] أما رانسيمان فيذكر أنه تمكن من اختراق الحصار والوصول إلى قبرص[٤]، فاستغل الصليبيون هذه الاضطرابات وقاموا باقتحام المدينة، حيث" **نهب البلد وسبي من كان فيه وأسر واستصفيت أموالهم وذخائرهم"**[٥]، ويصف فولتشر ذلك بقوله:" **دخل عدد كبير من رجالنا من الأبواب، وهكذا طاردوا العدو المشتت بكل حماسة، وأخيراً اعتقلوا الذين وجدوهم منعزلين مقطوعين هنا وهناك وانتزعوا منهم الأموال"**[٦]، إلا أن رانسيمان ينسب أعمال القتل التي تمت في المدينة إلى البحارة الجنويين المتعطشين للغنائم[٧]. وهكذا سقطت مدينة بيروت بيد الصليبيين بعد حصار استمر ما يقارب خمسة وسبعين يوماً[٨].

ولكن التساؤل الذي يُطرح هنا، إذا كانت مدينة بيروت تتبع الآتابك طغتكين حاكم دمشق كما يذكر ابن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، فلماذا لم يقم هذا الأخير بأي تحرك لإنقاذ المدينة، على الرغم من أنه قدم المساعدة لمدينة صيدا سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م بالرغم من أنها كانت تابعة للدولة الفاطمية، فكيف لا يقدم العون والمساعدة لمدينة تابعة له. كما أن ابن القلانسي يفنّد ما ذكره ابن شداد، فقد ذكر أن الخلافة الفاطمية أرسلت قوة برية تتألف من ثلاثمائة فارس لنجدة بيروت، ولكن عند نهر الأردن اشتبكت مع قوات الصليبيين الذين تمكنوا من هزيمتها[٩]، ويمكن القول بصحة رواية ابن القلانسي لقربه من الأحداث، لكن القوة الفاطمية التي وصلت إلى نهر الأردن لم تكن مهمتها نجدة بيروت مباشرة، بل الضغط على التخوم الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية من أجل تخفيف الحصار الصليبي على بيروت واضطرارهم للانسحاب جنوباً.

٨- الاستيلاء على صيدا:

تعد صيدا إحدى المدن الساحلية التابعة للخلافة الفاطمية، ويتميز موقعها بأهمية كبيرة، وقد شاهد الصليبيون مدينة صيدا لأول مرة خلال زحف الحملة الصليبية الأولى وهي في طريقها إلى بيت المقدس، فعندما وصلوا إليها عسكروا بالقرب من النهر الذي يسقي المدينة، ولم يلقوا أي ترحيب

---

[١]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٧. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٨، ٢٦٩. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٥.- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٧٣، ٢٧٤.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٩.

[٣]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٥.

[٤]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٢.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٩.

[٦]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٧.

[٧]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٢.

[٨]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٧.

[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٥.

من قبل حاكم وسكان صيدا، فقد قاموا بالاشتباك مع الصليبيين الذين ردوا على ذلك بنهب ضواحي المدينة، ثم تابعوا مسيرهم نحو بيت المقدس[١].

وما إن تولى بلدوين الأول عرش المملكة الصليبية في بيت المقدس حتى سعى للاستيلاء على المدن الواقعة على الجزء الأوسط والجنوبي من ساحل بلاد الشام، لذلك في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م انتهز قدوم حشود كبيرة من الإنكليز والفلمنكيين والدانمركيين بقصد الحج، وبعد أداء طقوسهم الدينية استخدمهم الملك بلدوين الأول في الزحف نحو صيدا، وعندما وصلت أنباء هذا الزحف لوالي صيدا، قام بمراسلة الملك بلدوين، وعرض عليه مبلغاً مالياً ضخماً لتجنب الهجوم الصليبي، وبما أن مملكة بيت المقدس الصليبية الناشئة حديثاً تحتاج الكثير من النفقات، فقد لقي هذا العرض رضا الملك بلدوين الأول، وبذلك حظيت مدينة صيدا بالأمان لمدة سنتين[٢]، ففي سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م قام بلدوين الأول بمهاجمة صور، فحاصرها لمدة شهر دون جدوى، فاكتفى بالحصول على مبلغ سبعة آلاف دينار من والي المدينة، ففك الحصار واتجه شمالاً لحصار صيدا[٣]، مستفيداً من وصول الأسطول من مختلف المدن الإيطالية، فقام بلدوين الأول بعاصرة صيدا براً وبحراً، وبنى الصليبيون برجاً خشبياً لتشديد الحصار، مما دفع والي صيدا لطلب النجدة من الآتابك طغتكين حاكم دمشق، عارضاً عليه مبلغ ثلاثين ألف دينار لقاء ذلك، فاتجه لنجدة المدينة، فضلاً عن ذلك قدم الأسطول الفاطمي من مصر، واستطاع هزيمة السفن الإيطالية، وهذا الأمر دفع بلدوين لفك الحصار[٤].

وعلى أثر ذلك انشغل الملك بلدوين الأول في حل خلافات الصليبيين المحاصِرين لطرابلس، وفي استيلائه على بيروت إلى أن وصل أسطول نرويجي بقيادة الملك سيجورد إلى ساحل فلسطين في سنة٥٠٤هـ/١١١٠م، وذلك بعد رحلة طويلة استمرت ثلاث سنين، عبر خلالها القنال الإنكليزي وشواطئ الأندلس الغربية والشرقية وصقلية[٥]، وكان عدد سفن هذا الأسطول تتراوح مابين ٦٠و٧٥ سفينة[٦]، وقد تعددت العوامل التي دفعت سيجورد للقيام بهذه الحملة منها تدعيم نفوذه الداخلي كملك للنرويج بالاشتراك مع أخيه وإظهاره بمظهر البطل، فضلاً عن رغبة النرويج بألا تتخلى عن ركب دول الغرب الأوربي التي شاركت في المشروع الصليبي، فضلاً عن الرغبة في الحج إلى بيت المقدس[٧].

وما إن علم الملك بلدوين الأول بوصول الأسطول النرويجي إلى ميناء يافا، **" امتلأ قلبه سروراً لمقدم هؤلاء القوم"**[٨]، وأحسن استقبال سيجورد وصحبه في رحلة الحج إلى نهر الأردن وبيت المقدس، ومرد ذلك لكون سيجورد أول ملك متوج يقوم بزيارة المملكة الصليبية[٩]، فضلاً عن رغبة الملك بلدوين الأول الاستفادة بأي ثمن من القدرات الحربية للأسطول النرويجي خدمة

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٣، ٦٤.

[٢]- عوض (محمد مؤنس)، الحروب الصليبية "دراسات تاريخية ونقدية "، دار الشروق، عمان، ١٩٩٩م، ص٢٨، ٢٩. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٢. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٧٧.

[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٦١. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٨. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٢.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٠.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٦١.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٢. - عوض، الحروب الصليبية، ص ٢٩.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٠. - عوض، الحروب الصليبية، ص١٨، ١٩.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٣. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢. - فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٩.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٧٣. - عوض، الحروب الصليبية، ص١١، ١٢.

[٨]- فولتشرأوفتشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٩.

[٩]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٣.

لمشاريعه العسكرية[١]، وخلال تواجد الملك النرويجي في بيت المقدس عرض عليه الملك بلدوين الأول المشاركة في حصار صيدا، فوافقه النرويجيون، وأعلموه بأنهم سيبحرون إلى أي موقع يرغب الملك بلدوين الأول بالاستيلاء عليه شريطة قيام الصليبيين بتزويدهم بالمؤن خلال العمليات الحربية[٢].

وبعد ذلك زحف الملك بلدوين الأول بقواته البرية من عكا، في حين انطلق الأسطول النرويجي من يافا في ٣ربيع الآخر سنة٥٠٤هـ/١٩تشرين الأول١١١٠م، وما لبث المتحالفون أن وصلوا إلى مدينة صيدا، ففرضوا الحصار البري والبحري عليها، ولم يقم الأسطول الفاطمي المرابط في صور بأي تحرك لإنقاذ المدينة[٣]، ويعود ذلك إلى إدراك قائد الأسطول الفاطمي بأن مهاجمة الأسطول النرويجي يمثل نوعاً من المغامرة نظراً لتفوق ذلك الأسطول من حيث العدد. ولخشيته من تشتّت قدراته الحربية فضلاً عن الخوف مِن أن تكون صور هي الهدف التالي[٤]، إلا أن بعض الروايات تذكر أن الأسطول الفاطمي المتواجد في صور قام بمهاجمة الأسطول النرويجي وكاد أن يهزمه لولا تدخل أسطول البندقية[٥].

وفي أثناء الحصار قام الصليبيون بصنع برج خشبي وزحفوا به نحو الأسوار[٦]، ومع اشتداد الحصار الصليبي حاول والي المدينة - مجد الدولة - إضعاف موقف الصليبيين عن طريق تدبير خطة لاغتيال الملك بلدوين الأول عن طريق أحد أتباعه المرتدين عن الإسلام، إلا أن هذه الخطة كشفت عن طريق بعض المسيحيين العرب في صيدا، والذين قاموا بإبلاغ الملك بلدوين بذلك[٧]، وعلى أثر ذلك شدد الصليبيون الحصار ما أدى لضعف نفوس المدافعين عن المدينة وأشفقوا أن يصيبهم ما حدث بسكان بيروت من قتل بعد فشل وسائل المواجهة ضد الصليبيين[٨]، لذلك قام قاضي المدينة وشيوخها بالخروج لمفاوضة الصليبيين على بنود التسليم والتي نصت على مايلي:

أ- منح سكان المدينة الأمان على الأنفس والأموال والسماح لمن أراد بالرحيل.
ب- الإبقاء على فلاحي المدينة من أجل القيام بزراعة الأرض.
ت- السماح لحامية المدينة بالخروج إلى دمشق[٩]، بينما يذكر ألبرت فون آخن توجه المقاتلين إلى عسقلان، وأن عددهم بلغ خمسة آلاف مقاتل[١٠].

---

(١)- عوض، الحروب الصليبية، ص ٢١.
(٢)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٩. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩١. - عوض، الحروب الصليبية، ص ٢٧.
(٣)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٩، ٤٤٠. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٧٣. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٥.- عوض، الحروب الصليبية، ص ٣١.
(٤)- عوض، الحروب الصليبية، ص٣١، ٣٢.
(٥)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٣.- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٨٠.
(٦)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٣- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢.
(٧)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٢.- عوض، الحروب الصليبية، ص٣٤.
(٨)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٤. - عوض، الحروب الصليبية، ص٣٤.
(٩)- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٤٠.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٩٣.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢.- عوض، الحروب الصليبية، ص٣٥.
(١٠)- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٢٩٣.

وبذلك تم الاستيلاء على مدينة صيدا في ٢٠جمادى الأولى سنة ٥٠٤هـ/٤ كانون الأول١١١٠م، بعد حصار استمر لمدة سبعة وأربعين يوماً[١]، وعلى إثر ذلك قام الملك بلدوين الأول بمنح المدينة إقطاعية وراثية للنبيل يوستاس جارنييه، كما استأذن رجال الأسطول النرويجي بالرحيل محملين بالهدايا الثمينة[٢]، كما كوفئ البنادقة نتيجة صدهم لأسطول صور الفاطمي بأن منحوا كنيسة وبعض الممتلكات في مدينة عكا[٣]، وبعد أن قام بلدوين الأول بترتيب أوضاع المدينة غادرها متوجها إلى بيت المقدس، لكنه ما لبث أن عاد إلى صيدا وفرض على ما تبقى من سكانها العرب ضريبة مقدارها عشرين آلف دينار مما أدى إلى افتقارهم[٤].

٩- الاستيلاء على صور:

شكلت مدينة صور منذ بداية المشروع الصليبي مركزاً لمقاومة الاحتلال الصليبي لمناطق الساحل الشامي، ومنها انطلقت السفن التي شاركت في رفع الحصار عن مدينة عكا، كذلك ساندت مدينة بيروت أثناء الحصار الصليبي لها[٥].

وأدرك صليبيو مملكة بيت المقدس أهمية موقع صور كميناء بحري لتأمين تدفق المساعدات والمقاتلين من أوربا، وغناها والمنطقة المحيطة بها بالثروة الزراعية في وقت كانت فلسطين إقليماً فقيراًبالأراضي الزراعية، فضلاً عن كونها مقراً للأساطيل الفاطمية القادمة من مصر، ومكانتها التجارية؛ وأن السيطرة عليها ستهدد طرق التجارة القادمة من العراق إلى بلاد الشام الداخلية والساحلية حيث موانئ التصدير[٦]، لذلك قام هيو أوف سانت اومير- الحاكم الصليبي لإقطاعية الجليل- بتشييد حصن تبنين سنة ٥٠٠هـ /١١٠٧م[٧]؛ للضغط على صور وتأمين سلامة القوات الصليبية المكلفة بالإغارة عليها، وأشار وليم الصوري إلى ذلك بقوله: " **... وكان العسكر في غدوهم إلى صور ورواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود أي قلاع أو أماكن حصينة بين المدينتين- أي طبرية وصور- يلجأون إليها لو تعقبهم العدو...**"[٨]، مما دفع والي المدينة عزّ الملك كمشتكين لمهاجمة الحصن وقتل من فيه من الصليبيين في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م، ودفع هذا الأمر الملك بلدوين الأول للخروج لملاحقة قوات صور، ولكن قيام الآتابك طغتكين بحصار حصن علعال[٩]، اضطره للزحف للقائه[١٠].

وأدى هذا الهجوم إلى إدراك الصليبيين ضرورة مهاجمة صور، فزحف الملك بلدوين الأول بقواته في سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م، وعسكر بالقرب من صور وحاصرها لمدة شهر ولكن دون جدوى؛ بسبب مناعة تحصيناتها العسكرية ووقوع أكثرها داخل البحر. وفي سبيل فك الحصار الصليبي دفع والي المدينة للملك بلدوين الأول مبلغ سبعة آلاف دينار من أجل إبعاد خطره، فقام بلدوين بفك

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٧٤.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٦. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ص١٢٣.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٣.

[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٣.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٤.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢، ٥٨٣.- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٨٢. - عوض، الحروب الصليبية، ص ٣٥.

[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١١٨.

[٦]- تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٨٣- ٢٨٥.

[٧]- تبنين: "**بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور** ". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص١٤.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٦٨.

[٩]- علعال: هو " **جبل بالشام مشرف على البثنية بين الغور وجبال الشراة**". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص ١٤٦.

[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٤٣. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٧.

الحصار، كما أدرك ضرورة التضييق على المدينة من خلال بناء حصن صليبي بالقرب منها، فشرع ببنائه في موقع تل المعشوقة[١].

وفي سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على صيدا، وبذلك أصبحت صور محاصرة من جميع الجهات باستثناء جهة البحر، وأدرك والي صور خطر ذلك فقام بإبعاد الخطر الصليبي عن طريق دفع مبلغ سبعة آلاف دينار[٢]، لكن ما لبث الملك بلدوين الأول أن حشد قواته والسفن التي أمكن العثور عليها في ساحل فلسطين في سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م وزحف لقتال مدينة صور[٣]، وعندما علم أهالي صور بذلك قاموا بمراسلة الآتابك طغتكين **" يستصرخونه ويستنجدونه ويبذلون تسليم البلد إليه ويسألونه المبادرة والتعجيل بإنفاذ عدة وافرة من الأتراك تصل إليهم لمعونتهم وتقويتهم وإن تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الإفرنج "**[٤]، فاستجاب لذلك وأرسل إلى صور قوة مؤلفة من مائتي مقاتل[٥]، كما سمح لسكان صور بإرسال ممتلكاتهم الثمينة إلى دمشق للحفاظ عليها، إلا أن القافلة التي حملتها تعرضت للهجوم من قبل الصليبيين[٦]. وفي ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ/ نهاية تشرين الثاني ١١١١م قام **" بقطع الشجر والنخيل، وبنى بيوت الإقامة عليها "**[٧]، وعمل الصليبيون على مهاجمة المدينة عدة مرات ولكن دون جدوى، وعندما علم طغتكين بذلك عسكر في بانياس وأغارت قواته على المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، وأطلق لها حرية النهب والسلب من أجل تخفيف الضغط عن صور، وإحداث ثغرة في خطوط الصليبيين؛ ليتمكن من إدخال الدفعة الثانية من المقاتلين إلى داخل المدينة، وفي الوقت ذاته السماح لقوات صور بمهاجمة الأبراج التي يقوم الصليبيون بصناعتها، إلا أن الصليبيين أدركوا غايته فلم يخرجوا لقتاله، وقاموا بحفر الخنادق حول معسكرهم وأعدوا رجالاً لحراستها،ورداً على ذلك سعى طغتكين لقطع خطوط إمدادات الصليبيين، فقام بتدمير الجسر الواصل إلى صيدا لمنع وصول الميرة منها، كما أغار على مدينة صيدا وربضها،وتمكنت قواته من إحراق عشرين مركباً كانت ترسو في مينائها[٨].

وعندما أتم الصليبيون صنع برجين شرعوا بتقريبهما إلى الأسوار **" وكان طول البرج الصغير منهما نيفاً وأربعين ذراعاً، والكبير يزيد عن الخمسين ذراعاً "**[٩]، وبذلك أصبح بإمكان الصليبيين مراقبة كل ما يجري داخل المدينة، وبالرغم من ذلك فقد أظهر سكان صور شجاعة وبراعة في التصدي للصليبيين[١٠]، **" فكانوا يقابلون كل خطة بخطة مثلها، ويجدون في دفع كل ضر ينزل بهم بضر مثله يلحقونه بالصليبيين"**[١١]، وبما أن البرجين كلا يشكلان خطراً كبيراً على صور، فقد قام سكانها بمهاجمة هذين البرجين في أوائل شهر رمضان ٥٠٥هـ/ آذار ١١١٢م، وتمكنوا من إحراق البرج الصغير، ونهبوا ما فيه من أسلحة، وامتد اللهب المنبعث من احتراق البرج الصغير بالبرج

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٥٥.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٦١. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٨. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٨٦.

[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٤.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٩٦،٢٩٧.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٤.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٦.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٩٠.- ابن المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٩.

[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٣.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٤.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٤، ٢٨٥. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٩-٥٩١. - تدمري، لبنان من السيادة، ص٢٩٢،٢٩١.

[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٨٥.

[١٠]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٨.

[١١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٨.

الكبير، وعندما شاهد الصليبيون ذلك تركوا القتال عند الأسوار، واهتموا بإخماد النيران، فانتهز عسكر صور الفرصة لمهاجمة معسكرهم، إلى أن الصليبيين تمكنوا من إخماد الحريق وأعادوا ترتيب صفوفهم وتمكنوا من التصدي للهجوم، وأجبروا عسكر صور على العودة إلى داخل المدينة[١].

وتمكن الصليبيون في أواخر شهر رمضان من السنة ذاتها من تقريب البرج الكبير إلى الأسوار ونصبوه مقابل أحد أبراج المدينة، فردّ سكان صور على ذلك بأن أحرقوا قمة ذلك البرج مما أدى لتساقط أحجاره وتشكيلها عائقاً أمام تقدم برج الصليبيين، حيث يقول ابن القلانسي:" **وعمد أهل البلد إلى تعليق حائط البرج الذي بإزاء برج الإفرنج، وأطلقوا النار فيه فاحترق التعليق، وسقط وجه الحائط في وجه البرج فمنع من تقديمه إلى السور والزحف به**"[٢]، ثم ما لبث أن تمكن الصوريون من إحراق البرج الصليبي، ونتيجة هذه المقاومة الشديدة و طول مدة الحصار الذي امتدّ إلى ما يزيد عن أربعة أشهر إضافة إلى الإنهاك الذي مني به الصليبيون، أدرك الملك بلدوين الأول عدم جدوى الحصار[٣]، فضلاً عن هذه الأسباب يذكر ابن الأثير أن موعد حصاد الغلال قد اقترب فخاف الصليبيون من قيام طغتكين بالاستيلاء على المحاصيل الزراعية في المناطق الخاضعة لهم ، بينما هم يواصلوا حصار المدينة[٤].

لذلك قرر رفعه والعودة إلى عكا، بعد أن اصدر أوامره بإحراق" **البيوت التي كانت قد عمروها في المنزل لسكناهم، واحرقوا كثيراً من المراكب التي كانت لهم على الساحل**"[٥]، بعد أن كانوا قد استخدموا أخشابها وصواريها في صناعة الأبراج . وبذلك نجت صور من استيلاء الصليبيين عليها، ومن جهة أخرى رفض سكان صور تسليم المدينة للأتابك طغتكين الذي لم يقم بأي ردّ فعل على ذلك بل على العكس من ذلك فقد " **وعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع إليه، وبالغ في المعونة عليه**"[٦].

وفي سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م عاد عزم الملك بلدوين الأول، ليحاصر صور وأخذ يعد العدة، وما إن علم والي المدينة- عزّ الملك انوشتكين- وسكانها بذلك حتى اتفقوا على تسليم مدينتهم للأتابك طغتكين، لِما أظهره من نصرتهم ومعاضدتهم في الحصار السابق، فقاموا بمراسلة الآتابك الذي قام بدوره بتعيين مسعود - متولي بانياس سابقاً- والياً على صور، وتم تطييب نفوس سكان المدينة والإبقاء على الدعوة والسكة بها للخليفة الفاطمي[٧]، في محاولة لكسب ودّ جميع سكان المدينة، وبما أن صور هي إحدى المدن التابعة للخلافة الفاطمية، فقد قام الأتابك طغتكين بمراسلة الوزير الفاطمي الأفضل يبرر له ما قام به[٨]،" **إن بغدوين - بلدوين- قد جمع وحشد للنزول على صور وأن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا مني دفعه عنهم، فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها،.... ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها، بادرت بتسليمها، وخروج نوابي عنها**"[٩]، فشكره الأفضل واستصوب رأيه فيما فعل، وما لبث أن أرسل الأسطول الفاطمي في أواخر شهر صفر٥٠٧هـ/ شهر أب ١١١٣م محملاً بكل ما تحتاجه المدينة من مؤن، فضلاً عن خلع لطغتكين وخواصه ومسعود والي صور، ثم غادر الأسطول المدينة في أواخر شهر ربيع الأول،

---

(١)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٨٥، ٢٨٦.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٨.

(٢)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٦.

(٣)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٨٧،٢٨٨.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٨.

(٤)- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٩١.

(٥)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٧، ٢٨٨ .

(٦)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٨.

(٧)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٩٠، ٢٩١.- العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٦٥،٣٦٦.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٩٣. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٦٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥١.

(٨)- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ٦٩٣. -ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٦٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥١.

(٩)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٩١.

وبذلك ارتفعت معنويات سكان المدينة، وتحسنت الأوضاع داخلها، مما دفع بلدوين الأول إلى التماس المهادنة من الوالي مسعود ، فأجابه[١].

وعلى الرغم من ذلك قام الملك بلدوين الأول في سنة ٥١١هـ/١١١٨م بتشييد قلعة تقع على الطريق بين عكا وصور دعيت بقلعة الكسندارايوم - إسكندرونة[٢]- ، لتكون شوكة في خاصرة مدينة صور، وتصلح لشنّ الغارات منها على صور وربضها[٣].

وبقيت المدينة تُحكم من قبل الوالي مسعود لغاية سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، وفي هذه السنة تولى الوزارة في مصر المأمون بن البطائحيالذي أرسل إلى صور أسطولاً محملاً بالمؤن والعسكر" **وأمر المقدم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود ... ويقبض عليه ويتسلم البلد منه**"[٤]، وعند استعداد هذا الأسطول العودة إلى مصر، خرج مسعود لتوديعه فسأله مقدم الأسطول الصعود إلى سفينته، وعلى إثر ذلك ألقي القبض عليه، وحمل إلى مصر. وتذكر المصادر أن سبب القبض عليه يعود إلى شكوى سكان صور لما اعتمده من الإضرار بهم، ومخالفته للعادات الموافقة لهم[٥]، ولكن هذا السبب يعدّ واهياً، إذ يمكن إرجاع القبض على مسعود إلى رغبة الدولة الفاطمية في استعادة سيطرتها على آخر مدينة لها في الجزء الأوسط من الساحل الشامي.

وما لبث الوالي المعيّن من قبل الفاطميين أن قام بتطييب خواطر سكان المدينة، كما قام بمراسلة الأتابك طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد، ويبرر له القبض على واليه مسعود، فأحسن طغتكين الجواب[٦]. ويمكن تبرير مكاتبة الوالي الجديد لطغتكين؛ بإدراك هذا الوالي عدم قدرة مدينة صور على الصمود في وجه الصليبيين دون دعم دمشق، كما أن وصول الإمدادات العسكرية من دمشق يستغرق وقتاً أقصر من تلك القادمة من مصر.

وما إن علم الصليبيون بما جرى في صور حتى طمعوا بها، فقام الملك بلدوين الثاني بالتجهز لقتالها، كما راسل البندقية طالباً مساعدتها مقابل الحصول على امتيازات تجارية في أراضي المملكة، فاستجابت البندقية لطلبه[٧]، وعندما علم والي صور بذلك أدرك أنه لا طاقة للمدينة بقتال الصليبيين نتيجة قلة ما فيها من جند وميرة، فقام بمراسلة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله يطلعه على أوضاع المدينة، فرأى أن ترد ولاية صور إلى الأتابك طغتكين ليتولى حمايتها والدفاع عنها[٨]، وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ٥١٧هـ/ شهر تموز ١١٢٣ م ومنح لقب سيف أمير المؤمنين[٩]، إلا أنه " **ندب لتوليها جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهم ولا شهامة، ففسد أمرها بذلك**"[١٠].

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٠٠، ٣٠١.- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٦٩.- المقريزي ، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٢.

[٢]- إسكندرونة: تقع جنوب مدينة صور وتبعد عنها خمسة أميال. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٥٦.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٢٨. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٨.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٣.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٢٩.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٣.- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٦٩.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٦.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٣.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٦. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٩٧.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٣٦. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٤.

[٩]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٠١.

[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٦.

وفي شهر ربيع الأول سنة٥١٧هـ/نهاية شهر أيار١١٢٣م وصل أسطول مدينة البندقية إلى سواحل فلسطين بعد ثلاث سنوات من طلب الملك بلدوين الثاني النجدة من البندقية، وتألّف من مئة مركب، وتمكن من الانتصار على أسطول فاطمي خارج عسقلان، كما استولوا على أسطول تجاري يتألف من عشر سفن قادمة من مصر[١]، وعلى إثر ذلك جمع الصليبيون قواتهم بقيادة البطريرك غوبلين[٢]، وزحفوا مع حلفائهم البنادقة لحصار صور، فاقتربوا منها في شهر ربيع الأول ٥١٨هـ/١٥ شباط ١١٢٤م وفرضوا عليها الحصار، وأقاموا معسكرهم بين الحدائق والبساتين بينما رابط الأسطول البندقي بمحاذاتهم، كما أبقوا سفينة في عرض البحر، لاعتراض أيّةِ سفينة قد تحاول الدخول إلى المدينة . وللتضييق على المدينة قام الصليبيون بقطع قناة المياه الوحيدة التي تأتيها من الخارج مستغلين عدم وجود آبار مياه داخلها. وتواصل الحصار طوال فصل الربيع وأوائل الصيف، وقد دأب الصليبيون خلال ذلك على قصف المدينة بالمنجنيقات، فأظهر سكان صور مقاومة شديدة، إلا أن أعدادهم الضئيلة لم تسمح لهم بالخروج للاشتباك مع الصليبيين[٣] ومع اشتداد الحصار قلّتْ الأقوات في المدينة كما بدأ الضعف يدبّ في نفوس المدافعين عنها، فتوجه الأتابك طغتكين إلى بانياس[٤] ليبقى بالقرب من صور، وليذود عنها، اعتقاداً منه أن الصليبيين وإذا علموا بقربه منهم رحلوا عنها، إلا أنهم لزموا قتال المدينة، وعند ذلك راسل طغتكين الدولة الفاطمية يطلب منها نجدة المدينة، لكن دون جدوى[٥]، واكتفت الدولة الفاطمية بالإغارة على منطقة بيت المقدس وإحراق محاصيلها[٦]، وبذلك تُرك سكان مدينة صور يواجهون مصيرهم بمفردهم دون أن يتلقوا أية مساعدة سواء من الدولة الفاطمية أو من دمشق، وزادت الأمور تعقيداً إذ قلّت الأقوات في المدينة كثيراً، وعندما أدرك الآتابك طغتكين أن المدينة لن تستطيع الصمود أكثر من ذلك راسل الصليبيين للتفاوض على تسليمها[٧]، فتوصلوا إلى اتفاق نص على ما يلي:

أ- منح الأمان لسكان المدينة.
ب- السماح لمن يرغب من سكانها، وعسكرها بالخروج مصطحبين أموالهم.
ت- يحتفظ من أراد البقاء بحقوق المواطنة[٨].

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٣٣.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٧٣.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٩٧، ١٩٨.

[٢]- نظراًلوجود الملك بلدوين الثاني أسيراً لدى الملك بلك الأرتقي.

[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٠٠.

[٤]- بانياس: تقع في منطقة الجولان، وكانت تعد مركزاً له خلال عصر الحروب الصليبية.- ابن فضل العمري (أحمد ابن يحيى)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م ، ج ٣، ص٥٢٥.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٣٣٧. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٤.

[٦]- فولتشرأوفتشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية "، ج٦، ص ٤٩٣، ٥٠١. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٠١.

[٧]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٥٠٤.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٦.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٤.

- متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي، " من خلال الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، د.ت، ج٥، ص ٤٨، ٤٩.

[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٥٠٤.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٣٦. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٤.- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٧٠.- رانسيمان، تاريخ الحملات،ج٢، ص٢٠١.

بينما ذكر المقريزي أن تسليم مدينة صور كان نتيجة صفقة مالية عقدت ما بين والي المدينة " عز الدين نبا" والصليبيين، بقوله :" **الفرنج لما قدموا إلى صور كان بها عز الدين نبا واليا عليها من قبل المصريين، فباع صور للفرنج بمال، وصار إلى دمشق...**"[١].

وفي ٢٣جمادى الأولى سنة ٥١٨هـ/٧تموز ١١٢٤م تم تسليم المدينة للصليبيين، وقدم ابن القلانسي وصف لمظاهر التسليم بقوله:"**ووقف آتابك في عسكره بإزاء الإفرنج، وفُتح باب البلد، وأُذن للناس في الخروج، فحمل كل منهم ما خف عليه، وأطاق حمله، وترك ما ثقل عليه، وهم يخرجون بين الصفين، وليس أحد من الإفرنج يعرض لأحد منهم، بحيث خرج كافة العسكرية والرعية، ولم يبق إلا ضعيف الخروج...**"[٢]. وعند دخول الصليبيين المدينة تم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء أعطي اثنان منها لمملكة بيت المقدس الصليبية، في حين منح الجزء الثالث للبنادقة مكافأة على مشاركتهم في الاستيلاء عليها.

وهكذا سقطت صور بيد الصليبيين بعد صراع استمر لمدة أربع وعشرين سنة، ويمكن القول بأن هذه المدينة كانت ضحية التشتت السياسي والديني الذي تعاني منه بلاد الشام ومصر، إضافة لإضطراب الأوضاع الداخلية في الدولة الفاطمية، التي لم تبدي أية ردة فعل مناسبة لمنع سقوط أخر المدن الخاضعة لها في الجزء الأوسط من الساحل الشامي، وبسقوطها استولى الصليبيون على كامل الساحل الشامي باستثناء مدينة عسقلان في الجنوب.

١٠- الصراع بين مدينة عسقلان والصليبيين:

تعد مدينة عسقلان إحدى مدن الساحل الشامي القلائل التي صمدت لوقت طويل أمام هجمات الصليبيين حيث وقفت في وجههم لمدة تقارب أربع وخمسون سنة، فقد بدأ صراعها معهم منذ احتلالهم لمدينة بيت المقدس في ٢٢شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٥تموز ١٠٩٩م، وكانت إحدى المدن التابعة للدولة الفاطمية، لذلك قام الوزير الأفضل بقيادة حملة عسكرية، زحفت نحو مدينة عسقلان، وأقام معسكره بظاهرها، كما راسل الصليبيين الذين سيطروا على بيت المقدس، وأنكر عليهم ما فعلوه من قتل وتدمير في فيها، وتهددهم[٣]، وما إن رحل رسوله عائداً يحمل رد الصليبيين، حتى قام الدوق غودفروي بجمع قواته التي بلغ تعدادها ألفاً ومئتي فارس وتسعة آلاف راجل[٤]، وساروا قاصدين معسكر الأفضل، فهاجموه بغتة[٥] وتمكنوا من هزيمة القوات الفاطمية والاستيلاء على كل موجودات المعسكر[٦]، ويذكر ابن القلانسي أن عدد قتلى المسلمين بلغ زهاء عشرة آلاف شخص[٧]، مما اضطر الأفضل للانسحاب إلى داخل عسقلان ثم توجه إلى مصر، وما لبث أن قام الصليبيون بمحاصرة المدينة، ولكن تحصيناتها حالت دون استيلائهم عليها، فاكتفوا بفرض غرامة مالية تقدر ما بين اثنتي عشرة، وعشرين ألف دينار، لكن لم يتم تسديدها نتيجة علم سكان المدينة بالخلافات التي نشبت بين قادة الجيش الصليبي، فاضطروا إلى الرحيل عنها [٨].

[١]- المقريزي (أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٢٢٤.
[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٣٧.
[٣]- ابن الأثير، الكامل،ج٨، ص٤٤٧.
[٤]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٠٢.
[٥]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٧.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٤.
[٦]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٧٥.
[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٢٣.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٣.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٧،٤٢٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٤.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف تمكنت القوات الصليبية قليلة العدد - والتي أنهكتها الأعمال الحربية على مدة سنتين- من الانتصار على الجيش الفاطمي؟

ويبدو بأن هذا النصر الصليبي يعود لعدة عوامل هي:

١- القرار الجريء الذي اتخذه الدوق غودفروي المتمثل بجمع قواته ومهاجمة الجيش الفاطمي بشكل مفاجئ[١].

٢- افتقار تحركات الجيش الفاطمي لعنصر المفاجأة، فأنباء استعدادات الوزير الأفضل لإنقاذ بيت المقدس قد وصلت إلى أسماع الصليبيين، لذلك طلب الدوق غودفروي من الأمير تانكرد المتواجد في مدينة نابلس أن يزحف بقواته باتجاه الساحل للوقوف على حقيقة أنباء وصول الجيش الفاطمي، إذ يذكر صاحب يوميات أعمال الفرنجة ذلك بقوله:**" وطلب إليهم الأمير - غودفروي- إثر ذلك أن يسرعوا بالزحف لصد الهجوم الذي يقوم به - الأفضل- وزير مصر على عسقلان ... وبلغوا قيسارية، ثم ساروا محاذين لشاطئ البحر حتى وصلوا إلى الرملة، فعثروا بها على عدد كبير من العرب قدموا لتشعيث المكان، فاندفعوا في آثارهم، وأسروا العديد منهم، وحملوهم على الإفضاء بمعلومات تتعلق بأحوالهم وعددهم والمناطق التي يعتزمون حرب المسيحيين فيها"**[٢].

٣- إضاعة الوزير الأفضل الوقت في مدينة عسقلان منتظراً وصول عسكر الثغور الساحلية والأسطول، ومراسلة الصليبيين يتهددهم وينكر عليهم ما ارتكبوه من قتل وتدمير في مدينة بيت المقدس[٣]، دون أن يستغل فرصة تفرق القادة الصليبيين وانشغالهم بالاستيلاء على المناطق المجاورة لبيت المقدس، وأن يفاجئهم بهجوم يقضي عليهم، إلا أنه لم يفعل ذلك مما أتاح للصليبيين فرصة لتجميع قواتهم المبعثرة.

٤- سوء تكوين وتنظيم الجيش الفاطمي إذ تألف من عناصر غير متجانسة، إضافة لعدم وجود تنسيق بين هجوم المشاة والفرسان. ويؤكد ذلك قول ابن الطُّوير(ت٦١٧هـ/١٢٢٠م):**" فخُذِل - الأفضل- من جهة عسكره ... وعلم أن السبب في ذلك من جنده"**[٤]. لذلك سعى الأفضل لتأسيس جيش جديد يستطيع مواجهة الأخطار التي تحدق بالدولة الفاطمية، إذ يذكر ابن الطوير بأن الأفضل على إثر معركة عسقلان ٤٩٣هـ/١٠٩٩م ،**" أنشا سبع حُجر واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف رجل وقسمهم في الحُجر وجعل لكل مائة زماماً ونقيباً وزم الكل بأمير يقال له (الموفق) وأطلق لهم كل ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح وغيره، وغنى بهؤلاء عن الأجناد فإذا دهمه أمرُ جهزهم إليه مع الزمام الأكبر الموفق"** [٥].

ونتيجة لصمود مدينة عسقلان أمام الحشود الصليبية، ادرك الفاطميون أهمية موقع المدينة وإمكانية استخدامها كقاعدة إنطلاق للجيش والأسطول الفاطمي لتهديد المناطق الخاضعة للصليبيين. لذلك حرص الأفضل على تزويدها بالمؤن والإمدادات، ولم يكتف بذلك بل قام بإدراج جميع سكان

---

[١]- نوار(صلاح الدين)، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠- ٥١٥هـ/١٠٩٧-١١٢١م)، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص١٥١.

[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٧١،١٧٢.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٣.

[٤]- ابن الطُّوير(عبد السلام بن الحسن القيسراني)، نزهة المقلتين في أخبار الدُّولتين، أعاد بناءهُ وحققه: أيمن فؤاد سيِّد ، دار النشر فرانتس شتايز، شتوتغارت، ١٩٩٢م، ص٣،٤.

[٥]- ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٤.

المدينة في قوائم رواتب الجيش الفاطمي[١]، كما حرص معظم الخلفاء والوزراء على مواصلة سياسة الأفضل تجاه عسقلان والاهتمام بتحصين المدينة و بشؤون حاميتها، ومنهم الخليفة الحافظ الذي اهتم بتجديد حامية المدينة كل ستة أشهر، ويشير إلى ذلك المقريزي بقوله:**" ومن محاسن ما يُحكى عنه أنه كان يَخرجُ في كل ستة أشهر عسكر من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقوية لمن بها..."**[٢]. ويؤكد ذلك وليم الصوري بقوله:**" وكان من عادة المصريين أن يرسلوا إليها أربع مجموعات سنوياً تحل الواحدة محل الأخرى حتى تظل قوة العسقلانيين متجددة على الدوام..."**[٣].

ومنذ حصار عسقلان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م اتسمت العلاقات بين الصليبيين ومدينة عسقلان بالطابع العسكري، فمع تسلّم بلدوين الأول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، سعى لتأمين حدود أملاكه، وبما أن عسقلان كانت تهدد المناطق الجنوبية من المملكة، فقد بادر في سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م إلىالزحف نحوها مروراً بمدينة أسدود[٤]. وما إن اقترب الصليبيون من عسقلان **" خرج بعض أهلها إلى قتالنا فصددناهم ورددناهم إلى خلف الأسوار، وعندما وجدنا أن لا فائدة لنا من متابعة التقدم هنا رجعنا إلى معسكرنا..."**[٥].

وبعد استيلاء الصليبيين على مدينتي قيسارية وأرسوف التابعتين للدولة الفاطمية في٤٩٤هـ/١١٠١م، سارعت هذه الأخيرة إلى إرسال حملة عسكرية قامت بالتمركز في مدينة عسقلان؛ إلا أنها لم تبدِ أيّ نشاط عسكري لعدة أشهر[٦]، أما الصليبيون فقد تمركزوا في مدينة اللد[٧] لمراقبة تحرك قوات عسقلان، إلا أنهم لم يجرؤا على القتال لقلة عددهم، ومع طول الانتظار انسحبوا إلى يافا[٨]. وقد اختلفت المصادر حول عدد قوات الطرفين فابن القلانسي يذكر أن قوات الصليبيين بلغت**" ألف فارس وعشرة آلاف راجل"**[٩]، أما فولتشر فيذكر أن قوات الطرفين بلغت**" بات عدد فرساننا قرابة المائتين وستين فارساً ورجالتنا نحو تسعمائة، علماً بأنه توجب علينا منازلة أحد عشر ألف فارس ونحواً من واحد وعشرين ألفاً من الرجالة"**[١٠]، وبعد طول انتظار اشتبكت قوات الطرفان، وتمكنت ميمنة قوات عسقلان من كسر ميسرة الصليبيين، إلا أن الملك بلدوين الأول تمكن من ترتيب صفوف قواته، لكن قوات عسقلان تمكنت من إلحاق الهزيمة بهم، وملاحقتهم إلى يافا . إلا أن فولتشر يذكر أن قوات الصليبيين هي مَن حققت النصر[١١].

وعلى أثر ذلك تكرر إرسال مصر لحملات عسكرية إلى عسقلان للإغارة على المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، ففي رجب سنة ٤٩٥هـ/أيار ١١٠٢م أرسلت الدولة الفاطمية حملة إلى عسقلان[١٢] كان هدفها تقديم العون للمدن الساحلية المتبقية في يد الدولة الفاطمية[١٣]، وقدر فولتشر

---

[١]- نوار، العدوان الصليبي، ص ٣١٧، ٣١٨.
[٢]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٩٠.
[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٩.
[٤]- تقع إلى الجنوب من مدينة يافا على بعد نحو ٤١كم.- الدباغ، بلادنا ، ج١، ق٢، ص١٩٤.
[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٨٧.
[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٧.
[٧]- اللد : تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة يافا على بعد ١٢ ميلاً. الدباغ، بلادنا، ج٤، ق٢، ص ٤٦٥ .
[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٧، ٣٩٨.
[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٧.
[١٠]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٨.
[١١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٩-٤٠١.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٧.
[١٢]- يرد ابن الأثير ذكر هذه الحملة في حوادث سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م . - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٤٨٩.
[١٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٨٩.

أوف تشارترز عدد قوات هذه الحملة بعشرين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وأخذ المسلمون يشنون غاراتهم إلى أن وصلوا إلى مدينة الرملة[١].

وغد ذلك ارتكب الملك بلدوين الأول عملاً متهوراً حيث قرر الزحف بمن وجد معه من عسكر قدروا بسبعمئة مقاتل، فاشتبك مع القوات الفاطمية في موقعة يازور[٢] بالقرب من الرملة واستطاعت تلك القوات الانتصار عليه وقتل أكثر قواته، مما اضطر بلدوين الأول إلى أن يفرّ نحو مدينة الرملة ويتحصّن ببرجها، فحاصرت قوات عسقلان البرج، وتمكنت من قتل جميع أفراد حاميته، إلا أن بلدوين استطاع الفرار نحو أرسوف ومنها إلى يافا[٣]، وعلى أثر ذلك استدعى جميع مقاتلي المملكة للاحتشاد في يافا، في وقت استعدّ فيه المسلمون لحصار يافا ولكن دون جدوى، فما لبث أن اشتبك الصليبيون معهم وتمكنوا من هزيمتهم[٤].

وفي سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م أرسلت الدولة الفاطمية حملة برية وأخرى بحرية بقيادة شرف المعالي شاهنشاه ابن الوزير الأفضل فنزلتا عسقلان. وقد ذكر ابن الأثير أنها أرسلت حملة برية بقيادة تاج العجم فضلاً عن حملة بحرية بقيادة ابن قادوس[٥]، وعلى أثر ذلك تمت مراسلة الأتابك طغتكين طالباً منه العون، إلا أنه لم يستجب، فقامت الحملة البحرية بحصار يافا في أواخر شوال من السنة ذاتها[٦]، وقام ابن قادوس بطلب العون من تاج العجم المقيم في عسقلان، إلا أن هذا الأخير رفض تلبية ذلك بحجة أنه يتلقى الأوامر من الوزير الأفضل، واستمرت الحملة البحرية بحصار يافا لمدة عشرين يوماً، ونتيجة لعدم وصول المدد اضطر الأسطول الفاطمي إلى الانسحاب. وعلى إثر ذلك قام الأفضل بإلقاء القبض على تاج العجم وعين عوضاًعنه جمال الملك والياً لعسقلان[٧]

وفي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م زحفت القوات الفاطمية بقيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل إلى عسقلان[٨]، وتراوح عددها ما بين عشرة وخمسة عشر آلف مقاتل، وما إن نزلت الحملة عسقلان حتى قامت بمراسلة الأتابك طغتكين طالبة منه العون، فاتجه صوب عسقلان بصحبة ألف مقاتل[٩]،

---

(١)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٠٥.

(٢)- يازور: تقع إلى الشرق من مدينة يافا تبعد عنها حوالي ٦كيلومترات، ويصفها ياقوت الحموي بقوله:" **بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام...**". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص٤٢٥. - الدباغ، بلادنا، ج٤، ق٢، ص٣١٢.

(٣)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٠١، ٤١١. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٩. - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٤٨٩.

(٤)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤١٢- ٤١٤.

(٥)- ورد لدى كتب التراجم عدد من الأشخاص عرفوا بلقب ابن قادوس، ولكن هناك اثنان توفيا في فترة من هذه الأحداث، هما:

أ- إسماعيل بن حسين بن حميد الفهريّ، الدمياطي، الموفق، سديد الدولة، كافي الكفاة، أبو الفضل ضامن الثغور البحرية، توفي سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م.

ب- أبي الفتح محمود بن إسماعيل بن حسين بن حميد الفهريّ، الدمياطي، خدم في الأسطول والطراز صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، يذكر المقريزي أنه قتل سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م، في حين يذكر الكتبي أنه توفي سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م.

- المقريزي (تقي الدين)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج٢، ص٩٦.

- الكتبي (محمد بن شاكر)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، مج٤، ص١٠٠، ١٠١.

(٦)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٣١.

(٧)- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٩٠.

(٨)- يذكر ابن الأثير بأن قائد الحملة هو سناء الملك حسين بن الأفضل. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥١٣.

(٩)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٢٣، ٤٢٦. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٤٠.

فحشد الملك بلدوين الأول قواته التي بلغ تعدادها حسب تقدير فولتشر بخمسمئة فارس وألفي راجل[١]، في حين قدر ابن الأثير عدد قوات الصليبيين بألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل[٢] وعسكر بالقرب من يافا، إلا أن الجانبين تجنبا القتال وبعد طول انتظار اشتبك الطرفان في ١٤ ذي الحجة/ شهر آب، فهُزم المسلمون وقُتل والي عسقلان جمال الملك[٣]، وقدّر فولتشر عدد قتلى الطرفين بقوله:" **أربعة آلاف من فرسان العدو ومشاته قد قتلوا مقابل ستين من رجالنا"**[٤]، إلا أن فولتشر قد بالغ في عدد قتلى المسلمين بالمقارنة مع عدد قتلى الصليبيين ربما ليصبغ انتصار الصليبيين بهالة البطولة، أما ابن الأثير فيقدر عدد قتلى الطرفين بقوله: " **فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك أمير عسقلان"**[٥]، ونتج عن ذلك تفرق قوات المسلمين إلى مصر ودمشق، وفي هذه الأثناء كان الأسطول الفاطمي القادم من مصر يرابط أمام مدينة يافا، فأصدر الملك بلدوين الأول أوامره بإلقاء رأس والي عسقلان جمال الملك على السفن الفاطمية، مما دفعها للانسحاب إلى صور وصيدا.

وبهزيمة القوات الفاطمية أسدلت الستار عن الحملات الكبرى التي أرسلتها الدولة الفاطمية لقتال الصليبيين، وعلى الرغم من ذلك سعت حامية عسقلان بشكل متواصل لنصب الكمائن والإغارة على المنطقة الواقعة مابين يافا والرملة وبيت المقدس، وذلك في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وقد ردّ الصليبيون بإرسال قوة لم يتجاوز عددها الخمسة والستين مقاتل وبحسب زعم فولتشر، تمكنت من هزيمة قوات عسقلان البالغ عددها خمسمئة فارس وألف راجل[٦]؟

وكان لهزيمة حملة سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م حد فاصل انتهى بها الدور الهجومي لحامية عسقلان حيث أخذت تسهم بدور دفاعي واكتفت بصد غارات الصليبيين. فبعد استيلاء الملك بلدوين الأول على صيدا، هدف للاستيلاء على عسقلان فأغار عليها سنة٥٠٤هـ/١١١١م، مما دفع واليها شمس الخلافة[٧] الذي كان يفضل موادعة ومهادنة الصليبيين[٨]، إلىمراسلة بلدوين طالباً المهادنة،فلمّا علم الوزير الأفضل بذلك بادر إلى إرسال حملة عسكرية هدفها الظاهري قتال الصليبيين بينما أمر قائد الحملة سراً بالقبض على شمس الخلافة وأن يقيم عوضه بعسقلان، وعند اقتراب الحملة من عسقلان أعلن شمس الخلافة العصيان واتخذ عدة إجراءات للحفاظ على سلطته، فقام بإبعاد جميع العسكر المخالفين له، واستخدم عوضاً عنهم جماعة من الأرمن، كما طلب من بلدوين الأول المعونة بالرجال والغلال، ووعده إن دهمه أمر سلم إليه المدينة[٩]، وذهب إلى بيت المقدس فعاد ومعه ثلاثمئة جندي صليبي[١٠]، فلما علم الأفضل بذلك خشي أن يقوم شمس الخلافة بتسليم المدينة، فقام بملاطفته وأبقى على إقطاعه وأمواله في مصر ولم يصادرها، واستمر الوضع على هذه الحال حتّى أواخر سنة

= يذكر ابن الأثير بأن طغتكين أرسل قوة تتألف من ألف وثلاثمائة فارس بقيادة الأمير أصبهبذ صباوو، بينما بلغ عدد القوات الفاطمية خمسة آلاف مقاتل. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥١٣.

[١]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٢٦.

[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥١٣.

[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٢٣، ٤٢٦، ٤٢٧. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥١٣.

[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٢٧.

[٥]- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٥١٣.

[٦]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٢٣، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٢.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٥.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٦.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٧٥.

[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٧٥. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٥٨٣.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٥،٤٦. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٢٤.

[١٠]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٤.

٥٠٤هـ/١١١١م، حيث قام سكان المدينة بمهاجمة شمس الخلافة وقتله[١]. بينما يذكر المقريزي وقوع هذه الحادثة في سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م، ويرى أن من تولى قتله هم جماعة من أهل بيروت[٢]، الذين ربما قدموا إلى عسقلان على إثر سقوط بيروت بيد الصليبيين، فهالهم ما أبداه من تعاون مع الملك بلدوين الأول الذي سبق أن استولى على مدينتهم وقتل معظم سكانها.

وفي سنة٥٠٧هـ/١١١٣م تمكن الجيش السلجوقي بقيادة الآتابك مودود[٣] من هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة[٤]، وقيامه بالإغارة على المناطق الشمالية من فلسطين، فاستغلت حامية عسقلان هذا الأمر، فأغارت بدورها على بيت المقدس وأحرقت المحاصيل الزراعية فيها[٥]، وفي سنة٥٠٩هـ/١١١٥م قامت حامية عسقلان باستغلال انشغال الملك بلدوين الأول وقواته في مشاكل الإمارات الصليبية الشمالية، وتمّ إرسال حملة برية وبحرية نحو يافا، ففرضت الحصار عليها، وعلى الرغم من قلة عدد المقاتلين الصليبيين فيها، إلا أنهم تمكنوا من الصمود وردِّ العرب المسلمين إلى مسافة بعيدة عن المدينة، وعند ذلك اضطرت الحملة لفك الحصار بينما توجه الأسطول إلى مدينة صور[٦].

- عسقلان مركزاً للتقارب العسكري الإسلامي - الإسلامي في مواجهة الخطر الصليبي:

سرعان ما أجبرت الظروف العسكرية لحدوث تقارب بين الدولة الفاطمية وإمارة دمشق السلجوقية بالرغم من الخلاف بين الطرفين من الناحية المذهبية، ويبدو بأن المصلحة المشتركة في قتال الصليبيين كانت الخطوة الأولى لكسر الجمود بين الطرفين والخطوة الأولى للتقارب الشيعي السني. لذا في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م حشدت الدولة الفاطمية قوة تتألف من خمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل وأسطول بحري، وتمركزت في مدينة عسقلان والتحق بهم طغتكين حاكم دمشق، وعند ذلك حشد بلدوين الأول قواته في أسدود، إلا أن الجيشين لم يمتلكا رغبة بالقتال[٧]، واستمر ذلك لنحو شهرين[٨]، وانتهى الأمر باتفاق الطرفين على تأجيل القتال لقرابة ثلاثة أشهر، وعند ذلك عاد كل طرف إلى بلاده[٩]. ويبدو أن التحالف الدفاعي الذي تم بين الآتابك طغتكين والدولة الفاطمية سرعان ما عاد إلى الظهور مجدداً خلال سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، إذ راسل الأتابك طغتكين لوزير الفاطمي المأمون البطائحي طالباً منه مشاغلة الصليبيين، فأرسلت الدولة الفاطمية حملة برية رافقتها أربعون سفينة حربية، جعلت مدينة عسقلان مركزاً لشن غاراتها على الصليبيين، ثم قامت

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٥.- ابن الاثير، الكامل، ج ٨، ص٥٨٣.

[٢]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٠،٥١.

[٣]- مودود بن ألتونتكين أحد أمراء الدولة السلجوقية تولى حكم الموصل سنة٥٠٢هـ/١١٠٨م على إثر قضائه على تمرد الوالي السابق جاولي سقاوه، وقام السلطان محمد بن ملكشاه بتكليفه بقتال الصليبيين فقاد حملتين ضد إمارة الرها الصليبية في سنة ٥٠٥هـ/١١١١م و٥٠٦هـ/١١١٢م، كما قام بالتعاون مع الآتابك طغتكين بمهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية، وألحق الهزيمة بقواتها بالقرب من طبرية، وما لبث أن قتل في داخل المسجد الأموي في دمشق سنة٥٠٧هـ/١١١٣م.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٥، ص ٢٠٠.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٦٨، ٢٨٩، ٢٩٣- ٢٩٨.

[٤]- الصنبرة: تقع بالقرب من نهر الأردن مقابل بلدة عقبة أفيق، وبينها وبين طبرية ثلاثة أميال.- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٤٢٥.

[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

[٦]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٥٠، ٤٥١، - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣١١، ٣١٢.

[٧]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٦٢.

[٨]- ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص ٦٤٣.

[٩]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦ ، ص٤٦٢،٤٦٣.

هذه الحملة بحصار يافا، لكنها اضطرت أمام وصول الحشود الصليبية للدفاع عن المدينة للانسحاب إلى منطقة يبنه[١] حيث اشتبكت معها، فكان النصر من نصيب الصليبيين[٢].

وبذلك غدت مدينة عسقلان مركزاً للتقارب العسكري الإسلامي الشيعي- الإسلامي السني لمواجهة الخطر الصليبي الذي استولى على الساحل الشامي والعديد من المناطق الداخلية في بلاد الشام.

وعلى الرغم من الضعف الذي دب في جسد الدولة الفاطمية نتيجة لكثرة الاضطرابات والفتن والخلافات الداخلية التي تلت وفاة الوزير الأفضل، إلا أن الدولة الفاطمية سعت لمناوشة صليبيي بيت المقدس، واتخذت من مدينة عسقلان قاعدة لانطلاق قواتها ففي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م انطلقت من عسقلان حملة برية وبحرية زحفت شمالاً، فقامت بفرض الحصار على مدينة يافا، وأخذت تقذفها بالحجارة وتمكنت من إلحاق الضرر بأسوارها، وكان عدد المدافعين عنها قليلاً جدّاً، وعلى الرغم من ذلك لم يواصل المسلمون القتال فانسحبوا، في وقت وصلت فيه النجدات الصليبية إلى الرملة، وسارعت بالاشتباك مع العرب المسلمين بالقرب من أسدود فانتصر الصليبيون، وقدر فولتشر عدد قتلى المسلمين بنحو ستة آلاف. وفي السنة ذاتها قام الصليبيون بحصار مدينة صور، فقامت قوات عسقلان بالإغارة على منطقة بيت المقدس في محاولة منها لتخفيف الضغط عن المدينة[٣].

- دعم حامية عسقلان لتمرد كونت يافا ضد الملك فولك:

شهدت مملكة بيت المقدس الصليبية في سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م قيام خلاف بين الملك الصليبي فولك الأنجوي[٤] (٥٢٦-٥٣٧ هـ/ ١١٣١- ١١٤٢ م) وهوغ الثاني كونت يافا، وما لبث أن اتهم هوغ الثاني بخيانة الملك فأعلن عصيانه على السلطة الملكية، ولإدراكه بعدم القدرة على مواجهة القوات الملكية في حال قيامها بمهاجمة يافا، اتجه إلى مدينة عسقلان طالباً العون من الحامية الفاطمية المتمركزة فيها، وقد وجد الفاطميون في ذلك فرصة سانحة لاستعادة المناطق التي استولى عليها الصليبيون، فتحالفوا معه[٥].

وعلى إثر ذلك قامت حامية عسقلان بمهاجمة أراضي مملكة بيت المقدس حتى بلغوا مدينة أرسوف. فرد الملك فولك بحشد قواته العسكرية واتجه لحصار يافا وعند ذلك تخلى أتباع هوغ الثاني عنه، مما دفعه للاستسلام ولم يكن عقابه قاسياً؛ حيث تدخل بطريرك بيت المقدس وليم للصلح بين الطرفين[٦]، و" **انتهى الوضع أخيراً بدعاة السلام وصانعيه إلى أن يكتفوا سعياً منهم للوفاق**

[١]- يبنه أو يبنا:تقع إلى الجنوب من مدينة يافا تبعد عنها نحو ٥ ميلاً وعن عسقلان ١٩ميلاً، عرفت لدى الصليبيين باسم إبليين، في حين وصفها ياقوت الحموي بقوله:" **بليد قرب الرملة..**".- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص٤٢٨.- الدباغ، بلادنا، ج٤، ق٢، ص ٥٩٢، ٥٩٣

[٢]- المقريزي، اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٩٩،١٠٠.

[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٥٠١.

[٤]- الملك فولك تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٢٦-٥٣٧ هـ/ ١١٣١- ١١٤٢ م)خلفاً لوالد زوجته الملك بلدوين الثاني إلى أن توفي على إثر وقوعه عن صهوة حصانه خلال رحلة صيد بالقرب من عكا .- وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٣، ص٨٩، ٩٢، ٢١٥.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١١٩،١٢٠.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٢٢٤.

- T. A. Archer, Charles L. Kingsford, The Crusades The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem, G.P. Putnam's Sons, New York - T.Fisher Unwin , 1902,p117.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٢٠،١٢١. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٢١.

وللحفاظ على شرف الملك بنفي الكونت لمدة ثلاثة أعوام، ثم يسمح له بعدها وللضالعين معه في الجرم بالعودة إلى المملكة..."[١].

ويبدو بأن الملك اكتفىبهذه العقوبة نتيجة اضطراره للتوجه شمالاً لمواجهة شمس الملوك إسماعيل بن بوري حاكم دمشق الذي تمكن من استعادة مدينة بانياس[٢]. فغادر هوغ الثاني المملكة إلى أبوليا[٣] وسرعان ما توفي هنالك[٤].

وبذلك راهنت حامية عسقلان على الحصان الخطأ، كما يبدو بأن هذا التصرف الذي قامت به الحامية كان ينقصه التنسيق مع القيادة الفاطمية في القاهرة، كما ترتب على هزيمة التحالف بين هوغ الثاني وحامية عسقلان أن قام الملك فولك بفصل العديد من الإقطاعيات عن التبعية لكونتية يافا مما أدى إلى تقليص مساحتها والتقليل من خطر تمرد من يتولاها فيما بعد.

وهكذا يمكن القول بأن تمرد كونت يافا جعل الصليبيون يدركوا خطر حامية عسقلان من جديد على المملكة، لذا سعوا إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة للحد من غارات حامية عسقلان.

أدرك الصليبيون أنهم لن يستطيعوا منع حامية عسقلان من شن الغارات على الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس أو الاستيلاء على عسقلان، لذلك اتخذوا خطة تعتمد على إحاطة عسقلان بعدة قلاع مهمتها الحيلولة دون اجتياح حامية عسقلان المنطقة الجنوبية من المملكة[٥]، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بتشجيع القادمين من أوربا على الاستيطان في قرى أقيمت بالقرب من تلك القلاع بهدف توفير المؤن الغذائية لها، فضلاً عن تأدية سكانها لبعض الالتزامات العسكرية[٦] ومنها قلعة بيت جبرين في سنة٥٢٥هـ/١١٣٠م التي كانت تتحكم في الطريق من عسقلان إلى الخليل، وقد عهد بها إلى فرسان الإسبتارية، وقلعة يبنه في سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م التي تقع في بقعة وفيرة المياه، وتتحكم في تلاقي الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة، وقلعة تل صافي (Blanche garde)[٧] في سنة٥٣٦-٥٣٧هـ/١١٤١-١١٤٢م للسيطرة على الطريق الواقع مابين عسقلان وبيت المقدس[٨]، وأعطيت مهمة الدفاع عن تلك القلاع إلى هيئتي الإسبتارية والداوية[٩].

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٢١،١٢٢.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٢٢.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٢٢٤.

[٣]- تقع في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة الإيطالية، وقد ذكرها الإدريسي باسم بولية خلال حديثه عن الأراضي الإيطالية.- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٧٧١.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٢٤.

[٥]- عوض، الحروب الصليبية، ص ٨٠.

[٦]- براور(يوشع)، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م، ص ٣٨، ٣٩.

[٧]- قام الملك فولك بتشييدها على بعد ثمانية أميال للشرق من مدينة عسقلان، ودعيت هذه القلعة خلال الحروب الصليبية باسم برج المراقبة الأبيض "Blanche orade"، وتمثلت مهمة هذه القلعة بتأمين الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس وصد غارات حامية عسقلان.

- الفيتري (يعقوب)، تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان- الأردن، ١٩٩٨م، ص٤٦.
- عوض، الحروب الصليبية، ص٧٦،٧٧.

[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٦٧.

[٩]- مقامى، (نبيلة ابراهيم)، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٩- ٣٨.

كما أعاد الصليبيون بناء قلعة غزة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م من أجل التضييق على عسقلان، فردت الدولة الفاطمية على ذلك بأن أرسل الوزير العادل علي بن السلار[١] وفداً بقيادة أسامة بن منقذ لمقابلة الملك العادل نور الدين محمود ليطلب منه الإغارة على منطقة طبرية مما قد يدفع الصليبيين إلى العمل على تخفيف الضغط عن عسقلان، إلا أن الملك العادل نور الدين اعتذر عن ذلك نظراً لانشغاله بمناوشة مدينة دمشق، ولكنه سمح لأسامة بن منقذ بجمع المتطوعين الذين بلغ عددهم ٨٦٠ فارساً، كما سير معه الأمير عين الدولة الياروقي[٢] بصحبة ثلاثين فارساً، وعندما وصلوا إلى عسقلان قاموا بالإغارة على قلاع بيت جبرين وبينه وغزة[٣]، ولتخفيف الضغط عن عسقلان قامت حامية المدينة في محرم سنة٥٤٧هـ/نيسان ١١٥٢م بمهاجمة قلعة غزة وتمكنت من قتل العديد من أفراد حاميتها[٤].

- استيلاء الصليبيين على عسقلان:

وعلى الرغم من كل محاولات الدولة لفاطمية فك الحصار عن مدينة عسقلان، إلا أن الصليبيين تمكنوا في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م من تضييق الخناق عليها مستغلين اضطراب الأوضاع في مصر بعد مقتل الوزير ابن سلار وانشغالهم عن عسقلان؛ مما أدى لتوقف إرسال العسكر والمؤن إليها[٥]، فقام الصليبيون بتدمير البساتين والأراضي الزراعية التي تحيط بها، ولم يمض وقت طويل حتى قاموا بحصارها من جهة البر، كما تولى الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة إحباط محاولات الخروج من المدينة ومنع وصول الإمدادات إليها، إلا أن المدينة كانت محصنة بشكل جيد بالأسوار والحصون والأبراج، ومجهزه بكميات ضخمة من الأسلحة، وأبدى سكان المدينة ومقاتليها شجاعة في التصدي لهجمات الصليبيين، كما أن عددهم حسب رواية وليم الصوري كان ضعف الجيش الصليبي، لذلك أصدر الملك بلدوين الثالث(٥٣٨-٥٥٨هـ/١١٤٣-١١٦٢م) أوامره لجميع الحجاج والبحارة المتواجدين في أراضي مملكة بيت المقدس بالتوجه للمشاركة في الحصار، مما أدى إلى ازدياد قوة الجيش الصليبي[٦]، وفي سبيل تشديد الحصار البري على المدينة قاموا بصنع برج وآلات لقصف المدينة[٧]، ويذكر ذلك وليم الصوري بقوله:" **كان المسيحيون ... قد اشتروا سفناً**

---

[١]- الملك العادل سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار، تولى الوزارة للخليفة الظافر سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، ولقب بأمير الجيوش، وكان شهماً مقداماً مائلاً إلى أرباب الفضل والصلاح، امتاز بجهاد الصليبيين فأرسل عدة حملات عسكرية ضدهم، وقتل على يد نصر بن عباس سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٣، ص ٤١٦- ٤١٨.

[٢]- الياروقي: هو عين الدولة ياروق بن أرسلان التركماني ، يعد من أبرز الأمراء لدى الملك العادل نور الدين محمود ، وتنسب إليه طائفة التركمان الياروقية، شارك في حملات نور الدين لوقف الهجمات الصليبية على مصر، توفي سنة٥٦٤هـ/ ١١٦٨م.

- ابن تغردي بردي (أبو المحاسن)، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م، ط٢، ج٢، ص٧٧١.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٦، ص١١٧. - ابن شداد (بهاء الدين)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق:جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص٧٩. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص٤٢٥.

[٣]- ابن منقذ (أسامة)، الاعتبار،" من خلال الموسوعة الشامية"، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، د.ت، ج١٢، ص١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، ١٤٩.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٩٣.

[٥]- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٠٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٦.

[٦]- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار، من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج٧، ص١٦٠، ١٦٤-١٦٦.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٩٥. - وليم الصوري، تاريخ أعمال،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٦٦.

بمبالغ كبيرة وأزالوا سوارها، ثم جرى استدعاء الصناع وصدرت إليهم الأوامر ببناء برج عال جداً من الخشب،... واستخدمت المواد الخشبية الزائدة عن السفن لإنشاء آلات القذف" [١].

وأخذ الصليبيون يحاولون الاقتراب بالبرج إلى أسوار المدينة و خلال ذلك حدثت العديد من المعارك التي قتل فيها أعداد كثيرة من الطرفين[٢]، وأمام هذه الأهوال التي تعانيها عسقلان قامت الدولة الفاطمية بإرسال أسطول محمّلٍ بالأموال والرجال، تمكن من الاستيلاء على عدد من سفن الصليبيين، والدخول إلى ميناء عسقلان، فارتفعت معنويات المدافعين عن المدينة، كما قام الملك العادل نور الدين محمود بمهاجمة القلاع الصليبية ومنها قلعة بانياس آملاً في أن يجبر ذلك الصليبيين على فك الحصار عن المدينة ، ويبدو أن هذه الإجراءات كانت غير كافية لإنقاذ مدينة عسقلان، فقد استمر الصليبيون بشن هجماتهم كما هدد وابل الصخور المقذوفة من المنجنيقات بإضعاف أسوار المدينة[٣]، كما ألحق البرج الصليبي الكثير من الأذى بسكان المدينة، ويصف وليم الصوري ذلك بقوله:**"أحدث الجنود الموجودون ضمن البرج المتحرك إبادة كبيرة بقسيهم[٤] وسهامهم ليس على المدافعين الذين كانوا يقاومونهم من قمة الأبراج والأسوار فقط، بل أيضاً على الذين اضطروا بحكم الضرورة للتحرك حول المدينة"**[٥].

ونتيجة لخطر هذا البرج قرر المدافعون عن المدينة القيام بإحراقه، فقاموا بإلقاء كمية كبيرة من الحطب في المسافة الفاصلة بين السور والبرح وأشعلوا فيها النيران إلا أن الرياح غيرت اتجاه ألهبت النار التي اشتعلت في أكوام الحطب وبعض أجزاء البرج، فاتجهت صوب سور المدينة مما أدى إلى انهيار جزء منه[٦]، لكن ابن القلانسي ينسب تهدم السور إلى جهود الصليبيين بقوله:**" قد ضايقوها بمغاداة[٧] القتال ومراوحته إلى أن تسهلت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه وهجموا البلد"**[٨]، ولكن يبدو بأن رواية وليم لصوري عن ذلك أكثر إنصافاً لكونه أقرب لمكان الحدث، وعلى إثر ذلك هرع مقدم الداوية برنارد دي ترميلي ورجاله للدخول إلى عسقلان من خلال الثغرة التي في سور المدينة، ولم يسمح لغير الداوية الاشتراك في ذلك حتى يتمكن هو ورجاله من الحصول على الجزء الأكبر من الغنائم[٩]، ولكون أن المدينة ستصبح ملكاً للداوية وفقاً لقانون الغزو السائد لدى الصليبيين،إلا أن عدد الداوية كان قليلاً بالمقارنة مع حامية عسقلان التي تمكنت من قتل مقدم الداوية و أربعين من رجاله، ومن سد الثغرة بواسطة عوارض عملاقة مع كتل خشبية حصلوا عليها من السفن الراسية في ميناء مدينتهم، وأدى ذلك إلى ارتفاع معنوياتهم وفي المقابل أثار هذا الرعب في صفوف الصليبيين المحاصرين للمدينة، وفكر الملك بلدوين الثالث رفع الحصار إلا أن مقدم الإسبتارية والبطريرك فولشر تمكنا من إقناعه بمواصلة الحصار[١٠].

---

[١]- وليم الصوري، تاريخ أعمال،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٦٦.

[٢]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٦٧.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٩٥- ٤٩٧.- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص ١٦٨- ١٧١.

[٤]- قسيهم: تعني الأقواس، فابن منظور يذكر بأن جمع قوس"قُوسٌ و أَقْواسٌ وأَقْياسٌ على المعاقبة ....وقِياسٌ، وقِسيٌّ وقُسيٌّ" . - ابن منظور، لسان العرب، مج٥، ص٣٧٧٣.

[٥]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٧١.

[٦]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص ١٧٢،١٧١.

[٧]- مغاداة: بمعنى باكَرَهُ. - ابن منظور، لسان العرب، مج٥، ص٣٢٢١.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٩٧.

[٩]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٧٢.

[١٠]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٧٥،١٧٤.- مقامى، فرق الرهبان، ص ٣٨، ٣٩.

ويبدو أن إصرارهم على مواصلة القتال يعود لمعرفتهم بما كان يجري داخل عسقلان من خلافات بين مقاتليها حيث يصف ابن الأثير ذلك بقوله:**" وكان سبب هذا الاختلاف أنهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين، وادعى كل طائفة من أن النصرة من جهتهم كانت، وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين، فعظم الخصام بينهم، إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيلُ، واشتد الخطب وعظم حينئذ، وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم، فقتل بينهم قتلى"**[١]، إلا أن هذه الرواية لم يذكرها بقية المؤرخين الذين عاصروا الحروب الصليبية، ويمكن الاستنتاج من هذه الرواية حدوث خلاف بين المقاتلين المحليين للمدينة، وأولئك الجنود الذين قدموا مع الأسطول الفاطمي لمؤازرة المدينة على إثر التمكن من صد هجوم الداوية.

وعاود الصليبيون شن هجماتهم على المدينة وتمكنوا على حد وصف وليم الصوري من إيقاع مجزرة كبيرة بحق المدافعين عن المدينة رداً على مقتل فرسان الداوية، مما أدى لحدوث الفوضى داخل المدينة[٢]، إضافة لوصول نبأ مقتل الوزير العادل علي بن السلار والاضطرابات التي حدثت في مصر على إثر ذلك فأدرك سكان المدينة بأنهم لن يحصلوا على أي عون، ويؤكد ذلك ابن الطُّوير بقوله:**" وبلغ الفرنج المُحاصرين عسقلان قَتْل العادل بن السَّلار قبل وصول خبره إلى أهل عسقلان وهي محصورة، فقويت شوكة الفرنج وقالوا لأهل عسقلان فضعفت قوتهم وآيسوا من النجدة فأخذها الفرنج ..."**[٣]، مما اضطر سكان المدينة لطلب الأمان والسماح بالرحيل براً أو بحراً إلى مصر[٤]، ووافق الملك بلدوين الثالث على ذلك شرط إخلائها خلال ثلاثة أيام[٥]، فوافقوا على ذلك فتم تسليمها في شهر جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ ١٩أب١١٥٣م.

- نتائج سقوط مدينة عسقلان:

ترتب على سقوط المدينة عدة نتائج على مختلف النواحي:

١- قام الملك بلدوين الثالث بمنح عسقلان والمنطقة المحيطة بها لأخيه عموري كونت يافا، وبذلك أصبحت كونتية يافا وعسقلان أكبر إقطاع ملكي [٦].

٢- فقدت الدولة الفاطمية قاعدة دفاعها الأمامية مما أدى إلى فتح الطريق أمام الصليبيين للتوسع جنوباً نحو مصر، التي امتازت بغناها بالموارد الطبيعية إلى جانب الزراعة المتطورة وتجارة الترانزيت القادمة من الهند[٧]، في وقت كانت فيه أوضاعها الداخلية مضطربة نتيجة تنافس القادة على منصب الوزارة والتحكم بالخلفاء الفاطميين[٨]، حتى أن وليم الصوري يرى أن بإمكان الصليبيين الاستيلاء على مصر بكل سهولة، وذلك بقوله:**"إذا سقطت المدينة ووقعت في سلطة المسيحيين فلن يكن هنالك شيء يمنع قادتنا من غزو مصر دون عائق والاستيلاء على تلك المملكة بقوه"**[٩]. وفي سبيل تحقيق ذلك فإن الملك عموري الذي عرف عنه اهتمامه

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٠٩.

[٢]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص

[٣]- ابن الطُّوير، نزهة المقلتين، ص٦٥.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٩٧. - وليم الصوري، تاريخ أعمال ، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص ١٧٧،١٧٨. - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٢٦١. - مقامى، فرق الرهبان، ص ٣٩.

[٥]- وليم الصوري، تاريخ أعمال ، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص١٧٩.

[٦]- ماير(هانس ابرهارد)، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م، ص ١٦٣.

[٧]- ماير، تاريخ الحروب، ص ١٦٤،١٦٩

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠٩.- ماير، تاريخ الحروب، ص١٦٩.

[٩]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٣.

بأوضاع مصر منذ توليه كونتية يافا، لذا قام بتشييد قلعة الداروم[١] سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، والتي أصبحت نقطة الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس، كما اتخذت مركزاً لتحصيل الرسوم الجمركية من القوافل التجارية القادمة من مصر[٢].

٣- أدى سقوط المدينة إلى بسط السيطرة الصليبية على المناطق المجاورة لها، وبذلك أتيحت الفرصة أمام المستوطنين الصليبيين لاستثمار الأراضي الصالحة للزراعة هنالك، والتي امتازت بالخصوبة ويؤكد ذلك وليم الصوري بقوله:**"وتمكن أهالي تلك المنطقة من زراعة الأرض بحرية بعدما تخلصوا من الخوف من العدو. وهكذا نعمت المملكة بأسرها بوفرة كبيرة إلى حد ممكن فيه نسميه جميع الأعوام السابقة مجدبة وعقيمة بالمقارنة مع الحاضر، ولقد احتفظت التربة بداخلها بكل طاقتها؛ لأنها لم تزرع لفترة طويلة من الزمن، وكانت محرومة من عناية الحراثة، واستجابت بالنتيجة لعناية المزارعين بفائدة مضاعفة وأنتجت محاصيل تضاعفت ستين مرة"**[٣].

٤- أكمل الصليبيون بسط سيطرتهم على كامل ساحل بلاد الشام وحرموا العرب المسلمين من آخر قواعدهم البحرية على هذا الساحل.

٥- أدى نبأ سقوط عسقلان إلى إنتشار حالة من الحزن والخوف في الأوساط العربية الإسلامية، وعبر عن ذلك قول ابن القلانسي: **" ولما شاع هذا الخبر في الأقطار ساء سماعه وضاقت الصدور وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله..."**[٤].

٦- أدرك الملك العادل نور الدين محمود ضرورة العمل على إدخال مدينة دمشق وأعمالها في حيز سلطانه؛ كوسيلة للضغط على مملكة بيت المقدس، ولكي يقوم بمراقبة تحركات الصليبيين الهادفة للاستيلاء على مصر بعد سقوط عسقلان.

---

[١]- الداروم:تقع إلى الجنوب من مدينة غزة، وتعرف حالياً باسم دير البلح، يصف موقعها ياقوت الحموي: **" قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ ".**

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص ٤٢٤. - الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢ ، ص ٢٩٠.

[٢]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٤٥.- براور، الاستيطان، ص٣٩.

[٣]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٨٣.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٩٧.

ثالثا- نشاط القوى البحرية الأوربية ودورها في الحروب الصليبية لغاية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م:

أسهمت القوى البحرية الأوربية بدور كبير في العمليات العسكرية الصليبية للاستيلاء على مدن الساحل الشامي، وقد تعددت العوامل التي دفعت هذه القوى إلى تقديم العون للصليبيين.

فقد عُدّ أسطول القرصان غينمر البولوني أول أسطول قدّم العون للمشتركين في الحملة الصليبية الأولى، فقد ساعد الكونت بلدوين في الاستيلاء على مدينة طرسوس سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وتم تعيين قائده حاكماً على تلك المدينة، وتألف هذا الأسطول من عدة عناصر عرقية منها الدانماركية والفلمنكية والفريزية والنورماندية .... وغيرها[١]، وقدر ألبرت عدد هؤلاء بـ (٥٠٠) مقاتل[٢]، ومن الأسباب التي دفعت هذا الأسطول القدوم إلى الشرق رغبتهم بكسب الغفران عن خطاياهم إذ يصف وليم الصوري ذلك بقوله:"**... حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثماني سنوات، ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم وتابوا عن أثمهم فركبوا البحر في طريقهم إلى القدس للصلاة**"[٣]، وساعد هذا الأسطول تانكرد في الاستيلاء على مدينة الإسكندرونة في سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م[٤].

وفي سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م قام القرصان غنيمر بمهاجمة مدينة اللاذقية الخاضعة للسيطرة البيزنطية في محاولة منه للاستيلاء عليها، إلا أنه هزم ووقع بالأسر نتيجة لقلة قواته، وما لبث أن أطلق سراحه بعد أن التمس الدوق غودفروي ذلك من الحاكم البيزنطي[٥].

ومن القراصنة الآخرين الذين قدموا لمساعدة جموع الصليبيين وللحصول على الغنائم، القرصان الإنكليزي ادغار ايتلينغ الذي قدم إلى الشرق بصحبة أربع سفن في أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م[٦]. وكان للقراصنة الإنكليز دوراً هاماً في تأمين التواصل البحري بين قبرص والجزر التابعة لبيزنطة من جهة، وجموع الصليبيين المتواجدين في أنطاكية[٧].

ومن أهم القوى البحرية الأوربية التي قدّمت المساعدة للصليبيين، المدن الإيطالية التي تخلفت في بداية الأمر عن الانضمام للحملة الصليبية الأولى إلى أن أيقنت أنها تبشر بالنجاح، كما أن طمعها الاستيلاء على تجارة مدن الساحل الشامي، دفعها للاشتراك في الأعمال الحربية للصليبيين مقابل الحصول على امتيازات تجارية خاصة بها[٨]؛ فضلاً عن الكسب الكبير الذي يعود عليها نتيجة السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أضحت مصدر ثراء للمشتغلين بها، لذلك قامت أساطيلها بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسة على الساحل الشامي[٩].

---

[١]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص٥٠.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٤٣.- زابوروف، الصليبيون، ص٨٠.

[٢]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٥١.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٤٣.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٤٧.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٠.

[٦]- زابوروف، الصليبيون، ص٨٧.

[٧]- ريمون دي جيل، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٧٩.

[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٤٢.

[٩]- يوسف (جوزيف نسيم)، العرب والرّوم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٨٧، ٨٨.

وكان لمدينة جنوى الأسبقية في ذلك، إذ أرسلت إلى ميناء السويدية في سنة ٤٩١-٤٩٢هـ/١٠٩٧-١٠٩٨م أسطولاً يتألف من أربع عشرة سفينة[١]، أسهمت في تأمين احتياجات الصليبيين في أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية، وفي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م قدمت ستّ سفن جنوية إلى يافا حاملة مؤن للصليبيين أثناء حصارهم لمدينة بيت المقدس، ولكن قدوم الأسطول الفاطمي الذي يفوقهم عدداً، دفع البحارة الجنويين إلى فك أخشاب سفنهم والتوجه إلى بيت المقدس للمشاركة في حصارها[٢].

وما إن تولى بلدوين الأول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية حتى سعى لتوسيع حدود مملكته والاستيلاء على المدن الساحلية، وبما أنه لا يمتلك قوة بحرية تساعده في ذلك، وجد ضالته في أساطيل مدينة جنوى الإيطالية حيث عقد معها اتفاقاً سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، نص على تقديم العون العسكري للملك بلدوين مقابل الحصول على ثلث الغنائم من أموال وأسرى، والحصول على حي خاص بهم في كل مدينة يساهمون في الاستيلاء عليها[٣]، والإعفاء من الرسوم والضرائب التي تفرض على التجارة[٤]، وبذلك استطاع بلدوين الأول الاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، وعكا سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م، وبيروت سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م.

ولم يقتصر نشاط الجنويون على حدود مملكة بيت المقدس الصليبية، بل قدمت العون للكونت ريموند في حصار طرابلس سنة٤٩٦هـ/١١٠٣م وعندما لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، اتجهوا لحصار مدينة جبيل وتمكنوا من الاستيلاء عليها، ومنح أبناء جنوى ثلث المدينة كمكافأة على جهودهم[٥].

كما قام برتراند ابن ريموند خلال رحلته من مقاطعة تولوز إلى الشرق بالتحالف مع مدينة جنوى أملاً بالحصول على مساعدتها له في الاستيلاء على طرابلس وفي صراعه للحصول على إرث والده في الشرق وذلك في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م مقابل الحصول على ميزات تجارية[٦]، وتمكنوا من الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، إلا أن البحارة الجنوية لم يلتزموا باتفاق التسليم الذي وقعه الملك بلدوين الأول مع سكان المدينة، فقاموا بنهب المدينة وقتلوا كل من وجدوه في طرابلس، ومنحت مدينة جنوى مقابل اشتراكها في الاستيلاء على طرابلس على حيّ من أحيائها، والثلثين الباقيين من مدينة جبيل، والتي صارت إقطاعية وراثية في ذرية الأدميرال هيو أمبرياكو[٧]، كما شاركت السفن الجنوية في الاستيلاء على مدينة بيروت سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م[٨].

أما مدينة بيزا الإيطالية فقد شاركت في الحروب الصليبية مبكرة، وذلك في سنة٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، حيث قدم أسطول بيزا إلى بلاد الشام بقيادة الأسقف ديمبرت الذي أصبح بطريرك بيت المقدس، إلا أن هذا الأسطول سرعان ما ارتبط نشاطه بأنطاكية نتيجة إقامة البطريرك ديمبرت فيها بعد طرده من مدينة بيت المقدس[٩]، حيث قدم المساعدة لتانكرد في الاستيلاء على اللاذقية في

---

[١]- باركر، الحروب الصليبية، ص٤٣.- زابوروف، الصليبيون، ص٨٨.
[٢]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٨٥.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٤-١٠٧. - باركر، الحروب الصليبية، ص٤٣.
[٣]- فولتشرأوفتشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٣٩٤. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٧.
[٤]- باركر، الحروب الصليبية، ص٤٤.
[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.
[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦١.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥، ٩٦.
[٧]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٨-١٠٠.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٨،٢٦٩.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٢.
[٩]- باركر، الحروب الصليبية، ص ٤٣.

٥٠١هـ/١١٠٨م، مقابل الحصول على أحد شوارع أنطاكية وأحد أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع كمكافأة لاشتراكه في الاستيلاء عليها[١].

أما مدينة البندقية فلم ترغب بترك المجال لمنافساتها من المدن الإيطالية الأخرى، فأرسلت سفنها في سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م إلى يافا وعرضت على الملك بلدوين الأول تقديم العون مقابل الحصول على امتيازات تجارية وعلى ثلث كل مدينة يسهم أسطول البندقية في الاستيلاء عليها، ولكن البندقية لم تنخرط في الحروب الصليبية بشكل كبير، نظراً لأنها تمتعت بالكثير من الامتيازات التجارية لدى الإمبراطورية البيزنطية[٢]، إلا أن موقفها سرعان ما تغيير في العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري بعد ظهور الخلافات مع الإمبراطورية البيزنطية، نتيجة تفضيلها منح الامتيازات التجارية لتجار مدينة بيزا بدلاً من تجار البندقية. لذلك وفي سنة٥١٣هـ/١١١٩م استجابت لنداء استغاثة الصليبيين لمواجهة الأساطيل الفاطمية وللاستيلاء على مدينة صور، ولكن لم يصل أسطول البندقية إلى سواحل فلسطين إلا في ٥١٧هـ/ أيار ١١٢٣م، وتمكن من هزيمة أسطول فاطمي عند عسقلان[٣]، ثم ما لبث أن اشترك في حصار مدينة صور والاستيلاء عليها سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، ومنحوا لقاء ذلك ثلث المدينة[٤].

يمكننا القول: إن العامل الأهم الذي دفع المدن الإيطالية البحرية لتقديم العون للكيانات الصليبية في الشرق هو الربح التجاري والسعي للحصول على منتجات تجارة الشرق، بعيداً عن الدافع الديني، وخير دليل على ذلك أن تلك الاتفاقيات التي عقدت بين المدن الإيطالية والصليبيين كانت عبارة عن صفقات تجارية بين الطرفين، فالصليبيون بحاجة للأساطيل الإيطالية لنقل القوات، والعتاد والإمدادات من أوربا إلى بلاد الشام، والمشاركة في الأعمال الحربية، ومقابل ذلك حصلت المدن الإيطالية على امتيازات تجارية وإعفاءات من الضرائب فضلاً عن أحياء خاصة لسكن أبنائها[٥].

ومن القوى البحرية الأوربية الأخرى التي شاركت في الحروب الصليبية مملكة النرويج، والتي انطلقت منها حملة بحرية في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م بقيادة الملك سيجورد، وذلك امتثالاً لرغبة قوية من جانب النرويجيين للمشاركة في المشروع الصليبي، فضلاً عن إظهار سيجورد بمظهر البطولة في عيون أبناء شعبه[٦]، وقد بلغ عدد سفن هذا الأسطول مابين ٧٥و ٦٠ سفينة[٧]، ولم يصل إلى سواحل فلسطين إلا في سنة ١١١٠/٥٠٣م ، وما لبث أن شارك في الاستيلاء على مدينة صيدا[٨].

وهكذا كان لهذه القوى البحرية الأوربية دور كبير في سيطرة الصليبيين على مدن وموانئ الساحل الشامي، إذ أسهمت المدن الإيطالية بشكل خاص في الحفاظ على استمرار الكيانات الصليبية وذلك من خلال جلبها للمستوطنين الأوربيين للحج والإقامة في الأراضي المقدسة، والعمل على حل أكبر المشكلات التي واجهتها تلك الكيانات والمتمثلة بقلة عدد الصليبيين وبخاصة العناصر المقاتلة مقارنة مع أعداد السكان العرب في المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون أو الإمارات العربية الإسلامية المجاورة.

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨٣.
[٢]- باركر، الحروب الصليبية، ص٤٣.
[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٩٧، ١٩٨.
[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٥٠٣، ٥٠٤.
[٥]- يوسف، العرب والروم، ص ٨٨، ٨٩.
[٦]- عوض، الحروب الصليبية، ص ١١، ١٢.
[٧]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٠. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٣. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٨٢.
[٨]- عوض، الحروب الصليبية، ص١٦، ٣٠، ٣٥.

رابعاً- نشاط الأسطول الفاطمي منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى ولغاية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م:

امتاز الأسطول الفاطمي منذ نشأته بالقوة، وكان له دوراً كبير في السيطرة على بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولكن هذا الأسطول قد ناله الإنهاك في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ نتيجة انشغاله في القضاء على تمرد مدن الساحل الشامي على سلطة الدولة الفاطمية، وخير مثال على ذلك دوره في إعادة بسط السيادة على مدن صور وصيدا وجبيل وعكا سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م[١]، كما أن اضطراب الأوضاع داخل الدولة الفاطمية نتيجة تصارع القادة على التحكم بمقاليد الأمور أدى إلى عدم الاهتمام بالأسطول وبالتالي إلى إضعافه وعدم قدرته على المساهمة في صد الصليبيين، ويظهر ذلك واضحاً خلال الحملات التي شنها الوزير الأفضل ضد الصليبيين[٢]، وكذلك تراخي الأسطول الفاطمي في الدفاع عن طرابلس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م إذ وصل إلى مدينة صور في اليوم الثامن لسقوط طرابلس بيد الصليبيين، ويصف المقريزي ذلك بقوله:" **ثم وصل أسطول مصر ولم يكن خرج فيما تقدم معه كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس، فأرسى على صور في اليوم الثامن من أخذ طرابلس، وقد فات الأمر فيها...**"[٣]، ويعلل ابن الأثير تأخر وصول الأسطول الفاطمي بقوله:" **وكان سبب تأخره أنهم فرغوا منه ومن الحث عليه واختلفوا فيه أكثر من سنة وسار فردته الريح فتعَذّر عليهم الوصول إلى طرابلس...**"[٤]، مما اضطر هذا الأسطول إلى تفريغ حمولته في مدن صور وصيدا وبيروت، حيث حاول سكانها حثه على البقاء للتصدي للصليبيين لكنه آثر العودة إلى قواعده في مصر[٥].

وكان لاستيلاء الصليبيين على طرابلس درساً قاسياً على الدولة الفاطمية والوزير الأفضل، لذلك اهتموا بإرسال عدد من سفن الأسطول الفاطمي إلى مدن الساحل الشامي التي لا تزال تخضع لسيادة الدولة الفاطمية للمشاركة في قتال الصليبيين، ولعب هذا الأسطول دوراً مهماً في صمود بعض تلك المدن، والتصدي للسفن الأوربية التي تحمل الصليبيين، ويؤكد ذلك الرحالة سيولف الذي قدم إلى المنطقة في بدايات القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فقد أشار إلى قوة الأساطيل الفاطمية التي تجوب الساحل الشامي بين المدن التابعة للدولة الفاطمية بقوله:" **صعدنا ظهر سفينة في يافا، في يوم عيد الحصاد، من أجل العودة إلى الوطن، لكن لخوفنا من المسلمين، لم نتجرأ على الإبحار داخل عرض البحر الأدرياتيكي (المتوسط) كما فعلنا عندما قدمنا، ذلك إننا كنا خائفين من أسطولهم ...**"[٦]، وكذلك قوله:" **وفي يوم الأربعاء التالي لعيد الحصاد عندما كنا مبحرين فيما بين حيفا وعكا، فوجئنا بظهور ست وعشرين سفينة مسلمة أمام نظرنا، وكانت هذه السفن تابعة لأمير مدينتي صور وصيدا...**"[٧].

ومن الأمثلة الأخرى على مشاركة الأسطول الفاطمي، مساهمته في فك الحصار الصليبي عن مدينة صيدا سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، إذ تمكن ذلك الأسطول من التغلب على سفن الجنوية وظل يقوم

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص١٩٧.

[٢]- العبادي (أحمد مختار)، سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأمل، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٠٩.

[٣]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٤.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨ ، ص ٥٧٨.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٦٣.

[٦]- سيولف الأنكلوسكسوني، رحلة حج سيولف إلى القدس، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق:سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٣١، ص٢٤٨.

[٧]- سيولف، رحلة سيولف، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣١، ص٢٤٩.

بالدفاع عن المدينة إلى أن وصلت القوة العسكرية القادمة من دمشق وعلى إثر ذلك عاد الأسطول إلى مصر[١].

وما كادت الأخبار تصل إلى مسامع الأفضل بزحف الصليبيين بقيادة الملك بلدوين الأول نحو بيروت سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، لم يتردد بإرسال بعض قطع الأسطول للدفاع عنها، فجهز تسعة عشر مركباً تمكنت من التغلب على السفن الصليبية المحاصرة للمدينة، ومن إفراغ حمولتها في بيروت فقويت بذلك نفوس المدافعين، وهذا الأمر دفع بلدوين الأول للاستنجاد بالسفن الجنوية الراسية في ميناء السويدية، فأمدوه بأربعين مركباً مشحونة بالمقاتلين، واستبسل مقاتلي الأسطول في الدفاع البحري عن المدينة واستشهد خلال ذلك مقدم الأسطول وعدد كبير من رجاله[٢].

ونتيجة لنشاط الأساطيل الإيطالية الصليبية ومهاجمتها لمدن الساحل الشامي، اهتم الفاطميون بتحصين مدينة عسقلان كما جعلوا منها القاعدة الرئيسية لخروج الأسطول الفاطمي إلى السواحل الشامية والثغور التي يحاصرها الصليبيون، لإمدادها بالسلاح والأقوات.

وأدى الخطر الصليبي إلى نشوء نوع من التقارب بين أمراء بلاد الشام- الذين يقيمون الدعوة للخليفة العباسي- والدولة الفاطمية، إذ سعوا إلى توحيد جهودهم العسكرية ضد الصليبيين وبخاصة مملكة بيت المقدس، وقد أسهم الأسطول الفاطمي في هذا التقارب العسكري، ففي محرم سنة ٥١٧هـ/ أذار ١١٢٣م قدم رسل طغتكين حاكم دمشق و حاكم حلب إلى القاهرة[٣]، وتمثلت مهمتهم في حث الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥- ٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م) على مهاجمة الساحل الشامي الخاضع للصليبيين[٤]، ويبدو كان الهدف من ذلك تقليل الضغط الصليبي على دمشق وحلب، فضلاً عن تعزيز صمود مدينة صور التي تتعرض لهجمات صليبيي بيت المقدس، والخاضعة لنوع مشترك من الحكم بين الدولة الفاطمية وطغتكين.

وأمام ما قدمه الرسل من صورة سيئة عن وضع العرب المسلمين في بلاد الشام بادر الخليفة الآمر بأحكام الله إلى الموافقة على مهاجمة الساحل الشامي، وأمر بإعداد الجيش وإنشاء أسطول جديد نظراً لانشغال الأسطول الرئيسي في الغزو، وقام بتعيين حسام الملك البرني مقدماً على الجيش والأسطول، وكلفه بالإشرف على صناعة أربعين شينياً، وأمر أن يصحبه عشرون أميراً وعدد من الأطباء والمؤذنين والحجاب، وأنفق على هذه الحملة الكثير من الأموال[٥]، وما إن استكملت الحملة حتى انطلق الجيش البري والأسطول صوب عسقلان. ولكن على ما يبدو بأن هذا الأسطول المشارك في الحملة سرعان ما اشتبك مع أسطول البندقية القادم للمشاركة في حصار صور، وانتهى هذا الاشتباك بهزيمة الأسطول الفاطمي وتمكن البنادقة من الظفر بعدة سفن[٦]، ولكن ما لبث الأسطول الفاطمي الرئيسي أن تمكن في شعبان/ أيلول من السنة ذاتها من إلحاق الهزيمة بالسفن الصليبية

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٠.- المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٣. العبادي، البحرية، ص ١١٢.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص ٢٦٨،٢٦٩. - العبادي، البحرية، ص١١٥ ، ١١٦.

[٣]- يذكر ابن المأمون والمقريزي بأن صاحب حلب في هذه السنة كان آقسنقر البرسقي، بينما جميع المصادر تذكر بأن الأمير بلك بن بهرام هو حاكم دمشق، ويبدو بأن ابن المأمون قد التبس عليه الأمر فقد كان لآقسنقر البرسقي كما يذكر ابن القلانسي نشاط عسكري مشترك مع الآتابك طغتكين في شمال بلاد الشام وخاصة أثناء حصار عزاز الخاضعة لسيطرة الصليبيين.

- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٥.- ابن المأمون (موسى)، نصوص من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٦٠. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٩٩.

[٤]- ابن المأمون، نصوص من أخبار، ص ٦٠.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٩٩.- العبادي، سالم، تاريخ البحرية، ص ١٢١.

[٥]- ابن المأمون، نصوص من أخبار، ص ٦٠-٦٢، ٦٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٩٩،١٠٠.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٣.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٧٣.

ويذكر ذلك المقريزي بقوله:**" في شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين، وقد غنموا شينيين**[١] **من شواني الفرنج وبطشة**[٢] **كبرى، وعدة من النساء والرّجال...."**[٣].

كما يذكر وليم الصوري في أحداث سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م قيام الدولة الفاطمية بإرسال أربعة وعشرين من شواني أسطولها نحو الساحل الشامي بهدف الإضرار بالمدن الخاضعة للصليبيين، واستطاعت هذه السفن الوصول إلى بيروت، غير أن نفاذ المياه العذبة اضطرت مقاتلي الأسطول الفاطمي للنزول على مقربة من أحد الأنهار للتزود بالمياه، وفي خضم ذلك تعرضوا للهجوم من قبل صليبيي بيروت الذين أجبروهم على العودة إلى سفنهم، بعد أن خسروا ما يقارب مائة وثلاثين رجلاً [٤].

وتلت ذلك فترة من الخمول في نشاط البحرية الفاطمية نتيجة مقتل الخليفة الآمر بأحكام الله على يد الإسماعيلية النزارية- الحشيشية- في سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م، وما تبع ذلك من أحداث خطيرة أدت إلى اضطراب الأوضاع داخل الدولة الفاطمية. ولكن عند ازدياد هجمات الصليبيين على مدينة عسقلان والموانئ المصرية، اهتمت الدولة الفاطمية بإعداد الحملات البحرية للإغارة على المدن الساحلية الخاضعة للصليبيين، ففي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م تم تجهيز أسطول تألف من سبعين مركباً مشحونة بالرجال، وأنفق الوزير الفاطمي العادل علي بن السلار عليه ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار، وقام هذا الأسطول بمهاجمة مدن يافا، وعكا، وصيدا، فبيروت، وطرابلس، وغنم عدة مراكب صليبية كانت راسية في موانئ تلك المدن[٥].

ويبدو بأن الدافع لإرسال هذه الحملة البحرية يتمثل في رغبة الدولة الفاطمية الانتقام من مهاجمة الصليبيين لمدينة الفرما[٦] سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م [٧]، كما أن هذا التحرك كان نتيجة للاتصالات والتعاون بين نور الدين محمود أمير حلب و الوزير العادل ابن السلار ويظهر ذلك من خلال قول ابن القلانسي:**" ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويخ الأفرنجة، واتفق اشتغاله بأمر دمشق، وعوده إليها لمضايقتها"**[٨].

---

[١]- الشواني:مفردها شينية، وهي مركب طويل يجدف بمائة واربعين مجدافاً ويحمل حوالي مئة وخمسون مقاتلاً، ويمتاز هذا النوع بوجود الأبراج على سطحها لغايات الهجوم والدفاع.
- العمايرة(محمد عبد الله سالم)، الجيش الفاطمي، دار كنوز المعرفة ، عَمان، ٢٠١٠م، ص ١٨٩.

[٢]- بطشة: سفينة كبيرة الحجم تتكون من عدة طوابق، مزودة بعدد كبير من الأشرعة، تستخدم في نقل أعداد كبيرة من من المقاتلين تتراوح أعدادهم بين ٣٠٠-٧٠٠ مقاتل. - العمايرة، الجيش الفاطمي، ص ١٩٠.

[٣]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠٢.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٧،٥٨.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٨٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٢.

[٦]- الفرما: مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسط بجوار بحيرة تنيس، وقد وصفها المهلبي بقوله:**" وأما الفرما فحصن على ضفّة البحر لطيف لكنه فاسد الهواء وخمه، لأنه من كل جهة حوله سباخ تتوحّل فلا تكاد تنضب صيفا ولا شتاء، وليس بها زرع ولا ماء يشرب إلا ماء المطر فإنه يخزن في الجباب، ويخزنون أيضا ماء النيل يحمل إليهم في المراكب من تنّيس، وبظاهرها في الرمل ماء يقال له العذيب ومياه غيره في آبار بعيدة الرشاء وملحة تنزل عليها القوافل والعساكر"**.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٧. - المهلبي (الحسن بن أحمد)، الكتاب العزيزي " المسالك والممالك"، جمع وتعليق: تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٦م ، ص ٣٦.

[٧]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٢.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ج٣، ص٤٨٨.

كما يذكر المقريزي قيام نور الدين محمود بقصد الساحل لقتال الصليبيين ولكن دون أن يذكر قيام أي تنسيق بينه وبين العادل ابن السلار، وذلك بقوله: **"وبلغ ذلك الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي، ملك الشام، فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم في البر"**[١].

وازداد الاهتمام بإرسال الحملات البحرية والبرية ضد المناطق الخاضعة للصليبيين في عهد الوزير الصالح طلائع بن رُزيك[٢] (٥٤٩- ٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦٠م) ولذا دعي بأبي الغارات. إذ قام في سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م بتكليف الأسطول الفاطمي بمهاجمة مدينة صور، حيث تمكن من إحراق مينائها، والاستيلاء على العديد من المراكب الصليبية التي كانت تتواجد هناك، إضافة لعدد كبير من الأسرى[٣]، واتبع قادة الجيش الفاطمي الحيلة في هذه الحملة، إذ تم اختيار المشاركين في هذه الحملة ممن يتقن التكلم بلسان الصليبيين، كما ارتدوا الثياب الصليبية وكان لهذه الحيلة دوراً في الانتصار الذي حققه الأسطول الفاطمي، وقد وصف ابن القلانسي إعداد هذا الأسطول بقوله:**" وارتضى -الصالح طلائع- لتولية الأسطول المصري مقدماً من البحرية شديد البأس، بصيراً بأشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الأفرنج، وألبسهم لباس الأفرنج، وأنهضهم في عدة من المراكب الأسطولية..."**[٤].

كما شهدت سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م إغارة السفن الفاطمية على بيروت ثم عكا حيث أسروا ما يقارب من سبعمائة شخص[٥]، وشهدت سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م نشاطاً كبيراً للأسطول الفاطمي بفضل جهود الوزير الصالح طلائع، وتعددت غارات هذا الأسطول على الساحل الشامي في هذه السنة، ففي أوائل شهر ربيع الأول / نيسان أغارت طائفة من العسكر الفاطمي على غزة وعسقلان، وكان يرافقها أسطول بحري تمكن من الظفر بعدة مراكب صليبية[٦]، وفي ٢٣ربيع الآخر / ٥ أيار اتجه الأسطول إلى تنّيس[٧] ومنها أقلع لغزو الصليبيين في ٨ شعبان / أيلول من السنة ذاتها، وفي ٢٦ ربيع الآخر/ أيار عاد أسطول الإسكندرية وقد امتلأت أيدي مقاتليه بالغنائم على إثر إغارتهم على الصليبيين في الساحل الشامي. كما سير الصالح طلائع في ٥ شعبان سنة ٥٥٣هـ/ أيلول ١١٥٨م خمس شوانٍ توجهت نحو الساحل الشامي، واستطاعت الظفر بعدة مراكب صليبية والكثير من الغنائم والأسرى، ثم عادت إلى قواعدها في ٢٢رمضان ٥٥٣هـ/ تشرين الأول ١١٥٨م[٨].

وما لبث الصراع مع الصليبيين أن تطلب التنسيق ما بين الصالح طلائع بن رزيك ونور الدين محمود، وتم الاتفاق في سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م على أن يقوم الأسطول الفاطمي بالإغارة على الساحل الشامي، بينما يقوم نور الدين محمود بمهاجمة الإمارات الصليبية براً[٩]. ولم يزل الأسطول الفاطمي على مثل هذه الحالة من النشاط البحري إلى أن تولى الوزارة في الدولة الفاطمية شاور بن مجير

---

[١]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٢.

[٢]- هو الملك الصالح بن زريك، أرمني الأصل، ولد سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، تدرج في المناصب إلى أن تولى حكم بعض الجهات في الصعيد، وعلى إثر قتل الخليفة الظافر سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م تلقى طلباً من آل الظافر للتخلص من قتلته، فدخل القاهرة واستبد بمنصب الوزارة في عهد كل من الخليفتين الفائز والعاضد، ولكنه قتل بتحريض من الخليفة العاضد سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ٥٢٨. - الصفدي(خليل بن أيبك)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، مج ١٦، ص ٢٨٨.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٥١٠.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٢٤.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص ٥١٠.

[٥]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣٠.- العبادي، سالم، تاريخ البحرية، ص ١٢٥.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٥٣٧.

[٧]- تنّيس: تقع ما بين مدينتي الفرما ودمياط، على شط بحيرة تحمل الإسم ذاته.- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٥١.

[٨]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٣،٢٣٤.

[٩]- المقريزي، اتعاظ الحنفا،ج٣، ص٢٣٦.

السعدي[1] على إثر مقتل رزيك بن الصالح طلائع في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، وعلى إثر ذلك لم يعد هناك ذكر لأي نشاط بحري للأساطيل الفاطمية؛ نتيجة ما عانته الدولة الفاطمية من صراعات داخلية حول منصب الوزارة والتحكم بمقاليد أمور الدولة، كما ترتب على ذلك تدخل الصليبيين ونور الدين محمود في شؤون الدولة الفاطمية، إلى أن شهدت سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م قيام الملك عموري الأول بغزو مصر وزحفه صوب القاهرة، مما دفع الوزير شاور إلى إحراق مدينة الفسطاط والسفن المرابطة في دار صناعة السفن، وكان لهذا العمل أثراً كبيراً في إضعاف نشاط الأسطول الفاطمي .

---

(١)- أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شأس بن مغيث بن حبيب ابن الحارث بن ربيعة بن يخنس بن أبي ذؤيب عبد الله ، وهو والد حليمة مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولاه الصالح بن رزيك ولاية الصعيد الأعلى، استولى على منصب الوزارة سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م، ولكنه ما لبث أن خرج من القاهرة إلى بلاد الشام، طلباً للعون من قبل الملك العادل نور الدين محمود ضد ضرغام حاكم الصعيد الذي نافسه على منصب الوزراة، فانجده نورالدين بقوة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه، كما لم يجد شاور أي حرج للتحالف مع الصليبيين مقابل حفاظه على منصب الوزارة، وقد قتل سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٢، ص ٤٣٩، ٤٤٠. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٢، ص ٣١٧.

الفصل الثاني

التقسيمات الإدارية للساحل الشامي خلال السيطرة الصليبية ما بين ٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٨-١١٧٣م

أولاً- مملكة بيت المقدس.

١- حدود مملكة بيت المقدس.

٢- النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس.

٣- الإقطاعيات الساحلية وحدودها.

أ- إمارة بيروت.

ب – بارونية صيدا.

ج- إقطاعية إسكندرونة.

د- إقطاعية حيفا.

هـ- إقطاعية قيسارية.

و- إقطاعية أرسوف.

ز- كونتية يافا وعسقلان.

ح- ممتلكات التاج الملكي.

ثانياً- كونتية طرابلس.

١- حدود كونتية طرابلس.

٢- إقطاعيات كونتية طرابلس.

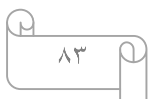
ثالثاً- إمارة أنطاكية.

١- حدود إمارة أنطاكية.

٢- إقطاعيات إمارة أنطاكية.

رابعاً- ممتلكات الكنيسة على الساحل الشامي.

١- في مملكة بيت المقدس.



٢- في كونتية طرابلس.

٣- في إمارة أنطاكية.

خامساً- ممتلكات المدن الإيطالية على الساحل الشامي لغاية سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م.

١- ممتلكات مدينة جنوى.

٢- ممتلكات مدينة بيزا.

٣- ممتلكات مدينة البندقية.

سادساً- ممتلكات نظام الفرسان الرهبان على الساحل الشامي لغاية سنة٥٦٩هـ/١١٧٣م.

١- ممتلكات الإسبتارية.

٢- ممتلكات الداوية (فرسان الهيكل).

٣- ممتلكات فرسان القديس لعازر.

نتج عن قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام في نهاية القرن الخامس الهجري/ نهاية القرن الحادي عشر، حدوث تغييرات جذرية في التقسيمات الإدارية للساحل الشامي، إذ أزيلت من الوجود العديد من الأنظمة الحاكمة فيه، كما حلت مكانها ثلاث كيانات صليبية استطاعت السيطرة تدريجياً على كامل الساحل الشامي، وهذه الكيانات هي: ١- مملكة بيت المقدس٢- إمارة أنطاكية ٣- كونتية طرابلس. وقد كانت الحدود الشرقية لهذه الكيانات تتغير على الدوام تبعاً للصراع مع القوى والإمارات العربية الإسلامية.

أولاً- مملكة بيت المقدس:

تأسست هذه المملكة على إثر استيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م واقترافهم فيها مجزرة فظيعة راح ضحيتها ما يقارب السبعين ألفاً من سكانها وذلك حسب رواية ابن الأثير[١]، وسرعان ما أخذت بالتوسع على حساب المدن والمناطق العربية الإسلامية المحيطة بها في كل من فلسطين ولبنان الحاليتين، وحدود هذه المملكة لم تكن ثابتة المعالم وبخاصة في الحدود الشرقية، فقد تعرضت للتغيير نتيجة للأعمال العسكرية خلال الصراع مع العرب المسلمين. وخير مثال على ذلك مدينة بانياس والمناطق المحيطة بها، التي تراوحت بين السيطرة العربية الإسلامية والسيطرة الصليبية، كما أن حدود هذه المملكة لم تأخذ شكلها النهائي إلا في سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، عند الاستيلاء على مدينة صور ومن ثم عسقلان في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، ونتيجة لذلك لابد من التعرف على حدود وامتداد هذه المملكة.

١- حدود مملكة بيت المقدس:

يمكن من خلال استطلاع المصادر التاريخية وكتب الرحلات من معرفة الحدود الدقيقة لهذه المملكة خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فقد شكل نهر إبراهيم الذي يقع إلى الشمال من بيروت الحد الشمالي للمملكة، في حين كانت الحدود الشرقية تبدأ من منطقة جبال لبنان الغربية بجوار بيروت فمنطقة وادي نهر الليطاني فبانياس ومنطقة الجولان، ثم تسير عبر غور نهر الأردن، ومنطقتي الكرك[٢]، والشوبك[٣]، فخليج العقبة[٤]، في حين كان يحدها من الغرب البحر المتوسط وامتدت سواحلها من مصب نهر إبراهيم حتى منطقة الداروم والعريش[٥]، وقد قدم وليم الصوري وصفاً لامتداد حدود مملكة بيت المقدس بقوله: **"مملكة بيت المقدس تبدأ من مجرى الماء**

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤٢٥.

[٢]- الكرك: تقع شرقي نهر الأردن، ويصف الحميري حصنها بقوله: **" هو من أعظم حصون النصارى(المسيحيين) معترض في طريق الحجاز، وهو من القدس على مسافة يوم أو أقل، وأهله يقطعون على المسلمين الطريق في البر، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ينتهي إلى أربعمائة قرية ".**
- الحميري، الروض المعطار، ص ٢٠٢.

[٣]- الشوبك: تقع إلى الجنوب من مدينة الكرك، ويحدد ياقوت الحموي موقعها بقوله: **" قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة والقلزم قرب الكرك ".** - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص ٣٧٠.

[4] - Archer, Kingsford, The Crusades, p116.

- باركر، تاريخ الحروب، ص٤٦.

[٥]- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ٤١.

- Archer, Kingsford, The Crusades, p116.

- باركر، تاريخ الحروب، ص ٤٥.
- سميث (جوناثان)، الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠- ١٣١٠م، ترجمة: صبحي الجابي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م، ط١، ص ٢٥.
- العريش: هي **" مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل ".** - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص ١١٣.

الواقع بين جبيل وبيروت ... وتنتهي هذه المملكة عند الصحراء الواقعة وراء الداروم"[١]، أما الحدود الجنوبية فكانت تتخلل عبر صحراء النقب وصولاً إلى خليج العقبة.

٢- النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس:

على إثر استيلاء ملوك بيت المقدس على المدن والقرى العربية، قاموا بتوزيعها على الأمراء الإقطاعيين الذين رافقوا الحملة الصليبية الأولى، أو أولئك الذين أتوا إلى بلاد الشام فيما بعد، وقد جرى تقسيم الإقطاعيات في بداية الأمر عليهم بناء على القاعدة التي أوجدها الصليبيون خلال زحف الحملة الأولى في بلاد الشام التي نصت على حق التملك بالغلبة فقد اتفقوا على أحقية أي شخص – أمير أو فقير- أن يمتلك ما استولى عليه بشرط أن يرفع علمه أو أي من دروعه عليها[٢].

ولكن طوال جيل من الغزو الصليبي نادراً ما تمكن حائزو الإقطاعيات من أن يحولوا ملكية إقطاعهم إلى ذريتهم، فقد كانت الإقطاعيات تعود إلى يد التاج الملكي بعد وفاة أصحابها النبلاء[٣].

وبذلك كانت الأراضي الخاضعة لسيطرة مملكة بيت المقدس تدار بشكل مركزي من قبل الملك، وقد اقتضى هذا الأمر أن الكثير من مالكي الإقطاعيات تركوا ممتلكاتهم واتجهوا صوب شمال بلاد الشام، أو عادوا إلى أوطانهم، فأصدر الأمير غودفروي قانوناً نص: بأن كل شخص يضع يده على منزل،أو أرض يحرثها سنة كاملة ويوماً واحداً تكون ملكاً مطلقاً شرعياً، وكذلك كل من غاب عن عقاراته سنة ويوماً تؤخذ منه ولا يكون له فيها حق مطلق[٤]. كما كان لدى غودفروي، وبلدوين الأول امتعاض من جهة منح الإقطاعيات للنبلاء الصليبيين المتواجدين في المملكة، ومن الأسباب التي دعت إلى ذلك:

أ- فقر المملكة بالأراضي الزراعية .

ب- الخشية من تعاظم نفوذ البارونات على حساب السلطة الملكية والعمل على منافستها[٥].

ونظراً لقلة الأراضي الخاضعة للسيطرة الصليبية في فلسطين ونتيجة لأن النظام السائد في ذلك العصر هو نظام العلاقات الإقطاعية، فقد سعى ملوك بيت المقدس لكسب خضوع النبلاء عن طريق منحهم إقطاعيات نقدية، بدلاً من امتلاك الأراضي الزراعية مقابل الخدمات العسكرية التي يقدمها هؤلاء النبلاء، وبذلك كانت هذه الإقطاعيات النقدية تمثل النمط الأول للإقطاع في المملكة.

إلا أن سياسة عدم خلق سادة إقطاعيين من النبلاء الأوربيين المتواجدين في المملكة لم يكتب لها النجاح، حيث استطاع الأمير تانكرد من تأسيس إمارة خاصة به شملت منطقة الجليل ونابلس[٦]. كما تمكن النبلاء خلال السنوات الأخيرة من حكم الملك بلدوين الأول وبدايات حكم الملك بلدوين الثاني من تأسيس الأسر الإقطاعية الوراثية[٧]، وخير مثال على ذلك أسرة جارنييه التي حكمت

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٩٢.
[٢]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٦٦.
- روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣٩، ص ٨٣.
[٣]- براور، الاستيطان، ص١٣٢.
[٤]- وليم الصوري، الحروب، ج٢، ص١٨٠، ١٨١ .- زابوروف، الصليبيون، ص ١٤٢.
[٥]- براور، الاستيطان، ص١٥٢.
[٦]- براور، الاستيطان، ص ١٥٥، ١٥٦.
[٧]- براور، الاستيطان، ص١٣٢.

قيسارية وصيدا[١]. وبذلك صارت حيازة الإقطاعيات تقوم على أساس الحق الوراثي، وتم توسيع حدود من يحق لهم وراثة الإقطاع بحيث يؤول إلى الإناث في حالة عدم وجود وريث رئيسي من الذكور، كما لم يعد بالإمكان إخلاء الإقطاعي إلا بقرار من المحكمة العليا[٢] إذا ارتكب بعض الأعمال الشريرة[٣].

كما لم يعد بإمكان السلطة الملكية إلغاء وجود أية إقطاعية في حالة انقراض الأسرة الحاكمة لأي سبب، ففي هذه الحالة تلحق الإمارة بإمارة أخرى إما عن طريق الزواج أو الميراث، بيد أنه على الرغم من ذلك تحتفظ كل إمارة بهويتها الذاتية.

ومن الأسباب التي دفعت ملوك بيت المقدس للاعتراف بتأسيس الأسر الإقطاعية، هي:

١- حالة العجز والضعف التي آلت إليها المملكة.
٢- الخدمة العسكرية الإقطاعية ضرورة ملحة في مساعدة السلطات الصليبية في إدارة الأملاك الشاسعة التي خضعت للمملكة.
٣- عقلية النبلاء والفرسان الأوربيين التي تشبثت بأنماط الحياة الإقطاعية السائدة في أوربا.
٤- سياسة الاستيطان التي اعتمدها الصليبيون تطلبت منح الأراضي لطبقة الفرسان الأوربيين[٤].

وعلى الرغم من ذلك يمكن القول أن عهد الملك بلدوين الأول شهد ترسيخ معالم النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس، بعد أن اتسعت حدود المملكة على حساب القوى العربية الإسلامية المجاورة، وأصبحت ملكية الأرض والعلاقات الشخصية محددة بطريقة أفضل، حيث تم تحديد شكل الهيكل الحكومي في المملكة كما أحكمت قبضتها على جميع الأنظمة الإقطاعية، وأصبح جميع لمحاربين الصليبيين المتواجدين في المملكة أتباعاً للملك، أما في عهد الملك بلدوين الثاني فقد تكاملت الأنظمة الصليبية [٥].

أما فيما يتعلق بمكانة الإقطاعي ومكانته في التسلسل الإقطاعي داخل المملكة فكان يحدده حجم الإقطاع الممنوح له، ومرتبة النبيل ومكانته أو درجة قرابته من الملك الصليبي. كما تطلب النظام الإقطاعي أن يقدم النبيل الحاصل على الإقطاع قَسَم الولاء والتبعية الإقطاعية للملك[٦]. و لابد من الإشارة إلى أن مساحة بعض الإقطاعيات العلمانية كان يحددها الغزو[٧].

وفي وقت متأخر من عهد المملكة الأولى حدد القانون الإقطاعي حجم الإقطاعية وحقوقها، بحيث أوضح أن الإقطاعية تتمتع بحقوق قضائية ، وحق سك النقود ....إلخ .

---

[١]- البيشاوي (سعيد)، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص ٧٧، ٨٧.

[٢]- المحكمة العليا: هي عبارة عن محكمة إقطاعية تنظر في دعاوي الفرسان، وفي الوقت ذاته كانت عبارة عن هيئة عسكرية وسياسية، تبحث في قضايا الحرب والسلم، وفي فترة لاحقة لاستقرار الصليبيون لعبت دوراً في مراقبة أعمال الملك حيال أتباعه الإقطاعيين.
- زابوروف، الصليبيون، ص ١٤٢، ١٤٣.

[٣] - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٤٦. - البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٩١.

[٤]- براور، الاستيطان، ص ١٥٧- ١٦٠.

[٥]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٧٧.

[٦]- براور، الاستيطان، ص١٥٨.

[٧]-رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٦.

وعدت القلعة أو المدن الرئيسية هي مراكز الإقطاعيات، وكانت وحدة القياس التي تقاس بها أراضي الإقطاع هي القرية "Casale"[١]، كما كان يتبع كل إقطاعي عدد من الفرسان، والجنود والموظفين المدنيين بحسب كبر الإقطاعية[٢].

وكان السيد الإقطاعي الذي يملك إقطاعية معينة، هو وحده الذي يستطيع أن يتصرف فيها من خلال تنازله عن جزء من الإقطاعية إلى غيره من النبلاء، وبالتالي كان ينبثق من إقطاعية السيد الكبير إقطاعيات صغرى، يتمتع بها النبلاء الخاضعين له. وهكذا نشأت سلسلة من الارتباطات الإقطاعية. كما توجب على كبار السادة الإقطاعيين، والنبلاء الذين حازوا إقطاعيات، أن يلتزموا بتقديم الخدمة الحربية للملك، والدفاع عن حدود المملكة ضد الأخطار المحدقة بها، ولم تكن هذه الخدمة محددة بمدة زمنية معينة من العام، أسوة بما كانت عليه في أوربا إذ كانت الخدمة الحربية المقررة على الإقطاعي تحدد بأربعين يوماً في العام[٣].

٣- الإقطاعيات الساحلية وحدودها:

كان الملك الصليبي لبيت المقدس يترأس الهرم الإقطاعي في المملكة، يليه أربعة من كبار لسادة الإقطاعيين، ثم يليهم اثنا عشر سيداً يمتلكون لإقطاعيات أقل مساحة، وبناء على هذا فقد تم تقسيم مملكة بيت المقدس الصليبية إلى عدة إقطاعيات، قسمت إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى ضمت أربع إقطاعيات كبرى، وهي: ١- كونتية يافا وعسقلان، ٢- إمارة الجليل، ٣- بارونية صيدا، ٤- إمارة الكرك والشوبك[٤]، وكانت هذه الإقطاعيات تضم العديد من القلاع والحصون والمدن والقرى . وكان أسياد هذه الإقطاعيات تابعين مباشرة للتاج الملكي، كما كان لكل منهم أتباع فرسان نالوا منهم إقطاعياتهم، وبذلك قسمت الإقطاعيات الكبرى إلى وحدات صغيرة[٥].

- المجموعة الثانية: فقد ضمت اثنتي عشرةَ إقطاعية صغيرة، وهي: ١- الداروم،٢- الخليل، ٣- أرسوف، ٤- قيسارية، ٥- نابلس، ٦- بيسان، ٧- حيفا، ٨- تورن، ٩- بانياس، ١٠- اسكندرونة، ١١- اللد و الرملة، ١٢- بيروت[٦].

وكان لكل إقطاعية من الإقطاعيات السابقة مدينة رئيسة، تعد مركزاً لإدارة الإقطاعية - أو بعبارة أخرى عاصمة للإقطاعية-، يستقر بها الأمير الصليبي، وبما أن هذا البحث يرتكز على دراسة أوضاع الساحل الشامي، لذا سيتم التركيز على الإقطاعيات الواقعة على الساحل الشامي ، وهي[٧]:

---

[١]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٦.- براور، الاستيطان، ص١٥٨.
[٢]- عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣١٧.
[٣]- زابورروف، الصليبيون، ص ١٤٢.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٨٢، ٩٣.
[4]-Archer, Kingsford, The Crusades, p116.
- زابوروف، الصليبيون، ص ١٤٠.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٧٩.- سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٠٥.
[٥]- رنسيمان، تاريخ الحملات ج٢، ص ٣٤٥.- زابوروف، الصليبيون، ص١٤٠.
[6] - Archer, Kingsford, The Crusades, p116.
- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٨٠،٧٩.
[٧]-سيتم الحديث عن الإقطاعيات الساحلية في مملكة بيت المقدس تبعاً لوقوعها من الشمال إلى الجنوب.

أ- إمارة بيروت:

تأسست هذه الإقطاعية عند استيلاء الملك بلدوين الأول على مدينة بيروت سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، وذلك بمعونة كونت طرابلس برتران[١]، وعلى إثر ذلك منحها بلدوين الأول كإقطاع لأسرة دي جينس (Deguines) ممثلة بشخص فولك جينس[٢]، وبقيت هذه العائلة تحكم بيروت حتى ضمت إلى ممتلكات التاج الملكي في عهد الملك عموري الأول[٣]، وفيما بعد منحت لريموند الثالث[٤]- كونت طرابلس-على إثر تعيينه وصياً على المملكة في عهد الملك بلدوين الرابع (٥٦٩- ٥٧٩هـ/١١٧٣- ١١٨٣م) على إثر اشتداد مرض الجذام عليه [٥].

وقد قدم الرحالة الأوربيون الذين زاروا بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وصفاً لها، فهذا الرحالة البيزنطي يوانس فوقاس يصفها قائلاً **:"...هي مدينة واسعة وكثيرة السكان، ومن حولها سهول خصيبة، وهي مزينة بميناء جميل... "**[٦]، أما الإدريسي فيصفها بقوله**:" مدينة على ضفة البحر المالح عليها سور حجارة كبيرة واسعة ..."**[٧]، ويصفها فورزبورغ بأنها مدينة واسعة الثراء[٨]وهذا يدل على أن بيروت كانت مركزاً تجارياً هاماً خلال الحروب الصليبية، كما وصفها يعقوب الفيتري - في القرن الثالث عشر الميلادي- بقوله: **" تقع مدينة بيروت على شاطئ البحر بين صيدا وجبيل ... وهي مدينة خصبة وجميلة تكثر فيها أشجار الفاكهة والغابات وكروم العنب "**[٩].

وقد امتدت حدود إقطاعية بيروت ما بين نهر إبراهيم شمالاً ونهر الدامور جنوباً، بينما شكلت جبال لبنان الغربية التي تسمى في المصادر العربية بالغرب حدودها الشرقية - والتي كانت تخضع لسيطرة أمراء بني بحتر[١٠]-أما غرباً فيحدها البحر المتوسط.

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٧،٤٣٦.

[2]-R.scott peoples, Crusade of kings, The Wildside press, Rockville, Maryland, 2008, p 55.

[٣]- براور، الاستيطان، ص١٦١.

[٤]- ريموند الثالث: يعد سادس حكام كونتية طرابلس، تولى حكمها ما بين٥٤٧- ٥٨٣هـ / ١١٥٢- ١١٨٧م.

[٥]- زابوروف، الصليبيون، ص١٤٧.

[٦]- فوقاس (يوانس)، رحلة يوانس فوقاس، تحقيق: سهيل زكار، من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٤، ص٣٨١.

[٧]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧١.

[٨]- فورزبورغ (يوحنا)، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧م، ص١٠٣.

[٩]- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٣٤.

[١٠]- ابن سباط (حمزة بن أحمد)، صدق الأخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣م، ج١، ص٨٣.

- فقد كان أمراء بني بحتر يحكمون القرى الجبلية المحيطة ببيروت حكماً ذاتياً، مقابل الاعتراف بالسيادة الصليبية، في حين احتفظ الصليبيون بحكم مدينة بيروت.

- حمود (سوزي)، لبنان في العصر الوسيط منذ العهد الراشدي إلى نهاية عهد المماليك (١٣- ٩٢٢هـ/٦٣٤-١٥١٦م)، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م، ص ٦٦.

- براور، الاستيطان، ص ٣٤٨.

ومن القلاع والمناطق التابعة لها:

قلعة غلافينوس- وهي دير القلعة[١]- التي تقع على الجبال المحيطة بالمدينة والتي بنيت على إثر انتفاضة الفلاحين سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م[٢]، وقد قدم فولتشر أوف تشارترز وصفاً لموقع وأهمية هذه القلعة بقوله: **" شيد الملك في شهر تشرين الأول من هذا العام، قلعة في الجبال الواقعة فوق بيروت في منطقة عظيمة الخصب وسماها قلعة جبل غلافينوس، ... وبعدت هذه عن بيروت ستة أميال وكان الفلاحون السراسنة[٣] يرفضون في الماضي دفع الخراج عن أراضيهم. أما الآن فقد أرغموا على فعل ذلك"**[٤]. وحصن الناعمة، الذي يقع إلى الجنوب من بيروت على بعد أربعة وعشرين ميلاً، كما تقع داخل حدود هذه الإقطاعية: مدينة جونية التي تعد من المراكز الهامة لتجمع المسيحيين العرب الذين يتبعون المذهب اليعقوبي، وحصن المزداسية إلى الشمال من مدينة بيروت[٥].

ومن أشهر من تولى هذه الإقطاعية:

- فولك جينس الذي يعد أول سيد إقطاعي لبيروت إذ تولى حكمها سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م [٦].

- غوتيه الأول الذي كان يحكم عند قيام انتفاضة فلاحي منطقة بيروت سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م.

- جي بريسيبار الذي شارك في الهجوم الصليبي على مدينة دمشق سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م[٧].

- والتر الثالث الذي تولى حكمها خلال حكم الملك عموري، والذي أصبح فيما بعد سيداً لبارونية ما وراء الأردن نتيجة زواجه من هيلينا ابنة فيليب ميللي السيد السابق للبارونية[٨].

---

[١]- دير القلعة: يقع بالقرب من قرية بيت مري، يرتفع ٧٣٠م فوق سطح البحر إلى الشرق من مدينة بيروت يبعد عنها حوالي ١٨كيلومتر.
- لامنس (هنري)، تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، دار الرائد اللبناني، لبنان، د.ت، ج١، ص١٣.

[2]- Hugn kenned, Crusader Castles ,The university Cambridge ,United Kingdom, 2008,p 30.

[٣]- السراسنة: هي تسمية أطلقها الأوربيون على العرب المسلمين بقصد اهانتهم وتحقيرهم، واختلف حول أصل هذه التسمية ، إلا أن المسعودي يعد أقدم مؤرخ قام بتفسيرها بقوله:" أنكر- الإمبراطور البيزنطي نقفور – على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس تفسير ذلك عبيد سارة طعنا منهم على هاجر وابنها إسماعيل".
- المسعودي (علي بن الحسين)، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت، ص ١٤٣.
- عبد الرحيم (رائد مصطفى)، وسائل الدعاية الصليبية (صورة المسلمين في أدب الرحلات الأوربية والروسية إلى الأماكن المقدسة في العصور الوسطى أنموذجا)، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد١ (A)،٢٠١١م، مج ١٣، ص١٩٨.

[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة ، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٥١٨.

[٥]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧١.

[6] - R .scott , Crusade of kings, p 55.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٠٧.- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج ٢، ص٣٢٨.
- الشهابي(قتيبة)، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٨م، ص١٧٤.

[٨]- الدويكات (فؤاد عبد الرحيم)، هيئة فرسان القديس لعازر في مملكة بيت المقدس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ١٢، العدد١، ٢٠١٥م، ص١٢٥، ١٢٦.

كما يذكر وليم الصوري بأن الملك عموري قد أقطعها لأحد القادة البيزنطيين الوافدين إلى المملكة ويدعى أندرونيكوس[١]، ولكن لم يبقَ طويلاً فسرعان ما ترك أراضي المملكة[٢].

كما منحت كما ذكرنا سابقاً للكونت ريموند الثالث نتيجة تعيينه وصياً على المملكة في عهد الملك بلدوين الرابع.

ب – بارونية صيدا:

تأسست هذه البارونية بعد استيلاء الصليبيين على مدينة صيدا في ٢٣ جمادى الأولى ٥٠٤هـ/٥ كانون الأول ١١١٠م، فقام الملك بلدوين الأول بمنحها ليوستاس جارينييه (٥٠٤-٥١٨هـ/١١١٠-١١٢٤م)، وجعلها وراثية في عقبه. وبذلك عدت عائلته من أوائل العائلات الإقطاعية التي وطدت وجودها في مملكة بيت المقدس الأولى.ونظراً لمكانته بين السادة الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس، تم اختياره كفيلاً للمملكة سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م عند وقوع الملك بلدوين أسيراً لدى الأمير بلك حاكم حلب[٣].

وكانت مدينة صيدا تعد مركز حكم هذه البارونية، التي امتدت حدودها ما بين نهر الدامور شمالاً و نهر الليطاني - القاسمية- الذي شكل حدها الجنوبي[٤] والشرقي بينما كان يحدها البحر المتوسط غرباً. وبذلك بسطت سيادتها على المناطق التالية: عدلون، والصرفند[٥] التي تقع" **على شاطئ البحر إلى الشمال من مدينة صور وعلى بعد ثمانية أميال منها، وهي تقع في نطاق أراضي صيدا"**[٦]، وأنحاء من جزين[٧]، وقسم من الشوف كالباروك وبعقلين والمختارة ودير القمر[٨]، وقد قدم الإدريسي وصفاً لمدينة صيدا والأقاليم التابعة لها بقوله:**"وهي مدينة كبيرة عامرة الأسواق رخيصة الأسعار محدقة بالبساتين والأشجار، غزيرة المياه واسعة الكور لها أربعة أقاليم، وهي**

---

[١]- هو أندرونيكوس كومنينوس ابن عم الإمبراطور البيزنطي مانويل، ولي حكم كيليكية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م ثم أعيد تعيينه سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ولكنه فشل في تطبيق سياسة الإمبراطورية البيزنطية في كيليكية، وامتاز بمغامراته العاطفية حيث سعى للتقرب من أخت بوهيموند الثالث أمير أنطاكية مما دفع هذا الأخير لتقديم شكواه للإمبراطور مانويل الذي قام بعزله، وعلى إثر ذلك اتجه إلى مملكة بيت المقدس عارضاً خدماته على الملك عموري فوهبه إقطاعية بيروت، واستمر في مغامراته العاطفية فوقع في حب تيودورا - أرملة الملك بلدوين الثالث-ولم يستمر طويلاً في حكم بيروت إذ هرب إلى بيزنطة وبصحبته تيودورا، وتمكن في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م من الاستيلاء على العرش البيزنطي لغاية سنة٥٨١هـ/١١٨٥م.

- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٤٣٤، ٤٣٥، ٤٨٤،٤٨٥.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص٩٦،٩٧.

- أبو مصلح (حافظ)، تاريخ الدروز في بيروت، دار الفنون للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٤.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٣، ٣٧٢.

[4]- Lieut. Col .C.R. Conder, LL.D,M.R.A.S,R.E, The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 To 1291 A.D,Publisher by The Committee of The Palestine Exploration Fund,24, Hanover Square, London,1897

[٥]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٦٦.

[٦]- فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة، ص١٠٣.

[٧]- جزين: تقع إلى الشرق من مدينة صيدا، تمتاز بجبلها الذي وصفه شيخ الربوة بقوله: **" جبل جزين كثير المياه والفواكه "**.

- شيخ الربوة (محمد أبو طالب): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١،١٩٨١م، ص ٢٧٨.

[8]-Conder, The Latin kingdom ,p77. -Archer, Kingsford, The Crusades, p118.

- سالم، صيدا، ص١٠٣.

متصلة بجبل لبنان بإقليم يعرف بإقليم جزين ... وإقليم السربة وهو إقليم جليل، وإقليم كفر قلا، وإقليم الرامي ... وجميع هذه الأربعة أقاليم تشتمل على نيف وستمائة ضيعة ..."[١].

وهذا القول يدل على مدى ازدهار المدينة من الناحية الاقتصادية، وكثرة المناطق العمرانية في هذه الإقطاعية، كما عدت صيدا من أهم الموانئ التجارية التي تقع على ساحل بلاد الشام. ومن القلاع التابعة لها: قلعة أبو الحازم إلى الجنوب من مدينة صيدا[٢].

وممن تولى حكم صيدا بعد يوستاس عدد من البارونات هم:

- يوستاس الصغير(٥١٨-٥٢٦هـ/١١٢٤-١١٣١م)[٣].

- جيرارد بن يوستاس (٥٢٦-٥٤٩هـ/١١٣١- ١١٥٤م) [٤]، الذي تولى الوصاية عليه عمه ولتر الأول- حاكم قيسارية- لغاية سنة٥٣٠هـ/١١٣٥م[٥]، وقد أسهم في الاستيلاء على مدينة عسقلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م إذ تولى قيادة الأسطول الصليبي[٦].

- أرناط (رينو)[٧] سيد صيدا وشقيف أرنون (٥٤٩-٥٧٩هـ/١١٥٤-١١٨٣م)[٨].

ج- إقطاعية إسكندرونة:

تدعى في المصادر الصليبية بـ" سكاندليون" وتقع إلى الجنوب من مدينة صور على بعد خمسة أميال عنها، قام بتشييدها الملك بلدوين الأول سنة ٥١١هـ/١١١٨م تمثل الهدف من بنائها تشديد الحصار على مدينة صور[٩]، ومنذ ذلك الوقت عدت من أملاك التاج الملكي، ولكن ما لبث التاج الملكي أن فقد العديد من ممتلكاته لصالح النبلاء وكان من بينها إقطاعية إسكندرونة[١٠]، في حين يذكر دينيس برينجل بأن هذه الإقطاعية أصبحت بحلول سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م جزءاً من الممتلكات الملكية التابعة لمدينة عكا[١١]، وقد امتازت هذه القلعة بخصوبة المنطقة التي تقوم عليها ويصف بورتشارد ذلك بقوله:**"واسند حفظها إلى بعض النبلاء الذين نالوا ألقابهم منها، وفيها وفرة من المروج، والمراعي، وحقول التين، والزيتون، والكروم، وذلك وسط مياه جارية وحدائق"**[١٢]،

---

[١]- الإدريسي، نزهة المشتاق ، مج ١، ص ٣٧٠.
[٢]- براور، الاستيطان، ص ٣٤٨.
[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص١١٨ .
[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٥١.- سالم، تاريخ مدينة صيدا، هوامش ص١٠٣.
[٥]- حسين (حسن عبد الوهاب)، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص١١٠،١١١.
[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٥٤.- حسين، تاريخ قيسارية، ص ١١٦.
[٧]- سالم، تاريخ مدينة صيدا، هوامش ص١٠٣.
[٨]- لكن ميخائيل زابوروف وجوناثان سميث يذكران بأن جيرار كان يحكم صيدا في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، وبأنه جعلها وكراً للقرصنة. - زابوروف، الصليبيون، ص١٤٦.- سميث، الإسبتارية، ص٢٨.
[٩]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٥٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٢.
[١٠]- براور، الاستيطان، ص١٦٠.
[11] -Denys Pringle, The Church of The Crusader Kingdom of Jerusalem, vol II, Cambridg University press,1998,p 251.
[١٢]- بورتشارد، وصف الأرض المقدسة، من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ج٣٧، ص١٤٩

في حين وصفها ابن جبير بأنها عبارة عن قرية تمتلك أسوارا[١]، وهذا الوصف يعطي تصور بأن هذه الإقطاعية اضمحلت أهميتها على إثر استيلاء صليبيي بيت المقدس على مدينة صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤ م، فقتأسست قلعتها سابقاً لكي تكون مركزاً عسكرياً لمراقبة ورصد قوات مدينة صور، والضغط عليها.

د- إقطاعية حيفا:

قام تانكرد بالاستيلاء على مدينة حيفا والمناطق المحيطة بها في شوال ٤٩٣هـ /٢٠ أب ١١٠١م، - في وقت كان الدوق غودفروي وعد بها الأمير جالديمار كاربينيل[٢]- وبذلك اكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغرها البحري المتمثل بحيفا.إلا أنها لم تبقَ طويلاً تحت سيطرة تانكرد، حيث اضطر هذا الأخير لمغادرة فلسطين متوجهاً إلى أنطاكية لتدبير أمورها على إثر وقوع حاكمها بوهيمود في الأسر لدى بني الدانشمند[٣]، كما اضطر لوضع حد للخلاف مع الملك بلدوين الأول فبعد عدة اجتماعات تم الاتفاق على تسليم جميع ممتلكاته في فلسطين للملك بلدوين الأول من جهة، كما تعهد الملك بلدوين برد إمارة الجليل لتانكرد في حال عودته للمملكة خلال سنة وثلاثة أشهر، ولكن بصيغة إقطاع ممنوح من قبل الملك، وفي حال عدم عودته في الفترة المحددة يفقد جميع إدعاءاته بتلك الممتلكات[٤]، وبذلك وضعت ممتلكات تانكرد تحت الإدارة الملكية، ويصف وليم الصوري ذلك بقوله:**"...فرد على الملك مدينة طبرية، كما تنازل في الوقت ذاته عن مدينة حيفا"**[٥]، مما أتاح الفرصة أمام الملك بلدوين الأول لتقليص مساحة إمارة الجليل، وعدم السماح بخلق أمير صليبي منافس له في منطقة فلسطين، إذ قام بفصل مدينة حيفا والمناطق المحيطة بها، ومنحها كإقطاع لجالديمار كاربينيل[٦]، وهذا يعد التاريخ الحقيقي لتأسيس إقطاعية حيفا.

---

[١]- ابن جبير(محمد بن أحمد)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت ، ص٢٧٧.

[٢]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٧٢.

[٣]- عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٢٣،٢٢٤، ٢٣٣.

- بنو الدانشمند: هي أسرة تركمانية تنتسب إلى الأمير طايلو(ت٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) الذي لقب بالدانشمند- بمعنى العالم، الحكيم، المعلم- وقد حمل هذا اللقب لامتهانه تعليم أبناء التركمان، وبعد انتصار السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين في معركة ملاذكرد، كلف الأمير طايلو بالاستيلاء على سيواس، والبستان، وملطية، والمناطق المجاورة لها، وبعد وفاته خلفه ابنه كمشتكين، الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة بني دانشمند في الأناضول، والذي تمكن من أسر بوهيموند وهزيمة القوات الصليبية المرافقة له القادمة لمساعدة حاكم مدينة ملطية.

- الغامدي (علي محمد عودة)، المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين، مكتبة الصديق أبو بكر للنشر والتوزيع، الطائف، ١٤١١هـ، ص ١٢، ١٣، ١٨.

[4]-Albert of Aachen's, History of the Journey to Jerusalem, translated by Susan B. Edgington, vol2, Ashgate, 2013, p42.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٠.

[6]-Albret , History of the Journey , vol2,p42.

- هارولد فنك، تأسيس الإمارات اللاتينية ١٠٩٩- ١١١٨م ، من خلال كتاب تاريخ الحروب الصليبية، إشراف كينث سيتون، ترجمة: سعيد عبد الله البيشاوي وآخرون، بيت المقدس للنشر والتوزيع، رام الله، ص٢٠٠٤م، ص٧٦.

- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٧٥.

لكن جالديمار لم يستمر طويلاً في حكم حيفا، فسرعان ما وقع قتيلاً خلال معركة الرملة الأولى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م[١]، وما لبثت هذه الإقطاعية أن مُنحت لشخص يدعى روجر سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م والذي استمر في حكمها لغاية سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م[٢]. ويذكر ألبرت فون آخن بأن باغانيوس Paganus كان يتولى حكم إقطاعية حيفا خلال أحداث سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، إذ كان أحد رسل الملك بلدوين الأول إلى تانكرد أمير أنطاكية[٣].

وممن تولى حكم الإقطاعية أيضاً: مانسيس الذي ورد اسمه كشاهد على منح الملك بلدوين الثاني المقدمة لدير القديسة مريم سنة ٥١٣هـ/١١٢٠م، ثم خلفه بابن الأول، وفي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م أصبح فيفيان سيداً لهذه الإقطاعية واستمر في هذا حتى سنة٥٦١هـ/١١٦٥[٤].

وقدم الرحالة الإدريسي وصفاً لمدينة خلال السيطرة الصليبية بقوله:**"حيفا تحت جبل الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية..."**[٥].

أما حدود هذه الإقطاعية فلم يرد في المصادر ذكر لها، لكن يمكن القول أن هذه الإقطاعية قد ضمت مدينة حيفا والزمّام الزراعي المحيط بها، و جبل الكرمل، ويبدو أن حدودها الشمالية كان يشكلها نهر المقطع[٦] الذي يفصلها عن الممتلكات الملكية في عكا، أما الحدود الشرقية فكانت تبدأ عند المجرى الجنوبي لنهر المقطع، وتنحرف باتجاه الجنوب الشرقي بمحاذاة أراضي إمارة الجليل إلى أن تصل بالقرب من إقطاعية تل قيمون[٧] في حين شكل وادي فلاح[٨] الحدود الجنوبية .

هـ- إقطاعية قيسارية :

تقع مدينة قيسارية على الساحل الشامي إلى الجنوب من إقطاعية حيفا[٩]، واستولى الصليبيون على المدينة في سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م بعد ارتكاب مجزرة فيها[١٠]، ويبدو أن الملك لم يمنح المدينة بشكل مباشر كإقطاع لأحد النبلاء بل بقيت تحت السيطرة الملكية، ويدلل على ذلك قول فولتشر:**"بعدما فعلنا نحن وأهل جنوى كل ما راق لنفوسنا في قيسارية ... رسمنا فيها أسقفاً**

(١)- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٠٧.

-Jonathan Riley - Smith, The Motives of the Earliest Crusaders and Settlement of Latin Palestine 1095-1100,The English Historical Review, Vol 98, No 389(Oct 1983), Oxford University press, p729.

(2)-Albret, History of the Journey , vol2 ,p87.

(٣)- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٢٨١.

(٤)- أبو عون (عبد الرحيم حسين سعد الدين)، إقطاعية حيفا ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩٣-٦٩٠هـ/١١٠٠- ١٢٩١م)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٤م، ص ٦٩، ٩٨.

(٥)- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٥.

(٦)- نهر المقطع: ينبع من مرج بني عامر يتجه نحو الشمال الغربي سائر ببطء، ومتقطع أحياناً، يصب في خليج عكا، شرقي مدينة حيفا على بعد ٤ كم عنها، ويبلغ طوله ١٣كم. - الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص٢٩.

(٧)- قيمون: " **حصن قرب الرملة، من أعمال فلسطين"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص ١١٤٠.

(٨)- وادي الفلاح: هو عبارة عن واد صغير يتشكل من مياه الأمطار المتساقطة من السفوح الجنوبية الغربية لجبل الكرمل، ويصب في البحر المتوسط إلى الشمال من مدينة عتليت. - الدباغ، بلادنا، ج٧، ق٢، ص ٤٦٢، ٤٦٣.

(٩)- فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة، ص١٠١.

(١٠)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة " من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٦، ص٣٩٧.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢١٩-٢٢٢.

اخترناه معاً، ثم خلفنا حامية صغيرة من عدة رجال لحراسة المدينة"[١]، ويمكن الاستدلال من خلال هذا القول على قوة نفوذ رجال الكنيسة، لذا كان أول عمل يقوم به الملك بلدوين الأول بعد استيلائه على المدينة، هو تعيين أسقفاً لها ولعله تولى حكم المدينة.

ولكن ألبرت أشار إلى قيام الملك بلدوين الأول بتكليف الفارس أربين (هاربن) بحماية المدينة من هجمات العرب المسلمين المقيمين في المناطق القريبة منها[٢]. أما وليم الصوري فيذكر أن الملك بلدوين قد ترك قوة من الجند لحماية المدينة دون ذكر اسم قائد تلك الحامية[٣]، ولكن على الرغم من الاختلاف حول الشخصية التي تولت حكم مدينة قيسارية، يمكن القول أن الملك بلدوين الأول منحها كإقطاع للأمير أربين (هاربن) بوصفه موظفاً ملكياً يمثل الملك في المدينة، ولكنه ما لبث أن قتل سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م خلال تصدي الصليبيين لهجوم القوات الفاطمية على المنطقة الواقعة بين يافا واللد والرملة- معركة الرملة الأولى- فعادت إقطاعية قيسارية إلى سيطرة التاج الملكي[٤]، ويمكن تسويغ هذا التأخر في منح المدينة إلى إقطاعي جديد بقلة عدد النبلاء الذين استقروا في أراضي مملكة بيت المقدس فضلاً عن مقتل العديد منهم في المعارك ضد الجيوش العربية الإسلامية. وبقيت الإقطاعية تحت السيطرة الملكية المباشرة لمدة ست سنوات، إلى أن منحها الملك بلدوين الأول سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م كإقطاع ليوستاس جارنييه[٥] الذي بقي يتولى حكمها لغاية سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، وما لبث أن انتقل حكمها إلى ابنه ولترالأول الذي لعب دوراً هاماً في التصدي لتمرد كونت يافا هوغ الثاني- الذي كان زوج أمه- [٦]، وترك والتر الأول اثنين من الأبناء هما: يوستاش وهيو، ولكن الابن الأكبر يوستاش انضم إلى هيئة رهبان القديس لعازر على إثر إصابته بمرض لذا تولى حكم الإقطاعية هيو (٥٤٩-٥٦٣هـ/١١٥٤- ١١٦٨م) الذي ترأس سفارة الملك عموري إلى الخليفة العاضد بالله سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م [٧]، وقد وصفه وليم الصوري بقوله:"**... كان شاباً على جانب كبير من العقل والحكمة الرائعة وحسن التصرف لا يتوقعها أحد ممن كان في مثل عمره ... "**[٨]. وعلى إثر وفاة هيو اكتنف الغموض في المصادر الصليبية حول الشخص الذي تولى حكم الإقطاعية، واستمر ذلك لغاية سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م إذ تولى الحكم جاي بن هيو (٥٧٠-٥٧٢هـ/١١٧٤-١١٧٦م)[٩].

وكانت هذه الإقطاعية تقع في منطقة السهول الساحلية المحصورة ما بين إقطاعيتي حيفا شمالاً وأرسوف جنوباً، أما حدودها الشمالية فيشكلها مجرى وادي الفلاح، وجزء من القسم الجنوبي من جبل الكرمل، وهنا تبدأ الحدود الشرقية التي تنحدر جنوباً مجاورة لأراضي إقطاعيات القيمون

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة " من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٦، ص٣٩٧.

[٢]- آلبرت فون آخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ج٥١، ص ١٩٩.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٢٣.

[٤] - البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٧٨، ٧٩.

[٥]- لكن اسمه ظهر في هذه السنة في إحدى الوثائق الملكية دون أن يرتبط بلقب حاكم قيسارية . - حسين، تاريخ قيسارية، ص٧٦.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٠٧.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٧٨.- حسين، تاريخ قيسارية، ص١١٠.

- في حين يذكر حسن عبد الوهاب حسين أن من خلف يوستاس في الحكم ابنه الذي يدعى بـ"جوتييه". - حسين، تاريخ قيسارية، ص١١٠- ١١١.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص٤٦. حسين، تاريخ قيسارية، ص١١٦- ١١٧.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص٤٦.

[٩]- حسين، تاريخ قيسارية، ص١٢٣.

ونابلس، أما الحدود الجنوبية فشكلها نهر الفالق[١]، أما حدودها الغربية فقد شكلها البحر المتوسط وقد امتد ساحلها ما بين مصب وادي الفلاح ونهر الفالق[٢].

واشتهرت إقطاعية قيسارية بخصوبة أراضيها الزراعية؛ نتيجة لوجود العديد من الأنهار التي تروي سهولها، ومن تلك الأنهار: نهر الدفلى[٣]، نهر الزرقاء[٤]، نهر المفجر[٥]، نهر القصب، نهر إسكندرونة[٦]، كما ضمت هذه الإقطاعية العديد من القلاع والأبراج والتي قاربت أربعين قلعة وحصناً، كما احتوت العديد من المدن منها قاقون[٧] وقلنسوة[٨]، ومن القرى التابعة لهذه الإقطاعية: قرية بيت الله، وفياس[٩].

و- إقطاعية أرسوف:

تقع هذه المدينة إلى الشمال من مدينة يافا، وتمكن الصليبيون بقيادة بلدوين الأول من الاستيلاء عليها في سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م[١٠]، وكانت قد منحت والمنطقة المحيطة بها لروبرت أوف أبوليا من قبل غودفروي على الرغم من أنها لم تكن خضعت للسيطرة الصليبية[١١] ويبدو أن غودفروي لجأ إلى توزيع المدن العربية الإسلامية قبل سقوطها على الأمراء المشاركين في الحملة الصليبية الأولى كوسيلة لتشجيع الأمراء على البقاء في بلاد الشام.

ولكن فولتشر المعاصر للأحداث لم يذكر قيام الملك بلدوين الأول بتسليم المدينة لأحد من الأمراء الصليبيين فور السيطرة عليها، بل اكتفى الملك بتعيين حامية عسكرية لحماية المدينة[١٢]،

---

[١]- نهر الفالق: هو واد صغير يصب في البحر المتوسط إلى الشمال من قرية الحرم - سيدنا علي (التي تقع إلى الشمال من مدينة يافا وتبعد عنها حوالي ١٨كم) ويعرف هذا النهر لدى الصليبيين باسم "Rochetaillie". - الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص٣٤، ج٤، ق٢، ص٣٥٣.

[٢]- حسين، تاريخ قيسارية ، ص٧٦.

-Lieut. Col .C .R .,The Latin kingdom , p79.

[٣]- نهر الدفلى: هو عبارة عن وادي صغير، يصب في البحر المتوسط إلى الجنوب من قرية الطنطورة، التي تبعد عن مدينة حيفا نحو ٣٠كم. - الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص ٣٣، ج٧، ق٢، ص٦٠٥

[٤]- نهر الزرقاء: يتشكل من مياه الأمطار الهاطلة على جبال منطقة طولكرم، يصب في البحر المتوسط على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال من مدينة قيسارية. - الدباغ، بلادنا، ج ٧، ق٢، ص ٤٦٤.

[٥]- نهر المفجر: يعرف أيضاً باسم وادي الخضيرة، يتشكل من مياه الأمطار التي تحملها الوديان المنحدرة من منطقتي جنين وطولكرم، يصب في البحر المتوسط إلى الجنوب من مدينة قيسارية. - الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص ٣٤.

[٦]- نهر إسكندرونة: يعرف أيضاً باسم النهر المالح، وهو نهر موسمي الجريان، يصب في البحر المتوسط إلى الجنوب من نهر المفجر.- الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص ٣٤.

[٧]- قاقون: يصف موقعه ياقوت الحموي بقوله:" **حصن بفلسطين قرب الرملة، وقيل : هو من عمل قيسارية من ساحل الشام"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص٢٩٩.

[٨]- حسين، تاريخ قيسارية، ص٧٨.

[٩]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٩٢، ١٩٣.

- لم يتم التوصل إلى تحديد موقعهما من خلال المعاجم الجغرافية.

[١٠]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢١٨، ٢١٩.

[١١]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٧٠.

-Harold S .Fink, The Foundation of The Latin States 1099-1118, A History of The Crusades, volume I, The University of WisconsinPress,1969, p377

[١٢]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩٥.

وبذلك بقيت المدينة تحت إدارة التاج الملكي ويمكن تسويغ عدم منح المدينة لأي أمير صليبي فور الاستيلاء عليها إلى انشغال الملك بالزحف للاستيلاء على مدينة قيسارية المجاورة.

وممن حكموا هذه الإقطاعية شخص يدعى جون أحد أعضاء الوفد الصليبي برئاسة الملك عموري الأول الذي قدم إلى القسطنطينية لطلب العون، والمساعدة من قبل الإمبراطور البيزنطي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[١].

وقد امتدت حدود هذه الإقطاعية ما بين نهر الفالق شمالاً ونهر العوجا[٢] جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً إلى سفوح جبال نابلس وطولكرم شرقاً.

ومن أهم القرى والمناطق التابعة لها: قرية كفر ثلث التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة قلقيلية[٣].

ز- كونتية يافا وعسقلان:

تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة يافا بمعاونة الجنويين سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م وعدت منذ ذلك الوقت الميناء الرئيسي لتلقي المساعدات أثناء حصار مدينة بيت المقدس، وبعد إعادة بناء المدينة وتحصينها بدأ تجار المملكة والجزر المسيحية بالقدوم إلى مينائها حاملين معهم المساعدات الحيوية كما بدأ الحجاج الصليبيون يأتون إليها، فضلاً على أنها أصبحت مركزاً لتصدي هجمات المدن الساحلية التي بقيت تحت السيطرة العربية الإسلامية[٤]، وسرعان ما طالبت الكنيسة اللاتينية بالحصول على مدينتي بيت المقدس ويافا، وأمام إصرار البطريرك ديمبرت على تحقيق مطالبه، تنازل الأمير جودفروي عن ربع مدينة يافا لكنيسة القيامة[٥] بحضور رجال الدين وحشد من الناس، وتم ذلك في ١٨ ربيع الأول ٤٩٣هـ/ ٢شباط ١١٠٠م[٦].

ونتيجة لذلك احتفظت كنيسة القيامة بملكية هذا الجزء من مدينة يافا لنحو ثمانية عشرة سنة، إلى أن بسط الملك بلدوين الثاني سيطرته على كامل المدينة، ومما يدل على بقاء خضوع بعض أجزاء مدينة يافا للسيطرة الملكية ما يذكره المؤرخ ري سميث عن قيام الدوق غودفروي بتعيين حاكم ليافا يدعى ويتشير الجرماني (Wicher the German) وفي عهد الملك بلدوين الأول حوالي سنة ٥٠١هـ /١١٠٧م شغل هذا المنصب شخص يدعى روجر أوف روزوي(Roger of Rozoy)[٧]، ويبدو بأنها عادت بشكل كامل للسيطرة الملكية في عهد الملك بلدوين الثاني، إذ قام بمنحها كإقطاع

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص١٣٩-١٤١.

[٢]- نهر العوجا: ينبع من رأس العين في جبال نابلس، ويبلغ طوله ٢٦كم، يصب في البحر المتوسط إلى الشمال من مدينة يافا على بعد ٦كم منها، ويعرف هذا النهر في المصادر العربية الإسلامية باسم نهر أبي فطرس يقول المهلبي عنه:" **على اثني عشر ميلا من الرملة في سمت الشمال، نهر أبي فطرس. ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس، وينصب في البحر الملح بين يدي مدينتي أرسوف ويافا....".**

- المهلبي (الحسن بن أحمد)، الكتاب العزيزي " المسالك والممالك"، جمع وتعليق: تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ١٠٦.

- الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص ٣٠، ج٤، ق٢، ص ٥٦، ٥٨، ٥٩.

[٣]- الدباغ، بلادنا ، ج٣، ق٢، ص٣٩٣.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٦٠.

[4]-Albert of Aachen, History of the Journey , V 2,p18.

[٥]- تشير بعض المصادر العربية الإسلامية إلى تسليم الدوق غودفروي مدينة يافا إلى تانكرد. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٢٤.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٥٧.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٧٣.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٦٧. - محمد، سيد، الكنيسة، ص٨٠.

[7]-Jonathan Riley –Smith , The Motives of the Earliest Crusaders ,p726.

لقريبه هوغ بويسيت- هيو- (Hugh de puiset) القادم من الغرب وجعلها إرثاً في ذريته حوالي سنة ٥١٢هـ/١١١٨م[١]، وربما يمكن تسويغ قيامه بذلك بمحاولته إيجاد أتباع مخلصين له وليس لعائلة بولوني التي ينتمي لها الملكين السابقين.

ولم يعن تولي هوغ الأول حكم يافا إنهاء للمطالب الكنسية بمدينتي بيت المقدس ويافا، فسرعان ما تجددت هذه المطالب عند تولى ستيفن كرسي بطريركية بيت المقدس (٥٢٣-٥٢٥هـ/١١٢٨-١١٣٠م) بل طالب بمدينة عسقلان أيضاً[٢].

ولكن سرعان ما توفي هوغ الأول فقام الملك بلدوين الثاني بتزويج أرملته من فارس ولوني هو ألبرت ومنحه حكم إقطاعية يافا، إلا أن هذا الأخير لم يعمر طويلاً، و ما لبث أن قدم هوغ الثاني لبن هوغ الأول من إيطاليا مطالباً بإرث والده، فمنحه الملك يافا وملحقاتها كإقطاع خاص به سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م [٣].

إلا أن هوغ الثاني اتهم بخيانة الملك فولك، فأعلن عصيانه على السلطة الملكية سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م، ولإدراكه بعدم القدرة على مواجهة القوات الملكية في حال قيامها بمهاجمة يافا، اتجه إلى مدينة عسقلان طالباً العون من الحامية الفاطمية المتمركزة فيها، وقد وجد الفاطميون في ذلك فرصة سانحة لاستعادة المناطق التي استولى عليها الصليبيون، فتحالفوا معه[٤].

وعلى إثر ذلك قامت حامية عسقلان بمهاجمة أراضي مملكة بيت المقدس حتى بلغوا مدينة أرسوف. فرد الملك فولك بحشد قواته العسكرية، واتجه لحصار يافا، وعند ذلك تخلى أتباع هوغ عنه، مما دفعه للاستسلام ولم يكن عقاب هوغ قاسياً؛ حيث تدخل البطريرك وليم للصلح بين الطرفين[٥]، و**" انتهى الوضع أخيراً بدعاة السلام وصانعيه إلى أن يكتفوا سعياً منهم للوفاق وللحفاظ على شرف الملك بنفي الكونت لمدة ثلاثة أعوام، ثم يسمح له بعدها وللضالعين معه في الجرم بالعودة إلى المملكة..."**[٦]. ويبدو بأن الملك اكتفى بهذه العقوبة نتيجة اضطراره لتوجه شمالاً لمواجهة شمس الملوك بوري[٧]، الذي تمكن من استعادة مدينة بانياس[٨]، ويبدو أن الملكة ميلساند قد

---

[١]- هنالك اختلاف حول تاريخ قدوم هوغ الأول إلى مملكة بيت المقدس وتسلمه حكم إقطاعية يافا فبعض المؤرخين يروى بأنه قدم خلال حكم الملك بلدوين الأول، في حين يذكر وليم الصوري بأنه وصل إلى أراضي المملكة خلال حكم الملك بلدوين الثاني.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧١.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٧.- محمد، سيد، الكنيسة، ص٨٨.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١١٧،١١٨. - رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٢٢٤.

- R. scott, Crusade of kings, p 55.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١١٩،١٢٠.- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٢٢٤.- ماير، الحروب الصليبية، ص١٢٩.

- Archer, Kingsford, The Crusades, p117.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٢٠،١٢١. - رنسيمان، تاريخ الحروب، ج٢، ص ١٢١.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٢١،١٢٢.

[٧]-أبو الفتح شمس الملوك، إسماعيل بن بوري بن طغتكين، تولى حكم دمشق خلفاً لوالده سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م، وقتل في سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م؛ نتيجة لمراسلته للأتابك لزنكي بهدف استدعائه لتسلم حكم دمشق.

- ابن عساكر(علي بن الحسن)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج٨، ص ٧١٦.

[٨]- القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٧٥-٣٧٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج ٣، ص١٢١-١٢٢.- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٢٢٤.

لعبت دوراً هاماً في تخفيف حدة غضب الملك فولك على كونت يافا، وتم الاتفاق على مغادرة هوغ الثاني المملكة إلى أبوليا، لكنه سرعان ما توفي هنالك[١].

وأدى نفي هوغ الثاني إلى عودة كونتية يافا للسيادة الملكية سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م[٢]، ثم قام الملك بلدوين الثالث بتعيين أخيه عموري كونتاً على يافا سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، ثم أقطعه أيضاً مدينة عسقلان وأعمالها التي سقطت بيد الصليبيين سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٣] .

وبذلك أصبحت الكونتية تعرف منذ ذلك الوقت باسم كونتية يافا وعسقلان، وعدت أكبر إقطاع ملكي، وشكلت هذه الكونتية إقطاعاً واحداً ولو أن الضرورات الإدارية فرضت تعيين نائبين للكونت الأول في يافا والثاني في عسقلان[٤]، وعند تولي عموري عرش مملكة بيت المقدس سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م أصبحت كونتية يافا وعسقلان تعد من الأملاك التابعة للتاج الملكي.

كما عُدَّ من يتولى حكم الكونتية السيد الأول بين البارونات والأمراء في مملكة بيت المقدس؛ نتيجة لكونه أحد أقرباء الملك، وبذلك عدت هذه الكونتية أهم الإقطاعيات الأربع الكبرى في المملكة[٥].

أما بالنسبة لموقع وحدود هذه الكونتية، فإنها تقع جنوب غرب المملكة، وامتدت حدودها ما بين البحر المتوسط غرباً وجبال الخليل شرقاً، ومن نهرالعوجا شمالاً حتى الداروم[٦] وأطراف شبه جزيرة سيناء جنوباً[٧].

واحتوت هذه الإقطاعية على عدة إقطاعيات صغيرة ومدن وقلاع، كان من أهمها:

- مدينة عسقلان: وصفها الرحالة الإدريسي مدينة عسقلان بقوله:" **فهي مدينة حسنة ذات سورين وبها أسواق وليس لها من خارجها بساتين وليس بها شيء من الشجر...."**[٨]. ومن القرى التابعة لهذه المدينة: قرية كوكبا والسواقير الشرقية[٩]، اللتان تقعان بالقرب من مدينة عسقلان[١٠]، وقرية

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٢٤. - ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٢٩.

[٢]- براور، الاستيطان، ص ١٦٤.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٨٩.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٢، ج٤، ص ١٦.- براور، الاستيطان، ص١٦٤.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٠،١٦٣.

- Archer, Kingsford, The Crusades, p117.

[٤]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٣.

[٥]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٥.

[٦]- الداروم: تعرف حاليا باسم دير البلح، وقد وصف ياقوت الحموي موقعها بقوله:" **قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ...".** - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص٤٢٤.

[7]- Archer, Kingsford, The Crusades, p116.

[٨]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٥٧.

[٩]- يذكرها الدباغ في كتابه بلادنا فلسطين باسم السوافير، وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة أسدود على بعد حوالي ٦كم .

- الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢، ص ٢١٢.

[١٠]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٧٥.

صُمَيِّل التي أسست سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م من قبل فرسان الإسبتارية[١].ويذكر ياقوت الحموي قرية تدعى المأزمين التي تبعد عن عسقلان مسافة فرسخ[٢] واحد[٣].

- مدينة غزة:

تقع على حافة الأراضي الخصبة العذبة المياه التي تأتي مباشرة بعد شبه جزيرة سيناء، لذا كانت تعد المحطة الطبيعية لجميع القوافل القادمة من مصر إلى بلاد الشام وبالعكس، وبعد استيلاء الملك بلدوين الثالث عليها سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م قام بترميمها ومنح قلعتها لفرسان الداوية لحمايتها من غارات العرب المسلمين[٤]، وبعد استيلاء الصليبيين على مدينة عسقلان ٥٤٨هـ/١١٥٣م انتقلت أهميتها التجارية والحربية إلى قلعة الداروم، التي تقع إلى الجنوب منها، ومن أهم القرى التابعة لها قرية الجلديَّة التي تقع إلى الشمال الشرقي منها، وكانت تدعى لدى الصليبيين باسم جلاديا(Geladia) [٥].

- لوردية اللد:

استولى الصليبيون على مدينة اللد سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، ثم قام القادة الصليبيون بتعين الأسقف روبرت أوف روين حاكماً عليها، وبذلك أصبحت إقطاعاً كنسياً[٦] وبقيت على هذا الحال لغاية سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م، حيث غدت إقطاعاً تابعاً لكونتية يافا عندما تولى حكمها هوغ الأول واستمر ذلك لغاية سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م، إلا أن وليم الصوري يورد خلافاً لهذا الرأي إذ يذكر من بين الشخصيات التي قامت بالتوقيع على وثيقة التحالف بين مملكة بيت المقدس والبندقية، من أجل الاستيلاء على مدينة صور شخصية روجر، الذي وصفه بأنه صاحب اللد وأسقف كنيسة سانت جورج[٧]. وبناء على معلومات وليم الصوري فإن اللد استمرت كإقطاع كنسي لغاية سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م.

وقد تمتع موقع مدينة اللد بأهمية جغرافية هامة، حيث كانت تتحكم بالطريق الواصل بين ميناء يافا ومدينة بيت المقدس، كما عدت مركزاً رئيسياً لحشد قوات مملكة بيت المقدس من أجل التصدي للقوات الفاطمية المتمركزة في مدينة عسقلان ومحيطها.

- إقطاعية الرملة:

كانت في بداية الأمر تابعة لأسقف اللد ثم أصبحت سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م تعد من الأملاك الملكية وكان من أوائل من تولى الإشراف على قلعة مدينة الرملة رومان أوف لو بوي(Roman)[٨]

[١]- الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢، ص٢٢٠.
[٢]- الفرسخ: وحدة قياس تستخدم لتحديد المسافات بين المناطق، ويعادل الفرسخ الواحد حوالي ٦كم.
- فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٧٠م، ص ٩٤.
[٣]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص٤٠
[٤]- يعقوب فيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ٤٥. - الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢، ص٥٢.
[٥]- الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢، ص٥٢، ٥٣، ٢١٥.
[٦]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، من حلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص١٦٦.- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة، من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص٢٨١. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٦. - البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٠٥.
[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٨٣.
[8] -Smith , The Motives of the Earliest Crusaders , p729.

لكن في حقبة لاحقة عُين بلدوين – الذي كان سابقاً كونستانتبل[١] ملكي-حاكماً للرملة of Le Puy ثم ألحقت الرملة واللد بحاكم مدينة يافا حوالي ٥٠٣-٥٠٤هـ/١١٠٩-١١١٠م، وخلال تمرد كونت يافا هوغ الثاني سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م وقف صاحب إقطاعية اللد والرملة إلى جانب السلطة الملكية، و مكافأة لهذا الأمر منحت الإقطاعية استقلالها الإداري عن كونتية يافا، ومنح بلدوين لقب لورد حوالي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م [٢]. وما لبثت أن غدت الرملة من أملاك أسرة ابيلين عن طريق زواج باليان سيد يبنا (ابيلين) من هيلفر ابنة بلدوين السيد السابق للرملة سنة ٥٣٢-٥٣٣هـ/١١٣٧-١١٣٨م[٣].

- لوردية أبيلين (يبنا):

تقع يبنا بالقرب من الرملة فقد قام الملك فولك وأمراء المملكة ببناء قلعة في هذه المنطقة؛ لتساهم في التصدي لغارات حامية مدينة عسقلان، وعندما فرغوا من بنائها عهدوا بها والمنطقة المحيطة إلى باليان (باريسيان)[٤] كونستابل- قائد جيش- يافا، وبالتالي أصبح أحد أتباع كونت يافا هوغ الأول [٥]، وقد لعب باليان دوراً في الصراع بين الملك وكونت يافا، إذ وقف إلى جانب السلطة الملكية خلال تمرد هوغ الثاني سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م[٦]، ومكافأة لموقفه هذا منح الملك هذه اللوردية استقلالها الإداري عن كونتية يافا، ثم اتسع نطاق أملاك باليان على إثر زواجه من ابنة لورد الرملة واللد كما ذكر سابقاً.

- مجدل يابا وإقطاعيتها:

تقع مجدل يابا إلى الشمال الشرقي من مدينة الرملة، وتطل على السهل الساحلي وتشرف على مدينة يافا، وكانت تدعى لدى الصليبيين ميرابل (Mirable)[٧]، وسرعان ما فصلت عن كونتية يافا على إثر ثورة هوغ الثاني سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م ويبدو بأنها منحت لباليان سيد ابيلين والرملة وعند وفاة هذا الأخير قام الأمير مناسيس- ابن أخ بلدوين الثاني- بالزواج من أرملة باليان حوالي سنة ٥٤٥-٥٤٦هـ/١١٥٠-١١٥١م فاستطاع بفضل هذا الزواج أن يزيد رقعة ما بيده من إقطاع، وما لبثت الملكة ميلساند أن قامت بتعين مناسيس كونستابل للمملكة- قائداً للجيش- كما عد أحد أعوانها في الصراع مع ابنها بلدوين الثالث على عرش المملكة، مما دفع الملك بلدوين الثالث للعمل على

---

(١)- الكونستابل: يعد من المناصب العسكرية لدى الصليبيين، تتمثل مهمته في قيادة الجيش في أثناء غياب الحاكم أو السيد الإقطاعي.
- سالم، طرابلس، ص ٢٠٠.

(2)-R.scott, Crusade, p 56.
- Pringle, The Church of The Crusader Kingdom, vol II,p183.

(3)-pringle, The Church,p183.

(٤)- يدعى هذا الشخص بـ ((باليان)) والذي لقب أحفاده باسم الأبلينيين، الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ مملكة بيت المقدس في السنوات التي سبقت معركة حطين أو بعدها.

(٥)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٠٩.- براور، الاستيطان، ص ١٦٢.
-Hugn Kenned, Crusader Gastles, p 31.

(6)-R.scott, Crusade, p 56.

(٧)- الدباغ، بلادنا، ج٤، ق٢، ص٥٤٩،٥٥٠.

التخلص من جميع النبلاء المؤيدين لوالدته، وكان في مقدمتهم مناسيس فقام بحصاره في قلعة مجدل يابا نحو سنة٥٤٧هـ/١١٥٢م فاضطر مناسيس للتنازل عن جميع أملاكه في الشرق ومغادرته[١].

ح- ممتلكات التاج الملكي:

كان الملك يترأس قمة الهرم الإقطاعي في مملكة بيت المقدس، وتألفت أملاكه الشخصية من أربع مدن وملحقاتها، وهي: بيت المقدس، صور، عكا، نابلس، فضلاً عن قلعة الداروم.

تعد أهم هذه الممتلكات مدينة بيت المقدس كونها عاصمة المملكة الصليبية ونظراً لأهميتها الدينية لاحتوائها على كنيسة القيامة والضريح المقدس، فقد حظيت باهتمام كبير من قبل الصليبيين والحجاج الوافدين من أوربا، وبما أن هذه الدراسة تتركز حول الساحل الشامي لذا سيقتصر على الحديث عن الممتلكات الملكية التي تقع على ساحل بلاد الشام، وهي:

- عكا ومنطقتها:

تعد مدينة عكا من أهم الموانئ في المملكة والميناء الرئيسي لرسو السفن المحملة بالحجاج القادمين من غرب أوربا[٢]، كما كانت ميناء لتصدير منتجات وبضائع مدينة دمشق[٣]، وهي مدينة ثرية وكثيرة السكان[٤]وقد قدم الإدريسي وصفاً لها قائلاً :**" مدينة عكة واسعة الأرجاء كثيرة الضياع ولها مرسى حسن مأمون وناسها أخلاط ..."**[٥]، كما وصفها الرحالة البيزنطي فوقاس الذي زارها في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بقوله: **"هي مدينة واسعة، وكثيفة السكان إلى حد جعلها تتفوق على جميع البقية، وهي تستقبل جميع سفن التجار، وإليها يقدم جميع الحجاج الذين قدموا من أجل المسيح سواء بالبحر أو بالبر ...."**[٦].

ومن أهم المناطق التابعة لها: قرية الزيب[٧] الواقعة إلى الشمال من مدينة عكا على بعد أربعة فراسخ[٨] ويصفها الإدريسي بقوله:**"ومن عكا إلى حصن الزيب اثنا عشر ميلاً وهو حصن على ضفة البحر المالح "**[٩]، وتدعى هذه القرية في الكتابات الصليبية بقرية امبرت[١٠] نسبة للفارس هيبرت (Hubert de Pazi) التي كانت تعد إقطاعاً له بين سنتي (٤٩٧- ٥٠٢هـ/١١٠٤- ١١٠٨م)، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى السيادة الملكية بعد رحيل الفارس، إلى أن قام ليتاردس فيكونت[١١] عكا

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٣٢-٣٣٤. – ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦١،١٦٢.
- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٧١-٣٨٦.

[٢]- ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة، من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨، ج٣٤، ص٣٦١.

[٣]- الدباغ، بلادنا، ج٧ ، ق٢، ص٢٠٠.

[٤]- ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣٤، ص٣٦١.

[٥]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٦٥.

[٦]- فوقاس، رحلة يوانس فوقاس، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣٤، ص٣٨٣.

[٧]- يرد ذكرها لدى ابن جبير باسم الزاب.- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٧.

[٨]- بورتشارد، وصف الأرض المقدسة، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣٧، ص١٤٩.

[٩]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٥.

[١٠]- ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد عبد الله البيشاوي- رياض شاهين، دار الشروق،عمان، ٢٠٠٣م، ص١٤٧.

[١١]- الفيكونت أو الفيسكونت: هو نائب الملك في المدن أو نائباً للورد، كان منصبه وراثياً، يتم اختياره من بين صفوف الفرسان النبلاء، وتمثلت مهامه في: رئاسة المحكمة البرجوازية، وتنفيذ الأحكام التي تصدرها من اعتقال المجرمين، كما أنه هو الوكيل المالي للمنطقة المعين بها، فيقوم بجمع الضرائب والرسوم والغرامات، ووضع اليد على الأملاك التي ليس لها وريث، إضافة لقيادته للسرجندية.
- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، هوامش ص٩٦.

بمنح أجزاء واسعة منها لدير القديسة مريم في وادي جوسفات[١] سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، ولكن ما لبث الملك بلدوين الثالث ووالدته ميلساند أن أعادوها للسيادة الملكية سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[٢]. ويمتاز موقع الزيب بالخصوبة إذ يصف بورتشارد ذلك بقوله:"... **فيها وفرة من المروج، والمراعي، وحقول التين، والزيتون، والكروم...**"[٣]، وقرية البيدر التي منحها الملك بلدوين الأول لأسقفية بيت لحم في سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م[٤]، وكذلك قرية كسيرا[٥] التي منحت لدير القديسة مريم في وادي جوسفات[٦].

- مدينة صور ومنطقتها:

تعد مدينة صور من أعظم المدن التي خضعت للسيطرة الصليبية ويشهد على ذلك قول الرحالة فوقاس:" **هي المدينة التي تفوقت بجمالها على جميع مدن فينيقيا- الساحل الشامي- تقريباً، وهي مبنية مثل مدينة طرابلس فوق شبه جزيرة مشابهة، لكنها ذات حجم أكبر منها بكثير، وتمتلك أبنية أكثر جلالة وجمالاً ...**"[٧]. كما وصف وليم الصوري دهشة الصليبيين من جمال المدينة عند الاستيلاء عليها سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، بقوله:" **لما دخلوا تملكتهم الدهشة ... فقد راقتهم تحصيناتها، ومتانة مبانيها، وضخامة أسوارها، وارتفاع أبراجها، وعظمة مينائها الذي يصعب اقتحامه...**"[٨]. وإلى جانب الملك فقد امتلكت البندقية ثلث المدينة وملحقاتها لقاء مشاركتها في الاستيلاء على صور[٩]. فقد وُجِدَ في هذه المنطقة قرابة ١٢٠ قرية كان في حوزة الملك ثلثيها، والثلث الباقي بيد البنادقة[١٠]، ومن القرى والمناطق التي تتبعها: قرية بيت فيلا وقرية ساردانس[١١].

- قلعة الداروم – دير البلح حالياً - :

تقع في كونتية يافا وعسقلان إلى الجنوب من مدينة غزة قام بإنشائها الملك عموري الأول سنة٥٦٤هـ/١١٦٨م في موقع جغرافي هام يتحكم بالطريق التجاري الواصل بين مصر وبلاد الشام،

---

[١]- وادي جوسفات: وهذه التسمية تحوير لاسم " يهوشافاط"، كما له عدة تسميات اخرى هي: وادي سلوان، وادي ستنا مريم، وادي جهنم، وادي النار، وادي قدرون، يبتدئ هذا الوادي على بعد ٢٥٠٠متر إلى الشمال الغربي من بيت المقدس ويسير الى الجنوب الشرقي، وينتهي بالبحر الميت، تجري المياه فيه خلال فصلي الشتاء والربيع، ويجف صيفاً.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص٤٨. - الدباغ، بلادنا،ج٨، ق٢، ص ١٦،ج٩، ق٢، ص ١٤، ١٦- ١٨.

[2]-Prawer J ,Colonization Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem In: Revue belge de philologie et d'histoire. Tome 29 fasc. 4, 1951. P 115.

- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٩٦.

[٣]- بورتشارد، وصف الأرض المقدسة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣٧، ص ١٤٩.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٨٦.

[٥]- تقع إلى الشرق من مدينة عكا.- دباغ، بلادنا، ج٧، ق٢، ص ٤٣٣.

[٦]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٧٤، ١٧٨.

[٧]- فوقاس، رحلة يوانس فوقاس، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣٤، ص ٣٨٢.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٣.

[٩]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٨٢، ج٣، ص ٤٣.

[١٠]- ماير، الحروب الصليبية، ص٢٥٢.

[١١]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٨٧.

- لم يتم التوصل إلى موقعهما من خلال المعاجم الجغرافية.

وبذلك أضحتْ مركزاً لجباية الضرائب على القوافل المارة هنالك[١]، وقد وصفها وليم الصوري بقوله:"... **قلعة متوسطة الأبعاد، تغطي مساحة لا تزيد عن رمية حجر واحد وتكون مربعة الشكل، يقوم عند كل ركن من أركانها برج كان أحدها أكبر من بقية الأبراج وأكثرها أمناً، على أنه لم يكن لها خندق، ولا فصيل[٢] يحميها. وتقع الداروم على بعد خمسة أميال تقريباً من البحر وأربعة أميال من غزة"**[٣]، كما وصف ياقوت الحموي موقعها بقوله:" **قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ...."**[٤].

وكان الملك يعين موظفاً في المدن الملكية يحمل لقب الفيكونت[٥]، تمثلت مهامه بجمع الضرائب المحلية، وإرسالها إلى الخزانة بعد أن يستبقي حاجة الحكومة المحلية، كما كان مسؤولاً عن المحاكم القانونية المحلية وتنفيذ أحكامها، وعن حفظ النظام في المدينة ووضع اليد على الأملاك التي ليس لها وريث. ويتم اختيار هذا الموظف من إحدى الأسر النبيلة إلا أن مركزه لم يكن وراثياً[٦]. وممن تولى هذا المنصب: ليتاردس فيكونت عكا- خلال حكم الملك بلدوين الثاني-[٧] و انزلم دي باس قائد حامية قلعة الداروم[٨].

وعلى ما يبدو أن الملك كان باستطاعته منح بعض هذه الأملاك كإقطاعيات للأشخاص المقربين منه لاستثمارها دون أن يفقد سيطرته عليها، ويظهر هذا خلال حديث وليم الصوري عن زواج ميلساند- ابنة بلدوين الثاني - من الكونت فولك، حيث يقول: **" ثم خلع الملك في الوقت ذاته على الاثنين مدينتي صور وعكا لتكونا لهما طول حياة الملك، وقد بقيت هاتان المدينتان في أيديهما حتى مات الملك بلدوين"**[٩]، وعلى إثر وفاة الملك عادت المدينتان إلى الأملاك الملكية، وتكرر هذا الأمر خلال حكم بلدوين الثالث الذي منح عكا إلى زوجته تيودورا كصداق لها، وبقيت في يدها إلى أن استعادها الملك عموري على إثر هربها مع القائد البيزنطي أندرونيكوس- حاكم إقطاعية بيروت- [١٠].

كما دأب الملوك الأوائل على الإسراف في إهداء الأراضي لأصدقائهم وللكنيسة وللنظامين العسكريين الدينيين. كما كانت هناك أجزاء أخرى تقطع كبائنة للأرامل من الملكات[١١]. أما فيما يتعلق بالفرسان الذين كانت تقدمهم المدن التابعة للتاج الملكي، فكانت خدماتهم تقع على عاتق النبلاء الذين يقيمون بهذه المدن أو يملكون بها عقارات[١٢] .

وهكذا كانت بدايات نشوء الإقطاعيات في مملكة بيت المقدس الصليبية يشوبه الكثير من الغموض نتيجة تبدل الأسر الإقطاعية الحاكمة في العديد من الإقطاعية؛ وذلك لعدة عوامل منها:

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص١٣٢،١٣٣.- الدباغ ، بلادنا، ج١، ق٢، ص٢٩٠.
[٢]- الفصيل: سور صغير يجعل أمام السور الأصلي الكبير، وهو بمثابة خط الدفاع الأول.
- دهمان (محمد أحمد)، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م، ص١١٨.
[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٣٢،١٣٣.
[٤]- الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص٤٢٤.
[٥]- سميث، الإسبتارية، ص٢٧.
[٦]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٥،٣٥٣.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٩٦.
[٧]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٩٦.
[٨] - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٣١.
[٩]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج ٣، ص٦٦.
[١٠]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص٩٧. - رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٤٣٥.
[١١]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ص ٣٤٥.
[١٢]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٩٨.

١- سياسية: وخير مثال على ذلك تنازل تانكرد عن إمارة الجليل على إثر توجهه إلى أنطاكية عند وقوع بوهيموند في الأسر، فقام الملك بلدوين الأول بتقسيم إمارة الجليل إلى عدة إقطاعيات كان منها حيفا التي منحت لجالديمار .

٢- اجتماعية: فالعديد من الأمراء قدم إلى الشرق بمفرده وبالتالي أدى موته دون وجود من يرثه إلى نقل حكم الإقطاعية إلى أسره جديدة. مثال على ذلك عندما قتل الأمير جالديمار حاكم حيفا خلال معركة الرملة الأولى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م[١]، قام الملك بلدوين الأول بمنح الإقطاعية لأسرة جديدة.

ومنها أيضاً عامل الصراع بين ملك بيت المقدس وبعض أتباعه الإقطاعيين الذين أخلوا بفروض الولاء والتبعية ووجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى والتآمر على الملك[٢]، ومن الأمثلة على ذلك تمرد الأمير هوغ الثاني كونت يافا سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م، ذلك التمرد الذي انتهى بنفي الكونت المتمرد وسلب أسرة بوزيه حكم الكونتية التي منحت لأحد أفراد الأسرة الملكية.

ثانياً- كونتية طرابلس:

ارتبط نشوء هذه الكونتية مع سعي الكونت ريموند لتأسيس إمارة خاصة به في الشرق، حيث تمكن في سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م من الاستيلاء على مدينة طرطوس، ثم تمكن من الاستيلاء على مدينة جبيل سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م ولكنه توفي دون أن يستطيع تحقيق حلمه بتكوين إمارة صليبية عاصمتها طرابلس، فقد تأخر الاستيلاء عليها لغاية سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م وعلى إثر ذلك عدت عاصمة الكونتية الناشئة.

حكمت هذه الكونتية من قبل البيت التولوزي لغاية سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ثم انتقل الحكم إلى البيت البوهمندي الحاكم لإمارة أنطاكية الذي بقي يحكمها لغاية سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م حيث تم تحريرها من قبل السلطان المملوكي الأشرف قلاوون[٣].

أما فيما يتعلق بنظام الحكم في كونتية طرابلس، ففي البداية استمد الكونت ريموند الرابع شرعية حكمه للمناطق التي سيطر عليها عن طريق شرعية الفتح - أو التغلب - وما لبث أن تحول نظام تولي الحكم خلال الصراع بين وليم جوردان وبرتراند إلى النظام الوراثي، إذ استطاع هذا الأخير من تحقيق مطالبه في إرث والده وفي الاستيلاء على مدينة طرابلس، وبعد ذلك ترسخت قاعدة تولي حكم الكونتية عن طريق الوراثة، وأن يتولى الحكم الابن الأكبر دون غيره من إخوته. أما اللقب الذي حمله الحكام الصليبيين، ففي البداية تلقب الكونت ريموند بلقب رئيس الجيش المسيحي في الشام وورثه من بعده وليم جوردان، ولكن ما أن تولى بونز الحكم حتى تلقب بالكونت [٤]، وبذلك أخذت تعرف هذه الإقطاعية الصليبية بكونتية طرابلس.

١- حدود كونتية طرابلس:

تقع الكونتية بين مملكة بيت المقدس جنوباً وإمارة أنطاكية شمالاً. أما فيما يتعلق بحدود هذه الكونتية فإنها أخذت شكلها النهائي فيالربع الثاني من القرن السادس الهجري/ الربع الثاني من القرن

---

[١]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٠٧.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٨٨.
[٢]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٨٩.
[٣]- سميث، الإسبتارية، ص٣٠.- سالم، طرابلس، ص١٣٥.
[٤]- سالم، طرابلس، ص١٩٦،١٩٧.

الثاني عشر الميلادي، فحدودها الشمالية تبدأ من نهر بانياس مروراً بمناطق سيطرة الإسماعيلية النزارية - الحشيشية، في حين شكل نهر إبراهيم الواقع شمالي بيروت الحد الجنوبي للكونتية، في حين شكل وادي العاصي وجبال لبنان ومن ورائها إمارات حماة وشيزر وحمص الحد الشرقي، في حين شكل البحر المتوسط الحد الغربي، وامتد ساحلها ما بين المرقب(١)شمالاً وجونية جنوباً(٢).

وبذلك تمتعت الكونتية بموقع جغرافي هام، حيث سيطرت على الطريق الواصل بين الساحل ومنطقة وادي العاصي، كما شكلت جبال البهراء، ولبنان حداً طبيعياً حماها من غارات حكام دمشق(٣)، فضلاً عن أن ما تمتلكه من ثروة وموقع هام يربط بين الإمارات الصليبية في شمال بلاد الشام مع مملكة بيت المقدس، جعلها تلعب دوراً مهماً في تاريخ الحروب الصليبية(٤).

ولكن رغم هذا الامتداد فإن كونتية طرابلس امتازت بقلة الأراضي الزراعية الخصبة، والتي تركزت في سهل نهر الكبير الجنوبي، ووادي البقيعة، وفيما عدا ذلك فمعظم مناطقها فقيرة غير صالحة للزراعة، لا تضمن إمداد الكونتية بالمؤن والأقوات. لذلك كانت تعتمد على الموارد التي تصلها من أوربا و قبرص الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية(٥).

٢- إقطاعيات كونتية طرابلس:

قسمت كونتية طرابلس كغيرها من الإمارات الصليبية إلى عدة إقطاعيات، وكان الكونت يترأس الهرم الإقطاعي في الكونتية، ويحوز من الأملاك الخاصة أكثر مما يحوزه أي تابع من أتباعه. ومن أهم أملاكه مدينة طرابلس التي ضمت المدينة المبنية على تلة الحجاج، والمدينة القديمة القائمة على شبه جزيرة في الأسفل(٦). وامتازت المنطقة المحيطة بها بالخصوبة وكثرة المزروعات حيث وصف الإدريسي ذلك بقوله:"..**مدينة عظيمة عليها سور من حجر منيع ولها رساتيق(٧)، وأكوار(٨)، وضياع جليلة وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشي الكثير...**"(٩)، كما وصف الرحالة بورتشارد خصوبة أراضيها بقوله:"**ولا شك أن المنطقة المحيطة يمكن دعوتها باسم الفردوس، بسبب وجود ما لا حدود له من الكروم الجميلة، ومغارس الزيتون، والتين، وقصب السكر، ولا أذكر أنني رأيت مثل هذا في أي مكان آخر من**

(١)- المرقب: يحدد ياقوت الحموي موقعها بقوله:" **بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس – بانياس-** ". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص ١٠٨.

(2)- Archer, Kingsford, The Crusades, p115.

- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٩٢.- يعقوب فيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ٤٠، ٤١. - سالم، طرابلس، ص١٣٨، ١٣٩.- سميث، الإسبتارية، ص٢٩.

- بينما يذكر سالم بأن جسر نهر المعاملتين يشكل الحد الجنوبي لكونتية طرابلس. - سالم، طرابلس، ص ١٣٩.

(٣)- سالم ، طرابلس، ص١٣٦.

(٤)- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٠٠.

(٥)- سالم، طرابلس، ص ١٣٧.

(6)- Archer, Kingsford, The Crusades, p116.

(٧)- الرساتيق: هي لفظة فارسية، مفردها رستاق، تعني القرية، أو محلة العسكر، أو السوق، أو البلد التجاري.

- دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ٨٢.

(٨)- وردت بشكل خاطئ لدى الإدريسي، وربما يقصد الكُوَرٌ ومفردها كورةٌ : والتي تعني المدينة.

- الفارابي (إسماعيل بن حماد)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٨١٠.

(٩)- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٢.

العالم"[١]. ويخترق المدينة نهر أبوعلي – قديشا[٢]- الذي يقسمها إلى نصفين. **ومن إقطاعيات الكونتية :**

أ- مدينة طرطوس ومنطقتها:

تعد أولى المدن التي استولى عليها الكونت ريموند في الساحل الأوسط لبلاد الشام سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، وقد وصف الإدريسي المدينة بقوله:" **مدينة صغيرة على البحر لها سور حصين.."**[٣]. وعند وفاة الكونت ريموند عدت من أملاك قريبه وليم جوردان إلى أن توفي في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، وبما أن هذا الأخير قد أعلن تبعيته لتانكرد حاكم أنطاكية خلال سعيه للحصول على الدعم خلال صراعه مع برتراند بن الكونت ريموند، احتفظ تانكرد بالمدينة كإقطاع تابع لإمارة أنطاكية[٤]، واستمر هذا الأمر إلى أن تولى حكم طرابلس بونز بن برتراند ففي عهده تحسنت العلاقات بين إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، ونتيجة لذلك فقد قام تانكرد- بحسب ما أورده ابن القلانسي- بمنح طرطوس وصافيتا ومرقية وحصن الأكراد للكونت بونز[٥]، وبذلك بقيت تتبع الكونت مباشرة، ولكن سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م منح الكونت ريموند الثاني قلعة طرطوس لفرسان الداوية [٦].

ب - مدينة عرقة :

هي" **مدينة عامرة حسنة في سفح جبل قليل العلو ولها في وسطها حصن على قلعة عالية ولها ربض كبير وهي عامرة بالخلق كثيرة التجارات ... بينها وبين البحر ثلاثة أميال ..."**[٧]، تمكن وليم جوردان من الاستيلاء عليها سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وعدت من أملاكه الشخصية إلى أن قتل في ظروف غامضة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، وعلى إثر ذلك آلت ملكيتها إلى منافسه برتراند بن ريموند حسب الاتفاق الذي وقع بينهما لإنهاء الصراع على عرش كونتية طرابلس[٨]. ولكن ابن القلانسي يذكر أن تانكرد قد توجه بقواته إلى مدينة عرقة سنة٥٠٣هـ/١١٠٩م[٩]، وإذا صح كلام ابن القلانسي فهذا يدل على أن مدينة عرقة وإقطاعها بقي بحوزة تانكرد استناداً لقيام وليم جوردان بتقديم فروض الولاء الإقطاعي له، ولم تعد عرقة لسيطرة كونت طرابلس إلا في عهد الكونت بونز.

ونظراً لأهمية موقعها الجغرافي فقد عدت من الأملاك الشخصية للكونت، وقد قام الكونت ريموند الثاني في سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م بوضع المدينة في عهدة سيد لحمايتها، كما عين فيها فيكونت ليشرف على مجلس قضاء طبقة البرجوازية وإدارة أملاكها[١٠].

---

[١]- بورتشارد، وصف الأرض، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣٧، ص١٥٥.
[٢]- نهر قديشا: ينبع من قرية بشرى ويمرّ في قضاء البترون، ويدخل مدينة طرابلس حيث يسمّى عند أهل هذه المدينة بأبي علي، ويروون من مائه البساتين، وهو يصبّ في البحر المتوسط عند مدينة طرابلس، ويبلغ طوله ٣٨كيلومتراً. - محمد علي (محمد علي بن محمد توفيق)، الرحلة الشامية، حرره وقدم له: علي أحمد كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٦٢.
[٣]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٧٥.
[٤]- سالم، طرابلس، ص١٤٧.
[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٩.
[٦]- سالم، طرابلس، ص٢٢٠.
[٧]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٧٣، ٣٧٤.
[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٦. - عامر، الصليبيون في فلسطين، ص٣٢،٣٣.
[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٨.
[١٠]- عبد الله (جوزف)، منتخبات التواريخ و الآثار حول عكار والجوار، د.ن، ٢٠١٠م، ص٣٦١.

ج- حصن عكار:

يقع في أقصى جبال لبنان شمالاً ويبعد عن مدينة بيروت ١٣٥كم[١]،- يعد من الحصون التي تبعد عن الساحل، وتلحق به العديد من الأراضي الساحلية، وكان هذا الحصن ملكاً لشخص يدعى بيير دو بويلوران حوالي سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، وشملت هذه الإقطاعية عدة قرى منها: مون كوكول ديراس ديريا - داريا على نهر أبو علي-[٢]، المجدل[٣]، وقد منح هذا الحصن للإسبتارية سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م [٤].

د- قلعة يحمور:

تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة طرطوس، وكانت عبارة عن برج محصن قوي يحيط به سور مستطيل واحد[٥]، وكانت ملكاً لأسرة إقطاعية تدعى مونتوبيو(montopieu)، وفي عهد الكونت ريموند الثاني سلمت لفرسان الإسبتارية بعد أن عوضت الأسرة التي كانت تمتلكها بإقطاع آخر[٦].

هـ- قلعة أنفه:

كان معظمها قائم في البحر تقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس[٧]، ويذكرها الإدريسي باسم"**حصن أنف الحجر**"[٨]، لعل أول مالكيها كان غليوم روستين أو بونز ميدينيس، وقام غليوم بتزويج ابنته من هوغ إمبرياكو الجبيلي الذي حصل على بشمزين[٩] كمهر وبذلك خسر حكام أنفة جزء من إقطاعهم لصالح حكام إقطاعية جبيل[١٠].

---

(١)- مفرج (طوني)، موسوعة قرى ومدن لبنان، دار نوبليس، بيروت، د.ت، ج ١٦، ص ١٤٩.

(٢)- نهر أبو علي: عرف قديماً باسم قديشا ينبع من سفوح غابة الأرز وينحدر إلى أن يدخل مدينة طرابلس فيقسمها إلى قسمين ثم يتجه شمالاً عبر البساتين المحيطة بطرابلس إلى أن يصب في البحر المتوسط.

- سالم، طرابلس، ص ١٠، ١١.

(٣)- عبد الله ، منتخبات التواريخ، ص٢٩٣، ٤٠٨

(٤)- مولرفيز(فولفغانغ)، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٤م، ط٢، ص٦٠.

(٥)- مولر فيز، القلاع، ص ٦٤.

(6)- Daved Nicolle, Adam Hook, Crusader Castles in the Holy Land 1097-1192, Osprey, UK , 2004,P40.

- مولر فيز، القلاع، ص٦٤.

(٧)- بورتشارد، وصف الأرض، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣٧، ص١٥٥.

(٨)- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٢.

(٩)- تقع إلى الجنوب الشرقي من مينة أنفه، وتحتوي في وسطها على بناء يقال أنه كان مركزاً لوكلاء حكام جبيل الصليبيين.

- مفرج، موسوعة قرى ومدن لبنان، ج٣، ص ٢٠٢.

(١٠)- عبد الله ، منتخبات التواريخ، ص ٤١١.

و- البترون:

تقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس، يحدد ياقوت الحموي موقعها بقوله:" **حصن بين جبيل وأنفة على ساحل بحر الشام**"[١]، وقد ذكرت باسم " **بثرون**" في العديد من المصادر العربية الإسلامية[٢]، ووصفها الإدريسي بأنها عبارة عن حصن حسن[٣].

ويعد جوفروا داغو (Geoffroy d'Agout) أول من تولى هذه الإقطاعية[٤]، وتمكن بليبانوس البيزاوي شراء هذا الإقطاع من الكونت ريموند الثاني، وعندما استعاد صلاح الدين الأيوبي البترون بعد معركة حطين، تزوجت ابنة بليبانوس من أحد أبناء بوهيموند الثالث- أمير أنطاكية- وبالتالي أصبح البترون ملكاً لهذا الفرع من البيت الحاكم في أنطاكية[٥].

ز- بارونية مرقية:

يصف ياقوت الحموي قلعة مرقية بقوله:" **قلعة حصينة في سواحل حمص**"[٦]، وتتبع هذه البارونية حصون: الحصن الشرقي وحصن وادي لوش[٧].

ح- إقطاعية جبيل:

استولى الكونت ريموند على مدينة جبيل بمساعدة الأسطول الجنوي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، ونتيجة لذلك كوفئ الجنويون بالحصول على ثلث المدينة[٨]، ثم قام الكونت برتراند بمنحها كاملة كإقطاع لقائد الأسطول الجنوي هيو إمبرياكو من أسرة إمبرياتشي الجنوية، ويبدو أن حكام مدينة جنوى اعترفوا بحكمه مقابل دفع مبلغ سنوي إلى خزينة مدينة جنوى[٩]. ويؤكد ذلك وليم الصوري بقوله: "**وتم استسلام المدينة للقائدين**- الجنويين- **وقام أحدهما وهو هيج إمبرياكوس بتسلمها لأمد محدد بعد الاتفاق على قدر معين من المال يدفع سنوياً للخزينة الجنوية**"[١٠]. واستمرت سلالته في حكم المدينة حتى تم تحرير الساحل الشامي من السيطرة الصليبية[١١]، وممن تعاقب على حكم المدينة لغاية معركة حطين:

- وليم الأول (٥٠٣-٥١٢هـ/١١٠٩-١١١٨م).
- هيو الأول (٥٢١-٥٣٠هـ/١١٢٧-١١٣٥م).
- وليم الثاني (٥٣٠-٥٥٤هـ/١١٣٥-١١٥٩م).

---

[١]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٣٨.
[٢]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٢. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٣٨.
[٣]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٢.
[٤]- عبد الله، منتخبات التواريخ، ص ٤١١.
[٥]- عطية (حسين محمد)، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة ، الإسكندرية، ١٩٨٩م ، ص١٦٣.
[٦]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ١٠٩.
[٧]- سالم، طرابلس، ص ٢١٦.
[٨]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩١. - عامر، الصليبيون في فلسطين، ص٢٩.
[٩]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٧٨.- سالم، طرابلس، ص ١٢٨،١٢٩.- عامر، الصليبيون في فلسطين، ص٤٢.
[١٠]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٨.
[١١]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٠٠.

- هيو الثاني(٥٥٤-٥٨٠هـ/١١٥٩-١١٨٤م)[١].

إلا أن الرحالة الإسباني بنيامين التطيلي - الذي زار بلاد الشام خلال العقد السادس للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي- يذكر بأن حاكم جبيل يدعى يليان إمبرياكو[٢].

وقد شغلتهذه الإقطاعية دوراً هاماً في الصراع بين كونتية طرابلس وإمارة دمشق، إذ قام سادة جبيل بالإغارة على منطقة البقاع سنوات ٥٠٤هـ/١١١٠م، ٥٠٥هـ/١١١٢م، ٥٥٣هـ/١١٥٩م. كما عاشت هذه الإقطاعية تحت حكم أسرة إمبرياتشي حالة من الازدهار الاقتصادي إذ قامت تلك الأسرة بعقد الكثير من الصفقات التجارية مع المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين ومع مدينة جنوة[٣].

ومن المناطق الأخرى التابعة للكونتية:

يذكر الإدريسي بعض المناطق التابعة للكونتية بقوله:" ... **وينضاف إليها عدة حصون وقلاع معمورة داخلة في أعمالها مثل ... وحصن القالمون، وحصن أبي العدس، وأرطوسية ولها من أمهات الضياع المشهورة المذكورة أربعة، فمنها الضيعة المعروفة بالشفيقية والزيتونية والراعبية والحدث وأميون ....**"[٤].

ومن القلاع الأخرى التي تقع شمال طرابلس رأس الحصن، وحصن لوتورس، وبابيية، والحمام [٥]، ومن الإقطاعيات الأخرى بشري، المنيطرة[٦]، صافيتا[٧]، والعريمة[٨].

وبذلك كان جميع بارونات الكونتية منحدرين من سلالة الأتباع التولوزيين باستثناء حكام جبيل والبترون الذين ينحدرون من أصول إيطالية[٩].

ثالثاً- إمارة أنطاكية:

تعد ثاني الإمارات الصليبية التي تأسست في بلاد الشام، فقد تأسست هذه الإمارة على اثر استيلاء الصليبيين على مدينة إنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م، عندما تمكن بوهيموند من الإنفراد في حكمها دون منازعة بقية القادة الصليبيين باستثناء الكونت ريموند ولكن سرعان ما اضطر هذا الأخير إلى مغادرة المدينة أمام إصرار فقراء الصليبيين على مواصلة الزحف صوب بيت المقدس. وبذلك استطاع بوهيموند تأسيس إمارة خاصة بالعناصر النورماندية في بلاد الشام. واستمر العنصر

[١]- عامر(سامية)، الصليبيون في فلسطين " جبيل - لبنان"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٢م، ص ٣٥،٥١،٥٧،٥٨.
[٢]- التطيلي(بنيامين)، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حدّاد، المجمع الثقافي ، أبو ظبي، ٢٠٠٢م ، ص ٢٣٤.
[٣]- عامر، الصليبيون في فلسطين، ص ٤٣،٤٤، ٥١.
[٤]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٧٣.
[٥]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص ٣٧٣.
[٦]- عبد الله ، منتخبات التواريخ، ص ٢٨٣.
[٧]- مولر فيز، القلاع، ص ٦٣.
[٨]- تشرف هذه القلعة على سهل عكار وتشكل جزءاً من منظومة تحصينات تمتد من طرابلس وحتى طرطوس. - مولر فيز، القلاع، ص ٦٥.
[٩]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٥٥.

النورماندي يسيطر على حكم الإمارة إلى أن تولى حكم الإمارة ريمون دي بواتيه، إذ أزيح نهائياً العنصر النورماندي من الشام تحت تأثير الفرنسيين[١].

وعدت مدينة أنطاكية عاصمة لهذه الإمارة والتي امتازت بعظمتها ومكانتها الدينية لدى أتباع الديانة المسيحية، وقد وصفها صاحب يوميات الفرنجة- الذي يعد أحد شهود العيان على استيلاء الصليبيين على المدينة- بقوله:"**... مدينة جميلة رائعة، تحتوي داخل أسوارها على أربعة جبال عظيمة شامخة الذرا، ويقوم على أعلاها حصن حصين منيع قوي البنيان...**"[٢].

وقد اختلف النظام السياسي لهذه الإمارة عما هو سائد في مملكة بيت المقدس، فالسلطة فيها كانت تنتقل عن طريق الوراثة في حين كان تولي السلطة في مملكة بيت المقدس يعتمد على مبدأ الانتخاب، ولم تكن المحكمة العليا في الإمارة تتدخل إلا لتعين وصي على الأمير القاصر فقط[٣].

وعلى الرغم من صغر مساحة هذه الإمارة إلا أن واردات سهولها الخصبة وموقعها البحري الهام جلب عليها المال والرفاهية[٤]، ولكن قربها من حلب مركز الجهاد ضد الصليبيين في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أفقدها هذه الأهمية حيث سخرت جميع ثرواتها لإعداد القوات العسكرية والتصدي لتحركات الجيوش العربية الإسلامية.

وكان تنظيم الإمارة كله مرتبطاً ببعضه البعض بصورة أوثق وأكفا مما كان عليه في الدويلات الصليبية الأخرى، ولو لا الحروب الدائمة، وضآلة شان بعض أمرائها أو وقوعهم في الأسر، لتطورت حكومة أنطاكية بحيث تصبح على نفس القدر من كفاءة حكومة صقلية النورماندية[٥].

١- حدود إمارة أنطاكية:

لم تأخذ حدود إمارة أنطاكية شكلها النهائي إلا في سنة ٥١٣هـ/١١١٩م في عهد الأمير روجر، وامتدت شمالاً من كيليكية متضمنة مدن طرسوس وأذنه والمصيصة، ومن الشرق أراضي كونتية الرها في مرعش فأراضي إمارة حلب مروراً بالمعرة والبارة وكفر طاب حيث كانت الحدود تتغير حسب نتائج المعارك بين العرب المسلمين وصليبي أنطاكية، ثم تنحرف نحو الغرب بمحاذاة أراضي إمارة شيزر وقلاع الإسماعيلية النزارية (الحشيشية)، فيشكل نهر بانياس الذي يفصلها عن كونتية طرابلس الحدود الجنوبية للإمارة، أما حدودها الغربية فشكلها البحر المتوسط وامتد ساحلها من مدينة طرسوس في كيليكية شمالاً ولغاية مدينة بانياس جنوباً [٦].

---

[١]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٣٠.
[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص١٥٧.
[٣]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٥٥. - زابوروف، الصليبيون، ص١٣٢.
[٤]- موسى (تيسير)، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، الدار العربية للكتاب، د.ت، ص٨٦.
[٥]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٨٦.
[6] - Archer, Kingsford, The Crusades, p113.
-Harold s. Fink, The Foundation of the Latin States, p372.
- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣،ص٢٩٢.- يعقوب فيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٣٨.- بورتشارد، وصف الأرض، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣٧، ص١٥٩.- سميث، الإسبتارية، ص٣٠.

وهكذا شملت هذه الإمارة الوادي الأدنى لنهر العاصي والسهل الممتد أمامها مع قسم من جبال الأمانوس[١]، والبهراء، والسماق، وموانئ الإسكندرونة والسويدية واللاذقية[٢]. ولكن سرعان ما شهدت هذه الحدود تغيرات كثيرة؛ نتيجة حركة الجهاد العربي الإسلامي ونشاط نور الدين محمود من جهة، والنشاطات العسكرية للإمبراطورية البيزنطية في منطقة كيليكية. فعلى إثر معركة إنب[٣] سنة ٥٥٤هـ/ ١١٤٩م ومقتل أميرها ريمون دي بواتيه، خسرت إمارة أنطاكية معظم ممتلكاتها الواقعة شرقي نهر العاصي الذي صار الحد الفاصل بينها وبين إمارة حلب[٤].

٢- إقطاعيات إمارة أنطاكية:

قسمت إمارة أنطاكية إلى عدة إقطاعيات، وترأس الأمير قمة الهرم الإقطاعي، ولكن تميزت هذه الإمارة بوقوعها تحت تأثير النظم الإدارية البيزنطية[٥]. فقد سيطر الأمير منذ تأسيس الإمارة على أهم مدن الإمارة والكثير من أراضيها ومن أهمها أنطاكية واللاذقية وجبلة وأفاميا، وكان ضمنياً في منح هبات الأرض فيما عدا المقاطعات الحدودية، وبذلك احتفظ أمراء أنطاكية بحكم مركزي بعكس ملوك بيت المقدس وكونتات طرابلس، ونتيجة لذلك كان أمراء أنطاكية أقوى حكام صليبيين في بلاد الشام من الناحية الإدارية[٦].

وكانت الإقطاعيات النقدية تناسبهم بصورة أفضل، كما عمد أمراء أنطاكية زيادة قوتهم إزاء طبقة النبلاء عن طريق الاعتماد على عدد من الموظفين المحليين، فالمدن والأملاك الخاضعة لسلطة الأمير كانت تدار عن طريق موظف يحمل لقب دوق، وهذا الأخير يعينه أو يفصله الأمير[٧]، ومن الأمثلة عن أولئك الموظفين دوق اللاذقية الذي يدعى مارتن (٥٠٥هـ/١١١١م)[٨]، ورالف دوق مدينة أنطاكية خلال حكم الأمير روجر[٩]، وفي سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م كان يتولى منصب دوق جبلة وليم

---

[١]- جبال الأمانوس: تعرف في العصور الإسلامية باسم جبل اللكام، يذكر الإصطخري أنه يشكل الحد الفاصل ما بين ثغور الجزيرة وثغور الشام، وتمتد هذه الجبال ما بين جبال طوروس شمالاً، ووادي نهر العاصي جنوباً بمحاذاة الساحل الشامي.- الإصطخري، المسالك والممالك، ص٥٦.

[٢]- موسى، نظرة عربية ، ص٨٦.

-Andrew Jotischky, Crusading and the crusader states, Routhle, London and New York, 2013,p69.

[٣]- إنب: يحدد ياقوت الحموي موقعها بقوله:" **حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب...**"،إلا أنها في حقيقة الأمر هي إحدى قرى معرة النعمان، وتقع حالياً ضمن الحدود الإدارية لمحافظة إدلب في الجمهورية العربية السورية.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٢٥٨. - الحلو (عبد الله)، تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية استناداً للجغرافيين العرب، دار بيسان، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص ٨٥.

[٤]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٧.

[٥]- زابورروف، الصليبيون، ص١٣٢.

[٦]- كروسيه (رنيه)، الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ترجمة: أحمد ايبش، دار قتيبة، دمشق، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٠١.

- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٥٥. - سميث، الإسبتارية، ص٣٢.

[٧]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ٣٥٦.

[8]- Thomas Asbridge , The Creation of The Principality of Antioch 1098-1130 , The Boydell Press, Woodbridge,2000, p 156.

[٩]- روجر دي سالرنو تولى حكم أنطاكية بعد وفاة تانكرد سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م، بصفة وصي على الإمارة إلى أن يبلغ بوهيموند الثاني- ابن بوهيموند الأول- سن الرشد، تصدى لخطر الحملة التي قادها برسق، كما تمكن من إلحاق الهزيمة بالعرب المسلمين في معركة دانيث سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م، والاستيلاء على حصون: بلاطنس، صهيون، بكسرائيل، والمرقب، قتل في معركة ساحة الدم سنة ٥١٣هـ /١١١٩م.

- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٣٧- ١٤١.

أوف كورسيبوس ألتيس، بينما تولى منصب دوق اللاذقية ثيوبالد أوف كوريزو[١]، لذا كان لكل من مدن أنطاكية واللاذقية وجبلة دوقها الخاص، وعادة ما يتم اختيار دوق كل من اللاذقية وجبلة من بين السكان الوطنيين، أما دوق مدينة أنطاكية فيختار من العائلات الصليبية ولكن يساعده موظف من أصول محلية يحمل لقب الفيكونت، وتجلت مهام الدوق إدارة الشؤون البلدية وحفظ الأمن [٢]، وربما كان هذا الأمر ينطبق على مدينة السويدية التي تعد الميناء الرئيسي لأنطاكية، وكذلك على إسكندرونة، التي تم الاستيلاء عليها من قبل تانكرد سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م[٣].

لكن في بعض الحالات منحت بعض المدن الأميرية كهبة، أو إقطاع لإحدى الشخصيات المقربة من الأمير، ولعل المثال الأول على ذلك قيام بوهيموند بمنح تانكرد إقطاع واسع من أراضي إمارة أنطاكية مكافأة على جهوده في الحفاظ على الإمارة وتوسيع حدودها في أثناء وقوعه في الأسر، ويورد وليم الصوري ذلك بقوله:" **أراد بوهيموند إظهار تقديره لما أداه تانكرد من الخدمات ومجازاته عليها أحسن الجزاء، فأقطعه وورثته الجزء الأكبر من ذلك الإقليم يتوارثونه خلفاً عن سلف إلى الأبد...**" [٤]. وهذا ما حدث خلال حكم بوهيموند الثاني (٥٢٠-٥٢٥هـ/١١٢٦- ١١٣٠م) الذي منح كل من اللاذقية وجبلة لزوجته آليس- ابنة الملك بلدوين الثاني- كصداق لها، حيث بقيت هاتان المدينتان تحت سلطتها إلى أن توفيت[٥].

وبالإضافة لذلك وأمام احتفاظ القادمين من أوربا بروح الحياة الإقطاعية فقد تم منح العديد من الأراضي والقلاع كإقطاعيات للعديد من الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء الصليبيين، ويمكن القول أن العقد الأول للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي قد شهد تأسيس الأسر الإقطاعية في الإمارة، وبَدْء تطور الهياكل الإدارية لكل إقطاعية[٦].

وكان على الأتباع الذين يحصلون على الإقطاعيات أن يؤدوا نظير ذلك خدمة عسكرية للأمير، بالاشتراك مع عدد معين من الفرسان والمشاة، ففي معركة ساحة الدم في سنة ٥١٣هـ/١١١٩م بلغت قوات أنطاكية ٧٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة[٧]. ولكن نتيجة لمصرع معظم نبلاء الإمارة في تلك المعركة، شهدتإمارة أنطاكية توزيعاً جديداً للإقطاعيات على يد الملك بلدوين الثاني الذي تولى الوصاية على الإمارة، حيث:" **أعطى أنصبة من سقطوا في المعركة لأبنائهم ولمن يمت إليهم بوشيجة قربى ولو بعدت، ... كما زوج الأرامل برجال كرام مساوين لهن في المكانة**" [٨]. وهكذا كانت من نتائج معركة ساحة الدم حدوث تغيير في الأسر الإقطاعية وبالتالي ظهور توزيع جديد للإقطاعيات، وما لبث عدد السادة الإقطاعيين بالتناقص إذ بلغوا خمساً وعشرين سيداً حوالي سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م[٩].

---

[1]-T .S .Asbridge, The Crusader Community at Antioch :The Impact of Interaction with Byzantium and Islam, Transaction of the Royal Historical Society, 6th Ser, Vol 9, London, 1999, p314,315.

[٢]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٥٦.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٤٧.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤١.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥.

- الزنكي (جمال محمد حسن)، تطلع المرأة الصليبية للسلطة وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – الحولية ٢٩، ٢٠٠٨م، ص ٤٠.

[6] - Asbridge , The Creation of The Principality , p 157.

[٧]- ماير، الحروب الصليبية، ص ١١٧.- عطية، إمارة أنطاكية، ص١٥٩، ١٦٠.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٥٧.

[9]- Asbridge , The Creation of The Principality , p 155.

وإلى جانب المدن الخاضعة للسيطرة المباشرة للأمير، ضمت الإمارة العديد من الإقطاعيات إلا أنها كانت صغيرة إذا ما قورنت بإقطاعيات مملكة بيت المقدس، ومن تلك الإقطاعيات التي تقع على ساحل البحر المتوسط أو بالقرب منه:

أ- المرقب:

تقع في المنطقة الساحلية الجنوبية لإمارة أنطاكية، يصف الإدريسي موقع حصنها بالقول:" **حصن المرقب وهو على جبل منحاز من كل ناحية وبين حصن المرقب وإنطرسوس ثمانية أميال ومن حصن المرقب إلى مدينة بلنياس- بانياس الساحل- ثمانية أميال**"[١]، وتمكن الأمير روجر من الاستيلاء عليها سنة ٥١١هـ/١١١٧م من مالكها المدعو ابن محرز، وسرعان ما منحها كإقطاع لأسرة مازوار (Mansoer) / (Mazoir)[٢] ، وكانت قلعة المرقب هي أول ما يشاهده القادم إلى الشام من جهة البحر مما جعل لها موقعاً هاماً بالنسبة للصليبيين[٣]. ووصفها بورتشارد بقوله:"... **هذه القلعة مطلة على مدينة بانياس، وعلى بعد فرسخ واحد عن البحر، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع جداً**"[٤].

وضمت هذه الإقطاعية كل من قلعة المرقب ومدينة بانياس والمناطق المحيطة بها، ومن أوائل حكام هذه الإقطاعية اللورد رينالد مازوار الذي كان أحد القادة الصليبيين الناجيين من القتل في معركة ساحة الدم[٥]، والذي عهد إليه الملك فولك بإدارة إمارة أنطاكية على إثر القضاء على تمرد الأميرة آليس وسعيها للسيطرة على مقاليد الحكم في أنطاكية دون ابنتها- كونستانس- الوريثة الشرعية في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م[٦]. وخلف رينالد ابنه رينالد الثاني الذي ارتبط بعلاقة مصاهرة مع بونز كونت طرابلس فقد تزوج ابنة هذا الأخير[٧]، وقد ازدهرت في عهده إقطاعية المرقب، كما امتلك نوع من البلاط الصغير-تشبهاً بأمراء أنطاكية-ضم ناظراً للقصر وما يقارب بين ٦-٧ إقطاعيين تابعين له وكاتباً وناظراً لأملاكه من أصل محلي، وبقيت قلعة المرقب وإقطاعها بيد سلالة رينالد الأول إلى أن قام برتراند بن رينالد الثاني ببيع قلعة المرقب ومدينة بانياس وما يقارب ثلاثة أديرة و١٩ قرية إلى فرسان الإسبتارية مقابل ٢٢٠٠ قطعة ذهبية بيزنطية سنوياً في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م؛ وذلك نتيجة لعدم قدرته على صد غارات القوات العربية الإسلامية[٨].

ب- كيليكية:

تمتلك إطلالة على الساحل الشامي، ويضم هذا الإقليم العديد من المدن من أهمها: المصيصة، أذنة، طرسوس[٩]، وفي أثناء زحف الحملة الصليبية الأولى صوب أنطاكية قام كل من تانكرد وبلدوين الأول بفرض السيطرة الصليبية على مدن منطقة كيليكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وأبقوا فيها

---

(١)- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ٢، ص ٦٤٤.

(٢)- موسى، نظرة عربية، ص٩٧.- مقامى، فرق الرهبان، ص٨٢. - مولر فيز، القلاع، ص ٧٢.

(٣)- مقامى، فرق الرهبان، ص٨٢.

(٤)- بورتشارد، وصف الأرض، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣٧، ص١٥٩.

(٥)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٥١.

- Asbridge , The Creation of The Principality, p161.

(٦)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٩. - رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٢.- الزنكي، تطلع المرآة الصليبية، ص٤٣.

(٧)- سالم، طرابلس، ص١٥٢.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٢٥.

(٨)- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٢٥. موار فيز، القلاع، ص ٧٢.

(٩)- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج، ص ٦٤٦، ٦٤٧.

حاميات صليبية[١]. وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م بعد الاستيلاء على أنطاكية اتجه بوهيموند الأول إلى كيليكية فاستولى على مدن طرسوس، والمصيصة، وآذنة وعين عليها ولاة من قبله[٢]، وبذلك أصبحت تابعة بشكل مباشر لحاكم إمارة أنطاكية، ولكن ما لبثت الإمبراطورية البيزنطية أن استعادتها.

وأضحت كيليكية تعد منطقة صراع بين إمارة أنطاكية الصليبية والإمبراطورية البيزنطية، فقام تانكرد في ٤٩٥هـ/١١٠١م بمهاجمة كيليكية، واستطاع الاستيلاء على مدن طرسوس والمصيصة وأضنة[٣]، إلا أن الإمبراطورية البيزنطية تمكنت من الاستيلاء على مدن كيليكية بسهولة سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م[٤]، ثم شهدت المنطقة صراعاً عليها بين البيزنطيين وصليبيي أنطاكية و الأمراء الأرمن في كيليكية.

وسعى بوهيموند الثاني في سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م لدعم سلطة أنطاكية على هذه المنطقة؛ بهدف جعلها عائقاً أمام مخططات الإمبراطورية البيزنطية لإعادة السيطرة على أنطاكية، إلا أن بوهيموند الثاني لقي مصرعه على أيدي غازي بن دانشمند الذي كان يهدف للسيطرة على كيليكية أيضاً، وأدى ذلك إلى إثارة أطماع الإمارات المجاورة لاقتطاع بعض ممتلكات الإمارة، فقام ليو الأرمني حاكم سيس[٥] بالاستيلاء على ممتلكات أنطاكية في كيليكية سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م[٦]، وعند تولى ريمون دي بواتيه حكم أنطاكية أخذ يسعى لاسترداد تلك الممتلكات، وحقق بعض النجاح إذ تم تعيين ابن ليون الأرمني حاكماً لكيليكية كتابع لأمير أنطاكية[٧] إلا أن تحرك الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنيين لفرض نفوذه على كيليكية، وأنطاكية سنة ١١٣٧/٥٣١م حال دون تحقيق أهداف ريمون، فتمكن الإمبراطور البيزنطي من السيطرة على كيليكية، وبذلك غدا أمير أنطاكية تابعاً للإمبراطورية البيزنطية، ولكن ريمون قام بغزو كيليكية عند وفاة الإمبراطور يوحنا سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م ولكن ما لبثت الإمبراطورية أن استعادتها، وأكدت سيطرتها على كيليكية وإخضاع إمارة أنطاكية مرة أخرى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م [٨].

ومن الأمراء الإقطاعيين الصليبيين - التابعين لأمير أنطاكية- الذين حكموا كيليكية قبل سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م غي لو شيفريويل (Guy Le Chevreuil)[٩]، ويلاحظ عدم احتواء المصادر للعديد من أسماء الأسياد الإقطاعيين الصليبيين؛ وربما مرد ذلك نظراً لعدم ثبات سلطة صليبيي أنطاكية عليها.

---

[١]- توديبود، تاريخ الرحلة، ص ١١٦-١١٧.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٣٤.- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ١٠٢-١٠٣.

[٢]- فولتشر اوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٨.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١١٢.- زابوروف، الصليبيون، ص١٠٨- ١١٠.

[٣]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٦٥- ٦٦.

[٤]- آنا كومنين، الألكسياد،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٦٤- ٦٩.

[٥]- **" بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس ..."**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ٢٩٧.

[٦]- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٤٣، ١٤٤.

[٧]- الزنكي، تطلع المرآة الصليبية، ص٤٩.

[٨]- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٤٦، ١٤٨، ١٥٤.

[9] -T. S. Asbridge, The Crusader Community At Antioch, p. 311.

رابعاً - ممتلكات الكنيسة في الساحل الشامي:

بما أن الصبغة الدينية هي التي كانت سائدة بين عناصر الحملة الصليبية الأولى، فقد حظيت الكنيسة اللاتينية ورجالها على العديد من الممتلكات والهبات التي قدمت لها من قبل أمراء الكيانات الصليبية، ولعل من أوائل تلك الأملاك منح الكونت ريموند نصف مدينة البارة التي استولى عليها سنة٤٩١هـ/١٠٩٨م إلى الأسقف بطرس النربوني[١]، وكذلك قام الصليبيون عقب استيلائهم على مدينتي اللد والرملة بتعيين روبرت أوف روان أسقفاً عليهما، كما منحوه المدينتين وما يتبعهما[٢].

وما إن تأسست الكيانات الصليبية حتى قام الغزاة بتعيين بطريركيين لاتينيين في كل من بيت المقدس وأنطاكية، واستولى رجال الكنيسة الأوربيون على الأوقاف الإسلامية، والأملاك التي تخص الكنائس المسيحية الشرقية[٣]، كما أخذ الإقطاعيون الصليبيون الذين لهم مصلحة في مساندة الكنيسة بتقديم الهبات للكنائس ولرجال الدين، ومع مرور السنوات صارت الكنيسة تشكل قوة اقتصادية وإقطاعية كبيرة، هذا الأمر دفع إلى إصدار قانون في مملكة بيت المقدس يمنع بيع الإقطاع إلى الكنيسة في محاولة لكبح عملية انتقال ملكية الكثير من العقارات إلى الكنائس[٤]، ولكن ذلك لم يغنَ عن شيء إذ بقيت الأراضي تقدم كهبات للكنائس ورجال الدين، إذ حصلت كنيسة القيامة لوحدها في المنطقة المحيطة ببيت المقدس على ما يقارب سبعين قرية من خلال المنح والهبات المقدمة من ملوك بيت المقدس والأمراء الإقطاعيين في المملكة[٥].

وبذلك أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعي السائد بين صليبيي الشرق، إذ تكونت طبقة إقطاعية تألفت من رجال الدين، وترأس هذه الطبقة الإقطاعية كل من بطريركي بيت المقدس وأنطاكية اللذين يعدان السيدان الإقطاعيان الكبيران لجميع رجال الدين في الكيانات الصليبية، ثم يليهما رئيس الأساقفة في كل أسقفية، فرئيس كل كنيسة أو دير، وقد قسمت الإقطاعيات التي حازتها الكنيسة إلى نوعين هما: أ- الإقطاعيات النقدية ب- الإقطاعيات العينية.

أ- الإقطاعيات النقدية:

تتمثل بحصول الكنائس والأديرة على دخل مالي سنوي ثابت يقدم من قبل مختلف القطاعات والمؤسسات في الكيانات الصليبية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قيام الأمير باليان آمر (كونستابل) يافا بمنح كنيسة القديس يوحنا في سبسطيه[٦] العائد السنوي لخمس قرى تابعة له[٧].

---

[١]- ريمون دي جيل ، تاريخ الفرنجة ، من خلال الموسوعة الشامية ، ج٦، ص٢٣٦.
[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٢.
[٣]- زابوروف، الصليبيون، ص ١٥١. - محمد ، سيد، الكنيسة، ص ١١٥
- السّاحلي (نعيمه عبد السلام)، الاستيطان الفرنجي وتأثيره في البيئة السّياسّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة للكيانات الصليبية في فلسطين واالسّاحل الشّامي، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٣٦١.
[٤]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٣٧.- زابوروف، الصليبيون ، ص ١٥١.
[٥]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٨٣.
[٦]- سبسطيه: هي **" بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان ... وهي من أعمال نابلس "**.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ١٨٤.
[٧]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٤٨، ١٤٩.

ب- الإقطاعيات العينية:

تتمثل بالعقارات والأراضي التي حصلت عليها الكنائس من ملوك وأمراء الكيانات الصليبية والإقطاعيين وأفراد الطبقة البرجوازية، ولم تكن جميع تلك الإقطاعيات متساوية من ناحية القيمة والمساحة[١]، فقد تنوعت تلك الممتلكات ما بين الأراضي الزراعية ذات المساحات الشاسعة، والكروم، والحدائق، وعقارات، وأبنية، مثل المنازل، الحمامات، الطواحين، الأفران ... وغيرها.

وكان رجال الدين في الإقطاعيات الكنسية يمنحون بعض من الأراضي الزراعية، وبعض الأراضي غير الصالحة للزراعة إلى المستوطنين القادمين من أوربا من أجل زراعة القسم الأول ، واستصلاح القسم الثاني[٢].

كما لابد من الإشارة إلى أن الكنائس امتلكت بعض المدن كإقطاع خاص بها مثل مدن اللد والرملة والبارة، كما شاركت السلطة الزمنية في السيادة على بعض المدن وخير مثال على ذلك احتفاظ كنيسة القيامة ببيت المقدس بملكية ربع مدينة يافا لمدة ثمانية عشرة سنة إلى أن منحها الملك بلدوين الأول للسيد الإقطاعي هوغ الأول أوف بوزيه.

ومن الممتلكات العينية للكنسية والتي تقع على الساحل الشامي:

١- في مملكة بيت المقدس:

امتلكت الكنائس والأديرة في مملكة بيت المقدس العديد من الممتلكات، التي قدمت لها من قبل الملوك وأتباعهم، ولعل أولها كما أشرنا سابقاً حصول الكنيسة على مدن اللد والرملة، ومن أهم الكنائس والأديرة التي امتلكت حصة الأسد من تلك الممتلكات والهبات، هي كنيسة القيامة، ودير القديسة مريم، ومن الممتلكات الكنسية في المملكة:

بعد تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية سرعان ما طالبت الكنيسة اللاتينية الحصول على مدينتي بيت المقدس ويافا، وأمام إصرار البطريرك ديمبرت على تحقيق مطالب الكنيسة، تنازل الأمير جودفروي عن ربع مدينة يافا لكنيسة القيامة بحضور رجال الدين وحشد من الناس، وتم ذلك في ١٨ ربيع الأول ٤٩٣هـ/ ٢شباط ١١٠٠م[٣]، ويقال أيضاً أن هذا التنازل شمل برج داوود وبقيت مدينة بيت المقدس[٤] وعلى إثر ذلك احتفظت كنيسة القيامة بملكية هذا الجزء من مدينة يافا لنحو ثمانية عشر سنة، حيث قام الملك بلدوين الثاني باسترداد المدينة من يد الكنيسة، ومنحها لقريبه هوغ الأول، ولكن لم يعن تولي هوغ الأول حكم يافا إنهاء للمطالب الكنسية بمدينتي بيت المقدس ويافا، فسرعان ما تجددت هذه المطالب عند تولى ستيفن كرسي بطريركية بيت المقدس (٥٢٣-

[١]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٥٠.

[٢]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٤٧٥.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٧٣.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٦٧. - محمد، سيد، الكنيسة، ص٨٠.

[4]- Alan V. Murray, Daimbert of Pisa, the Domus Godefridi and the Accession of Baldwin I of Jerusalem/ From Clermont to Jerusalem, The Crusades and Crusader Societies 1095-1500, International Medieval Research Selected Proceedings of the International Medieval Congress University of Leeds, edited by Turnhout, Brepols, 1998, p 84.

٥٢٥هـ/١١٢٨-١١٣٠م) بل طالب أيضاً بملكية مدينة عسقلان التي كانت لا تزال بيد الخلافة الفاطمية [(١)].

وعلى إثر قيام الملك بلدوين الأول بتأسيس أسقفية بيت لحم - بعد مشاورات مع بابا روما بسكال[(٢)]- سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م منح أسقفها وخلفائه ملكية بيت لحم، كما أقطعه خمس قرى كان من بينها قرية البيدر التي تقع في نطاق الممتلكات الملكية في عكا، وقريتين في أراضي عسقلان التي لم تكن قد سقطت بيد الصليبيين بعد وهما زوفير وكيكفا[(٣)]، إضافة لقريتي كوكبه[(٤)] والسواقير الشرقية[(٥)]، ولم يكتف بذلك بل أعلن السماح للنبلاء والفرسان التابعين له **" في أن يتنازل عن بعض ما يملك لهذه الكنيسة ذاتها من أجل خلاص روحه وأرواح أقاربه فإنني أمنحه الحرية في تنفيذ وصيته الطاهرة، وتعتبر هبته هذه نافذة شرعاً، وتؤخذ من أملاكه "**[(٦)]، ويبدو أن رجال الكنيسة استغلوا هذا التفويض الذي منحه الملك لأتباعه بالتنازل عن أملاكهم، فحصلوا على العديد من العقارات والأملاك.

وفي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م منح رهبان دير القديسة مريم أرض تبلغ مساحتها أربع كاريوكات[(٧)] في مدينة يافا واثنان في مدينة عكا وقام الملك بلدوين الثاني بتأكيد هذه المنح في سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م. وفي سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م قام الملك بلدوين الثاني على إثر الاستيلاء على مدينة صور بمنح كنيسة القيامة بستاناً يقع في مواجهة ساحل البحر وكذلك قرية ديرنيا[(٨)]، وهذه المنحة تعد من أولى الأملاك التي منحت للكنيسة ورجال الدين في منطقة صور التي كانت تخضع للسيطرة العربية الإسلامية سابقاً.

كما منح الملك بلدوين الثاني لدير القديسة مريم في وادي جوسفات، قريتي بيت فيلا (Beth Fella)، وساردانس (Sardans) الواقعتين ضمن مقاطعة صور سنة٥٢٥هـ/١١٣٠م، كما منحه منزلاً في كل من مدينة عكا وقرية كسيرا، وبستاناً بجوار مدينة صيدا، إضافة لفرن وطاحونة وبستاناً وقطعة من الأرض وعدة منازل في مدينة بيروت ومنطقتها[(٩)].

وهكذا حظيت المؤسسات الكنسية باهتمام ملوك بيت المقدس الذين قدموا لها العديد من المنح والامتيازات، كما اهتموا بتدوين تلك المنح في السجلات الملكية وبحضور عدد من النبلاء ورجال المملكة في محاولة منهملجعل هذه الحشود شهوداً على خلفائهم لعدم التعدي على تلك المنح والهبات. ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على توثيق المنح المقدمة من قبل السادة الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس.

---

(١)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٧.- محمد، سيد، الكنيسة، ص٨٨.
(٢)- تسلم باسكال منصب البابوية بعد وفاة البابا أوربان الثاني في أواخر سنة ٤٩٣هـ /١٠٩٩م، دخل في صراع مع أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، توفي سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م.
- عاشور، أوربا، ص ٣٢٠- ٣٢٢.
(٣)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٨٥،٢٨٦.
(٤)- كوكبه: تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة غزة.- الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢، ص ٢٥١.
(٥)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٧٥.
(٦)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٨٦.
(٧)- الكاريوكا: هي وحد قياس استخدمت لدى الصليبيين، وكانت تستعمل على أساس أنها وحدة إدارية تخدم الأغراض الضريبية، والكاريوكا نوعان:
أ - غير رسمية وتعادل الفدان العربي الذي يساوي أربعة دونمات، أي ما يعادل أو يزيد عن أربعة ألاف متر مربع.
ب- رسمية:تساوي خمسة وثلاثين هكتاراً (أي ٣٥٠٠٠٠م^{٢})، ما يعادل ٣٥٠ دونماً.
- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٤٦٨.
(٨)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٨٢.
- لم يتم الوقوف على موقع القرية من خلال المعاجم الجغرافية.
(٩)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٥٤، ١٧٨، ١٨٧.

كما لم يكن تقديم المنح والهبات لمؤسسات الكنيسة حكراً على الملوك، بل امتدت للسادة الإقطاعيين والنبلاء. ففي سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م قام تانكرد بمنح دير القديسة مريم في وادي جوسفات العديد من الممتلكات، تمثلت بحصن يقع في مدينة حيفا، إضافة لعدد من المنازل والأشجار، وطاحونة، ومخبزاً تقعان بالقرب من الحصن[١].

كما قام يوستاس جارونييه بمنح دير القديسة مريم العديد من الممتلكات في بارونية صيدا وإقطاعية قيسارية سنة ٥٠٩هـ/١١١٩م ، ومنها: قرية كفر مجدا في صيدا بالإضافة لمنزل في مدينة صيدا، وقرية بيت الله في إقطاعية قيسارية، ومنزل في مدينة قيسارية، وقد قام الملك بلدوين الأول بالتأكيد على هذه المنح، ثم قام في عهد الملك بلدوين الثاني بمنح كنيسة القيامة نصف قرية فياس التي تقع ضمن نطاق إقطاعية قيسارية[٢] .

كما قام فيكونت عكا ليتاردس(Letardus) بمنح الدير نفسه عدة عقارات تقع في قرية الزيب تمثلت بقطعة أرض وحقل زيتون وحديقة ومنزل سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م. وبقيت هذه العقارات بيد دير القديسة مريم إلى أن استرجعها الملك بلدوين الثالث سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م؛ كنتيجة لتسوية الخلافات بين الملك بلدوين الثالث ورهبان الدير على أراض وعقارات تقع في منطقة تبنين وقرية فيلا – في منطقة صور-[٣]. وفي السنة ذاتها أهدى كونت يافا هوغ الثاني دير القديسة مريم جامع عسقلان الكبير حيث أسست كاتدرائية القديس بولس[٤].

وفي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧هـ قام باليان كونستابل يافا بمنح دير القديسة مريم في وادي جوسفات ثلث جاستينا[٥](Gastina) في زوينا[٦] بينما منح الأجزاء المتبقية لأتباعه[٧]، كما حصلت كنيسة القيامة على ست كاريوكات في إقطاعية حيفا سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م- منحت من قبل روجر الحيفاوي-[٨].

ورغم الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة في مملكة بيت المقدس إلا أن هذا الآمر لم يعن إعفاء ممتلكاتها من الالتزامات تجاه الدولة، إذ توجب على الكنيسة تقديم قوات من الرجالة كقوات احتياطية.

٢- في كونتية طرابلس:

كان للكنيسة أملاكها الخاصة في الكونتية، ويبدو أن أولى المنح التي قدمها كونتات طرابلس للكنائس والأديرة، تعود للكونت ريموند الذي قام في سنة٤٩٧هـ/ ١١٠٣م بمنح دير القديسة مريم في وادي جوسفات قطعة أرض تحت حصن جبل الحُجاج[٩]، لتشييد كنيسة هنالك إضافة إلى قرية ومطحنة وفرن وحقل في الجوار.

---

(١)- البيشاوي، الممتلكات، ص ١٩١.- أبو عون، إقطاعية حيفا، ص ٦٦.
(٢)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٩٢،١٩٣.
(٣)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٩٦،١٩٧،١٩٣.
(٤)- ماير، الحروب الصليبية، ص١٦٣.
(٥)- جاستينا هي لفظة لاتينية تستعمل للدلالة على الأراضي البور أو المشاع وهذا المصطلح يماثل في اللغة العربية كلمة"الخربة".- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٥٧.
(٦)- لعلها خربة زوينيتا التي تقع للغرب من قرية معليا في قضاء عكا حالياً.- الدباغ، بلادنا، ج٧، ق٢، ص٤٢٠.
(٧)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٥٨.
(٨)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٤٦٨.
(٩)- القلعة التي بناها الكونت ريموند بجوار مدينة طرابلس، وقد تحدثنا عنها سابقاً.

كما منح الكونت بونز قرية علما لكنيسة مار يوحنا في جبل الحجاج في سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، بينما حصلت كنيسة بيت لحم على قرية سرفتيني[١] قبل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، أما كنيسة جبل الطور في الجليل فقد حصلت على قرية بيتساموم[٢] قبل سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م. كما قام العديد من الأمراء والسكان الصليبيين المقيمين في الكونتية بتقديم الكثير من الهبات للكنائس والأديرة، ومن الأمثلة على ذلك، قيام أحد النبلاء بمنح كنيسة القيامة مزرعة في قرية المجدل قبل سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، كما منحت قرية عبدين لكنيسة القيامة[٣].

ويعتقد أن كونت طرابلس كان يحتفظ ببعض الحقوق على أراضي الكنيسة، إذ كان يتدخل في القرارات الدينية؛ وربما مرد ذلك إلى قيام كونتات طرابلس بإقطاع رجال الدين بعض أملاكهم[٤].

٣- في إمارة أنطاكية:

إن المعلومات على ممتلكات الكنيسة في إمارة أنطاكية قليلة ومن تلك المنح حصول دير السيدة القديسة مريم في وادي جوسفات - في مملكة بيت المقدس- على بعض الممتلكات في مدينة المصيصة من قبل غي لو شيفريويل السيد الإقطاعي لكيليكية، وقد قام الأمير روجر حاكم أنطاكية بتأكيد تلك المنح[٥]. وكذلك أكد المنح التي قدمها روبرت ليتور للدير نفسه في سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م[٦].

خامساً- ممتلكات المدن الإيطالية على الساحل الشامي حتى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

شهدت الحروب الصليبية نشاطاً مهماً لأساطيل المدن الإيطالية في الاستيلاء على المدن الساحلية في بلاد الشام، إلا أن هذه الخدمات التي قدمتها للصليبيين لم تكن دون مقابل، فسرعان ما أخذت تفرض شروطها للاشتراك في حصار المدن الشامية، وكان من أهم شروطها الحصول على أحياء ومتاجر في المدن التي تم الاستيلاء عليها، أو تلك التي ستشارك في الاستيلاء عليها، إضافة للامتيازات التجارية والإعفاءات الضريبية، مما أدى لتواجد جاليات إيطالية في المدن الساحلية تمتعت بالعديد من الميزات القضائية إذ امتلك رعايا المدن الإيطالية محاكمهم الخاصة، وبذلك تمتعت أملاك المدن الإيطالية في ساحل بلاد الشام بالاستقلال الذاتي في إدارة شؤونها، وبعبارة أوضح كانت عبارة عن دولة مستقلة داخل الكيانات الصليبية[٧]، وفي الحقبة المبكرة من الوجود الصليبي على الساحل الشامي، لم تكن ممتلكات المدن الإيطالية تزد عن كونها عبارة عن قواعد مؤقتة للنشاط الاقتصادي ومراكز تجارية، أكثر من كونها مناطق للاستيطان الدائم[٨]. وقد توزعت هذه الممتلكات بصورة رئيسة على ثلاث مدن إيطالية هي: جنوى، بيزا، البندقية.

---

(١)- لم يتم التعرف على موقعها من خلال المعاجم الجغرافية.
(٢)- لم يتم التعرف على موقعها من خلال المعاجم الجغرافية.
(٣)- عبد الله، منتخبات التواريخ والآثار، ص٢٨٥، ٤٠٤-٤٠٧ .
(٤)- سالم، طرابلس، ص ٢١١.
(5) -T. S. Asbridge, The Crusader Community At Antioch, p. 311.
(6)- Samuel James Wilson, The Latin Principality of Antioch and Its Relationship with the Armenian Kingdom of Cilicia, 1188-1268, A thesis submitted in partial fulfilment of the requirements of Nottingham Trent University for the degree of Doctor of Philosophy,2016, p43.
(٧)- كروسيه، الحروب الصليبية، ص١٠٥. - براور، الاستيطان، ص١١٠.
(٨)- براور، الاستيطان، ص ١١٤.

١- ممتلكات مدينة جنوى:

شغلت مدينة جنوى دوراً كبيراً خلال الحروب الصليبية إذ ساهمت في الاستيلاء على معظم مدن الساحل الشامي، وما تخلل ذلك من قيام البحارة الجنويين ارتكاب المجازر بحق سكان كل مدينة أسهموا في الاستيلاء عليها، ولم يكن إسهامهم في الحروب ضد العرب المسلمين جديداً إذ أسهموا في الحقبة السابقة للحروب الصليبية في العديد من الهجمات على الأراضي العربية الإسلامية في غرب البحر المتوسط وشمال إفريقية، ولكن الجديد في مساهمتها في الحروب الصليبية على بلاد الشام، هو سعيها للحصول على الكثير من الميزات الاقتصادية، والأملاك العقارية في جميع مدن الساحل الشامي مستغلة ضعف القدرات البحرية للكيانات الصليبية الناشئة، وحاجتها لمساعدات بحرية للاستيلاء على المدن الساحلية، وهكذا حصلت جنوى على العديد من الممتلكات والأراضي في بلاد الشام وهي:

أ - في إمارة أنطاكية:

تعد مدينة جنوى من أوائل المدن الإيطالية التي انخرطت في الأعمال القتالية ضد العرب المسلمين في أنطاكية والمناطق المحيطة بها، ففي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م انطلقت من مدينة جنوى اثنتا عشرة سفينة حربية صوب بلاد الشام، تمكنت من الاستيلاء على ميناء السويدية (سان سيمون) القريب من مدينة أنطاكية، وبذلك استطاعت جنوى من تأسيس أول مستعمرة لها على ساحل بلاد الشام، و ظل هذا الميناء تحت سيادة الجنويين المباشرة بالرغم من وجوده ضمن حدود إمارة أنطاكية[١]. وعلى ما يبدو أن السويدية أصبحت القاعدة الرئيسة للتواجد الجنوي في ساحل بلاد الشام خلال السنوات الأولى للتواجد الصليبي في المنطقة، ويظهر ذلك بشكل جلي بعد مشاركة الأساطيل الجنوية في الاستيلاء على المدن الساحلية، فسرعان ما تعود إلى السويدية لتقاسم الغنائم، كما حدث عند الاستيلاء على مدينة قيسارية سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م[٢]، كما أن ابن القلانسي يعطي إشارة إلى ذلك خلال حديثه عن سقوط مدينة بيروت سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م بقوله:" **وأنفذ الملك** - بلدوين الأول- **إلى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم....**"[٣].

وبعد استيلاء بوهيموند على أنطاكية والمناطق المحيطة بها احتاج إلى قوة بحرية تحميه من الهجمات البحرية البيزنطية، فضلاً عن سعيه للبحث عن حليف يسانده أثناء صراعه مع الكونت ريموند حول مدينة أنطاكية، لذا سعى للتحالف مع جنوى التي تمتلك أقوى أسطول أوربي يتواجد في شرق البحر المتوسط. فقام في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م بمنح الجنويين ثلاثين منزلاً وكنيسة وسوقاً ونافورة في مدينة أنطاكية، وذلك مقابل تعهدهم بمساعدته ضد كل من يحاول الاستيلاء على المدينة [٤].

[١]- ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ج١، ص١٤٧.

[٢]- الكناني (مصطفى حسن محمد)، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى ٤٨٨- ٥٦٧هـ/ ١٠٩٥- ١١٧١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١م، ص٢٠٩.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٨.

[٤]- هايد،تاريخ التجارة، ج١، ص ١٤٨. - الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ١٣٩،١٤٠.

-Alethea Wiel, The Navy Of Venice ,E. P .Dutton and company ,New York,1910, p75.

وفي سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م تحالف تانكرد مع الأسطول الجنوبي المتواجد على سواحل بلاد الشام في الاستيلاء على مدينة جبلة[١]، ولابد بأن الجنويين قد حصلوا لقاء ذلك على حي في المدينة وفضلاً عن بعض الامتيازات التجارية، كما قام كل من تانكرد وبوهيموند الثاني بالتأكيد على المنح التي قدمت للجنوية من قبل أسلافهم ممن حكموا إمارة أنطاكية[٢].

ب- مملكة بيت المقدس:

ساهم مقاتلو جنوى في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م إذ سخروا كل خبراتهم في صنع أدوات الحصار لخدمة القوات الصليبية، وكان لهذا أثر في حصول الجنويين على العديد من الامتيازات في المملكة الناشئة، وفي سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م حصلت جنوى على حي سكني وسوق تجاري فضلاً عن كنيسة في كل من مدينتي أرسوف وقيسارية؛ نتيجة لمشاركة قواتها في احتلال المدينتين[٣]، ووصف فولتشر ذلك بقوله:"**... كما يحق لأهل جنوى أن يمتلكوا إلى الأبد، وبشكل شرعي وموروث حيا في أي مدينة يتم الاستيلاء عليها...**"[٤].

ونتيجة للاتفاق الذي وقع بين ممثلي جنوى والملك بلدوين الأول في سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م والمتعلق بتنظيم عمليات الهجوم على مدينة عكا، حصلت جنوى عند سقوط المدينة بيد الصليبيين على حي وسوق تجاري وكنيسة خاصة بالجالية الجنوية، فضلاً عن ثلث عائدات ميناء عكا، وحصلت على إعفاء من الضرائب، وتم تعيين ممثلٍ لجنوى في تلك الممتلكات[٥]. كما وهبهم الملك بلدوين الأول حياً في كل من مدينتي بيت المقدس ويافا، وتعهد بأن يمنحهم حياً في كل مدينة يستولي عليها بمساعدتهم[٦]. وقد شكل امتلاك جنوى لأجزاء من مدينة عكا مكسباً تجارياً هاماً لها، وبخاصة بأن ميناء عكا يعد من أهم الموانئ التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فضلاً عن كونه مركزاً لتصدير البضائع القادمة من الهند والصين. كما حصلوا على أحد أحياء مدينة بيروت سنة٥٠٤هـ/١١١٠م؛ نظراً لجهودهم في الاستيلاء عليها[٧].

ج- في كونتية طرابلس:

ساهم الأسطول الجنوي بتقديم المساعدة للكونت ريموند للاستيلاء على مدينة طرطوس في سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م[٨]، وبما أن مقاتلي جنوى لا يقدمون خدماتهم عادة دون مقابل، فلا بد بأن جنوى قد حصلت مثل العادة على حي من أحياء المدينة المستولى عليها.

---

[١]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٣، ١٥٤.
[٢]- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٦٢.
[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص ٣٩٤.- الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٨.
[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة ،" من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص ٣٩٤.
[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٧. - الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣.
[٦]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٢.
[٧]- الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص٢٣٩.
[٨]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٥٢، ١٥٣.

كما امتلكت جنوى ثلث مدينة جبيل على إثر استيلاء الكونت ريموند عليها بمساعدة الأسطول الجنوي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م [١]، ثم قام الكونت برتراند بمنحها كاملة كإقطاع لقائد الأسطول الجنوي هيو إمبرياكو من أسرة إمبرياتشي الجنوية كمكافأة على وقوف أسطول جنوى إلى جانبه خلال الصراع مع وليم جوردان، وبذلك أصبحت المدينة مستعمرة جنوية، كما أصبحت أسرة إمبرياكو عبارة عن أسرة إقطاعية يتوزع ولاؤها الإقطاعي بين كونت طرابلس ومدينة جنوى الإيطالية. واعترف حكام مدينة جنوى بحكمه للمدينة مقابل دفع مبلغ سنوي إلى خزينة مدينة جنوى[٢]. إلا أن سلطة عائلة إمبرياكو لم تكن مطلقة، بل شاركها في حكم المدينة مجلس يتألف من سبعة أمراء يرأسه أحد أفراد أسرة إمبرياكو[٣]، واستمرت مدينة جبيل على هذا الوضع حتى تم تحرير الساحل الشامي من السيطرة الصليبية[٤]. ولكن حكام جبيل سعوا دائماً لقطع الارتباط مع المدينة الأم جنوة، وكان وليم الثاني أخر من التزم بدفع الأموال لمدينة جنوى[٥].

كما استغلت جنوى الصراع القائم على تركة الكونت ريموند في الشرق، فمدت يد العون لبرتراند بن ريموند ضد وليم جوردان الذي خلف ريموند في قيادة البروفانسيين في القسم الأوسط من الساحل الشامي، كما ساعدته في الاستيلاء على مدينة طرابلس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، ونتيجة لذلك منحها حياً من أحياء مدينة طرابلس كان يقارب ثلث مساحتها الإجمالية[٦]، بالإضافة إلى حصن يقع إلى الجنوب من طرابلس[٧]، والجزر الواقعة قبالة ميناء المدينة[٨]، ولكن على ما يبدو بأن برتراند لم يفِ بوعده هذا فسرعان ما طرد الجنويون من القسم المخصص لهم داخل مدينة طرابلس[٩]، كما حصلوا على قصر يقع بين نيقين والبترون[١٠].

كما امتلكت كنيسة سان لوران- التي تقع في مدينة جنوى- بعض الأراضي بظاهر مدينة عرقة[١١]خلافاً لسعيها الدائم للحصول على ممتلكات تشرف على الساحل الشامي مباشرة.

٢- ممتلكات مدينة بيزا:

أ- في إمارة أنطاكية:

حصلت بيزا في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م على حي في مدينة أنطاكية، وعلى شارع الأعمدة وكنيسة في مدينة اللاذقية، وإعفائهم من الضرائب في موانئ ومدن إمارة أنطاكية [١٢]، ولكن ما لبث روجر حاكم أنطاكية أن قام بمصادرة هذه الممتلكات بعد سنوات قليلة، ويبدو أنه كان على بيزا

---

[١]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩١. - عامر، الصليبيون في فلسطين، ص٢٩. - الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص٢٢٠.

[٢]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٧٨.- سالم، طرابلس، ص١٢٨،١٢٩،١٤٧.- عامر، الصليبيون في فلسطين، ص٤٢.- الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص٢٢٠،٢٣٤.

[٣]- التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ص ٢٣٤.

[٤]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٠٠.

[٥]- عامر، الصليبيون في فلسطين، ص٥٨،٥٧.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٢.- سالم، طرابلس، ص ١٤٧. - الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ٢٣٤.

[٧]- سالم، طرابلس، ص١٤٧. - الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص٢٣٤.

[٨]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٣.

[٩]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦١.

[١٠]- الكناني، العلاقات بين جنوه والفاطميين، ص ٢٣٤.

[١١]- سالم، طرابلس، ص٢٢٠. - عبد الله، منتخبات التواريخ، ص٣٦١،٣٦٢.

[١٢]- عبد الله، منتخبات التواريخ ، ص٢٧٩. - هايد ، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٨.

الانتظار حتى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م كي يمنحوا ممتلكات جديدة في أنطاكية واللاذقية[١]. وقام بوهيموند الثالث بتجديد المنح المقدمة للبيزيين سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٢].

ب- في مملكة بيت المقدس:

في صيف ٤٩٣هـ/١٠٩٩م أرسلت مدينة بيزا إلى بلاد الشام حملة بحرية كبيرة بقيادة الأسقف ديمبرت، وشاركت هذه الحملة بوهيموند في حصار مدينة اللاذقية الخاضعة للسيطرة البيزنطية للاستيلاء عليها ولكن دون جدوى، ثم اتجهت الحملة إلى المناطق الخاضعة لمملكة بيت المقدس، ونظراً لانشغال الدوق غودفروي في تنظيم الدولة والكنيسة، وعدم اهتمامه في تلك السنة بشن عمليات عسكرية، فقد اكتفى البيزيين بتقديم العون في تحصين كل من بيت المقدس ويافا، وكذلك في فرض الأسقف ديمبرت كبطريرك لبيت المقدس، ونتيجة لذلك حصل ديمبرت على حي في مدينة يافا في سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م، وهذا الأمر دفع بعض المشاركين في الحملة البيزية للإقامة فيها[٣]، وبذلك لابد بأن مدينة يافا أصبحت من أهم مراكز استقرار مواطني بيزا في الساحل الشامي.

كما حصلت من قبل الملك بلدوين الثاني على خمسة منازل في مدينة صور، وخلال القرن الثاني عشر الميلادي أضافوا إلى هذه الممتلكات عن طريق الشراء أو الهبات عدة منازل وأراضي وطواحين وأسواق وكنائس، ومنها حصولهم على قطعة أرض في عكا منحهم إياها الملك عموري الأول لبناء كنيسة خاصة بهم وبعض الدور[٤].

وهكذا يمكن القول أن مدينة بيزا اقتصرت ممتلكاتها في الساحل الشامي على مدن إمارة أنطاكية ويافا فقط.

٣- ممتلكات مدينة البندقية:

على ما يبدو أن مدينة البندقية كانت آخر المدن الإيطالية الثلاثة في الحصول على عقارات وممتلكات في مدن الساحل الشامي، فقد تأخر اشتراكها بشكل رسمي إلى حوالي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، وذلك بعد إدراكها للامتيازات التي حصلت عليها مدن جنوى وبيزا في الساحل الشامي، والاستفادة من المكاسب المالية الناتجة عن نقل الجنود والحجاج المسلحين من أوروبا إلى بلاد الشام.

أ- في مملكة بيت المقدس:

تذكر بعض المصادر التاريخية مساهمة أسطول بندقي في الاستيلاء على مدينة صيدا سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م [٥]، ومقابل هذه المساهمة كوفئ البنادقة بالحصول على أملاك وحقوق كثيرة في مدينة عكا[٦]، ولكن هنا يطرح تساؤل لماذا لم يمنح البنادقة عقارات في مدينة صيدا، أم أن ذلك كان

---

(1)- Wilson, The Latin Principality of Antioch, p66.

(٢)- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٦٢.

(٣)- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٤٩.

(٤)- هايد ، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٥)- الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ٢٤١.

(٦)- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٤.

- ولكن أليثيا ويل تذكر بأن تلك الممتلكات التي منحت للبنادقة قد تمركزت في مدينة صيدا.

- Alethea Wiel,The Navy Of Venice, p83.

بناء على طلبهم لكي لا تترك مدينة البندقية مجالاً لجنوى للاستفراد بتجارة الشرق، وخاصة أن مدينة عكا تعد من أهم الموانئ التجارية في شرقي البحر المتوسط.

وبعد ذلك لم يظهر لمدينة البندقية أي دور عسكري مهم في الحروب الصليبية لمدة تقارب ثلاثة عشر عاماً، إلا أن طلبت مملكة بيت المقدس العون منها للاستيلاء على مدينة صور أو مدينة عسقلان ، ويبدو أن البندقية حاولت الاستفادة من ذلك للحصول على بعض المكتسبات على الساحل الشامي، مستغلة انشغال منافستيها جنوى وبيزا في الصراع فيما بينهما في غرب المتوسط.

وبالفعل قدم الأسطول البندقي إلى بلاد الشام وتمكن من مساعدة صليبيي بيت المقدس في الاستيلاء على مدينة صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، وكان القادة البنادقة قد فرضوا شروطهم مقابل هذا العون، إذ حصلوا على ثلث المدينة وثلث المناطق الريفية المحيطة بها، ولم يكتفوا بذلك بل سعوا للحصول على مكتسبات تجارية، وعقارية في جميع المدن التابعة للمملكة رغم عدم مساهمتهم في الاستيلاء عليها، فكان يجب في كل مدينة تابعة للملك أو أحد أتباعه أن يوضع بأيدي البنادقة شارع، وميدان، وكنيسة(١). ولكن يبدو بأن هذا الأمر بقي دون تنفيذ يذكر(٢).

ب- في إمارة أنطاكية:

اقتصرت ممتلكات البندقية في إمارة أنطاكية بعد استيلاء الصليبيين على مدينة أنطاكية على مستودع وكنيسة وبعض المنازل، كما أن هناك إشارات لامتلاك البنادقة بعض العقارات في إمارة أنطاكية، فقد قام كل من بوهيموند الأول، وتانكرد، وبوهيموند الثاني بتقديم المنح لهم ولكن للأسف فقدان الوثائق منع التعرف على المواقع والعقارات التي حصلوا عليها(٣).ومن الأمثلة على ما حصلوا عليه من ممتلكات، قام ريمون دي بواتييه حاكم أنطاكية بمنح رعايا البندقية حديقة وبعض المنازل في مدينة أنطاكية في سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م(٤).

ج- في كونتية طرابلس: فقد كانت ممتلكاتهم قليلة فيها فحصلوا على بعض الممتلكات سنة ٥١١هـ/١١١٧م، من بينها بيت في الميناء منحهم إياه الكونت بونز(٥)، وعلى ما يبدو بأن تحالف مدينة بيزا مع أمراء أنطاكية - وبخاصة في عهد بوهيموند وتانكرد - والذين كانوا على عداء مع الكونت ريموند الرابع، وابنه برتران حرم رعايا بيزا الإيطالية من الحصول على ممتلكات لها في أراضي الكونتية.

(١)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٧٩.- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٥. – رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٩٩.

- Alethea Wiel,The Navy Of Venice, p90,91.

(٢)- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦٠.

(٣)- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٦٢.

(4)- Wilson, The Latin Principality of Antioch, p66.

(٥)- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦٢.

وفي نهاية الحديث عن ممتلكات المدن الإيطالية الثلاث (جنوى- بيزا - البندقية)لابد من الإشارة إلى أن بعض المدن الإيطالية الأخرى كأمالفي، وبعض مدن جنوبي فرنسا قد حصلت على ممتلكات لها في المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية. فمدينة مرسيليا الفرنسية حصلت من قبل الملك بلدوين الثالث على حق امتلاك شارع وكنيسة وفرن في مدينة بيت المقدس، وجميع المدن الساحلية التابعة لمملكة بيت المقدس[١]. ولكن لم ينفذ هذا الأمر وبخاصة أن مرسيليا لم تسهم بأي عمل عسكري يدعم المملكة.

أما مدينة أمالفي فقد اقتصرت ممتلكاتها على بعض العقارات التي حصلت عليها قبل الحروب الصليبية، فاستمرت في امتلاك حي في مدينة أنطاكية، كما حصل رعايا أمالفي على بعض البيوت في اللاذقية من قبل بوهيموند الثالث سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، وعلى دار وسوق في مدينة طرابلس[٢]، ويبدو بأنهم لم يحصلوا على الكثير من الامتيازات على إثر نجاح الصليبيين في السيطرة على الساحل الشامي؛ يعود ذلك لعدم مساهمتهم العسكرية في الحملة الأولى، والاستيلاء على الموانئ الشامية، نتيجة لانشغالهم في الصراع مع النورمان الذين سيطروا على المناطق الجنوبية من إيطاليا، بما فيها مدينة أمالفي إلى أن تمكن الأمالفيون من التمرد على السيطرة النورماندية أثناء زحف الحملة الصليبية الأولى، وهذا الأمر دفع النورمان للاعتماد على مدينة جنوى في الحصول على الدعم البحري[٣].

وعلى ما يبدو أن حصول المدن الإيطالية على الكثير من الممتلكات، والعقارات، والامتيازات التجارية داخل نطاق الكيانات الصليبية، أثار الصليبيين سواء الحكام أو أتباعهم، لذا حاولوا منع رعايا تلك المدن من شراء المزيد من العقارات، وبخاصة أن تلك الممتلكات صارت عبارة عن دولة داخل دولة، إذ تمتعت بالحكم الذاتي، نتيجة لتعين الجمهوريات الإيطالية (جنوى- بيزا – البندقية)حكاماً يمثلوها في تلك الأحياء، وسرعان ما ازدادت اختصاصات هذا الشخص، وغدا ممثلاً لبلاده لدى الكيانات الصليبية[٤]. وخير مثال على ذلك ما حدث على إثر الاستيلاء على مدينة جبيل سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، حيث اختارت السلطة الحاكمة في جنوىممثلاً عنها لحكم الجزء المخصص لها في المدينة، فكان " هيو إمبرياكو"[٥]، الذي أمسى فيما بعد سيداً على جميع أنحاء المدينة والمناطق المحيطة بها، وبالتالي أصبح من جهة يتبع السلطة الحاكمة في مدينة جنوى، ومن جهة أخرى تابعاً لحاكم كونتية طرابلس.وتكرر هذا الأمر بأن صار بعض الإيطاليين أتباعاً للحكام الصليبيين، كما حدث عند الاستيلاء على مدينة صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، فقد حصلوا على ثلث المدينة وريفها[٦]، وبالمقابل فرض عليهم الملك بلدوين الثاني تقديم عدد من الفرسان عن تلك الممتلكات[٧].

---

[١]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٥٩.

[٢]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦٠. – عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٦٣.

- الحناوي (مصطفى محمد)، العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام، مكتبة الرُشد ناشرون، د.ت ، ص٢١٠، ٢١١.

[٣]- الحناوي، العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين، ص٢٠٦.

[٤]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦٩، ١٧٠. - رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٢.

- أحمد (أحمد عبد الله)، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٦م، ص ٤٠، ٤١.

[٥]- عامر، الصليبيون، ص ٢٩.

[٦]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة " من خلال الموسوعة الشامية "، ج٦، ص٥٠٦. - وليم الصوري، تاريخ الحروب ، ج٢، ص٢٨٣، ج٣، ص٤٣.

[٧]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٦٩.

ومن الأمثلة على تعيين ممثلين للمدن الإيطالية في الكيانات الصليبية، تعيين لانفرانكو دي البيركو (Lanfranco di Alberico) سفيراً لمدينة جنوى في إمارة أنطاكية سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م[١]، وكذلك تعين قنصلاً يمثل بيزا في مدينة أنطاكية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٢].

وهكذا يمكن القول: إنَّ نصيب كل مدينة تجارية إيطالية من الممتلكات، والعقارات على الساحل الشامي، كان يتناسب طرداً مع مدى الإسهام العسكري التي قدمته تلك المدن الإيطالية للاستيلاء على مدن الساحل الشامي، فجنوى أسهمت في الاستيلاء على معظم المدن الساحلية، لذا كانت ممتلكاتها تنتشر في جميع المدن الساحلية التي تتبع الكيانات الصليبية المطلة على البحر المتوسط، في حين اقتصرت ممتلكات بيزا بشكل رئيس على مدن إمارة أنطاكية؛ نتيجة تحالفها مع تانكرد في قتال البيزنطيين، مع بعض الممتلكات القليلة في مملكة بيت المقدس، أما مدينة البندقية التي كانت أخر المدن الإيطالية اشتراكاً في الحروب الصليبية فقد اقتصر انتشار ممتلكاتها بشكل رئيسي على الأراضي التابعة لمملكة بيت المقدس.

سادساً- ممتلكات نظام الفرسان الرهبان على الساحل الشامي لغاية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

شهدت بلاد الشام خلال الحروب الصليبية ظهور فرق من الفرسان الذين كرسوا أنفسهم في بداية الأمر لتقديم الخدمات الخيرية للحجاج القادمين إلى فلسطين، ولكن سرعان ما تطور الدور الذي تقوم به تلك الفرق إلى المساهمة في الأعمال العسكرية الصليبية، ومن أهم فرق الفرسان الرهبان: الإسبتارية، الداوية، فرسان القديس العازر. ويعود تأسيس الإسبتارية والداوية إلى العقد الأول للاستقرار الصليبي في بلاد الشام، أما فرسان القديس لعازر في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، في حين تأخر تأسيس فرقة التيوتون – أو الاعتراف بها كهيئة مستقلة عن الإسبتارية - لسنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م.

أ- الإسبتارية:

قام عدد من سكان أمالفي الإيطالية بتأسيس نزل أو مشفى في بيت المقدس لإيواء فقراء الحجاج القادمين من أوربا حوالي سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، وكان سيد هذا النزل عند استيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس يدعى جيرار[٣]، ويبدو أن مهمة هذه المنظمة منذ نشأتها ولغاية بداية العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كان ذا طابع خدمي، وفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م حظيت الإسبتارية باعتراف البابا بسكال الثاني الذي وضعها تحت الرعاية المباشرة للبابوية، وثبت ملكية الإسبتارية على الأراضي التي حصلت عليها، وتمتعها بضريبة العشر، كما حرر انتخاب مقدم الإسبتارية من التدخل الخارجي[٤]. وهكذا يمكن القول بأن هيئة الإسبتارية أصبحت عبارة عن هيئة مستقلة عن الكنيسة، كما منعت البابوية الأمراء الصليبيين من التدخل في أمورها.

وما أن تولى قيادة هذه الهيئة ريموند أوف لوبوي(٥١٢-٥١٤هـ/ ١١١٨-١١٢٠م) حتى رأى بأن الإسبتارية يجب ألا تكتفي بإرشاد الحجاج وإيوائهم، وإنما يجب أن تشارك في القتال من أجل تأمين طرق الحج التي تمتد بين الساحل وبيت المقدس[٥].وبذلك تحولت الإسبتارية من هيئة خيرية

---

[1]-Wilson, The Latin Principality of Antioch, p66.

[٢]- عبدالله، منتخبات التواريخ، ص ٢٧٩.

[٣]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٨٨.

[٤]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢٤.- سميث، الإسبتارية، ص٤٧.

- مقامى، فرق الرهبان، ص١٤.

[٥]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ١٨٨. - كروسيه، الحروب الصليبية، ص١٠٠.

تهدف لرعاية فقراء الحجاج المسيحيين إلى منظمة عسكرية ساهمت في الاستيلاء على الأراضي العربية الإسلامية.

ب- الداوية (فرسان الهيكل):

تأسست هذه المنظمة على يد تسعة من الفرسان قدموا من أوربا، وكان من أبرزهم هيو دي باين، وجودفروي دي سنت أومير وذلك سنة ٥١٢هـ/١١١٨م[١]، وتمثلت غاية هذه المنظمة في بداية الأمر بحماية طرق الحج، وتوفير الأمن للحجاج مابين ميناء يافا، ومدينة بيت المقدس[٢]، ويصف وليم الصوري مهامهم بقوله: **"وكانت مهمة هذا التنظيم الرئيسية ... هي أنه يجب عليهم أن يبذلوا ما تسعفهم به طاقاتهم لحفظ المسالك والدروب العامة، وجعلها آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق[٣]، مع بذل العناية الخاصة لحماية الحجاج"**[٤]، وبذلك كانت منذ نشأتها ذات طابع عسكري تمثل في قمع المقاومة الشعبية ضد القادمين من الغرب الأوربي .

وقد حظيت هذه الطائفة من الفرسان باهتمام الملك بلدوين الثاني، فمنحهم مقراً مؤقتا لسكناهم كان يقع في جزء من المسجد الأقصى الذي اتخذ قصراً للملوك الصليبيين، ونتيجة لذلك تسموا بفرسان المعبد، وفي سنة ٥٢١-٥٢٢هـ/١١٢٧- ١١٢٨م خلال المجمع الديني الذي عقد في تروي بفرنسا منحها البابا أونوريوس الثاني(٥١٨- ٥٢٥هـ /١١٢٤-١١٣٠م) نظامها الخاص، و حق ارتداء اللباس الأبيض، ومن ثم أضيف إليه الصليب الأحمر[٥].

وبذلك تحولت مهمة فرسان الداوية من الحفاظ على أمن قوافل الحجيج كما تدعي المصادر الصليبية إلى المشاركة في الحملات العسكرية ضد المناطق الخاضعة للإمارات العربية الإسلامية المجاورة.

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٤٥. - الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ٩٠. - رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٨٩.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٢٢.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٤٥.- زابوروف، الصليبيون، ص٩٤. - رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٨٩.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٢٢.

[٣]- سعى المؤرخون والكتاب الصليبيون لوصف المقاومة الشعبية لتواجدهم باللصوصية والنهب؛ وذلك في محاولة منهم لتبرير استيلائهم على الأراضي العربية الإسلامية، ولتجميل أعمال القتل والمجازر التي ارتكبوها بحق السكان العرب.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٤٥.

[٥] - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٤٦،٣٤٥. – فيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٩٠،٩١.

- هوراث (ستيفن)، فرسان الهيكل، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٥٨،٥٩

- تذكر مقامى بأن مقدم الداوية هيو دي باين قد سافر إلى أوربا لطلب النجدة بناء لتوجيهات الملك بلدوين الثاني سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، وحضر مجمع تروي الديني الذي أقر فيه النظام الداخلي لفرسان الداوية.- مقامى، فرق الرهبان، ص١٨،١٩.

ج- هيئة فرسان القديس لعازر[1]:

تأسست في وقت مبكر من الاستقرار الصليبي في مدينة بيت المقدس، ولا يعرف تاريخ دقيق لتأسيسها، إذ ليس هناك الكثير من الوثائق أو السجلات الخاصة بالهيئة، فقد تعرض معظمها للضياع، ويمكن القول أن تأسيس هذه الهيئة قد مر بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: تمثلت بتأسيس نزل لاستضافة من يأتي إلى مدينة بيت المقدس من الفقراء والمصابين بالجذام، وتم ذلك في عهد الملك بلدوين الأول[2]، وبعد ذلك تم بناء كنيسة خاصة بهم، لكنها تتبع لكنيسة القيامة واستمر ذلك لبداية عهد الملك فولك[3].

- أما المرحلة الثانية: فقد تمثلت بتأسيس المشفى لعلاج المصابين بالجذام، والتي وصفها الرحالة فيتلوس بقوله:**" أما الميوزكوميون- Muscomion - أي المشفى، فهو المكان الذي يجمع المرضى من الشوارع والقرى ويعتنى بهم، ويوجد خارج أسوار القدس، فيما بين برج تانكرد وباب القديس ستيفن محطة لإيواء المجذومين"**[4]. وفي مرحلة تالية تحول المشفى إلى جماعة عسكرية، ربما في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي[5]. وكان شعار فرسان هذه الهيئة عبارة عن صليب له ثمانية رؤوس ملونة بالأخضر، عليه صورة البيت الذي عاش فيه القديس لعازر[6].

وقد حازت هذه الهيئات الدينية على الكثير من الهبات، التي تنوعت ما بين الضياع وأراضي وأسواق ومواشي، وخلال العقد الرابع من القرن الثاني عشر الميلادي استفادت الهيئتان من ضعف الحكام الصليبيين؛ على إثر قلة الموارد الإقطاعية بضياع الكثير من المناطق، وتعرض الكثير من الإقطاعيات للهجوم المستمر من قبل القوات العربية الإسلامية، مما دفع العديد من الحكام والأمراء الصليبيين لبيع أو التنازل عن ممتلكاتهم من الأراضي الزراعية والقلاع، إلى الهيئات العسكرية للتخلص من مهمة الدفاع عنها، وبالتدريج ازدادت ممتلكات الهيئات الدينية وأصبحت تمثل دولة داخل الدولة ، وبهذا أضحت الهيئتان تعدان طبقة إقطاعية هامة امتلكت الكثير من القلاع، والحصون، والإقطاعيات في بلاد الشام وأوربا، فضلاً عن قدرتها على تسيير الجيوش[7]، ويؤكد ذلك وليم الصوري خلال حديثه عن فرسان الداوية بقوله:**" ويقال أنه كانت لهم أملاك شاسعة، سواء على هذا الجانب من البحر أو فيما وراءه، ولا توجد ولاية في العالم المسيحي اليوم إلا وتمنح جزءاً من ممتلكاتها لهؤلاء الأخوان، حتى ليقال أن ما أصبحوا يملكونه يعادل ما عند الملوك من الثروات والأموال ..."**[8].

---

[1]- سميت الهيئة بذلك نسبة إلى القديس لعازر الذي يحتل مكانة بارزة في الفكر الديني المسيحي، إذ قام النبي عيسى عليه السلام بإعادته إلى الحياة بعد أن مات. – الدويكات، هيئة فرسان لعازر، ص ١٢٠.

[2]- دويكات، هيئة فرسان القديس لعازر، ص ١١٥.

- زكار(سهيل)، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٣٣، ملحق التنظيمات العسكرية الدينية، ص ٢٥٠.

[3]- الدويكات، هيئة فرسان القديس لعازر، ص ١١٦.

[4] - فيتلوس، وصف الأرض ،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٣١، ص ٣٧٤.

[5]- براور، عالم الصليبيين، ص١٤٩.

[6]- زكار، الموسوعة الشامية، ملحق التنظيمات العسكرية الدينية، ج٣٣ ، ص ٢٥٠. - الدويكات، هيئة فرسان القديس، ص ١٢٠.

[7]- كاهن(كلود)، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، مصر، ١٩٩٥م، ص ٢٢٣.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٨٣. - مقامي، فرق الرهبان، ص٢٦، ٢٧.

[8]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٤٦.

كما أشار إلى ذلك الرحالة فوزربورغ عند حديثه عن فرسان الداوية بقوله:" **تمتلك هذه الجماعة ملكية كبيرة، ولها مصادر دخل لا تحصى**"[١]، وبذلك أصبحت بما تمتلكه من أملاك وقلاع تشكل مصدر قوة لفرض إرادتها على الدول الصليبية. كما كانت لهم سياسات خارجية خاصة بهم دون الرجوع إلى حكام الكيانات الصليبية، بل فرضوا على هؤلاء الحكام عدم عقد أية معاهدات مع العرب المسلمين دون موافقة فرسان الهيئات الدينية العسكرية[٢].

وفضلاً عن ذلك قامت هذه الهيئات بتشييد العديد من القلاع في الممتلكات التي تقع في الأرياف، لتكون بمثابة مقرات لإدارة تلك الممتلكات.

لذلك كان لابد من التعرف على الممتلكات التي حصلت عليها الهيئتان والتي تقع على الساحل الشامي:

١- ممتلكات الإسبتارية:

أ- في كونتية طرابلس:

كانت تعد كونتية طرابلس من أضعف الكيانات الصليبية في بلاد الشام، فقد تعرضت ممتلكاتها وبخاصة الشمالية منها لهجمات القوات العربية الإسلامية بشكل مستمر، وخير مثال على ذلك قيام نور الدين محمود بغزو الكونتية والتنقل في مناطقها الشمالية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، وقد وصف ابن الأثير ذلك بقوله:" **فاجتازوا على حصن الأكراد، فأغاروا، ونهبوا، وقصدوا عرقة، فنازلوها، وحصروها، وحصروا حلبة، وأخذوها، وخربوها، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً ، تغير وتخرب البلاد، وفتحوا العريمة وصافيتا ...**"[٣]، ونتيجة لهذا الوضع المتردي قام حكام كونتية طرابلس في العقد الثالث من لقرن السادس الهجري / العقد الرابع من القرن الثاني عشر الميلادي ببيع أو تأجير قلاعهم وإقطاعياتهم لفرسان الإسبتارية، ولكن لابد من الإشارة إلى أن الإسبتارية قبل أن تتحول إلى هيئة ذات طابع عسكري قد حظيت بالكثير من الهبات، التي شكلت فيما بعد أساسا لممتلكاتها في كونتية طرابلس ومن أهم تلك الممتلكات التي تقع في المنطقة الساحلية هي:

تعود أقدم ممتلكات الإسبتارية في كونتية طرابلس إلى سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، فقد منحهم الكونت ريموند قطعة أرض أسفل جبل الحجاج (جبل أبي سمراء) لبناء كنيسة خاصة بهم، ثم اتسعت أملاك هذه الهيئة في عهد خلفاء الكونت ريموند، ففي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م منحها الكونت برتران العديد من الكنائس والطواحين في المنطقة التي تقع بين مدينتي طرابلس والبترون. ثم منحت في عهد الكونت بونز في سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م نزلاً في جبل الحجاج، والعديد من القرى في ظاهر مدينة طرابلس حتى بلدة علما، ومنها قرية مجدليا مع كل أراضيها وتوابعها، كما منحوا قرى بحنين وكورانية، والقليعات، وأروات، والسنديانة، وأبيا وسيكا[٤] وغيرها. وكذلك منحوا قرية جليات- إلى الشمال من طرابلس-، ومنزل في ميناء طرابلس والعديد من الممتلكات في معظم مدن الكونتية[٥].

---

[١]- فورزبورغ ، وصف الأراضي المقدسة، ص٥٢.
[٢]- براور، عالم الصليبيين، ص١٤٦.
[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٣٠.
[٤]- لم يتم الوقوف على مواقع هذه البلدات في المعاجم الجغرافية.
[٥]- عبد الله، منتخبات التواريخ ، ص٢٨٥، ٢٨٨، ٢٩٠، ٣٥٢،٣٥٣، ٤٠٥.
- سالم، طرابلس، ص٢١٤.

إذ تضمنت وثيقة سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ذكر العديد من الممتلكات التي منحت للإسبتارية منها: منازل وحقلاً، وكرم عنب، وفرناً في منطقة عرقة،ومنزلاً في منجر، ومنزلين وكرم عنب في حصن الأكراد، والعديد من الممتلكات في مدينة طرطوس، كما أكد الكونت بونز على كل المنح التي قدمها والده وجده في منطقة رفينة، ولكن أهم ما تضمنه تلك الوثيقة هو سماح الكونت لأتباعه أن يهبوا للإسبتارية ما تحت أيديهم من ممتلكات[١]. ويبدو بأن الكونت اضطر لهذا الأمر في سبيل تخفيف النفقات المالية الناتجة عن نقص الأراضي الزراعية بسبب تعرضها للهجوم من قبل القوات العربية الإسلامية.

ولكن ممتلكات الإسبتارية شهدت توسعاً كبيراً في الربع الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وبخاصة خلال حكم الكونت ريموند الثاني؛ ويعود ذلك لعدة عوامل أهمها على الإطلاق عدم قدرة قوات الكونتية التصدي لغارات القوات العربية الإسلامية التي استنفذت القوى العسكرية والاقتصادية للكونتية، فمن الناحية العسكرية أدت لمقتل خيرة رجالها وقادتها، ومن الناحية الاقتصادية أدت إلى تخريب المناطق الزراعية والعديد من القلاع، ففي سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م تعرضت المناطق الشمالية من الكونتية لغزو القوات العربية الإسلامية التي ألحقت ضرراً كبيراً بتلك المناطق[٢]، كما شهدت السنة الأولى من حكم ريموند الثاني قيام عماد الدين زنكي حاكم حلب بغزو أراضي الكونتية، وحصاره لقلعة بعرين مما اضطر الكونت ريموند للتوجه لمساندة قواته المحاصرة، إلا أنه وقع أسيراً بيد عماد الدين زنكي ثم أطلق سراحه ، كما استولى العرب المسلمين على قلعة بعرين[٣].

ونتيجة لذلك سعى حكام الكونتية للتخلص من أعباء التصدي للعرب المسلمين، فتم منح العديد من القلاع والإقطاعيات لهيئة فرسان الإسبتارية، فقام الكونت ريموند الثاني في الفترة الواقعة بين ٥٣٧-٥٣٩هـ/ ١١٤٢-١١٤٤م بإقطاعهم المناطق التي تتعرض للغارات العربية الإسلامية فتخلى عن جميع حقوقه في رفنية، وبعرين اللتين سقطتا بيد العرب المسلمين، وبعض أعمال رفنية التي كانت ما تزال تحت سيطرته، وحصن الأكراد، وحصن البقيعة، وعدد من الحصون عند مصب نهر الكبير الجنوبي، وهي حصون تحمي الطريق الممتد من عرقة إلى وادي نهر العاصي[٤].

كما منحهم الكونت ريموند الثاني قلعة يحمور التي كانت من أملاك أسرة مونتوبيو(montopieu)، التي منحت مقابل ذلك تعويضاً مقداره ٤٠٠ بيزنت[٥]. كما منحت الإسبتارية عدد من القرى التابعة لمدنية طرطوس والممنوحة للإسبتارية كانت قرية نوبيا (سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م)[٦].

---

[١]- عبد الله، منتخبات التواريخ، ص٣٥٣،٣٥٤ ، ٣٦١.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٨٠.

[٣]-ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٠٧.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص١٣٦-١٣٨، ١٤٥. - سالم، طرابلس، ص٢١٤.

- بعرين: هي " **بليد بين حمص والساحل** ...". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج١، ص ٤٥٢.

[٤]- سميث، الإسبتارية، ص٥٨،٥٩.- سالم، طرابلس، ص٢١٤،٢١٥.

-Adrian J .Boas, Archaeology of the Military Orders, Routledye, 2006, p103.

[5] - Nicolle, Hook, Crusader Castles, P40.

[٦]- عبد الله، منتخبات التواريخ، ص ٢٩٦.

ومن بين القلاع الأخرى التي امتلكتها الإسبتارية: قلعة صافيتا، والتي منحت لهم في أواخر العقد السادس من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وتمتعت هذه القلعة بموقع جغرافي هام يضمن سهولة الاتصال مع جميع القلاع المجاورة[١].وفضلاً على ذلك فقد حصل فرسان الإسبتارية على الكثير من الامتيازات مثل الإعفاءات المالية.

وهكذا بدأت أملاك الإسبتارية تبدو كدولة مستقلة داخل كونتية طرابلس. واستمرت عملية منح إقطاعيات الكونتية إلى الإسبتارية، ففي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م قام بارون مرقية بمنحهم الحصن الشرقي وحصن وادي لوش[٢]، كما ساهمت الكوارث الطبيعية في دفع الكيانات الصليبية فيما بينها كونتية طرابلس إلى تسليم وبيع الكثير من القلاع والأراضي لفرسان الهيئات العسكرية، حيث شهدت سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م تعرض بلاد الشام لعدة زلازال أدث لتخريب عدة مدن وقلاع بلاد الشام بما فيها تلك الخاضعة للصليبيين، ووصف ذلك ابن الأثير بقوله:" **وأما بلاد الفرنج فإن الزلازل أيضاً عملت بها كذلك، فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفاً من نور الدين عليها، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفاً من الآخر"**[٣]. كما وصف وليم الصوري أوضاع مدينة طرابلس إثر هذا الزلزال بقوله:"... **ضرب زلزال عنيف فجأة مدينة طرابلس الكبيرة المزدحمة بالسكان، جاء تقريباً على كل من كان وراء أسوارها، واستحالت معه المدينة كلها إلى أكوام من الحجارة ،وأصبحت مقبرة جامعة لمن هلك من سكانها "**[٤]، وبسبب هذه الظروف الطبيعية والخوف من استغلال نور الدين محمود لذلك الضعف الذي دب في أركان الكونتية، وعدم توفر الموارد المالية اللازمة لإعادة اعمار المناطق المتضررة، فقد قام الملك عموري الوصي على الكونتية في أثناء أسر ريموند الثالث بمنح الإسبتارية قلعتي عرقة، وعكار اللتين دمرهما زلزال سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، كما منحها كامل حقوق الكونت بالسيادة وخدمات الفرسان التابعين لتلك القلاع ، كما تعهد الملك باقناع ريموند الثالث بالتأكيد على هذا الاتفاق عند إطلاق سراحه[٥].

أما ممتلكات الإسبتارية في إقطاعية جبيل فيعود تاريخ أقدمها إلى سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م وقد قدمت من قبل اللورد هيو[٦].

ويبدو بأن الهبات المقدمة لهم لم تقتصر على تلك التي يقدمها حكام طرابلس والأمراء التابعين لهم بل امتدت إلى رجال الدين، إذ منحهم أسقف طرابلس على عدة كنائس في كونتية طرابلس[٧].

كما حصلوا على العديد من الممتلكات على شكل هبات من قبل الطبقات الإقطاعية الدنيا، ومن الأمثلة على ذلك، قيام شخص يدعى بيتر أوف بورغايرول وزوجته بمنح الإسبتارية قطعة أرض بموافقة روجر كونستابل كونتية طرابلس، وذلك قبل سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م[٨]، وكذلك قيام سيدة تدعى

[١]- مولر فيز، القلاع، ص٦٣.
[٢]- سالم، طرابلس، ص٢١٦.
[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٣.
[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص١٢٩.
[٥]- سميث، الإسبتارية، ص٦٩،٧٠.- عبد الله، منتخبات التواريخ، ص٢٩٣،٢٨٦، ٣٦٢ .
- مولر فيز، القلاع، ص ٦٠.
[6] - Paul L .Sidelko , The acquisition of The Land estates of the Hospitallers in the Latin east 1099-1291, submitted in conformity with the requirements for the degree of Doctor of Philosophy Graduate Department of History, University of Torento, Canada, 1998,P213.
[٧]- سميث، الإسبتارية، ص٣٨٤.
[8] - L .Sidelko , The acquisition of The Land estates , p 44.

أرميسند كاسترو نوفو بمنحهم منازل ومزرعتين في منطقة صافيتا، هما كافاريك - كفرون زريق- ، فيلارا (fellara)- سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م[١].

ب- في مملكة بيت المقدس:

ما إن تأسست مملكة بيت المقدس حتى حظيت هيئة الإسبتارية باهتمامها، وحصلت على الكثير من الامتيازات المالية والهبات التي شملت الأراضي والمباني، ففي سنة٤٩٥هـ/١١٠١م منحهم الملك بلدوين الأول عشر الغنائم بعد الانتصار على القوات الفاطمية في معركة الرملة، وفي سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م صادق على جميع الهبات الممنوحة للإسبتارية في المملكة، وبعد سنتين عمل على تثبت ملكية الإسبتارية على جميع الممتلكات الواقعة تحت يديها[٢] وهذا الإجراء يدل على أن الإسبتارية قد حصلت على الكثير من الممتلكات من قبل الملك والأمراء الإقطاعيين من جهة والكنيسة من جهة أخرى.

على لرغم من أنه كان محظوراً على ملك بيت المقدس التنازل عن أي قلعة أو أرض لصالح الهيئات الدينية، فقد اضطر الملك فولك وخلفائه أمام ضغط القوات العربية الإسلامية المنطلقة من مدينة عسقلان، ودمشق – خلال حكم الملك نور الدين- إلى منح الهيئات الدينية العديد من القلاع، وبخاصة في الجنوب الغربي من المملكة.

ومن أهم ممتلكات الإسبتارية التي تقع على الساحل الشامي أو بالقرب منه:

أقدم المنح المقدمة لهذه المنظمة في مملكة بيت المقدس تعود إلى سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م، فبعد سيطرة الصليبيين على مدينة يافا، قام الدوق غودفروي بمنحهم فرناً وعدة منازل وأرض في المدينة[٣].

وتعددت الإشارات لتواجد العديد من الممتلكات التابعة للإسبتارية في المملكة، ففي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م قام الملك بلدوين الأول بالتأكيد على المنح المقدمة لهذه المنظمة، وكانت هذه الممتلكات متاخمة لكاتدرائية مدينة عكا[٤]، ولكن اضطر فرسان الإسبتارية للتخلي عن تلك الممتلكات سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م بعد خلاف مع كاتدرائية مدينة عكا عليها[٥].

- قلعة بيت جبرين:

تقع منطقة بيت جبرين عند تقاطع الطرق التي تصل بين بيت المقدس والخليل من جهة، وعسقلان وغزة من جهة أخرى، وكانت هذه المنطقة مهددة باستمرار من جانب حامية مدينة عسقلان، لذا قام الملك فولك ببناء قلعة في هذه المنطقة سنة٥٣١هـ/١١٣٦م؛ لوقف هجمات حامية عسقلان، وسرعان ما عهد بها إلى هيئة الإسبتارية التي قامت بتأسيس مستوطنة صليبية في المنطقة، حيث شجعت القادمين من أوربا على الاستقرار فيها[٦]، ويسوغ سميث منح القلعة للإسبتارية بامتلاك

---

[١]- عبد الله، منتخبات التواريخ، ص ٣٥٩.

[٢]- سميث، الإسبتارية، ص٤٤.

[3] - J.Boas, Archaeology of the Military, p 59.

[4]- J.Boas, Archaeology of the Military, p 49.

[٥]- سميث، الإسبتارية، ص٣٨٥.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٣٢.- مقامي، فرق الرهبان، ص٧٧،٧٨.

- Kenned, Crusader Castles, p31.

الهيئة لبعض المنشآت العسكرية في وقت سابق[١]، وهذا يدل على وجود نشاط عسكري لهذه الهيئة قبل تكليفها بإدارة شؤون عدة قلاع هامة.

وتبعت قلعة جبرين منطقة واسعة امتدت ما بين مدينتي الخليل وعسقلان، وترتب على المستوطنين الأوربيين المقيمين في تلك الأنحاء تقديم ضريبة سنوية أو جزء من المحصول لصالح الإسبتارية[٢].

ومن القرى التابعة لهم قرية صُميِّل التي أسست سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة عسقلان، ويعتقد بأن اسم القرية يعود إلى أحد القادة الصليبيين والذي يدعى صموئيل[٣].

كما يشير الرحالة الألماني ثيودريش الذي زار فلسطين ما بين (٥٦٧-٥٦٩هـ/ ١١٧١-١١٧٣م)، إلى امتلاك الإسبتارية لبيت جليل وعدد من الأملاك على ساحل مدينة عكا[٤].

ولم يقتصر تقديم الهبات للإسبتارية على الملوك فقط، بل قام العديد من الإقطاعيين بتقديم الممتلكات كهبات أو بيعها لصالح الهيئة، ومن الأمثلة على ذلك : قيام بارزان كونستابل يافا بمنح فرسان الإسبتارية قطعة أرض في سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م[٥].

- وفي إقطاعية قيسارية : منحهم يوستاس جارونييه أول حاكم لإقطاعية قيسارية عدة منازل في مدينة قيسارية، كما منحهم عدة أراضي مجاورة لبلدة قاقون في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وفي سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م منحهم أراضٍ ومنازل في بلدة قاقون، كما اشترى فرسان الإسبتارية من والتر حاكم قيسارية قطعة أرض ومنزل في قيسارية سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، وقام الملك بلدوين الثالث بالتأكيد على عملية الشراء في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٦].

كما منحهم هيو حاكم إقطاعية قيسارية بعض الأراضي القريبة من قاقون سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٧]، وفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م باع لهم بعض القلاع والأراضي والمنازل الواقعة ضمن حدود إقطاعيته مقابل ألفي بيزنت ذهبي، إضافة لشرائهم قرية تدعى في المصادر والمراجع الغربية بـ" هاديدن" " Hadedun"[٨]، ويبدو بأن حاجته للأموال اللازمة لتغطية نفقات مشاركته في حملة الملك عموري على مصر سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م؛ هي التي دفعته لبيع بعض أملاكه لعدد من الهيئات الدينية. وقام أحد الإقطاعيين التابعين لحاكم إقطاعية قيسارية المدعو غودفروي فلوجيك بمنح الإسبتارية قلعة القلنسوة في سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٨م، وقام الملك بلدوين الثاني بالتأكيد على هذه المنحة في سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م.

---

(١)- سميث، الإسبتارية، ص٥٥.

(٢)- سميث، الإسبتارية، ص٣٨٤،٤٣٤.

(٣)- الدباغ، بلادنا، ج١، ق٢، ص٢٢٠.

(٤)- ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة، ص١٢٣.

(5)- L .Sidelko , The acquisition of The Land estates, p 42.

(6)- J.Boas, Archaeology of the Military, p 59,81.

(7)- L .Sidelko , The acquisition of The Land estates, p 42.

(٨)- حسين، تاريخ قيسارية ، ص١٢٠.

- J.Boas, Archaeology of the Military, p 82.

أما في إقطاعية أرسوف فمن الأملاك التي حصل عليها فرسان الإسبتارية قرية الطيرة[١]، التي قاموا بشرائها من الإقطاعي بيسيلوس أوف سينجيل مقابل ١٠٠٠قطعة ذهبية سنة ٥٤٦-٥٤٧هـ/ ١١٥١-١١٥٢م.

وفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م منح جيرارد سيد إقطاعية صيدا الإسبتارية عدة ممتلكات في إقطاعيته شملت جزءاً من دفاعات مدينة صيدا، وإحدى بواباتها وجزء من سورها الممتد بين برج بلدوين وبرج البحر، فضلاً عن قطعة أرض تقع في ضواحي المدينة[٢].

أما في إقطاعية الرملة، تظهر الوثائق عقد يعود إلى ما بين ٥٥٦-٥٦١هـ/ ١١٦٠-١١٦٥م يؤكد فيه هيو حاكم الرملة على المنح التي قدمها والده ووالدته للإسبتارية، وفي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م باع بالدوين حاكم إقطاعية مجدل يابا قلعة سانت ماري مقابل ٣٠٠٠ قطعة ذهبية [٣].

ج- إمارة أنطاكية:

حصل فرسان الإسبتارية على العديد من الممتلكات في إمارة أنطاكية، ففي أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي منحهم بطريرك أنطاكية برنارد أرض بالقرب من مدينة أنطاكية[٤]، كما قدمت الأميرة أليس زوجة بوهيموند الثاني للإسبتارية جاستينا - أرض من المشاع (خربة)- في محيط مدينة جبلة، وبيت في مدينة اللاذقية سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م[٥].

كما اعتاد أمراء أنطاكية بدءً من ريموند دي بواتييه، وخلفائه أرناط (رينالد دي شاتيون)، وبوهيموند الثالث على التنازل عن عدد من الأراضي والمعاقل لمنظمات الرهبان العسكريين، بما فيها الإسبتارية؛ وذلك لاستخدامهم في الدفاع عن أراضي الإمارة ضد هجمات قوات زنكي ومن بعد ابنه نور الدين، فضلاً عن عجز الإمارة عن تحمل النفقات التي تتطلبها الأعمال القتالية[٦].

إذ قام ريموند دي بواتيه بمنح فرسان الإسبتارية الكثير من الممتلكات والامتيازات، حتى أنه تنازل عن ملكية الأراضي التي قدمها إقطاعيي الإمارة لفرسان الإسبتارية وذلك سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م [٧]، وفي سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م منحوا قطعة أرض [٨].

---

[١]- تقع إلى الجنوب من مدينة حيفا على بعد ١٣كم عنها. - الدباغ، بلادنا،ج٧، ق٢،ص ٥٩٠.

[2]- J.Boas, Archaeology of the Military, p 59 ,79,80,81,82.

[3]- L.Sidelko , The acquisition of The Land estates , p 44.

[4] - J.Boas, Archaeology of the Military, p 60.

[5]- L .Sidelko , The acquisition of The Land estates , p 36,52.

[٦]- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٥٩.

[٧]- سميث، الإسبتارية، ص٤٥٥،٤٥٨.

[8] - L .Sidelko , The acquisition of The Land estates , p 35.

أما في عهد بوهيموند الثالث (٥٥٩- ٥٩٨هـ/١١٦٣-١٢٠١م) منح الإسبتارية مساحة ضخمة من الأراضي جنوب الإمارة كان أغلبها واقع في أيدي العرب المسلمين[١]، ففي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م منحهم قرية دي لاكوه، وبرج قرية اجيديوس، وبرج في قرية لاكورنيديا[٢] سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م [٣].

كما قدم العديد من إقطاعيي الإمارة الكثير من الممتلكات لفرسان الإسبتارية، ففي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م تبرع سيد إقطاعية المرقب رينالد الثاني لهم بالعديد من الأراضي التابعة له[٤].

وفضلاً عن الممتلكات الممنوحة لهم فقد حصلوا على الكثير من الامتيازات والإعفاءات، ومن الأمثلة على ذلك، قيام بوهيموند الثالث في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بمنح الإسبتارية حق عقد الاتفاقيات مع العرب المسلمين، أو شن الحرب عليهم دون الرجوع إليه، في وقت توجب عليه ألا يعقد أي اتفاق مع العرب المسلمين دون الرجوع إليهم، كما أعفاهم من أداء الخدمات العسكرية الإقطاعية[٥].

٢- ممتلكات الداوية (فرسان الهيكل).

إن العديد من الوثائق الخاصة بالداوية قد تعرضت للضياع لأسباب متنوعة، كما أن نهاية هذه الهيئة الدينية على أيدي ملك فرنسا فليب الرابع في بداية القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري، أدت إلى ضياع الكثير من الوثائق الخاصة بهذه الهيئة[٦]. لذلك كانت المعلومات التي تتحدث عن ممتلكات الداوية في بلاد الشام تمتاز بقلتها وندرتها، ومن بعض تلك الممتلكات:

أ- في مملكة بيت المقدس:

يمكن الاستدلال من خلال كتابات وليم الصوري على وجود ممتلكات لفرسان الداوية في مملكة بيت المقدس، وذلك عند حديثه عن قيام أحد فرسان الداوية بقتل سفير شيخ الجبل- زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام- مما دفع الملك عموري للذهاب إلى مدينة صيدا حيث يتواجد مقدم الداوية، وقام بمهاجمة أحد الأماكن التي يتواجد فيها الفارس الذي تولى مهمة قتل السفير، والتي تعود ملكيتها لفرسان الداوية[٧].

وقد تنوعت ممتلكات الداوية في المملكة ما بين الضياع، والممتلكات العقارية، وبين القلاع العسكرية التي منحت لهم لمواجهة تحركات الجيوش العربية الإسلامية، ومن أهمها:

- مدينة غزة:

تقع على الطريق الساحلي المؤدي إلى مصر، وكانت غزة قبل قدوم الصليبيينمركزاً تجارياً هاماً، وعند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس والمناطق المحيطة بها، أصبحت غزة إحدى نقاط انطلاق القوات الفاطمية لمهاجمة أراضي مملكة بيت المقدس، ولكن سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م تمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها، وقاموا بإعادة بناء قلعتها، وبذلك تم قطع الطريق البري الذي يصل

---

[١]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٤٣٣.

[٢]- لم يتم الوقوف على موقع هذه الأماكن.

[3]- L .Sidelko , The acquisition of The Land estates, p 33.

[4]- L .Sidelko , The acquisition of The Land estates, p 44.

[٥]- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٦٠.

[٦]- مقامي، فرق الرهبان، ص ٦.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص١٥٨.

عسقلان بمصر[١]، وما لبث أن اتفق الصليبيون **"على أن يعهدوا به- ببناء القلعة- إلى رعاية فرسان المعبد ليكون ملك يمينهم على الدوام"**[٢]

كما يشير الرحالة الألماني ثيودريش الذي زار فلسطين بين (٥٦٧-٥٦٩هـ/١١٧١-١١٧٣م) إلى امتلاك فرسان الداوية لقلعة تقع على قمة جبل الكرمل ضمن إطار حدود إقطاعية حيفا[٣]، إلا أنه لم يشير إلى تاريخ حصولهم عليها.

ب- في كونتية طرابلس:

على إثر تعرض أراضي كونتية طرابلس للعديد من هجمات القوات العربية الإسلامية، قام أمراء الكونتية بمنح وبيع العديد من القلاع والأراضي إلى فرسان الداوية، فقد وهبهم الكونت ريموند الثاني قلعة العريمة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٤]، وعلى إثر مهاجمة الملك العادل نور الدين لمدينة طرطوس وتدميره لها في سنة٥٤٧هـ/ ١١٥٢م[٥]، قام الملك بلدوين الثالث بتسليمها لهم بموافقة الأميرة هوديبرنا- ابنة الملك فولك- الوصية على ولدها ريموند الثاني الذي يبلغ الثانية عشر من عمره[٦]. وأصبحت مقراً لقيادتهم وأعادوا بناء المرفأ وتحصينات المدينة[٧]، ويبدو بأن السبب في هذا المنح لا يعود لهجوم الملك العادل نور الدين وتدميره لتحصينات المدينة فحسب، بل نتيجة لفقدان الكونتية لعدد من كبار إقطاعييها ومنهم صاحب إقطاع طرطوس، وما لبث أن ارتبط الريف المحيط بالمدينة بفرسان الداوية.

وسرعان ما ازدادت أملاك فرسان الداوية في الكونتية، وبخاصة في المناطق الشرقية منها القريبة من الحدود مع الإمارات العربية الإسلامية، مثل قلعة الحصن، كما حصلوا على قلعة مدينة جبيل التي تقع على الساحل[٨]، ومنحوا قلعة صافيتا ولكن لا يعرف تاريخ حصولهم عليها، وربما تم ذلك بعد قيام الملك العادل نور الدين بمهاجمتها سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م[٩]. وقد قام الداوية بتجديد عمارتها عدة مرات، كما حدث عند تعرضها في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م لزلزال أدى لتدميرها، وأيضاً بعد قيام الملك العادل نور الدين بتخريبها سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م [١٠].

ج- في إمارة أنطاكية:

شغلأمراء أنطاكية دوراً هاماً في تعزيز مكانة فرسان الداوية في شمال بلاد الشام، ففي أواخر العقد الثالث من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي امتلكت الداوية مجموعة من القلاع تقع في جبال الأمانوس في شمال الإمارة[١١].

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٢٩.- مقامى، فرق الرهبان، ص٨٥،٨٦.
[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٣٠.
[٣]- ثيودريش ، وصف الأماكن المقدسة، ص١٢٢.
[٤]- سالم، طرابلس، ص ٢٢٠. - عبد الله، منتخبات التواريخ، ص ٢٨٦.
[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٩٢.
[٦]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٨٥.- سالم، طرابلس، ص٢٢٠. - عبد الله، منتخبات التواريخ، ص٣٥٩.
[7] - J.Boas, Archaeology of the Military , p103
- مولر فيز، القلاع ، ص٦١.
[٨]- زابوروف، الصليبيون، ص ١٦٧.
[٩]- سالم، طرابلس، ص ٢٢٠.
[١٠]- مولر فيز، القلاع، ص ٦٣.
[11] - J .Boas, Archaeology of the Military, p 71.

فقد منحهم ريموند دي بواتيه في سنة٥٤٤هـ/١١٤٩م حق الإعفاء من الضرائب العامة والالتزامات الإقطاعية، وحق نقل ممتلكاتهم داخل وخارج الإمارة[١]. كما منح فرسان الداوية قلعة بغراس سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٢]، والتي تتمتع بموقع جغرافي هام إذ تتحكم بالطريق الواصل بين أنطاكية والإسكندرونة وكيليكية، وقام الداوية بإجراء العديد من التحسينات على دفاعاتها[٣]، وفي عهد حكم أرناط (رينالد دي شاتيون) أهدى للداوية عدة مناطق بالقرب من مدينة إسكندرونة على إثر انتصاره على أرمن كيليكية[٤]، فقام الداوية ببناء قلعة تسمى قسطون[٥] بالقرب منها، وبذلك صار الداوية يتحكمون بجميع الدروب والطرق التي تربط بلاد الشام بآسيا الصغرى[٦]، ثم ما لبثت أن ازدادت ممتلكات فرسان الداوية في المناطق المحيطة ببغراس خلال حكم بوهيموند الثالث[٧].

كما قام العديد من الأسياد الإقطاعيين بتقديم المنح أو بيع بعض ممتلكاتهم للداوية، ومن الأمثلة على ذلك قيام رينالد مازورا سيد المرقب ببيع الداوية جاستينا (خربة - أرض مشاع) في الجبال التي تقع إلى الشمال من مدينة بانياس[٨]، وتمتعت هيئة فرسان الداوية بالاستقلال الذاتي في إمارة أنطاكية[٩].

ولكن فرسان الداوية ما لبثوا أن فقدوا ملكية بعض القلاع لحقبة وجيزة؛ بسبب السياسات العدوانية التي انتهجها ضدهم طوروس (ثوروس) الأرمني حاكم كيليكية (٥٤٠- ٥٦٥هـ/١١٤٥-١١٦٩م)، ولكنهم استطاعوا استعادة سيطرتهم على كامل جبال الأمانوس سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م[١٠].

٣- ممتلكات فرسان القديس لعازر:

ارتبطت أولى ممتلكات هذه الهيئة بالمشفى الخاص بمرضى الجذام، الذي اعتمد على التبرعات والصدقات في بداية الأمر، ولكن ما لبثت أن انهارت عليه التبرعات والهبات والعطايا من الملك والنبلاء والحجاج[١١]، ولكن المعلومات عن الممتلكات الممنوحة لفرسان القديس لعازر امتازت بقلتها.

على ما يبدو أن الممتلكات العينية لهذه المنظمة قد تركزت في مناطق مملكة بيت المقدس، وبخاصة حول مدينة بيت المقدس، وكانت أولى تلك الممتلكات قيام بطريرك بيت المقدس وليم الأول بمنحهم صهريج ماء في مدينة بيت المقدس، أما ممتلكات هذه الهيئة التي تقع على الساحل الشامي، فتمثلت بقيام هيو لورد إقطاعية قيسارية بمنح الهيئة بيتين في مدينة قيسارية سنة ٥٥٧هـ/١١٦٠م،

---

[١]- عطية، إمارة أنطاكية، ص١٦٠.

[٢]- إلا أن بعض الدراسات تشير بأن فرسان الداوية قد حصلوا على بغراس في العقد الرابع من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأن أول عمل عسكري قام به الداوية من حصن بغراس كان سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٨م.
- الغامدي (علي محمد علي عودة)، حصن بغراس ودوره الحربي في عصر الحروب الصليبية،" من خلال ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٧٣.

[٣]- مولرفيز، القلاع ، ص ٥٨.

[4]- Wilson, The Latin Principality of Antioch, p82.

[٥]- لكن ياقوت الحموي يذكر بأنها تقع في منطقة الروج. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص ٣٤٨.

[٦]- الغامدي، حصن بغراس، ص ٢٧٣.- هوراث، فرسان الهيكل، ص ١٢٩.

[٧]- رنسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٤٣٣.

[8]-Wilson, The Latin Principality of Antioch, p80.

[٩]- عطية، إمارة أنطاكية، ص ١٦٠.

[10]-Wilson, The Latin Principality of Antioch, p82.

[١١]- الدويكات، هيئة فرسان القديس العازر، ص ١١٨.

ولكن ممتلكات هذه الهيئة في الساحل الشامي والمناطق القريبة منه ازدادت بعد الحملة الصليبية الثالثة، وبخاصة بعد انتقال مركز الهيئة إلى مدينة عكا[١].

[١]- الدويكات، هيئة فرسان القديس العازر، ص١٢٦-١٢٩.
- J .Boas, Archaeology of the Military, p 66.

الفصل الثالث:

العلاقات السياسية بين الصليبيين والإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام

أولاً- أسباب قيام العلاقات السياسية بين الصليبيين وحكام الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

١- الأسباب التي دفعت الحكام العرب المسلمين إلى إقامة علاقات سياسية مع الصليبيين.

٢- الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى إقامة علاقات سياسية مع العرب المسلمين.

ثانياً- العلاقات السياسية بين قادة الحملة الصليبية الأولى وحكام الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

ثالثاً- العلاقات السياسية لإمارة أنطاكية مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

رابعاً- العلاقات السياسية لمملكة بيت المقدس مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

خامساً- العلاقات السياسية لكونتية طرابلس الصليبية مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

سادساً- العلاقات الصليبية- الصليبية.

أولاً- أسباب قيام العلاقات السياسية بين الصليبيين وحكام الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

بالرغم من أن العلاقات الصليبية – العربية الإسلامية في بلاد الشام اتسمت بالطابع العسكري منذ الأيام الأولى، فإن الظروف السياسية والاقتصادية اضطرت الطرفين للسعي لإيجاد نوع من العلاقات السياسية أو الدبلوماسية، ويمكن إجمال الأسباب لنشوء هذه العلاقات بمايلي:

١- الأسباب التي دفعت العرب المسلمين إلى إقامة علاقات سياسية مع الصليبيين:

أ- حالة الانقسام السياسي الذي تعانيه بلاد الشام حيث كانت مقسمة لعدة إمارات متناحرة فيما بينها، وأدت سيطرة السلاجقة على بلاد الشام إلى نقمة الأسر العربية الحاكمة، التي أخذت تتحين الفرصة للتخلص من الحكم السلجوقي، ووجدت تلك الفرصة خلال زحف الحملة الصليبية، فاتبعوا معها سياسة المسالمة والمهادنة ولم يقتصر الآمر على ذلك بل شمل تقديم المؤن[١].

ب- خوف أمراء بلاد الشام من الحملات العسكرية التي أرسلها السلاطين السلاجقة لقتال الصليبيين، وعدها محاولة لفرض سلطتهم المركزية على بلاد الشام، ومن أجل مواجهة هذه الحملات سعى بعض أمراء بلاد الشام للتقرب من صليبيي الساحل الشامي؛ بهدف إقامة أحلاف سياسية عسكرية معهم لمواجهة حملات السلاطين السلاجقة[٢]، والأمثلة على ذلك كثيرة منها، قيام تحالف بين الأتابك طغتكين وايلغازي وحكام حلب من جهة وروجر أمير أنطاكية من جهة أخرى لمواجهة جيش برسق بن برسق في سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م [٣].

ج- كانت مصلحة فريق من حكام بلاد الشام تقتضي بقاء صليبيي الساحل الشامي، وعدم قيام جبهة إسلامية موحدة في بلاد الشام؛ وذلك للحفاظ على سلطانهم ونفوذهم[٤]. وقد عبر ابن العديم عن هذه الفرقة عند حديثه عن محاولة أمراء حلب المتحكمين بسلطان شاه بن رضوان بمخاطبة ملوك الشام للقدوم لتسلم حكم حلب في سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، بقوله:" **ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها، ولا يمكنه ذب الفرنج عنها، وكان السبب في ذلك أن المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه"**[٥].

د- ما نتج عن حالة الحرب الدائمة بين المسلمين والصليبيين من تدمير وتخريب للأراضي الزراعية وإيقاف حركة القوافل التجارية، كل ذلك ألحق بالمسلمين خسائر كبيرة مما دفعهم لإيجاد نوع من المهادنة مع الصليبيين؛ للتفرغ لإصلاح ما خربته الحروب. ومثال على ذلك الهدنة التي أبرمت بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية في سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، والتي وصفها ابن القلانسي بقوله:**"ولما حصل في دمشق اتصلت المراسل بينه- طغتكين- وبين بغدوين ملك الإفرنج في إيقاع**

---

[١]- زيان (حامد)، الصراع السياسي بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢١،٢٢.

[٢]- توفيق (عمر كمال)، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين- دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي(٤٩١-٦٩٠هـ/١٠٩٧-١٢٩١م) – مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية،١٩٨٦م، ص٥٥،٥٦.

[٣]- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق:سامي دهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، د.ت، ج٢، ص١٧٤.

[٤]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي دهان، ج٢، ص١٧٤.

[٥]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي دهان، ج٢ ، ص ١٧٢،١٧٣.

المهادنة والموادعة والمسالمة، لتعمير الأعمال بعد الإخراب وتأمين السوابل من شر المفسدين والخرَّاب..."[١].

هـ- كما أدى موضوع أسرى الحروب والمعارك دوراً في اتصال المسلمين والصليبيين، إذ كان من المألوف أثناء المعارك أن يقع العديد من الأسرى من كلا الطرفين في يد الطرف الأخر، وكانت مسؤولية فك أسرهم تقع على عاتق حكامهم، وتطلب ذلك إرسال الرسل من أجل التفاوض على إطلاق سراحهم[٢].

و- استفادة الحكام المسلمين من إرسال الوفود إلى الإمارات الصليبية، إذ لم تقتصر مهمة الرسل على إيصال الرسائل، بل شملت القيام بجمع المعلومات عن حالة العدو، والتعرف على أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك من خلال مشاهداتهم وملاحظاتهم في بلاد العدو[٣].

ي- سعي بعض الحكام المسلمين التدخل لإنقاذ سكان بعض المدن الساحلية، التي تتعرض للحصار الصليبي أو التي على وشك السقوط؛ من أجل تأمين خروج سكانها دون التعرض لأي أذى، مثلما حدث عند استيلاء الصليبيين على مدينة صور[٤].

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٠٣.

[٢]- توفيق، الدبلوماسية ، ص٥٦.

[٣]- توفيق، الدبلوماسية، ص٥٦.

[٤]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٩٣-٥٠٤.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٣٦.- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٦٩٤.

٢- الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى إقامة علاقات سياسية مع العرب المسلمين:

أ- العامل الجغرافي: إذ قامت الإمارات الصليبية في معظمها على مساحة ضيقة من الساحل الشامي، وأحاطت بها البلاد والمناطق التي بقيت بأيدي العرب المسلمين، كما أن المدن التي سيطر عليها الصليبيون لم تكن تبعد عن المراكز والمدن الإسلامية مسافات كبيرة، لذا فإن هذا الجوار والحدود المتداخلة فرضت على الصليبيين الاتصال مع العرب المسلمين[١].

ب- قلة عدد الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام مقارنة بأعداد السكان العرب (المسلمين والمسيحيين) الذين أحاطوا بهم، ويعود ذلك إلى قيام الكثير ممن اشترك في الحملة الصليبية الأولى بمغادرة بلاد الشام على إثر الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ومعركة عسقلان[٢]، ويصف فولتشر ذلك بقوله:" **وبعد ذلك بقي بعضهم في الأراضي المقدسة، بينما عاد الآخرون إلى ديارهم، ولهذا بقيت الأراضي المقدسة خلوه من السكان، ولم يوجد فيها ما يكفي من الناس للدفاع عنها لو أن المسلمين أقدموا على مهاجمتنا** "[٣]. لذلك كان لابد عليهم محاولة الاتصال بالمسلمين والسعي لعقد الهدن؛ ليتمكن الصليبيون خلال مدة الهدن من العمل على تحصين مواقعهم، واستقدام المساعدات من المدن الإيطالية والقارة الأوربية.

ج- تأقلمُ الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام مع العادات والتقاليد ونمط الحياة الشرقية، ويؤكد ذلك فولتشر بقوله:" **إن الذين كانوا غربيين باتوا الآن شرقيين، والذي كان رومياً أو فرنجياً قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني، ومن قدم من الرايم أو تشارترز صار الآن من أهالي صور أو أنطاكية ولقد نسينا الآن أماكن ولادتنا..**"[٤]، وأدى ذلك لحدوث نوع من الاختلاف بين طبائع الصليبيين القدامى، وأولئك الذين قدموا حديثاً إلى بلاد الشام وقد لمس العرب المسلمون هذا الأمر، وعبر عن ذلك أسامة بن منقذ بقوله:" **فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين**" [٥].

وقد اتضح هذا الاختلاف عند وصول صليبي الحملة الثانية (٥٤٢-٥٤٤هـ /١١٤٧-١١٤٩م)، فسرعان ما نظر إليهم صليبيو الشام كعناصر دخيلة تهدد مصالحهم، وخاصة لما وجدوا بينهم من أراد الاستقرار وتأسيس إمارات خاصة بهم[٦]، مما جعلهم يلجؤون للمسلمين للتخلص منهم، وخير مثال على ذلك قيام كونت طرابلس ريموند الثاني طلب النجدة من نور الدين محمود صاحب حلب؛ لمهاجمة حصن العريمة الذي استولى عليه برتران بن ألفونسو بن الكونت ريموند- ابن حاكم مقاطعة تولوز- سنة ٥٤٢-٥٤٣هـ/ ١١٤٧-١١٤٨م [٧].

[١]- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٧٨.

[٢]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٧١.- توفيق، الدبلوماسية، ص٧٨.

[٣]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩٢.

[٤]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٥٠٦.

[٥]- ابن منقذ، الاعتبار،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص٢٤٢.

[٦]- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٩٠.

[٧]- أبو شامة، الروضتين، ج١، ق ١، ص١٤٢،١٤٣.- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، إدارة إحياء التراث القديم – مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م،ج ١، ص١١٤.

د- السعي لإطلاق سراح الأسرى الصليبيين، وبخاصة الأمراء منهم نتيجة تناقص أعدادهم خلال الحروب.

هـ- النظم السياسية التي سادت بين الصليبيين لم تكسبهم قوة ترجح كفتهم على حساب المسلمين، بل على العكس ساهمت في تمزيق صفوفهم، فعلى الرغم من أن الإمارات الصليبية كانت تترأسها أسر ملكية، إلا أنها مقيدة الصلاحيات ولم تمتلك سلطة مركزية قوية، فقد وجد عدة هيئات ومؤسسات نافستها منها، الكنيسة التي تمتعت بعدة امتيازات جعلتها عبارة عن دولة داخل دولة، وكذلك منظمتي الداوية والإسبتارية إضافة للمدن التجارية الإيطالية التي احتكرت التجارة داخل الإمارات الصليبية[١]. وهذا الأمر دفعها للسعي لعقد الهدن والمعاهدات مع العرب المسلمين من أجل التفرغ لإصلاح أوضاعها الداخلية وتأمين عدم تعرضها للغزو من قبل العرب المسلمين.

و- إدراك الصليبيين الفائدة من زرع الفرقة والانقسام بين القادة العرب المسلمين وإثارة الصراع بينهم؛ وذلك لأجل تمكين وتثبيت كياناتهم.

كما لابد من الإشارة إلى أنَّ من أهم الأسباب التي دفعت الطرفين للاتصال والسعي لعقد الهدن والمعاهدات هي المصالح الاقتصادية، إذ أن احتياجات الطرفين للسلع والمواد الخام التي يحصل عليها عن طريق الطرف الآخر اقتضت بالضرورة التعامل التجاري بينهما، وبذلك لم يكن باستطاعة المسلمين أو الصليبيين الإنفراد بالتجارة دون الطرف الآخر. كما أن المشتغلين بالتجارة من الصليبيين وبخاصة أبناء المدن التجارية الإيطالية الذين استقروا في شتى المدن الصليبية، قد جنوا الأرباح الوفيرة نتيجة اتصالهم بالعرب المسلمين ما يمنعهم التخلي عن سبيل المتاجرة الهادئة، كما كانوا أشد استعداداً لمنع أية مخاطرة حربية ضد جيرانهم العرب المسلمين[٢].

وأيضا بالرغم من حالة العداء بين الطرفين فإن ذلك لم يمنع الصليبيين من طلب المعونة الصحية من العرب المسلمين، ويؤكد ذلك ما ذكره أسامة بن منقذ عن قيام الحاكم الصليبي لحصن المنيطرة بمراسلة حاكم شيزر المسلم يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه[٣].

---

[١]- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٨٠.

[٢]- علي (علي السيد)، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٦م ، ص٩٤.

[٣]- ابن منقذ، الاعتبار،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص٢٤٠.

ثانياً- العلاقات السياسية بين قادة الحملة الصليبية الأولى وحكام الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام.

منذ قدوم الحشود الصليبية إلى بلاد الشام اتسمت علاقاتهم مع حكام وسكان المنطقة بالصبغة العسكرية بشكل عام، إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث نوعٍ من العلاقات السياسية مع العديد من الأمراء العرب المسلمين؛ وقد دفعهم لذلك السعي لتأمين مرور الحشود الصليبية في أراضي الإمارات العربية الإسلامية، إضافة لسعيهم للاستفادة من الخلافات الموجودة بين حكام المنطقة، من أجل تحقيق مشروعهم في احتلال بيت المقدس، إذ حصلوا على بعض المعلومات والمعطيات عن تلك الخلافات خلال وجودهم في أراضي الإمبراطورية البيزنطية.

وتمثلت أولى الاتصالات مع قوة عربية إسلامية، هي تلك التي جرت مع الدولة الفاطمية، إذ استقبل القادة الصليبيون أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية سفارة فاطمية[١]، وصلت بحراً في صفر ٤٩١هـ/أوائل ١٠٩٨م[٢]، ويبدو أن الصليبيين أدركوا أهمية دور الدولة الفاطمية في الأحداث التي تجري في بلاد الشام، لذلك قاموا باستقبال الوفد بكل حفاوة، ويصف وليم الصوري ذلك بقوله:" **فتلقاهم زعماء الصليبيين بما يليق بهم من الحفاوة والتبجيل وعقدوا معهم عدة اجتماعات ليتيحوا لهم الفرصة لإبلاغ رسالتهم**"[٣]، وتألف هذا الوفد - حسب ألبرت فون آخن- من خمسة عشر شخص يتكلمون عدة لغات[٤]، وفي محاولة الوفد الفاطمي لإيجاد نوع من الإلفة بينهم وبين القادة الصليبيين، أخذوا يحدثونهم عن المعاملة الطيبة التي يلقاها المسيحيون المحليون ووفود الحجاج القادمين لزيارة الأماكن المقدسة من قبل الدولة الفاطمية[٥].

ويبدو أن المفاوضات التي جرت بين الطرفين كانت سرية ومحصورة بعدد من الأشخاص، ويؤكد ذلك أن المؤرخين الذين رافقوا الحملة الصليبية الأولى لم يتحدثوا عما جرى بين الوفد الفاطمي والقادة الصليبيين، أو حتى ذكر ما توصلوا إليه. إلا أن وليم الصوري الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي يرجع أسباب إرسال هذه السفارة إلى رغبة الدولة الفاطمية للتحالف مع الصليبيين للوقوف في وجه أعدائها السلاجقة، حتى أنها عدت كل خسارة تصيبهم مكسباً لها، بل بالغ وليم في هذا الأمر إذ ذكر أن الدولة الفاطمية ترجت من الحشود الصليبية مواصلة حصارها لأنطاكية، إضافة إلى تعهدها بإعانتهم بالجند والذخيرة[٦]. بل يذكر ألبرت فون آخن أن أعضاء هذا الوفد قد شاركوا الصليبيين في إحدى معاركهم[٧].

---

(١)- مؤرخ مجهول، أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١١٨.

(٢)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٠٥.

(٣)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٠٥.

(٤)- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٦٨.

(٥)- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٠٠.

(٦)- وليم الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٣٠٤،٣٠٥.

(٧)- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٧١.

أما المؤرخون المعاصرون فيرون أن هدف هذه السفارة يتمثل في إيجاد تحالف بين الفاطميين والصليبيين للقضاء على السلاجقة، وتقسيم بلاد الشام بينهما، فيكون شمال بلاد الشام للصليبيين وقاعدته أنطاكية، بينما يكون جنوب بلاد الشام للفاطميين وقاعدته بيت المقدس[١]. وفسر رانسيمان هذا التحالف على أنَّ الوزير الأفضل ظن أن الحشود الصليبية لم تكن إلا عساكر مأجورة للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الذي سعى لاستعادة الأراضي التي كانت خاضعة لها في السابق، وبالتالي فإن هذا التقسيم قام على أساس ما كانت عليه أوضاع بلاد الشام قبل استيلاء السلاجقة على أنطاكية سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

إلا أن المعطيات التاريخية تذكر أن بيت المقدس ومعظم مناطق فلسطين كانت خاضعة للسلاجقة في سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م، كما أن بني عمار قاموا بتأسيس إمارة امتدت من جبلة شمالاً إلى جبيل جنوباً، في حين اقتصرت أملاك الدولة الفاطمية على الشريط الساحلي الممتد من بيروت إلى عسقلان إضافة لبعض المناطق الداخلية.

كما رأى سعيد عاشور بأن قيام الدولة الفاطمية بإرسال وفد لمفاوضة الصليبيين يعبر عن مدى جهلها بحقيقة الحملة الصليبية، وعدم إدراكها بأن الهدف الأساسي لها هو الوصول إلى بيت المقدس وتحريرها من سلطة العرب المسلمين[٢]، وعلى الرغم من أن هذا القول يحمل في طياته بعض الحقيقة المتمثلة بجهل العرب المسلمين بشكل عام بأهداف الحملة الصليبية، إلا أن هذا الأمر لا يعطي الحق لسعيد عاشور أن يصف الدولة الفاطمية بالجهل السياسي، بل ربما هذه السفارة تدل على مدى إبداعهم السياسي، إذ سعوا لمعرفة طبيعة تلك الحشود وأهدافها. ويظهر ذلك من خلال عدم اكتفائهم بلقاء قادة الحملة بل سعوا للإطلاع على ما يحتويه المعسكر الصليبي من عدة ورجال[٣].

وعلى الرغم من اختلاف المصادر حول الأسباب التي دعت الدولة الفاطمية لإرسال سفارتها، وما تم الاتفاق عليه مع الصليبيين، فإن أعضاء الوفد الفاطمي ما لبثوا أن عادوا إلى مصر وبرفقتهم وفد صليبي كلف بمهمة عقد صلح ودي مع الدولة الفاطمية[٤]، وبقي الوفد الصليبي في مصر لمدة عام كامل قسراً دون أن تذكر المصادر سبب احتجازه[٥]، باستثناء المؤرخ ريمون دي جيل الذي يسوغ ذلك بقوله:**" ومن رسائل عثرنا عليها في خيام ملك مصر- أي الوزير الأفضل- بعد معركة عسقلان كان بعث بها إليه ألكسيوس لا بد أنه عرف أن جيشنا كان صغيراً وأن الإمبراطور كان يتآمر على تدميرنا، ولهذا السبب وغيره احتبس رسلنا عنده في مصر لمدة سنة"**[٦].

وعلى ما يبدو أن الوزير الأفضل استغل قدوم الوفد الصليبي للاطلاع منه على هدف الحملة الصليبية، الذي تمثل بالاستيلاء على مدينة بيت المقدس، لذلك قام باحتجاز الوفد إلى أن تنجلي نتائج حصار مدينة أنطاكية، وعند استيلاء الصليبيين عليها أدرك الأفضل بأن سلاجقة بلاد الشام لم يعد بإمكانهم الوقوف في وجه الزحف الصليبي بعد سقوط أنطاكية، والهزائم المتتالية التي لحقت بهم، لذا سعى الأفضل لملء الفراغ السياسي الذي حدث في بلاد الشام. وبما أن مدينة بيت المقدس كانت

---

[١]- عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ص١٦٢،١٩٢.
- محمد نوار(صلاح الدين)، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠-٥١٥هـ/١٠٩٧-١١٢١م)، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٩٢م، ص٦٠.
[٢]- عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٩٢.
[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٣٠٥.
[٤]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٠٠.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٦.
[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٦.
[٦]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٥.

مقصدهم لذلك سارع للاستيلاء عليها من أيدي سكمان وايلغازي ابنا أرتق[١] في شهر شعبان ٤٩١هـ/ أب١٠٩٨م[٢].

ولكن سيطرة الأفضل على مدينة بيت المقدس لا تعني توقف الاتصالات ما بين الدولة الفاطمية والصليبيين، فعلى إثر متابعة الصليبيين زحفهم ودخولهم أراضي إمارة بني عمار حكام طرابلس صاروا على مقوبة من الأراضي التابعة للدولة الفاطمية مما يشكل خطراً عليها، لذلك وفي أثناء حصار الصليبيين لحصن عرقة وصلت سفارة فاطمية بصحبتها الوفد الصليبي الذي قدم إلى مصر وذلك في شهر جمادى الأولى ٤٩٢هـ/ نيسان ١٠٩٩م.

وما لبث الوفد الفاطمي أن التقى مع القادة الصليبيين، إلا أنه في هذه المرة ابتعد في تعامله معهم عن أسلوب اللين والتقرب، بل قام بإبلاغ الصليبيين باستيلاء صاحبهم على مدينة بيت المقدس، وأكد لهم أنه لن يسمح لهم بمتابعة الزحف، ويظهر ذلك من خلال عرضه على الصليبيين أن الدولة الفاطمية ستسمح للحجاج المسيحيين الغير مسلحين بالذهاب إلى بيت المقدس ولكن في مجموعات صغيرة تتراوح ما بين مائتي أو ثلاثمائة حاج[٣].

ونتيجة لذلك سعى الصليبيون للتوصل إلى اتفاق مع الفاطميين فعرضوا عليهم عدة بنود، أوردها ريمون دي جيل بقوله: **" إن هو ساعدنا في القدس أو أعاد هذه المدينة إلينا مع ما يتبعها، فإننا سنعيد إليه مدنه السالفة التي كان الأتراك قد انتزعوها منه وذلك في حالة استيلائنا عليها، وبالإضافة إلى ذلك سنقتسم معه جميع المدن التركية الأخرى التي لا تقع في نطاق ممتلكاته ولكن يأتي الاستيلاء عليها بمساعدة منه"**[٤].

ولكن المعطيات التاريخية تؤكد أن الدولة الفاطمية تمكنت قبل قدوم الصليبيين من استعادة جميع المدن الساحلية الواقعة مابين بيروت وعسقلان، كما استطاعت خلال انشغال الصليبيين بحصار أنطاكية من استعادة بيت المقدس، ثم السيطرة على معظم مناطق فلسطين، وبناء على ذلك يمكن القول إنَّ الشروط التي طرحها الصليبيون على الوفد الفاطمي كانت لا قيمة لها، كما إنها لم تلقَ الترحيب من قبل الوفد الفاطمي.

وعند ذلك أدرك الصليبيون أن العرض الذي قدم من قبل الوفد الفاطمي يعد اهانة لهم، كما أنه يبعدهم عن تحقيق هدفهم المتمثل بالاستيلاء على بيت المقدس، لذلك أبلغوا السفارة الفاطمية ردهم القاسي، أنهم سوف يدخلون بيت المقدس ولن يقتصر الأمر على ذلك بل سيهاجمون مصر أيضاً[٥]،

---

[١]- تولى أرتق بن أكسب بيت المقدس كإقطاع من قبل تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان سلطان دمشق سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، للاستفادة من العدد الكبير للمقاتلين الذين كانوا تحت إمرته، ولكي يكون حاجزاً بينه وبين الدولة الفاطمية، وبعد وفاة أرتق سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، تولاها ابناه سكمان وايلغازي لغاية استيلاء الأفضل عليها، فاتجها إلى الجزيرة الفراتية ومنحها ديار بكر.

- طقوش (محمد سهيل)، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ٤٧١-٥١١هـ/١٠٧٨-١١١٧م، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ١٦٩، ١٧٠.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٢١.

[٣]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٦،٥٧.

[٤]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٥.

[٥]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٧.

ويبدو أن الأفضل أدرك ذلك منذ سيطرته على بيت المقدس، فقام بتحصين المدينة وتقويتها للصمود في وجه الصليبيين إذ تابعوا زحفهم صوبها[١].

ولابد من الإشارة أن هذه المفاوضات التي دارت بين الدولة الفاطمية والصليبيين سواء في أنطاكية أو عرقة لم تتعرض لها المصادر العربية، بل اقتصر ذكرها على المصادر الصليبية وخاصة التي كتبت من قبل الأشخاص الذين رافقوا الحملة الصليبية الأولى. ولكن على الرغم من ذلك احتوت المصادر العربية إشارات ذات معنى؛ تفيد بوجود نوع من الاتصال بين الدولة الفاطمية والصليبيين، وذلكعند ذكرها إرسال الوزير الأفضل رسولاً إلى الصليبيين عند استيلائهم على مدينة بيت المقدس وارتكابهم المجازر فيها[٢].

ولم يكن الاتصال بالفاطميين المحاولة الوحيدة التي اتخذها الصليبيون لإيجاد نوعٍ من العلاقات السياسية مع الحكام العرب المسلمين، فخلال زحفهم نحو بيت المقدس راسلهم حكام الإمارات العربية التي تقع في وسط بلاد الشام، الذين انتهزوا فرصة انحلال قوة السلاجقة لتأكيد استقلالهم في المناطق التي يحكمونها، كما كان موقفهمتجاه الصليبيين مخالفاً لما اعتمده السلاجقة بالتركيز على القوة العسكرية فقط، إذ أدركوا خطورة الموقف- وخاصة بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية والبارة ومعرة النعمان- لعدم وجود قوة إسلامية كبرى تحميهم من خطر الصليبيين فآثروا الاتصال بهم ومحاولة مهادنتهم[٣]. ومن أوائل أولئك الأمراء أمير شيزر الذي داوم على إيفاد مندوبيه إلى الكونت ريموند حين كان في معرة النعمان، وأيضاً عند وصوله إلى كفر طاب القريبة من شيزر، إذ خشي أمير شيزر قيام الصليبيين بالاعتداء على أراضيه وارتكاب المجازر بحق سكان المناطق التابعة له، فراسلهم طالباً الهدنة وعرض عليهم أن يمدهم بالخيول والمؤن والعتاد، والتعهد بتأمين راحة الصليبيين وعدم التعرض لهم بأذى[٤]، ويبدو أن ما دفع أمير شيزر لمهادنة الصليبيين ليس خوفه من الأعمال الوحشية التي يقترفونها فحسب، بل إدراكه ما تعانيه الحشود الصليبية من الجوع نتيجة نقص الطعام، وعلمه أن هدفهم هو الوصول إلى بيت المقدس لذلك حاول استغلال هذا الأمر فقدم لهم عدة تنازلات مادية مقابل عدم اعتدائهم على أملاكه.

لكن هذا الأمر فتح شهية الصليبيين للحصول على الغنائم، فأقاموا معسكرهم بالقرب من مدينة شيزر في محاولة للضغط على حاكمها لتقديم المزيد من التنازلات، إلا أن هذا الأخير عمل على إيقاف إمداد الصليبيين بالمؤن[٥]، كما أغراهم بعبور نهر العاصي حيث توجد الكثير من الغنائم، وفي سبيل ذلك زودهم بدليلين يقودانهم إلى حيث يجدون ما تصبو إليه أنفسهم من مغانم[٦]. وبعد قبول الصليبيين للهدايا التي قدمت لهم من قبل حاكم شيزر، حتى سعى حكام المناطق التي مر بها الصليبيون للعمل على كسب ودهم من خلال تقديم الهدايا والمؤن، من أجل إبعاد الخطر عن أراضيهم، وظهر ذلك بوضوح عند قيام الكونت ريموند بالاستيلاء على قلعة الحصن (حصن الأكراد) سنة ٤٩٢هـ/ أواخر كانون الثاني ١٠٩٩م، إذ سارع الأمير جناح الدولة حسين حاكم حمص لمراسلة الكونت ريموند ومنحه الخيول وكميات من الأموال، كما تعهد بأن لا يمس الصليبيين بأذى، وبما أن حصن الأكراد يقع على مقربة من أملاك أمير طرابلس لذلك أرسل رسله إلى الكونت يطلب الموادعة والاتفاق، كما أرسل إليه عشرة من الخيول وأربعة من البغال ومبلغ من المال، كما تعهد بألا

---

[١]- محمد نوار، العدوان الصليبي، ص٨٣.

[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٤٧.

[٣]- عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٨٥.

[٤]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦١.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٤٨.- توديبو، تاريخ الرحلة ، ص ٢٨٩.

[٥]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦١،١٦٢.- توديبو، تاريخ الرحلة، ص٢٨٩.

[٦]- توديبو، تاريخ الرحلة، ص٢٨٩.

يمس الصليبيون بأذى خلال مرورهم بالأراضي التابعة له، إلا أن الكونت ريموند رفض مهادنته ما لم يعتنق الديانة المسيحية[١].

وهنا تطرح عدة تساؤلات: لماذا قبل الكونت ريموند مهادنة كل من شيزر وحمص بينما رفض ذلك بالنسبة لمدينة طرابلس، وما الذي دفعه أن يطالب أميرها باعتناق الديانة المسيحية؟ ويمكن تسويغ ذلك بعلم الكونت ريموند بغنى المدينة بالأموال والذهب إضافة لأهمية موقعها على الساحل، وسعيه الحصول على المزيد من التنازلات من أميرها.

إلا أن ريمون دي جيل يذكر بأن الكونت ريموند أرسل راياته لترفع على أسوار طرابلس، كما أرسل بعض فرسانه كمبعوثين[٢]، ربما لكي يناقشوا شروط المهادنة أو لإيصال الرايات، و لم تقتصر مهمتهم على ذلك بل شملت أيضاً التعرف على أوضاع المدينة ومدى ثرائها. وما أن تبين لهم ثراء المدينة حتى أشاروا على الكونت ريموند القيام بحصار حصن عرقة التابع لابن عمار كنوع من الضغط على أميرها من أجل ابتزازه للحصول على المزيد من الذهب والفضة[٣]، وخاصة أن عرقة تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها في منطقة تمتاز بغناها بالثروات الطبيعية[٤].

وبالفعل استجاب الكونت ريموند للنصيحة فقام بحصار عرقة، كما شن الصليبيون هجماتهم على المدن والمناطق التابعة لابن عمار مثل طرطوس والمناطق المحيطة بطرابلس، وهذا الأمر دفع ابن عمار لمراسلة الكونت يطلب منه مبارحة عرقة مقابل مهادنته للصليبيين وتزويدهم بالأموال، ولكن ما لبثت الخلافات أن نشبت بين الكونت ريموند وبقية القادة الصليبيين حول ضرورة متابعة الزحف نحو بيت المقدس، مما أتاح الفرصة أمام ابن عمار لعدم دفع ما فرض عليه من أموال[٥]، بينما رفع الصليبيون الحصار عن عرقة، وتابعوا زحفهم ولكن ما لبثوا أن عسكروا بالقرب من طرابلس ٤٩٣هـ/أيار ١٠٩٩م ، وأدى ذلك لإثارة الخوف من قيام الصليبيين بتدمير ربض المدينة وإفساد المزارع التي يمرون بها أو العمل على إيذاء الفلاحين[٦] فقام ابن عمار بمراسلتهم ومنحهم مبلغ خمسة عشر ألف قطعة ذهبية والعديد من الهدايا والمؤن والخيول، كما أطلق سراح ما يقارب ثلاثمائة أسير صليبي لديه[٧]، وزودهم بدليل ليرشدهم للطرق[٨]، ولم تكتف المصادر الصليبية بهذا الأمر بل ذهبت إلى أبعد من ذلك إذ نسبت إلى ابن عمار استعداده لاعتناق الديانة المسيحية، وأن يتسلم أرضه منهم بشرط تحقيق انتصارهم على الدولة الفاطمية والاستيلاء على بيت المقدس[٩]- علماً

---

[١]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦٢، ١٦٣.- توديبو، تاريخ الرحلة، ص ٢٩٠.

[٢]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٣.

[٣]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٣.

- أما وليم الصوري فإنه يعلل قيام الصليبيون بحصار عرقة إلى الرسائل التي وصلتهم من بعض الأسرى الصليبيين المتواجدين داخل طرابلس الذين ما إن علموا باقتراب الجيش الصليبي حتى بعثوا إلى قادتهم يحذرونهم من أن تفوتهم عرقة، إذ باستطاعتهم الاستيلاء عليها خلال عدة أيام، أو على الأقل يستطيعوا أن يستخلصوا من حاكم طرابلس على مبالغ كبيرة من الأموال ثمناً لرفع الحصار عنها. وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٢، ص٤٥،٤٦.

[٤]- عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٨٧.

[٥]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٤،١٦٥. - توديبو، تاريخ الرحلة، ص٢٩١-٢٩٣.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٢.

[٧]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦،ص١٦٥. - توديبو، تاريخ الرحلة، ص٢٩٣.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٧.- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٢.

[٨]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص١٢٥.

[٩]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٥.- توديبو، تاريخ الرحلة، ص ٢٩٣.

أن ابن عمار كان يستقل بحكم طرابلس عن الخلافة الفاطمية -، ويبدو أن سياسة بذل الأموال تكررت أيضاً أثناء حصار الصليبيين بقيادة الدوق غودفروي لمدينة جبلة إذ عقد حاكمها ابن صليحة هدنة معهم وقدم لهم الخيول ومبلغ من المال ووعد بعدم مضايقة الصليبيين أثناء مسيرهم إلى بيت المقدس[١].

وتكرر هذا الأمر عند الاقتراب من عكا، إذ اضطر أميرها الفاطمي نتيجة ضعفه لمراسلة الصليبيين عارضاً عليهم تسليم المدينة لهم، في حال تمكنوا من الاستيلاء على مدينة بيت المقدس أو البقاء في فلسطين لمدة عشرين يوماً[٢].

ولعلَّ حالة النفور بين حكام الإمارات العربية الإسلامية وسعي كل واحد منهم التوسع على حساب جيرانه، إضافة للأعمال الوحشية التي ارتكبها الصليبيون، دفعت هؤلاء الحكام للعمل على كسب ود الصليبيين فقاموا بعقد عدة اتفاقيات نصت في معظمها على تزويد الصليبيين بكل ما يحتاجونه من المؤن إضافة للأموال والخيول، وقد انتهج الصليبيون سياسة حكيمة عند قبولهم لتلك المهادنات، إذ مكنتهم من تحسين قدراتهم القتالية فاستطاعوا تعويض ما خسروه من المؤن والعدة، ويؤكد ذلك وليم الصوري عندما يقدم صورة عن تحسن الوضع القتالي لقوات ريموند بعد مهادنة شيزر وحمص بقوله:" **صار تحت أيديهم وقبل التقائهم بالزعماء الآخرين أكثر من ألف جواد صالحة لخدمة الجيش لم تكن عندهم من قبل**"[٣]. كما أن هذه الهدن والاتفاقيات أتاحت للصليبيين تسهيل اختراق الحملة لطريقها إلى بيت المقدس دون أن تفقد خسائر بشرية مقابل ذلك، في وقت أخذت قواتهم تعاني النقص في العدة والرجال، ولو استغل العرب المسلمون الضعف الذي عانى منه الصليبيون لتمكنوا من إبادتهم.

ثالثاً- العلاقات السياسية لإمارة أنطاكية مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام:

١- نشأة إمارة أنطاكية وحدودها:

يعد استيلاء الصليبيين على مدينة أنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م وانتصارهم على الجيش السلجوقي الذي يقوده الأتابك كربوغا نواة لنشوء إمارة صليبية فيها. وعلى إثر ذلك ظهرت الأطماع الشخصية لقادة الحملة الصليبية لتأسيس إمارات خاصة بهم، لذلك سعى بوهيموند لتعزيز الأماكن التي يسيطر عليها، كما طالب بقية القادة بتسليمه الأماكن والأبواب التي يتولون حمايتها،مستنداً في ذلك لدوره في الاستيلاء على المدينة فخضع له جميع القادة باستثناء الكونت ريموند الذي أصر على التمسك بالأماكن التي يسيطر عليها[٤]. ونتيجة لانتشار وباء الطاعون بين الصليبيين وحاجتهم للراحة من القتال المتواصل، وتجنب متابعة الزحف خلال فصل الصيف اتفق القادة الصليبيون على تأجيل الزحف نحو بيت المقدس حتى شهر تشرين الثاني١٠٩٨م/٤٩٢هـ، لذلك ترك عدد من القادة المدينة

---

[١]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٤.- توديبو، تاريخ الرحلة، ص ٢٩٢.

[٢]- ريمون دي جيل، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٨٠.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣.

[٤]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٨.- زابوروف، الصليبيون، ص١٠٨.

قاصدين النهب والسلب في المناطق المجاورة[1] فاستغل بوهيموند ذلك، فاتجه إلى منطقة كيليكية واستولى على مدنها وعيين عليها ولاة من قبله[2]، وبهذا الفعل عزز سيطرته على أنطاكية.

وما إن عاد القادة الصليبيون إلى أنطاكية في شهر تشرين الثاني ١٠٩٨م/٤٩٢هـ حتى عقدوا اجتماعاً لتحديد موعداً لاستئناف الزحف نحو بيت المقدس، كما تم مناقشة مسألة من يتولى حكم المدينة، وسرعان ما دب الخلاف بين القادة فبعضهم طرح فكرة تسليمها للإمبراطور البيزنطي، وذلك تنفيذاً لقسم التبعية الذي أدوه أثناء تواجدهم في القسطنطينية، وتزعم هذا الاتجاه الكونت ريموند الذي كان يطمح بحكم المدينة، أما بقية القادة فقد أيدوا أن يتولى حكمها بوهيموند لما لعبه من دور كبير في الاستيلاء عليها[3].

ويبدو أن مجرى الأحداث ساعده في ذلك إذ سرعان ما أبدى فقراء الصليبيين سخطهم على انشغال قادتهم بخلافاتهم الدنيوية عن متابعة الزحف المقدس، فقرروا اختيار قائد جديد لحملتهم كما طرحوا مسألة هدم أسوار أنطاكية لإجبار القادة على مواصلة الزحف نحو بيت المقدس[4]، فحاول القادة الصليبيون إخماد غضب الفقراء بأي عمل حربي جديد، لذلك سرعان ما زحفوا بقيادة الكونت ريموند للاستيلاء على مدينة معرة النعمان، وأدرك بوهيموند مدى خطورة استيلاء ريموند على تلك المدينة؛ مما يشكل خطراً على مناطق نفوذه في أنطاكية وكيليكية، ولهذا قرر الانضمام إلى الجموع المحاصرة، التي تمكنت من الاستيلاء على المدينة ونهبها في ٢٤ محرم ٤٩٢هـ/١١ كانون الأول ١٠٩٨م[5]، ولكن ما لبثت الخلافات أن نشبت مجدداً بين الكونت ريموند وبوهيموند؛ بسبب استيلاء جنود بوهيموند على معظم الغنائم على الرغم من أنهم لم يقاتلوا بضراوة في أثناء المعارك، إضافة لرفض بوهيموند لسعي الكونت ريموند تسليم المدينة لأسقف البارة إلا بعد تنازل الكونت ريموند عن الأبراج التي يسيطر عليها في أنطاكية[6]، وأثار هذا الخلاف غضب جموع الصليبيين الفقراء مما دفع الكونت ريموند ومعظم القادة لمتابعة الزحف في ٤٩٢هـ/١٣ كانون الثاني ١٠٩٩م فضلاً عن استدعائه المقاتلين الذين خلفهم في أنطاكية، وبذلك تخلص بوهيموند من أخطر منافسيه[7]. تلا ذلك زحف بقية الجموع الصليبية بقيادة الدوق غودفروي وبوهيموند بمحاذاة الساحل، ولكن ما إن وصلت على مقربة من اللاذقية حتى انسحب بوهيموند عائداً إلى أنطاكية ؛ مسوغاً ذلك بحاجة المدينة لمن يحميها[8]، وبذلك تخلص من جميع منافسيه وأصبح السيد الأوحد لأنطاكية.

---

(1)- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٥٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨.- زابوروف، الصليبيون، ص١١٠.

(2)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٢٨.- وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٢، ص١١٢.

(3)- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٣٧،٢٣٨.- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٥٦.

(4)- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٣٨.

(5)- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦٠.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٠. - ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص ٣٥٥.

(6)- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٣٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٨. - زابوروف، الصليبيون، ص١١١.

(7)- زابوروف، الصليبيون، ص١١٨.

(8)- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦١-١٦٤.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٢.

ولكن أخذ بوهيموند يسعى لإضفاء الشرعية على حكمه لأنطاكية،فاتجه حاجاً إلى بيت المقدس بصحبة المندوب البابوي الجديد ديمبرت وبولدوين كونت الرها في ذي الحجة ٤٩٣هـ/تشرين الأول١٠٩٩م، وعمل على كسب ود المندوب البابوي عندما ساعده على اعتلاء كرسي بطريركية بيت المقدس،ومقابل ذلك تلقى منه تقليداً بأراضي أنطاكية، وتكريساً لهذا التقليد قام بوهيموند بخلع البطريرك البيزنطي وعين مكانه البطريرك اللاتيني برنارد أوف فالنس، وبذلك ضمن اعتراف البابا بملكيته لأنطاكية[١].

وبعد ذلك سعى لتوسيع حدود إمارته المنشودة فأغار في سنة٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م على منطقة أفاميا لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها واكتفى بإتلاف زرعها[٢]، ويبدو أن هذه التحركات أثارت غضب الملك رضوان حاكم حلب، فهاجم ربض الأثارب[٣] ثم توجه نحو كلا[٤] لإخراج الصليبيين منها إلا أنهم تمكنوا من هزيمته[٥]، مما اضطر رضوان للتحالف مع جناح الدولة حسين حاكم حمص إلا أن الخلاف سرعان ما دب بينهما، فاستغل بوهيموند هذه الفرصة فاستولى على كفر طاب وسيطر على معظم المناطق التي تحيط بمدينة حلب، ثم اندفع لحصارها وكان باستطاعته الاستيلاء عليها نظراً لتداعي قوة الملك رضوان، ولم ينقذ المدينة إلا قيام غازي كمشتكين الدانشمندي أمير سيواس بمهاجمة مدينة ملطية مما دفع حاكمها جبريل لطلب المساعدة من بوهيموند، ومقابل ذلك تعهد بتسليمه المدينة[٦]، ومما دفع بوهيموند لتلبية طلب النجدة حرصه السيطرة على ممرات جبل اللكام، مما يؤدي إلى حماية أنطاكية من أي حملة بيزنطية تقصدها[٧]، ومحاولة منه لكسب الأرمن المعاديين للإمبراطورية البيزنطية، وبالتالي إيجاد حليف يشاركه العداء لبيزنطة، إلا أنه أسر من قبل كمشتكين الدانشمندي في سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م[٨]، وكان لهذا الأسر وهزيمة قوات بوهيموند نتائج سلبية على صليبيي أنطاكية:

١- إذ عد ذلك بمثابة كارثة كبيرة للصليبيين نظراً لنشاطه وبلائه في قتال المسلمين.
٢- أدت الهزيمة إلى انسحاب القوات الصليبية من المناطق القريبة من حلب، مما شجع الملك رضوان الإغارة على المناطق الخاضعة للصليبيين[٩]، إلا أن المسلمين لم يستغلوا حالة الذعر التي عانى منها الصليبيون، وسرعان ما دبت الخلافات بين الحكام العرب المسلمين مما أنقذ صليبيي أنطاكية.
٣- خلو عرش إمارة أنطاكية ممن يتولى حكمها.

ونتيجة لذلك كان تانكرد أمير الجليل هو المرشح المباشر لتولي مهام الإمارة، والذي سار منذ الأيام الأولى لتسلمه الحكم على نهج بوهيموند، إذ سعى للتوسع على حساب العرب المسلمين والبيزنطيين، وبما أن الخطر الأكبر على الإمارة الناشئة كان يتمثل في السيطرة البيزنطية على منطقة كيليكية واللاذقية، لذلك قام سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م بالاستيلاء على مدن طرسوس والمصيصة وأضنة، التي استولت بيزنطة عليها قبل ذلك بثلاث سنوات. كما أخذ يعد العدة لمهاجمة اللاذقية،

---

[١]- عطية، إمارة أنطاكية، ص١٢٥،١٢٦.
[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٣.
[٣]- الاثارب: هي قلعة وبلد، تقع إلى الغرب من مدينة حلب، يصف موقعها ياقوت الحموي بقوله:" **قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ**". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج١، ص ٨٩.
[٤]- لم يتم الوقوف على هذا الموقع في المصادر الجغرافية.
[٥]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٥٦،٣٥٧.- طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢١٢.
[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨٣.- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٥٨.
[٧]- عطية، إمارة أنطاكية، ص١٢٧.- طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢١٣.
[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٧٧. – ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٥٨.
[٩]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٥٨.

ومهد لذلك بالسيطرة على المناطق المحيطة بها، إلا أن مخطط الاستيلاء عليها واجهته عدة مصاعب منها مرابطة الأسطول البيزنطي فيها، إضافة لتمركز قوات الكونت ريموند فيها أيضاً.

لذلك استغل تانكرد وصول الكونت ريموند إلى أنطاكية مع بقايا الحملة اللومباردية، فاعتقله ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد بالتنازل عن أطماعه القديمة في أنطاكية فضلاً عن التزامه بعدم التدخل في شؤون شمال الساحل الشامي وبالتالي سحب قواته من مدينة اللاذقية، وهذا الأمر أضعف موقف الحامية البيزنطية المتواجدة فيها، التي كان عليها مواجهة الحصار الذي فرضه تانكرد على المدينة سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م، والذي استمر لمدة عام كامل[١]، عانت فيه المدينة من انتشار المجاعة، وعدم وصول الإمدادات والمؤن من قبرص، مما اضطر الحامية البيزنطية لتسليم المدينة في أوائل سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م[٢]. وبذلك ضمن تانكرد لإمارة أنطاكية واجهه بحرية واسعة تمتد من سواحل كيليكية شمالاً إلى مدينة اللاذقية جنوباً.

ويبدو بأن نشاطات تانكرد التوسعية شكلت خطراً على بلدوين لي بورغ كونت الرها، وبطريرك أنطاكية، وكواسيل أمير كيسوم الأرمني، لذا سعوا لمفاوضة الأمير كمشتكين الدانشمندي من أجل إطلاق سراح بوهيموند، وعودته لحكم أنطاكية، وهذا الأمر يشكل خطراً على تانكرد؛ لأنه لم يرغب التخلي عن الحكم والإنجازات التي حققها، وسرعان ما أثمرت المفاوضات عن إطلاق سراح بوهيموند مقابل دفع مبلغ من المال[٣]. وبذلك عاد بوهيموند إلى أنطاكية في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م ليجد أن الأمور بصورة أو بأخرى قد تبدلت في غير صالحه، فتانكرد قد أدار الإمارة بمهارة واقتدار خلال فترة غيابه، كما قام بتوسيع حدودها على حساب العرب المسلمين والبيزنطيين، ولم يكن يسعده أن يتخلى عن جميع هذه الإنجازات، إلا أن تانكرد اضطر لمداراة خاله بوهيموند الذي مَنَّ عليه بإقطاع صغير شمل مدينة اللاذقية وبعض المناطق المحيطة بها كإقطاع وراثي له ولذريته[٤]. وفي الوقت ذاته لم يعد بإمكانه أن يستعيد إقطاعه القديم في الجليل؛ بسبب الخلاف مع الملك بلدوين الأول[٥].

وبذلك بدأت مرحلة حكم بوهيموند للمرة الثانية:

فما إن عاد حتى سعى لاستئناف الهجوم على حلب مستغلاً ضعف الملك رضوان وعدم قدرته الدفاع عن مملكته، واستطاع أن يصل إلى قرية المسلمية القريبة من حلب فاستولى عليها وقتل الكثير من سكانها أما من نجا منهم فقد فرض عليه دفع أموال باهظة، وهذا الأمر اضطر رضوان لطلب الصلح، وبالرغم من ذلك استمرت غارات الصليبيين على مناطق حلب[٦]. ثم ما لبث أن اشترك مع بلدوين لي بورغ كونت الرها، وجوسلين دي كورتناي حاكم تل باشر في مهاجمة مدينة حران[٧] سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م؛ بهدف قطع الاتصال ما بين العراق وبلاد الشام، ولكن لحقت بهم هزيمة ساحقة على يد سقمان بن أرتق حاكم ماردين، وجكرمش حاكم الموصل[٨] عند ضفاف نهر البليخ حيث قتل

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٥،٦٦.

[٢]- آنا كومنين، الألكسياد،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٦١

[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٩. - عطية،إمارة أنطاكية، ص١٢٩.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٤١. - عبد الحميد (رأفت)، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٨م، ص٧٠.

[٥]- ماير، تاريخ الحروب، ص١٠٨.

[٦]- طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢١٦،٢١٧.

[٧]- حران: تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة الرقة، **"وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقّة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم"**. – ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص ٢٣٥.

[٨]- تولى حكم الموصل ما بين ٤٩٥- ٥٠٠هـ / ١١٠١- ١١٠٦م

العديد من مقاتليهم[١]، كما وقع في الأسر كل من بلدوين لي بورغ كونت الرها، وجوسلين حاكم تل باشر، فيما نجا كل من بوهيموند وتانكرد[٢]، وأدى أسر بلدوين لي بورغ إلى خلو الرها ممن يحكمها، مما أتاح الفرصة لتانكرد ليصبح وصياً على عرش الرها إلى أن يتم إطلاق سراح الكونت الأسير.

وكانت أخطر نتائج هذه الهزيمة استعادة الملك رضوان لأعمال حلب التي كانت بقبضة الصليبيين، مثل الفوعة وسرمين ومعرة مصرين وغيرها، وما لبثت الحاميات الصليبية المتواجدة في منطقة الجزر بالهرب والالتحاق بأنطاكية[٣]، وبذلك انكمشت حدود إمارة أنطاكية بعد أن كانت قد لامست حدودها مشارف مدينة حلب. كما استغلت الإمبراطورية البيزنطية هذه الهزيمة وحالة الضعف التي تعاني منها إمارة أنطاكية الصليبية، من أجل استعادة أملاكها في شمال بلاد الشام، فأرسلت حملتين الأولى مهمتها الاستيلاء على منطقة كيليكية، والثانية الاستيلاء على مدينة اللاذقية، وتمكن البيزنطيون من الاستيلاء على مدن كيليكية، بينما استولى أسطولهم على مدينة اللاذقية في حين بقيت قلعتها بأيدي مقاتلي بوهيموند، ونتيجة لخطورة هذه الأحداث زحف بوهيموند بقواته صوب اللاذقية لمواجهة البيزنطيين، فاستطاع الدخول إلى القلعة واستبدل حاميتها كما قام بتدمير الكروم القريبة من أسوار المدينة لكي يتيح لفرسانه حرية الحركة دون أن يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم نتيجة لعدم امتلاكه قوة بحرية[٤].

وعلى أثر هذه الهزائم التي مني بها صليبيو أنطاكية داخلت بوهيموند مشاعر اليأس وأدرك ضعف إمارته أمام هجمات المسلمين والبيزنطيين، فوجد ألا مخرج من هذه الحالة سوى الذهاب إلى أوربا للتأكيد على ضرورة إرسال التعزيزات لتأمين صمود الصليبيين، ولذلك أبحر في أواخر خريف ٤٩٨هـ/ ١٠٤ ام مصطحباً معه ما كان متاحاً من الذهب والفضة والأشياء الثمينة، بعد أن عهد إلى تانكرد بإدارة الإمارة في أثناء غيابه[٥].كما عهدت إدارة الرها لريتشارد ساليرنو - أحد الأمراء في إمارة أنطاكية-.

وبذلك بدأت مرحلة وصاية تانكرد لأنطاكية للمرة الثانية، وكان عليه مواجهة المصاعب التي نتجت عن رحيل بوهيموند الذي اصطحب معه معظم مقاتلي الإمارة إضافة للكثير من أموالها، لذلك انتزع قرضاً من أثرياء تجار أنطاكية أنعش خزائنه، ومكنه هذا الأمر من استئجار مرتزقة محليين، كما استدعى من الرها وتل باشر ما يمكن الاستغناء عنه من الفرسان، وبعد ذلك أخذ يعد العدة لتأمين حدود الإمارة فاستطاع الاستيلاء على أرتاح[٦] سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م، وفي السنة ذاتها تمكن من هزيمة الملك رضوان بالقرب من تيزين[٧]، مما دفع الأخير لطلب الصلح، وتنازل لتانكرد عن كل أراضي وادي العاصي إضافة إلى دفع مبالغ مالية، وفي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م تمكن من الاستيلاء

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤١٨،٤١٩.- ماير، تاريخ الحروب، ص١٠٨.

[٢]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٢٩.- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٦١.

[٣]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار،ج١، ص ٣٦١.

[٤]- آنا كومنين، الألكسياد،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٦٤-٦٩، ٧٢،٧٣. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٧٦. - عبد الحميد، قضايا، ص٧٠.- عطية، إمارة أنطاكية، ص١٣١،١٣٢.

[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٧٦.- عبد الحميد، قضايا، ص ٧٠،٧١.

[٦]- أرتاح: تقع ما بين حلب وأنطاكية، يقول ياقوت الحموي عنها: **" اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ١٤٠.

[٧]- تيزين: تقع إلى الغرب من مدينة حماة، وكانت تعد خلال الحروب الصليبية من أعمال حلب، ووصفها ياقوت الحموي بأنها " قرية كبيرة من نواحي حلب". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٦٦.

على مدينة أفاميا[١]، وبذلك أمن تانكرد الحدود الجنوبية والشرقية لإمارته وأعادها إلى ما كانت عليه قبل سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، وبالتالي تفرغ لصراعه مع الإمبراطورية البيزنطية.

وفي خضم توسع تانكرد في المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر العاصي، قام بوهيموند بمهاجمة أراضي الإمبراطورية البيزنطية في البلقان سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، لكنه أخفق لعدم امتلاكه أسطول خاص به[٢]، إلا أن هذا الصراع أفاد تانكرد إذ اضطرت الإمبراطورية البيزنطية لاستدعاء قواتها المرابطة في كيليكية والأسطول المرابط في اللاذقية، مما أتاح الفرصة لتانكرد للاستيلاء على مدن المصيصة وأضنة وطرسوس[٣]، وفي سبيل السيطرة على اللاذقية قام بالتحالف مع أسطول مدينة بيزا مقابل حصولها على أحد شوارع أنطاكية، وأحد أحياء اللاذقية وكنيسة عند الاستيلاء عليها وبالفعل تمكن الحلفاء من الاستيلاء على المدينة في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م.

وكانت المرحلة الأخيرة لرسم حدود إمارة أنطاكية هي الاستيلاء على بانياس ومدينة جبلة في سنة٥٠٣هـ/١١٠٩م[٤]، وبذلك وصلت إمارة أنطاكية إلى أقصى اتساعها في الوقت الذي كان فيه بوهيموند يعلن استسلامه للإمبراطورية البيزنطية بموجب اتفاقية ديابوليس(ديفول)[٥]، وبذلك صار تانكرد الحاكم الفعلي للإمارة التي امتدت حدودها من كليكية وجبال طوروس شمالاً إلى بانياس جنوباً، ومن حدود كونتية الرها، وإمارة حلبشرقاً إلى البحر المتوسط غرباً.

كما أن التقسيمات الإدارية لهذه الإمارة تشكلت تدريجياً، ومرت بستِّ مراحل حتى أخذت شكلها النهائي، وهي:

- المرحلة الأولى: تمثلت باستيلاء الصليبيين على مدينة أنطاكية٤٩٢هـ/١٠٩٨م.

- المرحلة الثانية: تمثلت بالاستيلاء على البارة ومعرة النعمان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م.

- المرحلة الثالثة: تمثلت باستيلاء بوهيموند على كيليكية.

- المرحلة الرابعة: تمثلت بالاستيلاء على مدينة أفاميا.

- المرحلة الخامسة: تمثلت بإعادة الاستيلاء على كيليكية واللاذقية من البيزنطيين سنة٥٠٢هـ/١١٠٨م.

- المرحلة السادسة: تمثلت بالاستيلاء على مدن جبلة وبانياس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م.

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨١،٨٢.
[٢]- ماير، تاريخ الحروب ، ص١٠٩.
[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨٢.
[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٦٢.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٩.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨٣. التدمري، لبنان، ص٢٤٣.
[٥]- مما نصت عليه هذه الاتفاقية:
أولاً - أن يقسم بوهيموند على التبعية للإمبراطور البيزنطي.
ثانياً-أن يظل بوهيموند أميراً لأنطاكية يحكمها تحت سيادة الإمبراطور البيزنطي.
ثالثاً- تبقى مدن كيليكية تحت الحكم المباشر للإمبراطور.
رابعاً- أن يستعاض عن البطريرك اللاتيني لأنطاكية ببطريرك بيزنطي.
- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٣،٤٣٤.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨٠.

٢- العلاقات السياسية مع الإمارات الإسلامية في بلاد الشام:

أ- العلاقات السياسية لإمارة أنطاكية مع إمارة حلب:

على الرغم من اتصاف العلاقات بين صليبيي أنطاكية وإمارة حلب منذ البداية بالصبغة العسكرية، إلا أنَّ ذلك لم يمنع من قيام علاقات سياسية بين الطرفين فرضتها نتائج الأعمال العسكرية، إذ أن غارات تانكرد على أعمال حلب ونهب العديد منها، بالإضافة للوضع المتردي لإمارة حلب دفع الملك رضوان صاحب حلب للاتصال بتانكرد في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م طالباً الصلح والتنازل له عن بعض الأراضي[١]، ويعد هذا الصلح أول اتفاقية تعقد بين إمارة حلب وصليبيي أنطاكية وتأتي خطورتها كونها تعبر عن مدى ضعف حلب، مما أغرى تانكرد فيما بعد مواصلة شن الغارات عليها. وهذا ماحدث سنة٥٠٠هـ/١١٠٦م مما دفع رضوان لمعاودة الاتصال بتانكرد ومحاولة إيقاف غاراته عن طريق ملاطفته وتقديم الأموال والهدايا إذ " **أرسل لهم- لصليبيي أنطاكية- اثنين وثلاثين ألف دينار وعشرين بغل وأربعين ثوب أطلس**"[٢].

وفي تلك الأثناء كان يتولى حكم الموصل جاولي (ت ٥١٠هـ/١١١٦م) الذي كان مكروهاً من قبل الرعية، كما أعلن عصيانه على السلطان محمد بن ملكشاه، الذي أرسل حملة عسكرية بقيادة الأتابك مودود مهمتها طرد جاولي[٣]، مما اضطره للفرار نحو الجزيرة ونتيجة لحاجته إلى المال وللحصول على حلفاء، قام بإطلاق سراح بلدوين لي بورغ وجوسلين مقابل مبلغ من المال والتحالف معهم[٤]، وبعد ذلك انطلق بلدوين إلى الرها ليتسلمها إلا أن تانكرد رفض ذلك إلا بعد أن يقسم بلدوين قسم الولاء له، وبذلك خالف تانكرد تعهد بوهيموند بإعادة إمارة الرها لبلدوين فور إطلاق سراحه[٥].

ونتيجة لذلك طلب بلدوين النجدة من جاولي[٦]، إذ تؤكد المصادر الصليبية أنَّ جوسلين تمكن من حشد ما يقارب سبعة آلاف مقاتل تركي[٧]، وعلى الرغم من المبالغة بهذا العدد إلا أنه يبدو أن هذه القوة كانت عبارة عن النجدة المقدمة من جاولي. ويبدو أنَّ التحالف بين بلدوين لي بورغ وجاولي شكل خطراً على ممتلكات رضوان حاكم حلب، فقام بمهاجمة قافلة تجارية خرجت من تل باشر تحمل قسماً من المال الذي افتدى به بلدوين نفسه، مما أثار غضب جاولي فقام بالاستيلاء على مدينة بالس في صفر٥٠٢هـ/أيلول١١٠٨م[٨]، ونتيجة لذلك أخذ رضوان بالبحث عن حليف فوجده في عدوه القديم تانكرد، وفي سبيل تحريضه على مساعدته ابلغه مدى خطر استيلاء جاولي على حلب، وعند ذلك لن يبقى للصليبيين معه بقاء في بلاد الشام[٩]، بينما يذكر ابن العديم أن تانكرد هو من طلب النجدة من رضوان[١٠]. وعلى إثر ذلك احتشدت قوات بلدوين وجاولي عند تل باشر بينما عسكر تانكرد

---

(١)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨١،٨٢.- عطية، إمارة أنطاكية، ص١٣٣.

(٢)- ميخائيل السوري الكبير، روايات ميخائيل السوري،"من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م، ج٥، ص١٢٦.

(٣)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٥٦.- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٥٦٣، ٥٦٤.- طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢٢٣.

(٤)- طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢٢٣.

(٥)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٢١.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٤٤.

(٦)- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٥٦٦.

(٧)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٢١.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٥.

(٨)- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٥٦٨.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٤٥.

(٩)- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٥٦٩.

(١٠)- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٦٤،٣٦٥.

ورضوان بالقرب منهم، وبذلك انقسم الحكام المسلمون والصليبيون في شمال بلاد الشام على أنفسهم، وسرعان ما التقى الطرفان وانتهت المعركة بهزيمة حلف بلدوين وجاولي[١].

وبذلك أدت هذه الأحداث إلى ظهور أحلاف بين العرب المسلمين والصليبيين لقتال إخوانهم في الدين متناسين الخلافات الدينية بينهم، وبذلك ناقض الصليبيون ادعاءاتهم أنهم قد جاؤوا إلى الشرق لتحريره من سيطرة المسلمين وظهر بأن الأطماع السياسية هي من كانت تحركهم.

ولكن ما لبثت العلاقات بين الطرفين أن ساءت نتيجة سعي الصليبيين التوسع في أعمال حلب مستغلين ضعف حكم رضوان، مما دفع هذا الأخير إلى تقديم العديد من التنازلات والأموال للصليبيين، وخير مثال على ذلك ما حدث في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م حيث أَجبر صليبيو أنطاكية رضوان على أن يدفع سنوياً مبلغ عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل، إضافة لإطلاق سراح الأسرى الصليبيين الموجودين لديه[٢].

وبالرغم من السياسة العدوانية التوسعية التي اتبعها صليبيو أنطاكية ضد حلب وأعمالها، إلا أنهم أدركوا أهمية أن تجاورهم تلك الإمارة العربية الإسلامية التي امتازت بالضعف والصراع بين أمرائها على السلطة، على أن تخضع لسلطة أمراء الحملات العسكرية المرسلة من قبل السلاطين السلاجقة، والمكلفة بحرب الصليبيين، بينما أدرك أمراء حلب خاصة، والشام عامة خطر هذه الحملات، التي تمثل هدفها السعي لفرض سلطة السلطان السلجوقي على بلاد الشام إضافة لقتال الصليبيين، ونتيجة لذلك توحدت جهود أمراء الشام العرب المسلمين والصليبيين للوقوف في وجه تلك الحملات، لذلك سرعان ما استجاب الصليبيون لنداء النجدة الذي أطلقه أمراء حلب للوقوف في وجه الحملات السلجوقية التي قدمت إلى بلاد الشام في بدايات القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وخير مثال على ذلك ما حدث سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م إذ قام الأمير لؤلؤ الخادم (ت٥١١هـ/ ١١١٧م)- المتحكم بسلطان شاه بن رضوان حاكم حلب- مع إيلغازي الأرتقي والأتابك طغتكين بالارتماء في أحضان الصليبيين للوقوف في وجه الجيش الذي يقوده برسق بن برسق حاكم همذان(ت ٥١٠هـ/١١١٦م)[٣]، وأدى هذا التحالف مع الصليبيين إلى إخفاق حملة برسق الذي لقي خسارة كبيرة على أيدي قوات أنطاكية في معركة دانيث[٤] سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م[٥].

ونتج عن هذا الحلف الصليبي- العربي الإسلامي وهزيمة برسق ما يلي:

١- لقنت التجربة كلاً من لؤلؤ الخادم وإيلغازي وطغتكين درساً قاسياً، إذ إنها لم تحقق لهم أي مكسب، بل على العكس مكنت صليبيي أنطاكية من توجيه ضربة حاسمة للقوات العربية الإسلامية فشلت قدرتها ومنعتها من القيام بأي ردة فعل.
٢- كانت حملة برسق آخر محاولات السلاطين السلاجقة لاستعادة سيطرتهم على بلاد الشام.
٣- أدى هذا الحلف مع انتصار دانيث إلى رفع مكانة روجر، وجعله أقوى حكام شمال بلاد الشام.
٤- استرداد صليبيي أنطاكية لبلدة كفر طاب من بني منقذ حكام شيزر.

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٦٩.- متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص٣٤.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٤٥،١٤٦.- طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢٢٥.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٧٣.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٦٧.

[٣]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٨٠. – زيان، الصراع السياسي، ص٦٥.

[٤]- دانيث: هي **" بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص ٤٣٤.

[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٥١،٤٥٢.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٨١.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٦٣.

٥- إدراك كلٍّ من إيلغازي وطغتكين خطأ موقفهما من حملة برسق، فسارعا للعمل على كسب رضا السلطان محمد بن ملكشاه[١].

وتكرر هذا الحلف العربي الإسلامي - الصليبي سنة ٥١١هـ/١١١٧م، إذ قام ياروقتاش المتحكم بحلب بالتحالف مع صليبيي أنطاكية للتصدي للأتابك آق سنقر البرسقي حاكم الموصل[٢]، ويبدو أن الصليبيين أدركوا خطورة اجتماع مسلمي بلاد الشام على كلمة واحدة لذلك سعوا للعمل على بث الخلاف والتفرقة بين الأمراء العرب المسلمين، واستغلال ذلك لتوسيع أملاكهم، وإجبار أمراء حلب على تقديم المزيد من التنازلات المالية أو منحهم بعض المناطق دون قتال، ويؤكد هذا ابن العديم بقوله:**"هادن ياروقتاش صاحب أنطاكية روجار، وحمل إليه مالاً وسلم إليه حصن القبة[٣]، ورتب مسير القوافل من حلب على القبلة عليه، وأن يؤخذ المكس منهم له"**[٤]. وبذلك يمكن الاستنتاج من قول ابن العديم أن الطريق التي تصل بين حلب ودمشق أصبحت خاضعة لرقابة صليبيي أنطاكية، وكان لهذا دور في خنق إمارة حلب من الناحية الاقتصادية مما ساعد على انهيارها أمام الصليبيين.

وبناء على ذلك فإن سياسة التنازلات التي اتبعها أمراء حلب تجاه الصليبيين، جعلت من مدينتهم عبارة عن منطقة نفوذ لصليبيي أنطاكية الذين أخذوا يتحكمون بتجارتها، إذ أجبرت القوافل التجارية بالمرور بحصن القبة الخاضع للصليبيين من أجل دفع ما يترتب عليها من ضرائب، وإلا لن تستطيع متابعة سيرها[٥]. كما غدت حلب تعتمد على التحالف مع روجر حاكم أنطاكية الصليبية في رد الطامعين للاستيلاء عليها من الأمراء العرب المسلمين، ويبدو أن روجر أدرك مدى الفائدة التي ستجنيها إمارة أنطاكية من تواجد حكم ضعيف متقهقر في حلب المجاورة لها، إذ استطاع الصليبيون من خلال تلك التحالفات الحصول على المزيد من الأراضي دون بذل جهد كبير أو خوض أي معركة في سبيل ذلك.

ولكن ما لبثت إمارة أنطاكية أن تعرضت لكارثة كبيرة في سنة ٥١٣هـ/١١١٩م إذ تمكن الأمير إيلغازي بن أرتق من إلحاق الهزيمة بصليبيي أنطاكية بالقرب من تل عفرين[٦]، وقتل في هذه المعركة حاكم أنطاكية روجر والعديد من رجاله[٧]. وبالتالي أصبحت إمارة أنطاكية بدون وصي على إدارة أمورها بغياب الوريث الشرعي لبوهيموند الأول، فلذلك وضعت الإمارة تحت وصاية الملك بلدوين الثاني لمدة سبع سنوات[٨]، إلا أن العرب المسلمين لم يستفيدوا من الظروف السيئة التي عاناها صليبيو إمارة أنطاكية، إذ سرعان ما انشغلوا في خلافاتهم الداخلية، مما أتاح الفرصة أمام الملك

---

[١]- خليل (عماد الدين)، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٣٣.
- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٦٣.

[٢]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٨١-٣٨٤.
- أق سنقر البرسقي: هو قسيم الدولة سيف الدين، أبو سعيد آق سنقر البرسقي، المنسوب إلى الأتابك برسق بن برسق، تولى حكم الموصل سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، وكلفه السلطان محمد بن ملكشاه بقتال الصليبيين، قتل في مدينة الموصل على أيدي الحشيشية سنة ٥١٩- ٥٢٠هـ/ ١١٢٥- ١١٢٦م.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٢٤٢. - ابن ناصر الدين (محمد بن عبد الله)، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، ص ٤٥٥.

[٣]- لم يتم الوقوف على موقعه في المعاجم الجغرافية.

[٤]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٨٤.

[٥]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٨٦.

[٦]- يذكر وليم الصوري بأن الأمير روجر قد حشد قواته في موقع يسمى بـ"حقل الدم" أو "ساحة الدم"، يقع بالقرب من حصن أرتاح. وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٤٩.

[٧]- العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٦٩،٣٧٠. - ابن العديم ، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٩٠، ٣٩١.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٢، ص ٣٥٧.

بلدوين الثاني لإعادة ترتيب أوضاع الإمارة المنكوبة، ونتيجة لذلك سعى إيلغازي لمصالحة صليبيي أنطاكية في أواخر سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م واتفق معهم على المسالمة والموادعة[١]، بل حتى وصل الأمر به بأن أعاد لهم **" المعرة وكفر طاب والجبل والبارة، وضياعاً من جبل السماق برسم هاب، وضياعاً من ليلون برسم تل أعذى، وضياعاً من بلد عزاز"**[٢]، ويبدو أن الصليبيين كانوا يدركون حالة الضعف والانقسام التي يعاني منها مسلمو حلب، لذلك حاولوا استغلال ذلك بشن غارات على أعمال حلب لإجبار أمرائها على الدخول معهم في مفاوضات، وعلاقات سياسية حققت لهم ما عجزوا عنه في كثير من المعارك، فقد استطاعوا إجبار إيلغازي للمرة الثانية على الاتصال بهم والتفاوض على اقتسام المناطق حتى تلك القريبة من مدينة حلب وذلك في سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[٣]، واستمر هذا الأمر حتى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م إذ خطط الصليبيون لاحتلال مدينة حلب، ولكن دون أن يقع كل الجهد في ذلك عليهم، لذلك أقاموا حلفاً مع عدد من الأمراء العرب المسلمين على رأسهم دبيس بن صدقة[٤]- الذي كان يأمل بحكم حلب-[٥] فاتفق مع **" الفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج..."**[٦]، ومن الأمراء الآخرين الذين اشتركوا في هذا الحلف كل من سلطان شاه بن الملك رضوان، ومالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، ويغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس[٧].

وبذلك استخدم الصليبيون علاقاتهم السياسية مع بعض الأمراء العرب المسلمين لإنشاء حلف عسكري هدف لاحتلال جزء من بلاد الشام الخاضعة لحكم العرب المسلمين، وبذلك استطاع الصليبيون التقليل من الخسائر المادية والبشرية التي كانت ستلحق بهم لو قاموا بحصار حلب بمفردهم، كما أنهم استفادوا من الخلاف القائم بين أمراء حلب من جهة، وأمراء المناطق المحيطة بها فعملوا على توطيد علاقاتهم السياسية معهم لما في ذلك تهديد لحلب. في وقت وجد فيه بعض الأمراء العرب المسلمين أن تحقيق أحلامهم التوسعية لن تخرج إلى حيز الحقيقة إلا بمعونة الصليبيين.

وقد أجبرت هذه الأوضاع حكام حلب على مواصلة طلب الصلح وعقد الهدن مع الصليبيين، إلى أن تولى عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود حكم حلب، فالأعمال القتالية التي قاما بها ضد الصليبيين رسخت الجبهة العربية الإسلامية في شمال بلاد الشام، وهذا الأمر أضعف تدخل الصليبيين في شؤون إمارة حلب بل على العكس تحولوا إلى موقف الدفاع، وأخذوا يطلبون عقد الهدن والمعاهداتنظراً لإدراكهم مدى ضعف ووهن كياناتهم وسعيهم للحفاظ على الأراضي التي يسيطرون عليها، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م عندما اجتاح نور الدين بقواته أراضي إمارة أنطاكية واستولى على العديد من الحصون، مما دفع الصليبيين لمحاولة الاتصال به والسعي لطلب الصلح والتنازل له عن بعض المناطق[٨].

وبذلك فإن قوة نور الدين محمود وأعماله العسكرية جعلته المتحكم الأول في أحوال شمال بلاد الشام سواء في المناطق التي تقع تحت سيطرة العرب المسلمين أو تلك الخاضعة للصليبيين حتى أن الأمراء الصليبيين سعوا للحصول على دعم نور الدين في خلافاتهم الداخلية، وخير مثال على ذلك

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢٢.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٩٧.
[٢]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٩٧.
[٣]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٤٠٠.
[٤]- نور الدولة دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، صاحب مدينة الحلة توفي سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١١، ص ٤٨٦.
[٥]- زيان، الصراع السياسي، ص٧٤.
[٦]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٤١٩.
[٧]- العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٧٤.- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٤٢٠.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٧٤،٤٧٥.

طلب الكونت ريموند الثاني العون من نور الدين لمواجهة أطماع برتراند بن ألفونسو بن ريموند - الذي قدم مع الحملة الصليبية الثانية- في الاستيلاء على حكم كونتية طرابلس إنطلاقاً من حصن العريمة الذي استولى عليه[١].

ب - العلاقات السياسية لإمارة أنطاكية مع إمارة شيزر:

ما إن قدمت الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام ونجاحها في الاستيلاء على مدن أنطاكية ومعرة النعمان، حتى التزم أمير شيزر أبي المرهف نصر بن منقذ[٢] بعدم الصِدام أو إعلان الحرب على الصليبيين، فاستنّ بذلك سنة لخلفائه، ورسم أبرز خطوط السياسة الخارجية لإمارة شيزر تجاه الصليبيين[٣]. ويبدو أن أبي المرهف اتخذ هذا الموقف نتيجة لإدراكه انهيار القوة السلجوقية في شمال بلاد الشام مما فتح الطريق أمام الحملة الصليبية لمواصلة الزحف جنوباً، كما كان يدرك أن إمكانات إمارته غير قادرة على التصدي للصليبيين إذا ما قاموا بمهاجمة شيزر.

لذا ما إن اقتربت جموع الحملة الصليبية من الأراضي التابعة لإمارة شيزر في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، حتى سارع أميرها أبو العساكر سلطان[٤] إلى إيفاد مندوبيه إلى الكونت ريموند حين كان في معرة النعمان،وأيضاً عند وصوله إلى كفر طاب، إذ خشي أبو العساكر من قيام الصليبيين بالاعتداء على أراضيه وارتكاب المجازر، فراسلهم طالباً الهدنة، وعرض عليهم أن يمدهم بالخيول والمؤن والعتاد، والتعهد بتأمين راحة الحجاج وعدم التعرض لهم بأذى[٥]، وعند سعي الصليبيين للاعتداء على الأراضي الزراعية أغراهم بعبور نهر العاصي، حيث توجد الكثير من الغنائم، وفي سبيل ذلك زودهم بدليلين يقودانهم إلى حيث يجدوا ما تصبوا إليه أنفسهم من مغانم[٦]. وهكذا استطاع أمير شيزر عن طريق تقديم عدد من التنازلات المالية، والهدايا للقوات الصليبية الحفاظ على سلامة أراضي إمارته، التي تعد الإمارة الوحيدة في شمال بلاد الشام التي لم تصطدم عسكرياً مع الصليبيين في ذلك الوقت.

ولكن ما أن استقر الصليبيون في المناطق التي استولوا عليها في ساحل بلاد الشام حتى بدؤوا يشكلون خطراً على استقرار إمارة شيزر؛ لأنها فقدت نتيجة لذلك معظم المناطق التابعة لها، وغدت أشبه بدائرة صغيرة لا تضم سوى شيزر وضواحيها القريبة، وهذا الأمر أضعفها ودفعها لتجنب الصدام العسكري مع القوى الصليبية وبخاصة المتواجدة في أنطاكية، والسعي لعقد اتفاقيات الصلح والهدن معهم[٧]، ويمكن تسويغ ذلك بعدم امتلاك الإمارة للقوات العسكرية القادرة على ردع

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٦٠. - ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي الدهان، ج٢، ص ٦٥٦،٦٥٧. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج١، ص٣٢٥، ٣٣٣.

[٢]- هو أبو المرهف نصر بن علي بن مقلد بن نصر بن المنقذ بن محمد بن منقذ بن نصر ابن هاشم الكناني، تولى حكم إمارة شيزر خلفاً لوالده سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ، شهد قدوم السلطان ملكشاه إلى بلاد الشام وتنازل له عن عدة مناطق تابعة لإمارة شيزر، شملت اللاذقية ، أفامية، كفر طاب، توفي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م.
- ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٢، ص ٣٦، ٣٧. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٠، ص ٧١٣.

[٣]- الشيخ (محمد)، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص٣١٣.

[٤]- هو أبو العساكر تاج الدولة سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، تولى حكم شيزر خلفا لأخيه نصر سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وتوفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٨٢٦.

[٥]- المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٦١.- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٤٨.- توديبو، تاريخ الرحلة ، ص ٢٨٩.

[٦]- توديبو، تاريخ الرحلة، ص٢٨٩.

[٧]- الشيخ، الإمارات العربية، ص٣١٨، ٣٢٧.

الصليبيين، إضافة لإدراك أمير شيزر بعدم وجود قوة عربية إسلامية تستطيع أن تقدم العون العسكري له.

وما أن تولى تانكرد حكم إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م حتى أخذ يعمل على توسيع حدودها، فقام في شهر ربيع الآخر ٥٠٢هـ/١١٠٦م بالإغارة على شيزر فاستولى على الكثير من الماشية كما قتل وسبى الكثير من رعاياها، مما اضطر حاكم شيزر لمفاوضة تانكرد لكبح جماح غاراته، وتم التوصل لعقد هدنة لمدة تزيد عن سنة(١)، وبذلك أدت تلك المناوشات القتالية لإقامة نوع من العلاقات السياسية بين إمارة أنطاكية الصليبية وإمارة شيزر. لكن سرعان ما نقض تانكرد الهدنة فقام سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م بمهاجمة شيزر وتكرر ذلك في سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م، وفي أثناء ذلك شهدت بلاد الشام قدوم الحملات التي أرسلت من قبل السلاطين السلاجقة، والتي كلفت بقتال الصليبيين، وحاولت شيزر الاستفادة منها من أجل تدعيم موقفها تجاه صليبي أنطاكية، مما دفع صليبيي أنطاكية للارتضاء بالعلاقات السلمية معها، فخلال حكم روجر لأنطاكية(٥٠٦-٥١٣هـ/١١١٢-١١١٩م) حدث نوع من التقارب بين الطرفين، وخير دليل على ذلك ما أورده أسامة بن منقذ عند حديثه عن قيام روجر بمراسلة عمه أبي العساكر من أجل تسهيل مرور رسوله في أراضي شيزر، وذلك بقوله:" **أن روجار صاحب أنطاكية كتب إلى عمي يقول: قد نفذت فارساً من فرساني في شغل مهم إلى القدس. أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أفاميا ويوصلونه إلى رفنية فركب وأرسل من أحضره...**"(٢)، وبالرغم من أن المصادر العربية لا تورد ذكر لقيام أي نوع من الهدنة أو الصلح بين الطرفين خلال حكم روجر أو تذكر هذه الحادثة، إلا أن ذكر أسامة بن منقذ - وهو من الأسرة المالكة والمطلع على الكثير من شؤونها –يعطي دليلاً على قيام علاقات سياسية متبادلة بين الإمارتين.

إلا أن العلاقات سرعان ما ساءت إثر مقتل الأمير روجر في معركة ساحة الدم ٥١٣هـ/١١١٩م، إذ تولى الوصاية على إمارة أنطاكية الملك بلدوين الثاني، وهذا الأمر شجع أمير شيزر على منع الأموال التي كان يدفعها لإمارة أنطاكية(٣)، لذا قام صليبيو أنطاكية بالإغارة على إمارة شيزر سنة٥١٤هـ/١١٢٠م فأسروا وقتلوا العديد من السكان، ودخلوا في مفاوضات مع أميرها الذي لم يجد بُداً أمام الضغط العسكري من الموافقة على إعادة دفع الأموال التي كان يؤديها سنوياً، كما اتفق الطرفان على الصلح لآخر هذه السنة(٤).

وما لبثت الأوضاع السيئة التي عانت منها الإمارات الصليبية إثر وقوع كل من الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس والوصي على عرش أنطاكية وجوسلين أمير الرها أسيران لدى بلك بن بهرام الأرتقي (٥)، أن انعكست على العلاقات بين إمارة أنطاكية الصليبية وإمارة شيزر، إذ مهدت لقيام علاقات سلمية بينهما من جهة وبين شيزر وبقية الصليبيين من جهة أخرى، مما أتاح للأمير أبو العساكر سلطان حاكم شيزر أن يشغل دور الوسيط في تقريب وجهات النظر بين الصليبيين من جهة،

---

(١)- ابن منقذ (أسامة)، الاعتبار، تحقيق: فليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت ، ص٦٦، ٧٠.

(٢)- ابن منقذ، الاعتبار، ص ٨٧.

(٣)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٠٩.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٦٣.

(٤)- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص٣٩٨.

(٥)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٣٣٠،٣٣٢.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٧٢-٤٧٥. - الشيخ، الإمارات العربية، ص٣٣٢.

- بلك الأرتقي: هو بلك بن بهرام بن أرتق بن اكسب تولى حكم عانة والحديثة سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، وبعد وفاة عمه إيلغازي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، سعى الاستيلاء على جميع ممتلكاته، فاستولى على حران وحلب سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، وقتل في أثناء حصاره لقلعة منبج سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م.

- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٨٦، ٦٩٢. - أبو الفداء (إسماعيل بن علي)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، د. ت، ج٢، ص ٢١٦، ٢٣٧.

والأمير تمرتاش الأرتقي[١]- الذي خلف بلك في حكم حلب وماردين- من جهة أخرى لإطلاق سراح الملك الصليبي، فكان لوساطته فضل في إطلاق سراح الملك بلدوين الثاني، وذهب في سعيه لإتمام هذا المشروع إلى حد تقديمه بعض الرهائن من أمراء شيزر ليبقوا لدى تمرتاش، في حين اصطحب معه الملك بلدوين إلى شيزر حيث بقي فيها إلى أن حضر بعض الرهائن الصليبيين ليبقوا في شيزر عوضاً عنه، وعند ذلك أطلق سراحه في ١٧ رجب ٥١٨هـ/١١٢٤م[٢]. ويمكن تبرير تحمس الأمير سلطان لإنجاز هذا الاتفاق بسعيه التقرب من الملك بلدوين الثاني ومن خلفه صليبيي أنطاكية. وهذا الشيء غير مستغرب إذ تمثلت السياسة العامة لإمارة شيزر بالسعي للتقرب من قوى النفوذ في المنطقة من أجل الحفاظ على وجودها واستقلالها.

إلا أن الملك بلدوين لم يلتزم بتنفيذ بنود الاتفاق الذي نص على تسليم مناطق الأثارب، وزردنا[٣]، وكفرطاب، وإعزاز، وبقية المبلغ المترتب عليه دفعه لتمرتاش[٤]، وعلل ابن العديم تصرف بلدوين بقوله:" **فخرج وغدر بتمرتاش وأنفذ إليه يقول: البطريك الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت،وما الذي استقرّ، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني أبى، وأمرني بالدفع عنها...**"[٥]، في حين علل بعض المؤرخين المعاصرين ذلك بأن بلدوين الثاني كان يعلم تماماً أن رهائنه في مأمن ما دامت لدى أمير شيزر، الذي لن يجرؤ على اتخاذ أية خطوة تعرض أمن إمارته وسلامتها للخطر[٦].

ونتيجة لذلك توطدت العلاقات السلمية بين إمارة أنطاكية- التي تقع تحت وصاية الملك بلدوين الثاني- وإمارة شيزر إلى حد قول أسامة:" **ثم ملك بغدوين البرونس أنطاكية. وكان لأبي وعمي، رحمهما الله، عليه جميل كبير ... فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطيعة سامحنا بها وصار أمرنا في أنطاكية نافذاً**"[٧]، بل نشأت العديد من الصداقات بين أمراء وسكان كلتا الإمارتين، وقدم أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار العديد من الصور التي تدل على ذلك، منها زيارة أحد فرسان شيزر لمدينة أنطاكيةوالذي نزل ضيفاً على أحد الأمراء الصليبيين[٨].

واستمر ذلك لغاية قدوم بوهيموند الثاني لاستلام حكم إمارة أنطاكية سنة٥٢٠هـ/١١٢٦م، الذي امتاز بتحمسه لقتال العرب المسلمين، وأدى ذلك إلى تعكير صفو العلاقات السلمية بين شيزر وأنطاكية، إذ سرعان ما هاجم بوهيموند الثاني شيزر، وعبر عن ذلك أسامة بقوله:" **وخرج على**

---

[١]- هو حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق بن أكسب، صاحب ماردين، تسلم حكم حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، إلاأنه لم يقم طويلاً فيها، فرتب أمورها ثم اتجه إلى ماردين؛ لأنه وجد بلاد الشام كثيرة الحروب مع الصليبيين، بينما كان هو يميل إلى الدعة والرفاهية، فتعرضت حلب في السنة ذاتها لحصار من قبل الصليبيين وبعض حلفائهم من الأمراء العرب المسلمين، فطلب سكانها العون من تمرتاش إلا أنه لم يهتم للأمر، فكاتبوا آق سنقر البرسقي حاكم الموصل طلباً للعون مقابل تسليمه حكم المدينة، فقام بتلبية طلبهم، بينما بقي تمرتاش يحكم ماردين وميفارقين لغاية وفاته سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م.

- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٩٢ . - أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ٢٣٧، ٢٣٨، ج٣، ص٦.

[٢]- ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٤١٧-٤١٩.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٤.- الشيخ، الإمارات العربية، ص٣٣٣.

[٣]- زردنا: " بليدة من نواحي حلب الغربية". - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ١٣٦.

[٤]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص ٤١٧،٤١٩.

[٥]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص ٤١٩.

[٦]- الشيخ، الإمارات العربية، ص٣٣٣،٣٣٤.

[٧]- ابن منقذ، الاعتبار، ص١٢١.

[٨]- ابن منقذ، الاعتبار، ص١٤٠.

النـاس من ذلك الشيطان ابن ميمون- بوهيموند الثـاني- بليّه عظيمـة، فنـزل علينـا يومـاً من الأيـام بعسكره..."[١].

وتكرر هذا الهجوم سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م[٢]. وبعد عشر سنوات شهدت المنطقة قيام تحالف بين بيزنطة وصليبيي أنطاكية، تمثل هدفه بالاستيلاء على مدن حلب وحماة وشيزر، إلا أن هذا الحلف فشل في تحقيق أهدافه نتيجة لجهود عماد الدين زنكي[٣]، إضافة إلى عدم توفر حسن النيه بين كل من صليبيي أنطاكية والبيزنطيين[٤]، إذ خشي ريموند دي بواتيه(٥٣٠-٥٥٤هـ/١١٣٦-١١٤٩م) في حال سقوط شيزر أن يُجبر على التخلي عن إمارة أنطاكية للبيزنطيين، وأن يستقر في شيزر، وفي هذه الحالة سيقع على عاتقه التصدي لغارات العرب المسلمين والتخلي عن مباهج حياة الرفاهية التي سادت في أنطاكية[٥].

واستمرت العلاقات بين الطرفين تتراوح ما بين الصدام العسكري والعلاقات السياسية إلى أن تعرضت بلاد الشام في شهر رجب سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م لزلزال، أدى إلى إلحاق الخراب بالعديد من مدن بلاد الشام وكان من بينها شيزر[٦]، ولم يسلم من أهلها إلا القليل، ويصف ابن القلانسي ذلك بقوله:**" وأما شيزر فإن ربضها سلم ... أما حصنها المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ رحمه الله ومن تبعه،إلا اليسير ممن كان خارجاً"**[٧]، كما نتج عن الزلزال تدمير قلعة شيزر بالكامل، وعندئذ سارع نور الدين محمود بالزحف صوب القلعة المهدمة، فقام بتعميرها وإصلاح ما تخرب منها[٨]. وبذلك ضم مناطق إمارة شيزر إلى إمارة حلب، وانضوت تحت لواء حركة الجهاد التي يقودها نور الدين محمود، الذي أدرك أهمية موقع شيزر، ومحاولة الصليبيين استغلال حالة الاضطراب الناتجة عن كوارث الزلزال للسيطرة على العديد من مناطق بلاد الشام و منها شيزر، وبينما كانت سيطرة نور الدين محمود على تلك القلعة يشكل خطراً على الوجود الصليبي، واستكمالاً لمشروعه المتمثل في توحيد بلاد الشام تحت حكمه.

---

[١]- ابن منقذ، الاعتبار، ص١٢١.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٩،٦٠.

[٣]- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي الدهان، ج٢، ص٢٦٨.

[٤]- عطيه، إمارة أنطاكية، ص١٤٧.

[٥]- رزوق(معروف)، تاريخ شيزر من القدم وأخبار من مر بها من البشر، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢م، ص ١٧٥،١٧٧.

[٦]- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص٢٣٧.- الشيخ، الإمارات العربية، ص ٣٧٠.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٢٧.

- أما ابن الأثير فيقدم لنا وصفاً مفصل عن هلاك معظم أفراد آل منقذ بقوله:**" فلما خربت القلعة هذه السنة من الزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم أجمعين، أن صاحبها منهم، كان قد ختن ولداً له، وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ عنده في داره، وكان له فرس يحبه، ولا يكاد يفارقه، وإذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه، وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار، فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار، فرمح الفرس رجلاً كان أولهم، فقتله، وامتنع الناس من الخروج، فسقطت الدار عليهم كلهم، وخربت القلعة، وسقط سورها، وكل بناء فيها"**. - ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٩.كما يرد هذا الوصف أيضاً لدى ابن العديم.- في كتاب زبدة الحلب، تح، سامي الدهان، ج٢، ص٣٠٦.

[٨]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٠.

ج- العلاقات السياسية لإمارة أنطاكية مع الإسماعيلية النزارية:

منذ بداية الوجود الصليبي في بلاد الشام اتسمت العلاقات بين إمارة أنطاكية والإسماعيلية النزارية بطابع الصراع العسكري، ومن الأمثلة على ذلك استيلاء تانكرد على مدينة أفاميا الواقعة تحت سيطرة الإسماعيلية النزارية في سنة٥٠٠هـ/١١٠٦م ، ويعد هذا الصدام الأول بين الطرفين، وتكرر هذا الأمر عند مهاجمة بوهيموند الثاني لقلعة القدموس سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م[١].

ولكن على إثر إخفاق الحملة الصليبية الثانية(٥٤٠-٥٤٣هـ /١١٤٥-١١٤٨م) تحقيق الغاية التي شكلت من أجلها، وعدم تمكن ريموند دي بواتيه حاكم أنطاكية الاستفادة من تلك الحملة وتسخيرها للاستيلاء على حلب، أخذت إمارة أنطاكية تتعرض لغارات قوات نور الدين محمود حاكم حلب، ووصف وليم الصوري حالة الضعف التي وصلت إليها الإمارات الصليبية بقوله:" **بدأ وضع اللاتين يتدهور في الشرق بصورة واضحة للعيان منذ ذلك الحين، ورأى خصومنا ما آلت إليه جهود أعظم ملوكنا وقوادنا من الفشل،... فأخذوا يسخرون من تدهور بأس الذين يمثلون الركن الركين للمسيحيين،... ثم ازداد إقدامهم وغرورهم** "[٢]. فقد قام نور الدين محمود بمهاجمة أعمال إمارة أنطاكية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، لإدراكه ضعف صليبيي أنطاكية[٣]، ولم يكن بإمكان ريموند دي بواتيه مواجهة نور الدين محمود لوحده،فضلاً على ذلك فإن بقية الإمارات الصليبية كانت أوضاعها الداخلية مضطربة، لذا أخذ بالبحث عن حليف مسلم يسانده في صراعه، فوجد ضالته في الإسماعيلية النزارية - الحشيشية- التي يقودها علي بن أبي الوفا الكردي[٤]، الذي سارع إلى تقديم العون لريموند؛ ويبدو بأن خطر نور الدين محمود على قلاع الإسماعيلية النزارية في جبال بهراء جعله بمثابة الخطر المشترك بين الطرفين فسعوا للحد من نشاطه.

ومن الأسباب الأخرى التي شجعت الإسماعيلية النزارية للانضمام للصليبيين هي الإجراءات التي اعتمدها نور الدين محمود في حلب وأعمالها لإزالة نفوذ المذهب الشيعي وبعض الشعائر الدينية المتعلقة به، مما شكل ردة فعل غاضبة على ذلك من أتباع المذهب الشيعي[٥].إلا أن الحلف بين ريموند دي بواتيه وعلي بن أبي الوفا هزم أمام قوة نور الدين محمود في معركة إنب سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م[٦].

---

[١]- لويس (برنارد)، الحشيشية، ترجمة: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٢٦٩.
[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٢٢.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٤٧٠. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٢٢. - ميخائيل السوري، تاريخ ميخائيل ،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص١٩٧.
[٤]- ميخائيل السوري، تاريخ ميخائيل، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص١٩٧.- زيد (أسامة زكي)، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م ، ص٢٤٠.
[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٦٨. - برنارد ، الحشيشية، ص٢٧٥،٢٧٦.
[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٢٣.- ميخائيل السوري، تاريخ ميخائيل"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص١٩٨.

رابعاً - العلاقات السياسية لمملكة بيت المقدس مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام:

١- تأسيس مملكة بيت المقدس وتوسعها:

يعد استيلاء الصليبيين على مدينتي بيت المقدس وبيت لحم سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م النواة الأولى لتأسيس مملكة بيت المقدس، التي اقتصرت سيادتها في السنوات الأولى للغزو الصليبي على مساحة ضيقة من الأرض، شملت المدينتان المقدستان، وميناء يافا مع شريط بري ضيق يصل بينهم، فضلاً عن مدينة نابلس ومحيطها التي استولى عليها تانكرد سلماً بعد مراسلة سكانها كما تدعي المصادر الصليبية، فقام بتوطيد السلطة الصليبية هنالك[١]. وما لبث هذا الكيان الناشئ أن واجه أول الأخطار التي هددت وجوده، المتمثلة بحشد الوزير الفاطمي الأفضل لقواته في مدينة عسقلان؛ بهدف استعادة مدينة بيت المقدس، فقام غودفروي بحشد قوات الصليبيين وزحف صوب عسقلان، فتمكنت القوات الصليبية من إلحاق الهزيمة بالقوات الفاطمية[٢].

وأدرك غودفروي عدم قدرة هذا الكيان على الصمود دون إمكانية التواصل مع غرب أوربا، لذلك سعى للسيطرة على المدن الساحلية بهدف تأمين الإتصال مع أوربا، وتسهيل وصول الإمدادات العسكرية والغذائية للصليبيين المتواجدين في فلسطين، فقام بمهاجمة مدينة أرسوف سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م، إلا أن المدينة صمدت في وجه الحصار الصليبينتيجة شجاعة حاميتها، وتوفّر المؤن، في وقت كان الصليبيون يعانون من قلة المؤن، كما افتقروا لوجود أسطول يستطيع منع سكان المدينة من الخروج والدخول إليها بحرية من جهة البحر، مما اضطر غودفوي للانسحاب[٣]. بينما تمكن تانكرد من الاستيلاء على أجزاء كثيرة من منطقة الجليل، شملت مرج بني عامر[٤] والمنطقة الممتدة بين مدينة الناصرة وبحيرة الحولة[٥].وبذلك شكل إمارة خاصة به، ترتبط نظرياً بحاكم بيت المقدس، إلا أنها من الناحية العملية كانت عبارة عن إمارة مستقلة.

ومالبث الدوق غودفروي أن توفي سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م، فتم اختيار أخيه بلدوين كونت الرها ليتولى منصب حاكم بيت المقدس[٦]. ويعد بلدوين الأول المؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس، فعند توليه الحكم كانت سلطة صليبيي بيت المقدس تقتصر على بعض المناطق في فلسطين، تحيط بها المناطق الخاضعة للسيطرة العربية الإسلامية سواء في الساحل أو في المناطق الواقعة خلف نهر الأردن، وعبر فولتشر أوف تشارترز عن ذلك بقوله:" **وملك بلدوين في بداية عهده بضعة بلدان وقليل من الناس فقط"**[٧]، كما كانت عرضة لهجمات المقاومة الشعبية المدعومة من حامية عسقلان، والتي واظبت على تهديد الطريق الواصل بين بيت المقدس ويافا، ومهاجمة الحشود الصليبية التي ترتادها، لذلك قام بجمع قواته واتجه صوب تلك المنطقة لتأديب العرب المسلمين، ثم اتجه نحو الخليل ومنطقة البحر الميت لتأمينها[٨].

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٦٣.

[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٧٥.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨١.

[٤]- مرج بني عامر: يقع في منطقة الجليل، سمي بذلك نسبة لبني عامر من قبيلة كلب، الذين استقروا في المنطقة منذ الفتح العربي الإسلامي، يفصل هذا السهل جبال الجليل عن جبال نابلس، ويبلغ طوله من الغرب إلى الشرق ما يقارب ٤٠كم، ومن الشمال إلى الجنوب نحو ١٩كم.

- الدباغ، بلادنا، ج١، ق١ ، ص ٥٠.

[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٠.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٨٧، ١٩٣.

[٧]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩١.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

وبعد ذلك كان على بلدوين الأول التفرغ لتصفية حساباته مع عدوه اللدود تانكرد أمير الجليل، الذي رفض أن يُقسم ولاء التبعية للملك الجديد، إلا أن التطورات العسكرية لإمارة أنطاكية حالت دون ذلك، إذ وقع أميرها بوهيموند الأول أسيراً لدى بني الدانشمند في أسيا الصغرى، فتم اختيار تانكرد ليتولى مهمة إدارة الإمارة، مما اضطر هذا الأخير للتنازل عن كل ممتلكاته في فلسطين للملك بلدوين الأول[١].

كما سعى بلدوين الأول للاستيلاء على المدن الساحلية، ولتحقيق هذه الغاية حاول تلافي أخطاء أخيه غودفروي، الذي اعتمد على فرص الحصار البري فقط، لذلك قام بالتحالف مع الأساطيل الإيطالية التي أخذت تجوب الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فتحالف مع الأسطول الجنوي سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م للاستيلاء على مدينتي أرسوف وقيسارية[٢]، ثم الاستيلاء على عكا سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م[٣]. وبذلك يكون قد سيطر على الجزء الجنوبي للساحل الشامي باستثناء مدينة عسقلان.

ثم هدف الملك بلدوين للسيطرة على الجزء الأوسط من الساحل الشامي، فقام بمهاجمة مدينة بيروت سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م بمساعدة كونت طرابلس والأسطول الجنوي المتواجد في ميناء السويدية، فتم لهم الاستيلاء على المدينة بعد حصار استمر لمدة خمسة وسبعين يوماً[٤]. كما تمكن في العام ذاته من السيطرة على مدينة صيدا بمساعدة الأسطول النرويجي القادم إلى بلاد الشام[٥]. وبذلك تمكن صليبيي بيت المقدس من السيطرة على مدن الجزء الأوسط من الساحل الشامي باستثناء مدينة صور التي تعرضت لغارات متتالية منذ بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كما سعوا للتضييق عليها من خلال إحاطتها بالقلاع العسكرية، فقاموا بتشييد حصن تبنين سنة ٥٠٠هـ /١١٠٧م[٦]. وقلعة إسكندرونة (إسكندريوم) سنة ٥١١هـ/١١١٨م تقع على الطريق بين عكا وصور[٧]، كما تعرضت لهجمات متتالية من قبل قوات الملك بلدوين في سنوات ٥٠١هـ/١١٠٨م - ٥٠٤هـ/١١١٠ - ٥٠٥هـ/١١١١م، وفي نهاية الأمر تم الاستيلاء عليها سنة ١١٢٤/٥١٨م في عهد الملك بلدوين الثاني.

وعلى الرغم من تأمين صليبيي بيت المقدس حدودهم البحرية بالاستيلاء على جميع المدن العربية الإسلامية القريبة من المملكة، إلا أن الحدود الشرقية للملكة واجهت خطراً كبيراً تمثل بالحملة العسكرية العربية الإسلامية التي يقودها مودود حاكم الموصل، واستطاع العرب المسلمون التوغل في منطقة طبرية ونابلس[٨]. كما قامت الحامية العربية الإسلامية في عسقلان بمهاجمة جنوب شرق المملكة وبعض المناطق الساحلية، لذلك سعى الملك بلدوين الأول للعمل على تأمين حدود المملكة، فهاجم المناطق الواقعة شرقي نهر الأردن، واستولى على الشوبك سنة ١١١٥/٥٠٩م ، كما سعى لتأمين حدوده الجنوبية الغربية، فهاجم أراضي الدولة الفاطمية ووصل بقواته إلى مدينة الفرما[٩].

---

[١]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٧٧. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢١٠- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سهيل زكار، ج١، ص ٣٥٨.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٥٥.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢١٩- ٢٢١.

[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤١٧. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٣٢.

[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٧. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٣.- تدمري، لبنان من السيادة، ٢٨٠.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٦٨.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٢٨. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٨.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٩٩- ٣٠٢.

[٩]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣١٦، ٣٢٨، ٣٢٩.

ونتيجة لتوالي غارات حامية عسقلان على المناطق الجنوبية من المملكة، اتخذ صليبيي بيت المقدس خطة تعتمد على إحاطة عسقلان بعدة قلاع مهمتها الحيلولة دون اجتياح حامية عسقلان المنطقة الجنوبية من المملكة[١]، ومنها قلعة بيت جبرين في سنة٥٢٥هـ/١١٣٠م التي كانت تتحكم في الطريق من عسقلان إلى الخليل، وقد عُهد بها إلى فرسان الإسبتارية، وقلعة يبنه في سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م التي تقع في بقعة وفيرة المياه، وتتحكم في تلاقي الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة، وقلعة تل صافي (Blanche garde)[٢] في سنة٥٣٦-٥٣٧هـ/١١٤١-١١٤٢م للسيطرة على الطريق الواقع مابين عسقلان وبيت المقدس[٣]، وأعطيت مهمة الدفاع عن تلك القلاع إلى هيئتي الإسبتارية والداوية[٤]، كما استولوا على مدينة غزة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م من أجل التضييق على عسقلان.ونتيجة لهذه الإجراءات تمكنوا من الاستيلاء على مدينة عسقلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وبذلك بلغت مملكة بيت المقدس أقصى اتساعها.

٢- العلاقات السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية مع إمارة دمشق:

لقد بدأت العلاقات الصليبية مع دمشق منذ الأشهر الأولى لحصار مدينة أنطاكية، ففي محرم٤٩١هـ/أواخر كانون الأول ١٠٩٧م في منطقة البارة اصطدمت قوة صليبية مع قوة قادمة من دمشق لتقديم العون لمدينة أنطاكية[٥]، وعلى أثر ذلك تتالت الصدامات العسكرية بين الطرفين، ففي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م قام الدمشقيون بمهاجمة منطقة الجليل وبخاصة طبرية في محاولة منهم لكبح توسع الصليبيين ومنعهم من الإغارة على أعمال السواد[٦]، وحوران، وجبل عوف[٧]، وتكرر ذلك في سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م[٨]، كما شهدت هذه السنة أيضاً تقديم دمشق المساعدة لمدينة صيدا التي تعرضت للحصار الصليبي[٩] .

ولكن الظروف الداخلية لكل من الطرفين دفعته للسعي لإيجاد طريقة للتواصل مع الطرف الآخر؛ من أجل أن يسود السلام بينهما وهذا الأمر أتاح قيام علاقات سياسية بينهما، ففي سنة ٤٩٤هـ /١١٠٠م جرت اتصالات ما بين دمشق وصليبيي بيت المقدس؛ إذ قدم وفد من دمشق للتفاوض مع صليبيي بيت المقدس لإطلاق سراح عدد من الأسرى، ونتيجة للأوضاع المالية السيئة للمملكة، قبل الصليبيون إطلاق سراحهم مقابل مبلغ مالي كبير[١٠]، كما نتج عن قيام اتصالات بين الطرفين عقد هدنة في سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، نصت كما يذكر ابن القلانسي على ما يلي:" **على أن يكون السواد وجبل عوف أثلاثاً للأتراك- حكام دمشق- الثلث، وللأفرنج والفلاحين الثلثان، فانعقد الأمر على هذه**

---

[١]- عوض، الحروب الصليبية، ص ٨٠.
[٢]- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٤٦.- عوض، الحروب الصليبية، ص٧٦،٧٧.
[٣]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٦٧.
[٤]- مقامي، فرق الرهبان، ص ٢٩- ٣٨.
[٥]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٣٩.- مؤلف مجهول، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١١٠،١١١.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢١٩.- ابن العديم، زبدة الحلب، تحقيق: سهيل زكار، ج١، ص٣٤٦.
[٦]- السواد تقع بالقرب من البلقاء، ويبرر ياقوت الحموي تسميتها بهذا الاسم " **سميت بذلك لسواد حجارتها فيما أحسب"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان ، مج٣، ص ٢٧٢.
[٧]- جبل عوف يقع بالقرب من مدينة جرش. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ١٢٧.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٤٣،٢٤٤،٢٥٨،٢٥٩.
[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٠.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ١٢٦.
[١٠]- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ١٩٦.

القضية، وكتب الشرط على هذه النيه"[١]، كما يذكر ابن الأثير بأنها نصت على أن تستمر هذه الهدنة لمدة أربع سنوات[٢].

وقد اختلف المؤرخون في أسباب عقد هذه الهدنة بين الطرفين، فابن القلانسي يذكر أن الملك بلدوين الأول هو من سعى لطلب الهدنة[٣]، ولكن ابن الأثير يذكر بأن خوف الأتابك طغتكين من هجوم الصليبيين هو ما دفعه لطلب عقد الهدنة[٤]، في حين يرجع رانسيمان عقد هذه الهدنة إلى أسباب تجارية؛ فالغارات المتبادلة بين الطرفين كانت تقضي على ما ينقل من تجارة، وبخاصة نتيجة غارات الصليبيين على القوافل التجارية المتجه من دمشق إلى مصر، أو تلك القادمة من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق[٥]، وبالرغم من كل هذا الاختلاف يمكن أن ترجيح رواية ابن القلانسي بسعي الملك بلدوين لطلب الصلح وبخاصة أن القوات الدمشقية كانت قد اجتاحت منطقة طبريا والجليل سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م، ومن الأسباب الأخرى لعقد هذه الهدنة الغارات المتبادلة التي كانت تلحق الضرر في القطاعين التجاري والزراعي في مناطق السواد وحوران.

ومن أهم نتائج هذه الهدنة قيام نوع من الإدارة المشتركة لتلك المناطق والتي أصبحت تدعى بالمناصفات، وهذا استدعى قيام العديد من الاتصالات بين مملكة بيت المقدس ودمشق. إضافة لذلك فإن بلاد المناصفات أخذت طابع المناطق المحايدة، والتي لا يمكن لأي من الدمشقيين أو الصليبيين باستعمال تلك المناطق للعبور منها لمهاجمة بلاد الطرف الأخر[٦].

ويبدو أن الصليبيين أدركوا ضعف دمشق، وانشغالها بالخلافات القائمة بين الأمراء العرب المسلمين في بلاد الشام، فحاولوا استغلال ذلك للحصول على المزيد من الأراضي أو على الأقل مناصفتها مع العرب المسلمين، وكان العمل العسكري خير وسيلة لإجبار العرب المسلمين على الدخول في مفاوضات وعلاقات سياسية، ففي سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م قام الصليبيون بمهاجمة منطقة البقاع التابعة لدمشق ونتج عن هذا التحرك تردد المراسلات بين الملك بلدوين الأول والأتابك طغتكين لعقد السلام، وانتهى الأمر بتوقيع هدنة نصت على:"**...الموادعة بينهما على أن يكون الثلث من استغلال البقاع للإفرنج، والثلثان للمسلمين و الفلاحين...**"[٧].

وعلى ما يبدو أن الصليبيين في هذه الهدن كانوا يفاوضون من ناحية القوة بينما كان حكام دمشق يعانون الضعف. وخير مثال على ذلك هدنة سنة ٥٠٤هـ/١١١١م التي نصت على ما يلي:" **أن يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف والسواد والحيانية**[٨] **مضافاً إلى ما في يده ...**"[٩]، ويبدو من خلال رواية القلانسي أن بنود هذه الهدنة عبرت عن ضعف موقف حكام دمشق إلى حد اضطرارهم التنازل للصليبيين عن نصف الأراضي التي نصت عليها هدنة سنة٥٠٢هـ/١١٠٩م، وهكذا بدأت كفة الصليبيين بالرجحان خلال صراعها مع دمشق، كما أصبحت هذه الاتفاقيات والهدن أسلم وسيلة للتوسع الصليبي في الأراضي الخاضعة لإمارة دمشق ودون خوض العديد من المعارك.

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٣،٢٦٤.
[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧١.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٣.
[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧١.
[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٦،١٢٧.
[٦]- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص ٢٢١.
[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٣.
[٨]- الحيانية: يحدد ياقوت الحموي موقعها بقوله: **" كورة بالسواد من أرض دمشق. وهي كورة جبل جرش قرب الغور"** . - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٢٧.
[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٧٨.

كما أثارت الحملات العسكرية التي قادها الأتابك مودود من أجل تحرير بلاد الشام الخوف في قلوب الصليبيين، لذلك بعد حملة مودود سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م سارع جوسلين - حاكم طبريا- للاتصال بالأتابك طغتكين في محاولة للوصول إلى اتفاق يستطيع من خلاله تحييد دمشق وإقناع الأتابك طغتكين بعدم الانضمام إلى جيش مودود، وقد أورد ابن القلانسي وصفاً لذلك بقوله: **" راسل جوسلين لظهير الدين أتابك يبذل المصافاة والمودة، ويرغبه في الموادعة والمسالمة، ويسلم إليه حصن تبنين المجاور لحصن هونين وجبل عاملة، ويتعوض عن ذلك بحصن الحبيس الذي في السواد، ونصف السواد، ويضمن عن بغدوين الوفاء بذلك، والثبات على المودة، والمصافاة وترك التعرض لشيء من أعمال دمشق"**[١]، ولكن الأتابك طغتكين لم يرضَ بقبول هذه العروض لإدراكه بعدم التزام الصليبيين بالهدن والاتفاقيات، لذلك التحق بالأتابك مودود، ونتج عن ذلك زحف هذا الأخير نحو جسر الصنبرة في أوائل سنة٥٠٧هـ/١١١٣م، حيث تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى[٢]، وعلى ما يبدو أن الأتابك طغتكين ومن خلال إقناعه للأتابك مودود بمهاجمة مملكة بيت المقدس تمكن من إضعاف هذه الأخيرة، ومنعها من الإغارة على أعمال دمشق.فضلاً عن إجبار صليبييبيت المقدس على طلب الصلح سعياً لتعمير وإصلاح ما خربته قوات التحالف العربي الإسلامي داخل أراضي المملكة[٣].

وبالرغم من ذلك سرعان ما أدت المصالح المشتركة بين مملكة بيت المقدس وإمارة دمشق إلى قيام مراسلات سياسية بينهما في سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م أفضت إلى إقامة حلف عسكري بين الطرفين؛ تمثل هدفه بالتصدي للجيش الذي يقوده برسق بن برسق، فالصليبيون رأوا في هذا الجيش خطر عليه وبخاصة بعد اجتياحه لأراضي إمارة الرها ومن ثم تمركزه في شيزر القريبة من إمارة أنطاكية[٤]، أما فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت الأتابك طغتكين للانضمام إلى الصليبيين فيبدو أنه خشي من أن يكون هدف هذا الجيش هو تأديبه نتيجة لإتهامه باغتيال الأتابك مودود في مدينة دمشق - حسب اعتقاد السلطان السلجوقي-، ويؤكد ذلك فولتشر أوف تشارترز بقوله: **" واكتشف طغتكين ذلك - أي وصول جيش برسق- وعرف أنه لن يكون أقل مدعاة للاحتقار والريبة في نظر هؤلاء الأتراك عما هو في نظرنا نحن المسحيين؛ لأنه كان مطلعاً غدراً وخيانة على مؤامرة اغتيال مودود..."**[٥]، أما ابن الأثير فبرر ذلك بسبب استيلاء برسق على مدينة حماة التابعة لطغتكين وتسليمها إلى الأمير قرجان حاكم حمص[٦]، أما ابن القلانسي المؤرخ القريب من الأحداث فإنه لم يورد ذكر لهذا التحالف إلا أنه ذكر في أحداث سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م سعي طغتكين لاسترضاء السلطان بعد قيام عدد من الأمراء بإثارة غضب السلطان عليه[٧].

وبذلك امتازت العلاقات بين صليبيي بيت المقدس ودمشق خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بأنها تتراوح ما بين لتقارب حيناً والصدام العسكري حيناً أخر.إلا أن المشاريع التوسعية لعماد الدين زنكي في بلاد الشام أدى لحدوث تقارب وثيق بين مملكة بيت المقدس الصليبية ودمشق، فالصليبيون تخوفوا من إقامة جبهة عربية إسلامية متحدة ضدهم في بلاد الشام، لذا تقربوا من حكام دمشق الذين بدورهم تخوفوا من استيلاء زنكي على مدينتهم فوجدوا في الصليبيين قوة تساندهم للوقوف في وجه طموحات زنكي ومن بعده ابنه نور الدين

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٩٣،٢٩٤.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٩٥- ٢٩٧. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ٤٤٦. - ابن الأثير، الكامل، ج٨ ، ص ٥٩٥، ٥٩٦.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٣.

[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٤٩.

[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٤٩.

[٦]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٠٧.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٠٦،٣٠٧.

محمود. فعلى إثر تزايد هجمات زنكي على أملاك دمشق سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م، قام الأمير معين الدين أنر[١]- المتحكم بدمشق- بطلب العون من صليبيي بيت المقدس، ولكي يحثهم على قبول العرض أبرز لهم خطر زنكي على أنه لو استطاع الاستيلاء على دمشق فلن يبقى للصليبيين معه في بلاد الشام مقام[٢].

وقبل الصليبيون العرض نتيجة للخطر الذي يمثله زنكي، ونص الاتفاق بينهم وبين معين الدين أنر على ما يلي:

١- التعاون على صد هجوم زنكي.
٢- أن يدفع أنر للصليبيين أموالاً لقاء تقديم عونهم له.
٣- يقوم أنر بالاستيلاء على حصن بانياس- في الجولان- الذي يتبع لزنكي، ومن ثم يسلمه للصليبيين[٣].
٤- يرسل أمراء دمشق عدد من أقاربهم إلى مملكة بيت المقدس رهائن إلى حين وفاء أنر بعهوده[٤].

أما الأسباب التي دفعت الصليبيين لقبول طلب النجدة فيلخصه وليم الصوري بقوله:**" ثم قر قرارهم ...أن يساعدوا أنر والدماشقة ضد هذا العدو الضاري الذي يهدد المملكتين على السواء، ورأوا - أمراء المملكة- أن خير صورة لهذا العون هي أن تكون مطلقة سخية حتى لا يصبح العدو أكثر قوة بسبب تلكئنا فيستولي على مملكة دمشق ويستغل مواردها فيزداد بأسه ضدنا"**[٥]، وهكذا فإن وصف وليم الصوري يؤكد مدى إدراك مملكة بيت المقدس أهمية التحكم بإمارة دمشق، وخاصة أنها أصبحت تمثل خط الدفاع الأول عن المملكة ضد مشاريع زنكي، ومن بعده ابنه نور الدين محمود. وبالفعل نتج عن هذا الاتفاق إبعاد خطر زنكي عن مدينة دمشق والمناطق الخاضعة لسيطرة صليبيي بيت المقدس، كما استعاد الصليبيون حصن بانياس بمساعدة قوات دمشق.

وما لبث هذا التحالف أن ازداد قوة على إثر قيام معين الدين أنر بزيارة مدينة بيت المقدس برفقة الأمير أسامة بن منقذ[٦]؛ إذ سعى أنر لكسب ود الصليبيين حتى إنه**" قد بذل جهوداً جبارة ليكسب مودة الصليبيين مصطنعاً شتى أساليب التودد التي تؤدي إلى كسب الأصدقاء..."**[٧] ولكن الصليبيين لم يلتزموا بهذا التحالف مع دمشق، بل سعوا لتحقيق أهدافهم التوسعية في أملاك دمشق، وإيجاد أعوان مخلصين لهم من بين الأمراء العرب المسلمين الذين يحكمون بعض القلاع الجنوبية

---

[١]- هو معين الدين أنر بن مسعود، يعد أحد مماليك الأتابك طغتكين، تولى أتابكية عسكر دمشق سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م، ومنذ ذلك الوقت تولى تدبير أمور حكم الدولة البورية، ووصفه صلاح الدين الصفدي بقوله:**" كان عاقلاً خيراً، حسن السيرة والديانة، موصوفاً بالرأي والشجاعة، محباً للعلماء والصلحاء..."** ، توفي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م.
- ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص١٧٤. - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص ٢٣٤. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١١، ص ٤٨٣، ٥٦٧.

[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٠٥، ١٠٦ .- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي الدهان، ج٢، ص ٣٧٣.- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٦١،٦٢.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٢٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٧٥.- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٠٥، ١٠٦.
- ابن قاضي شُهبة (بدر الدين)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م، ص١١١.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٢٦. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٧٥.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٧٦.

[٦]- ابن منقذ، الاعتبار، ص١٣٩.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٤٦.

التابعة لإمارة دمشق، لذلك قاموا في سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م بدعم تمرد التونتاش[١] والي صلخد وبصرى الذي" **كانت نفسه قد حدثته بجهله، أن يقاوم من يكون مستولياً على مدينة دمشق، وأن الإفرنج يعينونه على مراده وما يلتمسه من إنجاد وإسعاده، ويكونون معه على ما نواه من عيثه وإفساده، وكان قد خرج للأمر المقضي من حصن صرخد- صلخد- إلى ناحية الإفرنج للاستنصار بهم ...**"[٢].

إلا أن المستغرب هنا موقف الصليبيين من حليفهم السابق معين الدين أنر وتأييدهم لوالي صلخد، ويُبرر ذلك برغبة الصليبيين اتخاذ هذه المنطقة قاعدة لهم ينطلقون منها لاحتلال دمشق والمناطق التابعة لها[٣]، حيث " **رأوا أنه إذا تم عن طريق هذا الرجل- والي صلخد - إدخال بصرى إلى ممتلكاتنا - الصليبيين- وضمها إلى الاسم المسيحي على الدوام فإن مثل هذه الإضافة في المملكة مقبولة كل القبول عند الرب**"[٤]، إضافة لإدراكهم بأن المصاهرة التي تمت بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر فتحت الطريق أمام تقارب وجهات النظر بين الطرفين، وربما ينعكس ذلك على قيام تحالف بينهما ضد صليبيي بيت المقدس، لذا حاولوا تدارك الأمر بالضغط على معين الدين أنر. إلا أن هذا العصيان دفع الأمير معين الدين أنر للبحث عن معين ونصير له بعد أن نقض الصليبيون حلفهم معه من خلال دعمهم لالتونتاش، فوجد ضالته في الأمير نور الدين محمود حاكم حلب[٥]، الذي سارع لتقديم العون لدمشق مما اضطر الصليبيين للانسحاب بعد أن لحقت بهم الهزيمة ولم يشأ أنر ملاحقة فلول القوات الصليبية المنهزمة[٦].

ويمكن تسويغ هذا التصرف بإدراك أنر بأن القضاء على قوات مملكة بيت المقدس بشكل تام يمهد الطريق أمام نور الدين محمود للسيطرة على دمشق، لذا أراد أن يبقي على الصليبيين كحلفاء؛ لاستخدامهم كقوة للوقوف أمام أطماع نور الدين، في حين تمكن نور الدين من خلال دعمه لأنر بزيادة نفوذه بين سكان إمارة دمشق. وهكذا أدى التصرف الغير محسوب من قبل الصليبيين إلى قيام حلف بين حلب ودمشق حل محل الحلف الصليبي الدمشقي، وهذا الحلف الجديد فرضته تطور الأحداث والسياسة الحكيمة التي اتبعها نور الدين تجاه دمشق، وقد ساعد الصليبيين بجشعهم في التمهيدلقيام هذا التحالف الذي شكل خطراً على مملكة بيت المقدس[٧].

ويبدو أن الصليبيين ارتكبوا الخطأ ذاته تجاه دمشق عند قدوم الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، إذ سعى صليبيو بيت المقدس لاستغلال هذه الحملة من أجل الاستيلاء على دمشق[٨]، التي أصبحت على حد وصف وليم الصوري:" **تمثل خطراً من أكبر الأخطار التي تهددنا**"[٩]، ويبدو بأن هذا التصور تكون نتيجة قيام علاقة وثيقة بين دمشق وحلب بالرغم من سعي أنر لموادعتهم، كما أنه يعد الحليف الوحيد أو على الأقل أقرب الأمراء العرب المسلمين إلى الصليبيين[١٠]، وتخليه عن الحلف معهم يسهل وصول قوات نور الدين إلى أراضي المملكة دون

---

(١)- استولى على قلعتي صلخد وبصرى بعد وفاة سيده كمشتكين سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، فأعلن عصيانه. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١١، ص ٧٧٧، ١٠٠٢.

(٢)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٥١.

(٣)- قلعجي (قدري)، صلاح الدين الأيوبي" قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١١٥.

(٤)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٤٤.

(٥)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٥٢،٤٥٣.

(٦)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٥٢.- قلعجي، قصة الصراع، ص ١١٥.

(٧)- قلعجي، قصة الصراع، ص ١١٦.

(٨)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٦٣.

(٩)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ٣٠٨.

(١٠)- قلعجي، قصة الصراع، ص١٢٠.

عائق. وأدت هذه الحملة إلى تعزيز أواصر العلاقات بين أنر ونور الدين، فسرعان ما هب الأخير للزحف بقواته دفاعاً عن دمشق.

وتمكنت دمشق من الصمود بفضل تضحيات سكانها، كما قام أنر باستغلال علاقاته مع عدد من الأمراء لصليبيين لإقناعهم بفك الحصار مستخدماً في ذلك الترغيب تارة والتهديد تارة أخرى، فقد كان على علم بما يجري في المعسكر المعادي، والخلافات القائمة بين الصليبيين القدامى وأولئك الذين جاؤوا مع الحملة الصليبية الثانية، فخوفهم من نوايا القادمين الجدد، وقد عبر ابن الأثير عن ذلك بقوله:" **وأرسل إلى فرنج الشام، يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق، أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية...**"[١]، ويؤكد ذلك ميخائيل السوري بقوله:" **فأرسل معين الدين أنر صاحب دمشق وأهل دمشق إلى ملك القدس سراً يقولون: أتظن أن هذا الملك الكبير- الإمبراطور الألماني كونراد- إذا استولى على دمشق سوف يتركك في القدس؟**"[٢] وبالفعل كان أحد الأمراء القادمين من أوربا يطمح بأن تكون دمشق من نصيبه، وهذا الأمير هو كونت الفلاندرز، مما أثار حفيظة لوردات وإقطاعيي مملكة بيت المقدس الذين كانوا يطمحون لضم المدينة إلى المملكة، وبالتالي يزيدون مساحة ممتلكاتهم، لذلك آثروا أن يحتفظ أنر بدمشق على أن تصبح ملكاً لكونت فلاندرز[٣]، كما قدم لهم أنر عدد من التنازلات من أهمها بذل تسليم حصن بانياس لهم[٤]. ووصف ميخائيل السوري المبالغ المالية التي قدمها أنر للصليبيين بقوله:" **نحن أخبر منك بهؤلاء، خذ منا هذا الذهب - ملك بيت المقدس- وادفع بهؤلاء إلى البحر لتتخلص منهم، وتصون نفسك ومملكتك، ثم أعطوه مائتي ألف دينار، وكذلك أعطوا حاكم طبرية خمسين ألفاً...**"[٥].

وبذلك استطاع معين الدين أنر الاستفادة من علاقاته السياسية السابقة مع أمراء صليبيي بيت المقدس؛ من أجل تمزيق صفوف المعسكر الصليبي، كما أن الخوف من استيلاء الصليبيين القادمين من أوربا على دمشق جمع بين أنر، والعديد من إقطاعي مملكة بيت المقدس حول مصلحة مشتركة تمثلت في إنهاء الحصار، وإبعاد خطر منافسة أولئك الأمراء القادمين من أوربا للأمراء الصليبيين.

واستمر صليبيو بيت المقدس في الإساءة إلى علاقاتهم مع دمشق بعد الحملة الصليبية الثانية ، ففي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م قاموا بمهاجمة الأعمال الدمشقية، وهذا الأمر دفع أنر إلى تغيير سياسة الصداقة والمداراة التي اتبعها تجاه مملكة بيت المقدس، إذ قام بشن غاراته على أعمال مملكة بيت المقدس، فاضطر الصليبيون نتيجة اضطراب الأوضاع الداخلية في المملكة إلى طلب الصلح، فاتفق الطرفان على أن يسود السلام بينهما لمدة سنتين[٦].

وما لبث أن تحكم الصليبيون بدمشق على إثر وفاة الأمير معين الدين أنر في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م، وأخذوا يشنون الغارات على أعمالها مستغلين ضعف مجير الدين[٧] حاكم

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٥٩.

[٢]- ميخائيل السوري، روايات المؤرخ ميخائيل،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص ١٨١.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣١٨.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٩.

[٥]- ميخائيل السوري، روايات المؤرخ ميخائيل،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص ١٨١.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٧٢.

[٧]- مجير الدين : هو الملك المظفر مجير الدين، أبو سعيد، أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين، تولى حكم دمشق سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م وهو دون سن البلوغ، فتولى تدبير أمور حكمه الأتابك معين الدين أنر، وبعد وفاة أنر استعاد مجير الدين سطانه، إلا أنه سرعان ما فقد دمشق لصالح المللك العادل نور الدين محمود سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، والذي منحه حمص كإقطاع ، ثم أبدله نور الدين بمدينة بالس، ثم توجه مجير الدين للإقامة ببغداد، توفي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م.

- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٢، ص ٣١٥.

دمشق، وعدم كفاءته على إدارة شؤون الإمارة إلى درجة تغاضى فيها عن الفساد الذي ألحقه الصليبيون بالأراضي المحيطة بدمشق[١]، بل **"عاهدوا - أمراء دمشق- الأفرنج على أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين"**[٢] . وهكذا عاد الحلف الصليبي الدمشقي ضد تحركات نور الدين محمود الذي هب للدفاع عن سكان منطقة حوران ضد هجمات الصليبيين أمام تقاعس مجير الدين[٣]، وأضحت إمارة دمشق في ظل حكمه عبارة عن محمية صليبية، وصار الدمشقيون يدفعون ضريبة سنوية لصليبيي بيت المقدس مقابل حماية دمشق من تحركات نور الدين في منطقة حوران والأراضي المحيطة بالمدينة، إلى حد غدا رسل الصليبيين يدخلون دمشق لجمع الضرائب التي فرضت على سكانها[٤]، ويصف ابن العديم ذلك بقوله:**" وطمع الفرنج في دمشق، وجعلوا عليها قطيعة يأخذونهامنهم في كلّ سنة..."**[٥] لكن هذا الجشع الصليبي وتحكمهم بدمشق أدى لانتشار مشاعر السخط بين العامة تجاه مجير الدين وحلفائه الصليبيين، مما مهد لنور الدين السيطرة على دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م[٦]، وفي أثناء ذلك سعى مجير الدين الحصول على دعم حلفائه صليبيي بيت المقدس مقابل أن **" يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك، لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه"**[٧]، ولكن دون فائدة إذ سرعان ما سيطر نور الدين على المدينة.

وهكذا كان دخول دمشق في سلطة نور الدين هزيمة لسياسة مملكة بيت المقدس، التي كانت تسعى للحفاظ على إمارة دمشق كمنطقة عازلة بينها وبين إمارة حلب، إلا أن سعي نور الدين لتمكين حكمه في دمشق والمناطق المحيطة بها اضطرته لمهادنة مملكة بيت المقدس في سنة٥٥٠هـ/ ١١٥٥م[٨].

٣- العلاقات السياسية لمملكة بيت المقدس مع الإسماعيلية النزارية:

حاول صليبيو بيت المقدس الاستفادة من الصراع الديني بين الطوائف الإسلامية المتواجدة في إمارة دمشق وخاصة بين أتباع مذهبي السنة والإسماعيلية النزارية، الذين قدموا من شمال بلاد الشام بقيادة بهرام في سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، حيث قام الأتابك طغتكين بإكرامهم بناء على توصية إيلغازي حاكم حلب؛ وذلك اتقاء لشرهم [٩]، وما إن استقروا في دمشق حتى بدء نفوذهم بالازدياد؛ نتيجة انضمام العديد من سكان الريف إلى دعوتهم، فضلاً عن ميل الوزير المزدقاني[١٠]إليهم؛ ليكونوا سنداً له ضد من يعاديه من رجال الدولة، ويصف ابن القلانسي ذلك بقوله:**" وتبعه- بهرام- من جهلة الناس، وسفهاء العوام، وسفساف الفلاحين الطغام، من لا عقل له، ولا ديانة فيه... ووافقه الوزير**

---

(١)- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٦٣.
(٢)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٧٩.
(٣)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٨٠.
(٤)- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص٢١٧.- توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٦٣.
(٥)- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي الدهان، ج٢، ، ص ٣٠٤.
(٦)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٥٠٣-٥٠٥.- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢١٧.
(٧)- ابن العديم، زبدة الحلب، تح: سامي الدهان، ج٢، ص ٣٠٥.
(٨)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص ٥٠٩.
(٩)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص ٣٤٢.- زيد، الصليبون وإسماعيلية الشام، ص ١٤٨.
(١٠)- المزدقاني: هوكمال الدين، أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني، تولى الوزارة منذ حكم الأتابك طغتكين ولغاية حكم بوري بن طغتكين، وقتل المزدقاني سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٨م؛ نظراً لتحالفه مع الإسماعيلية النزارية من أجل السيطرة على مقاليد الأمور في إمارة دمشق.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٤٢، ٣٥٠. - ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٤، ١٧. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١١، ص ٣٨٦.

أبو علي طاهر ابن سعد المزدقاني على أمره ساعده على بث حبال شره، وإظهار خافي شره..."[١].

ونتيجة لذلك استبد الإسماعيلية النزارية بأمر دمشق، وتمكنوا من الحصول على حصن بانياس من قبل الأتابك طغتكين في ذي القعدة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وبذلك تمكنوا من إيجاد مستقر لهم في إمارة دمشق[٢]، وعد ذلك أول امتلاك شرعي للإسماعيلية النزارية في بلاد الشام. وسوغ ابن الأثير قيام طغتكين بمنحهم الحصن بقوله:"...**إن بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه فخاف عاديتهم فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه، فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه..."**[٣].

ومن خلال قول ابن الأثير يمكن الاستنتاج أن الإسماعيلية النزارية أصبح لهم اليد العليا في دمشق، كما أن حصولهم على حصن بانياس لم يكن برغبة الإسماعيلية فقط، بل لعل الأتابك طغتكين أدرك مدى خطر ازدياد نفوذهم في مدينة دمشق؛ لذلك سعى لإبعادهم عن مقر عرشه، وإشغالهم بمواجهة صليبيي بيت المقدس القريبين من الحصن.

ولكن ما لبثت الأوضاع في دمشق أن انقلبت ضدهم بعد وفاة الأتابك طغتكين سنة٥٢٢هـ/١١٢٨، فما إن تولى تاج الملوك بوري مقاليد الأمور في دمشق خلفاً لوالده، حتى أخذ يعمل سراً للحد من نفوذهم والقضاء عليهم وعلى حليفهم الوزير المزدقاني، خاصة بعد قيامهم بتحصين بانياس، وبث الدعاة في سائر جهات أعمال دمشق مما أدى لانضمام العديد من السكان إلى دعوتهم، إضافة لذلك فقد أثاروا الفوضى نتيجة لقيامهم بأعمال النهب والسلب[٤]. وأخذ بوري يتحين الفرص للقضاء على الإسماعيلية إلى أن جاءته تلك الفرصة عند مقتل الداعي بهرام سنة٥٢٢هـ/١١٢٨م[٥].

كما أن أخطاء الإسماعيلية تجاه السكان دفعتهم لتأييد بوري في مسعاه، وشكل ذلك حاضنه شعبية لأي عمل يتخذه ضدهم، فبادر إلى قتل الوزير المزدقاني[٦]، وأثار هذا الفعل حماسة أحداث دمشق فهاجموا الإسماعيلية المتواجدين في دمشق سنة ٥٢٣هـ/١١٢٩م **" فقتلوا من ظفروا به من الباطنية وأسبابهم ، وكل ما متعلق بهم ...، وتتبعوهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكامنهم، وأفنوهم جميعاً تقطيعاً بالسيوف، وذبحاً بالخناجر،... وأريقت دماؤهم هدراً وأصبحت النواحي والشوراع منهم خالية..."**[٧]. وقد ذكر العديد من المؤرخين بأن ضحايا هذه المذبحة بلغ ستة آلاف شخص[٨]، وعلى الرغم من المبالغة في ذكر عدد الذين قتلوا في هذه الأحداث إلا أن هذا يشير إلى مدى تعاظم نفوذ الإسماعيلية النزارية وحلفائهم في دمشق.فضلاً عن ذلك فإن هذه المذبحة لم تكن ذات طابع طائفي بل كانت ذات صبغة سياسية.

---

(١)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٤٢.
(٢)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٤٣.- ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨، ص ٧٠٣.
(٣)- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٧٠٣.
(٤)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٤٨،٣٥٠، ٣٥١.
(٥)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٥٢،٣٥٣. - ابن الاثير ، الكامل، ج٩، ص٢٥٠.
(٦)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٣٥٣،٣٥٤.
(٧)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٥٥.
(٨)- ابن الأثير، الكامل، ج٩ ، ص١٧.- ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٤.- ابن الكثير، البداية والنهاية، ج١٦، ص٢٨٢.
- لويس، الحشيشية، ص ٢٧٣.

إذ يقدمابن القلانسي دليلاً على ذلك عندما يُحمل كلاً من يوسف بن فيروز[١] شحنة البلد[٢]، و مفرج بن الحسن الصوفي[٣] رئيس البلد - وهما منافسا الوزير المزدقاني - المبالغة في التحريض على قتل الإسماعيلية وأتباع الوزير- سني المذهب-الذين شكلوا خطراً على نفوذهما[٤].

وقد حاول ابن الأثير تبرير هذه المجزرة باعتبارها نتيجة لقيام الوزير المزدقاني والإسماعيلية النزارية بمراسلة صليبيي بيت المقدس، يقترحون عليهم أن يسلموا لهم مدينة دمشق، مقابل حصولهم على مدينة صور الخاضعة لسيطرة مملكة بيت المقدس، وذلك بقوله:"... **ثم إن المزدقاني راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق، ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك وتقرر بينهم المعياد يوم جمعه ذكروه، وقرر المزدقاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع. فلا يمكنون أحد أن يخرج منه ليجيء الفرنج، ويملكوا البلاد فبلغ الخبر تاج الملوك صاحب دمشق، فاستدعى المزدقاني إليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك، وعلق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية...**"[٥]، لكن هذا التبرير لا قيمة له، فلم يكن من مصلحة الصليبيين التخلي عن مدينة صور التي استولوا عليها بعد صراع طويل مع العرب المسلمين استمر لمدة خمسة وعشرين سنة، كما أن موقعها ومينائها كان لهما أهمية كبيرة في الحياة التجارية والاقتصادية لمملكة بيت المقدس، وإضافة لذلك لم يكن بإمكان الصليبيين التخلي عنها دون موافقة مدينة البندقية التي ساهمت في احتلالها، والتي تمتلك أجزاء منها ومن ريفها، وبالتالي التنازل عن هذه المدينة سيؤدي إلى قطع الاتصال البري بين ممتلكات بيت المقدس في كل من بيروت وصيدا والمناطق الجنوبية من المملكة.

وعلى الرغم من مذبحة دمشق فقد بقي الإسماعيلية النزارية يسيطرون على حصن بانياس ذا الموقع الجغرافي الهام، وقد أدرك الداعي إسماعيل العجمي- الذي خلف بهرام في زعامة الإسماعيلية النزارية- أن الخطوة التالية التي سيقوم بها تاج الملوك بوري، هي مهاجمة بانياس، لذا قام بمراسلة صليبيي بين المقدس، وعرض عليهم أن يسلم لهم حصن بانياس مقابل السماح له ولأتباعه بالدخول إلى أراضي المملكة[٦]، إلا أن وليم الصوري يذكر أن الصليبيين قدموا للداعي إسماعيل تعويض مالي مجزياً مقابل التنازل عن بانياس[٧].

وبذلك كان هذا الاتصال الأول من نوعه بين أتباع المذهب الإسماعيلي النزاري ومملكة بيت المقدس، ويمكن القول بأن الظروف السياسية هي التي فرضته على الإسماعيلية النزارية، وليس توافق المصالح والآراء بين الطرفين كما يذكر الكثير من المؤرخين.

---

[١]- هو شحنة دمشق ، كما حصل على حكم مدينة تدمر من قبل تاج الملوك بوري، ثم أبدل بحمص عن تدمر، قتل في دمشق سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩٨. - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٣٦٠.

[٢]- شحنة البلد: يقصد بها رئيس الشرطة أو العسس، وأقدم ذكر لهذا المنصب في المصادر العربية الإسلامية يعود إلى العصر السلجوقي.
- الخطيب (مصطفى عبد الكريم)، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

[٣]- هو ثقة الملك محي الدين أبو الذواد المفرج بن الحسن الصوفي تولى منصب الوزارة بعد قتل الوزير المزدقاني، واستمر في هذا المنصب إلى أن قتل من قبل حاكم دمشق شهاب الدين محمود بن بوري سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٦١،

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٥٥.

[٥]- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٧.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٥٥، ٣٥٦.- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٧.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص١٢٦.

أما المحاولة الأخرى لقيام نوع من العلاقات السياسية بين مملكة بيت المقدس والإسماعيلية النزارية، فقد تمثلت بقيام زعيم الإسماعيلية شيخ الجبل راشد الدين سنان[١] بإرسال سفارة إلى الملك عموري الأول سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، كان هدفها الظاهري سعي شيخ الجبل مطالبة ملك بيت المقدس التوسط لدى فرسان الداوية من أجل إلغاء الجزية التي فرضوها على القلاع والقرى الخاضعة للإسماعيلية، ومقابل ذلك أبدى استعداده وأتباعه لاعتناق الديانة المسيحية كما ذكر وليم الصوري[٢].

إلا أن رواية وليم الصوري لا يمكن الاعتداد بها، لأن الإسماعيلية النزارية لم يكونوا في حالة ضعف لدرجة أن يتنكروا لمعتقداتهم الدينية، فقط في سبيل إعفاء بعض قلاعهم وقراهم من الجزية المفروضة عليها من قبل فرسان الداوية، إضافة لهذا فلو اعتقد بصحة رواية وليم حول رغبة شيخ الجبل اعتناق الديانة المسيحية، فإن ذلك سيفقده السيطرة على أتباعه، وبالتالي سيخسر سلطته على الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام. كما إن مختلف المصادر الصليبية دأبت عند الحديث عن قيام اتصالات سياسية بين الأمراء العرب المسلمين والصليبيين، إلى إيراد إشارات تفيد رغبة بعض أولئك الأمراء لاعتناق الديانة المسيحية مقابل الحفاظ على أملاكهم، وهذه محاولة من قبل المؤرخين الصليبيين لإظهار العرب المسلمين بمظهر الضعف العقائدي، والعسكري، وعدم قدرتهم على مقارعة القوات الصليبية.

وعلى الرغم من الاختلاف حول غاية السفارة الإسماعيلية فقد استقبل الملك عموري رسول شيخ الجبل بكل حفاوة، ووافق على مطالبه بالتوسط لدى فرسان الداوية لإلغاء الجزية المفروضة على الإسماعيلية، بل أبدى الملك استعداده لدفع تلك الجزية من أموال خزينته الخاصة [٣].

وهنا يتساءل المرء عن الأسباب التي دفعت الملك عموري للقيام بذلك في وقت كانت مملكة بيت المقدس بحاجة لحشد كل مقدراتها المالية والعسكرية لمواجهة نور الدين محمود؟

ويمكن تسويغ ذلك بسعيه للتحالف مع أخر الأمراء العرب المسلمين الخارجين عن سلطة نور الدين محمود في بلاد الشام، وتشكيل جبهة موحدة للوقوف في وجه تحركاته، وبخاصة بعض سيطرته على مصر، وتقيده التوسع الصليبي شرقاً- في بلاد الشام- إضافة إلى رغبة الملك عموري الاستفادة من خبرة الإسماعيلية النزارية بأوضاع البلاد العربية الإسلامية، وسعيه لاستخدامهم في إرهاب نور الدين محمود.

وبناء على ذلك فإن إلغاء الجزية لم يكن الهدف الأساسي لتلك الاتصالات، بل أملتها تطورات الأوضاع العسكرية والسياسية التي فرضتها تحركات نور الدين محمود، وخاصة بعد توحيد كلاً من بلاد الشام ومصر تحت إمرته، وإحاطته بمملكة بيت المقدس من جميع الجهات، وكذلك الأمر بالنسبة للقلاع الإسماعيلية، وبالتالي أصبح السعي لإيقاف أعماله مصلحة مشتركة لكل من شيخ الجبل وملك بيت المقدس. ويدلل على ذلك قول وليم الصوري:**" احتفظ - الملك عموري- بالرسول لديه فترة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق، ثم أعاده إلى سيده لإعداد الترتيبات الأخيرة"**[٤].

---

[١]- شيخ الجبل:هو راشد الدين أبو الحسن، سنان بن سلمان بن محمد البصري، قدم إلى بلاد الشام من قلعة ألموت سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، نائباً عن إمام الإسماعيلية النزارية حسن المقيم في ألموت، ووطد أركان الإسماعلية النزارية في جبال البهراء، وبنى العديد من الحصون أو قام بترميمها، بقي زعيماً للإسماعيلية النزارية في بلاد الشام إلى أن توفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م.

- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠. - لويس، الحشيشية، ص ٢٧٧، ٢٨٤.

[٢]- وليم الصوري، من تاريخ أعمال أنجزت، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص ٣٦٧.

[٣]- وليم الصوري، من تاريخ أعمال أنجزت، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٧، ص٣٦٨.- زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص٢٤٣.

[٤]- وليم الصوري، من تاريخ أعمال أنجزت، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص ٣٦٨.

وبعد مناقشة بنود الاتفاق بين الطرفين غادر الرسول الإسماعيلي بيت المقدس بعد أن زوده الملك بمرافقين - لعلهم رسل الملك عموري إلى شيخ الجبل- إلا أن الرسول قتل بالقرب من مدينة طرابلس على يد فرسان الداوية[1]؛ نتيجة لإدراكهم بأن اتفاق الملك مع شيخ الجبل سيؤدي إلى تهديد مصادر تمويلهم، وخاصة أنهم يشكون في إمكانية قيام الملك بسداد المبلغ المفروض على الإسماعيلية النزارية من أمواله الخاصة[2]. إضافة لسعيهم لزعزعت نفوذ الملكية، مما أدى لغضب الملك عموري من فعلت فرسان الداوية، واعتبرها إهانة لسلطانه، وقد أشار وليم الصوري إلى ذلك بقوله:" **وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لا ينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة...**"[3]. إلا أن فرسان الهيئات الدينية الصليبية كانت في حقيقة الأمر تتمتع بالاستقلال الذاتي عن السلطة الملكية منذ وقت سابق لهذه الأحداث.

وحاول الملك تلافي مخاطر هذا العمل على علاقات المملكة مع الإسماعيلية النزارية، فقام بمراسلة مقدم الداوية طالباً منه تسليم المسؤول عن مقتل رسول شيخ الجبل، إلا أنه رفض الخضوع لرغبة الملك، وأعلن أنه لن يخضع إلا لسلطة البابا، مما دفع الملك لمهاجمة مدينة صيدا حيث يقيم مقدم الداوية، وتمكن من إلقاء القبض على المتهم بقتل الرسول، وبعد ذلك قام بمراسلة شيخ الجبل في محاولة منه لإطلاعه على حقيقة الأمر[4]، إلا أن عملية الاغتيال تركت أثار سلبية على العلاقات بين شيخ الجبل والمملكة الصليبية[5]، وبالتالي يمكن القول بأن فرسان الداوية تمكنوا من ضرب التحالف الذي كان سيتم بين مملكة بيت المقدس والإسماعيلية النزارية، وكان هذا العمل يصب في مصلحة نور الدين محمود، إذ فقد عموري الأول أخر أمير مسلم يمكن أن يتحالف مع الصليبيين، فضلاً عن فقدانه خدمات الإسماعيلية النزارية الذين اشتهروا بعمليات اغتيال القادة في الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام. ومن جهة أخرى قد تكون عملية قتل الرسول الإسماعيلي النزاري قد تمت بالتنسيق مع نور الدين محمود لكونه المستفيد الوحيد من هذا الأمر.

خامساً- العلاقات السياسية لكونتية طرابلس الصليبية مع الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام:

١- تأسيس كونتية طرابلس وتوسعها:

سعى ريموند كونت تولوز من خلال مشاركته في الحملة الصليبية الأولى إلى تأسيس إمارة خاصة به في بلاد الشام، إلا أن طموحاته سرعان ما تحطمت في كل من أنطاكية ومعرة النعمان وعرقة وعسقلان؛ نتيجة معارضة بقية أمراء الحملة الصليبية الأولى وبخاصة بوهيموند وغودفروي. وبعد معركة عسقلان رحل ريموند إلى شمال بلاد الشام، حيث أبقى قواته في مدينة اللاذقية الخاضعة للسيطرة البيزنطية، بينما اتجه إلى القسطنطينية فأقام بها إلى أن قدمت حملة صليبية تدعى بالحملة اللومباردية في سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، فاتجه معها إلى قلب أسيا الصغرى، ولكنها ما لبثت أن هزمت من قبل قوات سلاجقة الروم، مما دفع ريموند للاتجاه مع من بقي من تلك الحملة إلى إمارة أنطاكية. وعند ذلك قام تانكرد بإلقاء القبض عليه ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد بالتنازل عن كل إدعاءاته في مدينة أنطاكية وعلى عدم تقديم الدعم للبيزنطيين في اللاذقية[6]، لذلك قام بسحب جميع قواته من

---

[1]- وليم الصوري، من تاريخ أعمال أنجزت، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص٣٦٨.
[2]- زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص٢٤٤.
[3]- وليم الصوري، من تاريخ أعمال أنجزت، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص ٣٦٨.
[4]- وليم الصوري، من تاريخ أعمال أنجزت، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص٣٦٨.- زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام ، ص ٢٤٦.
[5]- زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص ٢٤٦.
[6]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٥.

المدينة وأخذ يفكر بالاستيلاء على مدينة طرطوس القريبة والتابعة لإمارة بني عمار، ولإنجاز هذه المهمة تحالف مع أسطول جنوي كان يتواجد في اللاذقية كما انضمت إليه بقايا الحملة اللومباردية ونتيجة لذلك تمكن من الاستيلاء على طرطوس سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م[١]، وبذلك خطى ريموند الخطوة الأولى لتحقيق حلمه بتأسيس إمارة خاصة به في بلاد الشام.

وبعد ذلك أخذ ريموند يخطط للاستيلاء على مدينة طرابلس التي تمتاز بغناها فحاصرها في النصف الثاني من سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها نتيجة لقوة تحصينها، وعلى الرغم من ذلك لم تفتر همته في الإغارة على طرابلس وأعمالها[٢]، فقام بحصار طرابلس سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م، ولكن فخر الملك بن عمار تمكن من إضعاف هذا الحصار عن طريق مهاجمة سفنه للمناطق الخاضعة لسيطرة ريموند[٣]. كما سعى ريموند لعزل طرابلس عن محيطها لمنع وصول الإمدادات إليها، فقام بالإغارة على منطقة البقاع سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م لكنه فشل، فاتجه لحصار حصن الأكراد إلا أنه اضطر للانسحاب على إثر قدوم قوات دمشق[٤].

ونتيجة لعدم امتلاكه قوة بحرية خاصة يمكن استخدامها في فرض الحصار البحري على طرابلس، لذلك استغل وجود أسطول جنوي في مدينة اللاذقية سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م، فاتفق معه على محاصرة طرابلس، وسرعان ما اتجه المتحالفون لحصارها إلا أنهم اضطروا لرفع الحصار؛ نتيجة لصمود أهلها ومناعة أسوارها، وعلى إثر ذلك اتجهوا جنوباً فقاموا بمحاصرة مدينة جبيل التابعة لبني عمار، وضيقوا الخناق عليها وفي الوقت ذاته لم تحصل المدينة على أي مساعدة من طرابلس، فأدرك سكان جبيل عجزهم عن مواصلة التصدي للصليبيين، فقاموا بتسليم مدينتهم لريموند مقابل خروجهم بأمان، إلا أن ريموند والجنويون لم يفوا بوعودهم، إذ قاموا بقتل السكان[٥]، وكوفئ الجنويون على مشاركتهم في الحصار بأن منحوا ثلث المدينة[٦]. وهكذا وباستيلاء ريموند على طرطوس وجبيل يكون قد رسم حدود الإمارة التي يسعى لإنشائها في بلاد الشام.

وعلى إثر الاستيلاء على جبيل شرع ريموند في تضييق الحصار البري على مدينة طرابلس، فقام بتشييد حصن على إحدى التلال المحيطة بالمدينة ودعي ذلك الحصن بتلة الحجاج[٧]، وشكل هذا الحصن بموقعه خطراً على طرابلس حيث يمكن من خلاله مراقبة تحركات قوات بني عمار، كما أنه شكل قاعدة لانطلاق غارات ريموند على طرابلس، لذلك قام فخر الملك بن عمار بمهاجمته في ١٩ ذي الحجة ٤٩٧هـ/١١٠٤م فتمكن من إحراقه، وهذا الأمر اضطر ريموند لمهادنة ابن عمار في أوائل ٤٩٨هـ/١١٠٥م، ونص الاتفاق على تقاسم مناطق طرابلس بحيث يكون ظاهر المدينة لريموند مقابل تعهده بعدم منع وصول المؤن إلى داخل المدينة[٨] .

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٠٨.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٦،٢٢٨.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٨٩.

[٢]- تدمري، لبنان، ص٢٥٩.

[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٠.

[٤]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٠.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣١.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٥.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.

[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٤.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٣٦،٢٣٨.

ويبدو أن أمل ريموند في الاستيلاء على طرابلس لم يتحقق إذ توفي في ٤جمادى الأولى ٤٩٨هـ/٢أذار ١١٠٥م [١]، في وقت كان ابنه ألفونسو صغير السن لذلك قام أتباع ريموند بتسليم القيادة لقريبه وليم جوردان كونت سردينيا القادم حديثاً من أوربا، وتابع هذا الأخير سياسة ريموند في مواصلة حصار طرابلس، والتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية[٢]. وسعى لإحكام عزل طرابلس عن محيطها فقام بالاستيلاء على حصن عرقة سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م[٣]، وكان ذلك بمثابة نذير بقرب سقوط طرابلس،حيث أصبحت محاصرة براً من جميع الجهات، وأدى هذا الحصار إلى قلة المؤن وانتشار الفقر مما دفع العديد من سكانها لهجرها[٤].

بيدَ أنَّ وليم واجه خطراً أضعف نفوذه بين الصليبيين المحاصرين لطرابلس، حيث قدم إلى الشرق في سنة٥٠٢هـ/١١٠٨م برتراند ابن ريموند من مقاطعة تولوزمطالباً بإرث والده، ومصطحباً معه قوة عسكرية تتألف من أربعة آلاف مقاتل، وستين سفينة غالبيتها تتبع مدينة جنوى التي تحالفت معه[٥]، ولدعم مشروعه توجه إلى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية كي يضمن مؤازرة الإمبراطور، ثم اتجه نحو إمارة أنطاكية وهناك طلب من تانكرد تسليمه جميع الممتلكات التي كانت تعود لوالده قبل أن يستولي عليها بوهيموند، وأدى ذلك إلى حدوث خلاف بين الطرفين، وفي نهاية الآمر أُجبر برتراند على مغادرة أراضي إمارة أنطاكية[٦]، فاتجه إلى طرطوس، واستولى عليها من أتباع وليم جوردان، مما أدّى إلىنشوب خلاف بين الطرفين، وسرعان ما زحف برتراند جنوباً لفرض الحصار على طرابلس،وقلعة الحجاج بآن معاً، مما اضطر وليم للانسحاب من قلعة الحجاج والتوجه نحو طرطوس، فاستطاع الاستيلاء عليها، ثم قام بطلب العون من تلنكرد وأصبح تابعاً له، أما برتراند فقام بمراسلة الملك بلدوين الأول عارضاً عليه قضيته[٧] فقدم إلى طرابلس لحل الخلاف، واجتمع القادة الصليبيون في ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، واتفقوا على حل الخلافات القائمة بينهم، وعلى تقسيم إرث ريموند بين طرفي الصراع على النحو التالي:

أ- يحتفظ وليم بطرطوس و المناطق التي غنمها غزوا(عرقة).

ب- يحتفظ برتراند بجبيل وطرابلس عند الاستيلاء عليها.

ت- يقسم وليم بالولاء لتانكرد، في حين يقسم برتراند الولاء للملك بلدوين الأول.

ج- عند وفاة أحد الطرفين يرث الأخر أراضيه[٨].

وبعد اتفاق جميع الأطراف الصليبية زحفوا جميعاً لفرض الحصار على طرابلس في شهر شعبان سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، ونتيجة لشدة الحصار، وعدم وصول المساعدة من الأسطول الفاطمي

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٣٨.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٢٢.

[٢]- ابن الأثير، الكامل ، ج٨، ص٥٢٦، ٥٢٧.- تدمري، لبنان، ص٢١٥،٢١٦.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٠،٢٦١.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧١.- تدمري، لبنان، ص٢٣٢.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧١، ٥٧٢.

[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٤. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥.

[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥. سالم، طرابلس، ص١٤٣،١٤٤.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦١. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٥. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٨.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٩٧، ٩٨.

[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات ج٢، ص٩٩.- سالم، طرابلس، ص١٤٥.

استسلم سكان المدينة مقابل حصولهم على الأمان[١]، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على المدينة في ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م[٢]، لكنهم لم يلتزموا بالإتفاق فنهبوا المدينة، وقتلوا وأسروا رجالها، وسبوا نساءها، كما قاموا بإحراق مكتبة دار العلم التي كانت تضم ذخائر الكتب[٣]. كما ترتب على استيلاء الصليبيين على طرابلس سقوط جميع المواقع الساحلية التي تقع بين مدينتي طرابلس وجبيل، مثل أنفة والبترون، وهكذا سيطر الصليبيون بالكامل على القسم الأوسط من ساحل بلاد الشام، مما أتاح للإمارة الصليبية الناشئة واجهه بحرية عريضة تؤمن اتصالها بالمدن الإيطالية ومن ورائها القارة الأوربية.

وما أن استقر برتراند (٥٠٣-٥٠٦هـ/١١٠٩-١١١٢م) في مدينة طرابلس حتى اتخذها عاصمة له، كما تلقب بـ((كونت طرابلس))، وجدد ولاءَهُ للملك بلدوين الأول، وصارت تربطه به علاقة وثيقة من التبعية[٤]، ولم يطل انتظار برتراند لكي يسترد جميع أملاك أبيه في الساحل الشامي، إذ سرعان ما قتل وليم جوردان[٥]، وقد اتفق كل من فولتشراوف تشارترز وابن القلانسي على أنه قتل قبل الحصار الصليبي لطرابلس[٦]، لكنهما يختلفان حول مكان وسير قصة مقتله، ففولتشر يشير إلى أنه قتل في المناطق القريبة من طرابلس وبعد اجتماعه مع الملك بلدوين الأول، إذ يصف ذلك بقول:**" وحدث أنه ما إن شرع بلدوين في إصلاح ذات البين بين الكونتين- وليم وبرتران- ، حتى جاء سهم غَرَب[٧] إلى وليم جوردان وقتله في حادث لا أفهم كنهه، وحدث ذلك لدى تعرضه لكمين وهو راكب في بعض الليالي، وتساءل الجميع عمن قام بهذا العمل، ولكن أحد لم يكتشف من الفاعل..."**[٨]، أما ابن القلانسي فيذكر أن وليم جوردان على إثر مصالحته مع برتراند **"عاد السرداني- وليم- إلى عرقة، ووجد بعض الأفرنج في زرعها، فأرد ضربه فضربه الافرنجي فقتله"**[٩]. ويبدو أن المستفيد الوحيد من قتل وليم كان برتراند، إلا أن فولتشر مؤرخ الصليبيين حاول في روايته جعل مقتله عن طريق كمين قد يكون العرب المسلمون ورائه، ولكنه من حيث لا يدري أعطى إشارات إلى وجود بعض الأمراء الصليبيين الذين أبدوا فرحهم بمقتله، ولا شك أن برتراند كان أحدهم ومدبر ذلك العمل، حيث يقول:**" ونتيجة لذلك شعر بعضهم بالحزن عليه لكن بعضا أخر ابتهج ولم تظهر عليه أثار الفجيعة، وندب بعضهم وفاة صديق، وفرح آخرون لموت عدو"**[١٠]. ويبدو أن برتراند فقد بموت وليم مدينة طرطوس التي احتفظ بها تانكرد[١١].

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٩٩. - ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٤٣، ٤٤. - تدمري، لبنان، ص٢٣٥.

[٢]- اختلفت المصادر العربية في تحديد تاريخ استيلاء الصليبيين على طرابلس فابن القلانسي يذكر بأنه تم الاستيلاء عليها في ١١ذي الحجة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، أما العظيمي ففي ٣ ذي الحجة ٥٠٢هـ/١١٠٨م ، في حين ابن الأثير يذكر بأن الصليبيين استولوا عليها في ١١ذي الحجة ٥٠٣هـ/ ١١٠٨م.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢. - العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٦٣.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٨.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٩.

[٤]- سالم، طرابلس، ص١٤٦.

[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٥.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦١. - سالم ، طرابلس، ص١٤٦.

[٦]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٤٣٥.- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦١.

[٧]- بمعنى سهم لا يعرف راميه.- الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت، ج٤، ص ٤١٢.

[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،"من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٤٣٥،٤٣٦.

[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٦١.

[١٠]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٦.

[١١]- سالم، طرابلس، ص١٤٩.

وبعد ذلك أخذ برتراند يسعى لتوسيع أملاكه فقام بمهاجمة حصن رفنية سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م، لكنها استعصت عليه، وما لبث أن ترددت الرسل بينه وبين طغتكين، وانتهت تلك المراسلات بالاتفاق على اقتسام منطقة البقاع[١]، وهذا يدل على طموح برتراند إلى تأسيس كونتية تمتد أملاكها في المناطق الداخلية لبلاد الشام.لكنه لم يحكم طويلاً فخلفه في سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م ابنه بونز (٥٠٦-٥٣٢هـ/١١١٢-١١٣٧م)، الذي لم ينتهج منهج أبيه في معاداة تانكرد، إذ قام الأوصياء على بونز بإرساله إلى أنطاكية ليتلقى فيها أصول الفروسية[٢]، ويذكر ابن القلانسي ذلك بقوله:**" ودبروا أمره مع طنكري صاحب أنطاكية، وجعلوه من خيله وأقطعه أنطرطوس وصافيتا، ومرقية وحصن الأكراد"** [٣]، وبذلك استعاد مدينة طرطوس التي كانت فيما سبق من أملاك جده الكونت ريموند.

وتابع بونز سياسة خلفائه التوسعية فاستولى على رفنية سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م، لكنه فقدها في العام التالي لصالح طغتكين، كما أغار على سهل البقاع وأسس فيه قلعة بعرين سنة ٥١٠هـ/١١١٦م[٤]، وتمكن بمساعدة الملك بلدوين الثاني من الاستيلاء على رفنية في سنة ٥٢٠هـ/١٢٦م وكان ذلك حدثاً هاماً لأن رفنية حمت كونتية طرابلس كما أنها ضمنت الاتصال بين بيت المقدس وأنطاكية[٥].

وهكذا وصلت كونتية طرابلس في عهد بونز إلى أقصى اتساعها، وصارت تمتد من مرقية والمرقب شمالاً، في حين شكلت مدينة جبيل ونهر إبراهيم الحدود الجنوبية، وفي الشرق شكل وادي العاصي الحدود الشرقية، بينما شكل البحر المتوسط الحدود الغربية. وبذلك تمتعت الكونتية بموقع جغرافي متميز إذ سيطرت على الطريق الساحلي والجزء الجنوبي من وادي العاصي، كما تميزت بإحاطتها بسلسلة من الجبال (جبال لبنان- وجبال البهرة)التي شكلت حداً طبيعياً يحميها من غارات الإمارات الإسلامية[٦].

٢- العلاقات السياسية لكونتية طرابلس مع إمارة دمشق:

تمثل الاتصال الأول بين إمارة دمشق وقوات البروفانسيين الصليبية عند محاولة الكونت ريموند الاستيلاء على مدينة طرابلس سنة٤٩٥هـ/١١٠٢م، مما دفع فخر الملك بن عمار لطلب المساعدة من دمشق وحمص. فأرسل حاكم دمشق دقاق قوة عسكرية انضمت إلى جانب قوات طرابلس وحمص، إلا أن هذا التحالف هزم من قبل الصليبيين[٧].

وعلى إثر استيلاء الصليبيين على مدينة طرابلس سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، أخذ برتراند بالتوسع في منطقة البقاع القريبة من أراضي إمارة دمشق، إذ قام بمهاجمة حصن رفنية فنهض الأتابك طغتكين وعسكر بالقرب من حمص، ولم يتمكن صليبيو طرابلس الاستيلاء عليها، وخلال ذلك ترددت الرسل بين برتراند وطغتكين، وأفضت في النهاية إلى الوصول إلى اتفاق سياسي للصراع على رفنية[٨]، نصت على:**" تقرير الموادعة على الأعمال، والمسالمة، واستقر الأمر على أن يكون للإفرنج الثلث من استغلال البقاع، ويسلم - طغتكين- إليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار،**

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٤.- سالم، طرابلس، ص١٤٩.

[٢]- سالم، طرابلس، ص١٥٠.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٩.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٠٦.- سالم، طرابلس، ص١٥٠.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٤٤.- سالم، طرابلس، ص١٥٥.

[٦]- سالم، طرابلس، ص١٣٦،١٣٨،١٣٩.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٨.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧٣.

[٨] - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٦٤.- سالم، طرابلس، ص ١٤٨.

ويكفوا عن العيث والفساد في الأعمال والأطراف، وان يكون حصن مصيات - مصياف- وحصن الطوفان وحصن الأكراد خلاً في شروط الموادعة ، ويحمل أهلها عنها مالاً معيناً في كل سنة إلى الإفرنج "[1]، ولكن ابن القلانسي لم يورد الأسباب التي جعلت طغتكين يقدم هذه التنازلات للصليبيين، بينما يسوغ ابن شداد هذا العمل بسعي طغتكين لمصانعة الصليبيين بعد تمكنهم من امتلاك طرابلس، وعجزه عن منعهم من مهاجمة المناطق المجاورة لدمشق[2].

وهكذا فإن هذه الاتفاقية بجميع بنودها كانت تصب في مصلحة الصليبيين، إذ فقد طغتكين من خلالها عامل الضغط على صليبيي طرابلس بتسليمه حصون عكار والمنيطرة لهم، كما سمحت هذه الاتفاقية لبرتراند التدخل في شؤون منطقة البقاع، وتمكنت الكونتية الناشئة من الحصول على الأموال التي تحتاجها من خلال ما فرض على العرب المسلمين تأديته في كل سنة.

٣- العلاقات السياسية لكونتية طرابلس مع الإسماعيلية النزارية:

على الرغم من قرب القلاع والمناطق الخاضعة لسيطرة الإسماعيلية النزارية من أراضي كونتية طرابلس الصليبية، إلا أن هذا الأمر لم يؤدي لنشوء علاقات سياسية بين الطرفين، واستمر ذلك لغاية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م حيث تم قتل ريموند الثاني حاكم طرابلس واتهم الإسماعيلية النزارية بالقيام بهذا الأمر[3]، ورداً على ذلك قام فرسان الداوية بمهاجمة أملاك الإسماعيلية النزارية مما إضطرهم لعقد معاهدة مع الصليبيين نصت على أن يلتزم الإسماعيلية النزارية على دفع جزية سنوية مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، إضافة لتقديم بعض المحاصيل الزراعية مثل القمح والشعير[4].

سادساً- العلاقات الصليبية - الصليبية:

١- العلاقات بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس:

بعد استيلاء الكونت ريموند على مدينة طرطوس سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م وجبيل سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م تم وضع تصور لامتداد حدود كونتية طرابلس، ولم تشهد مرحلة حكم ريموند أي علاقات سياسية مع مملكة بيت المقدس؛ بسبب الخلافات التي نشبت بينه وبين الدوق غودفروي في أثناء الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، وحصار عسقلان سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، وكان لهذا الأمر أثر في توتر العلاقات بين المملكة وريموند، فضلاً عن ذلك فإن هذا الأخير لم يقبل أن يكون واقعاً في دائرة نفوذ ملوك بيت المقدس[5].

واستمر هذا التوتر لغاية سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م إلى أن جاءت اللحظة التي وجد فيها الملك بلدوين الأول الفرصة للتدخل في شؤون الكونتية الناشئة وإخضاعها لنفوذه، وذلك إبان نشوب النزاع

---

(١)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٤،٢٦٥.
(٢)- ابن شداد، الأعلاق، ص١١٤.
(٣)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٤٥.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٨٥.
(٤)- زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص٢٢٤،٢٢٦.
(٥)- سالم، طرابلس، ص١٨٦.

على وراثة ريموند[١] بين برتراند بن ريموند – القادم من كونتية تولوز- ووليم جوردان الذي خلف ريموند في قيادة القوات البروفانسية المحاصرة لمدينة طرابلس[٢]، إلا أن موقف وليم ضعف على إثر مغادرة ألفونسو جوردان ابن ريموند للشرق والذي يعد الوريث الشرعي والواقع تحت وصاية وليم. فسعى هذا الأخير للبحث عن حليف له من بين صليبيي الشرق فوجد ضالته في تانكرد، وهذا الأمر دفع برتراند بدوره للبحث عن حليف صليبي يسانده فوجد ضالته في الملك بلدوين الأول مقابل أن يعترف بسيادة هذا الأخير على إمارة طرابلس[٣].

أما الأسباب التي دفعت كل من تانكرد والملك بلدوين الأول للتدخل في هذا النزاع فقد تمثلت بما يلي:

١- سعي الملك بلدوين الأول فرض سلطته على جميع الأمراء الصليبيين في بلاد الشام[٤].
٢- غضب الملك بلدوين من موقف تانكرد تجاه كونت الرها بلدوين لي بروغ[٥] وسعيه للحد من توسع نفوذه.
٣- خوف تانكرد من قيام برتراند بالسعي للحصول على الأماكن التي كان والده ريموند يمتلكها في مدينة أنطاكية قبل أن ينفرد بوهيموند بحكمها[٦].
٤- إن تولي برتران مقاليد الحكم في طرابلس يشكل خطراً على إمارة أنطاكية ، نظراً لولائه للإمبراطورية البيزنطية العدو اللدود لتانكرد.

وسرعان ما قدم الملك بلدوين الأول إلى القرب من طرابلس تلبية لنجدة برتراند، كما طلب من جميع حكام الإمارات الصليبية الحضور لمناقشة الخلافات الصليبية - الصليبية والعمل على حلها، فاستجاب له الجميع وبذلك أكد تفوق مملكة بيت المقدس على بقية الإمارات الصليبية، كما تمكن من فض الخلاف بين خلفاء ريموند[٧].

وعلى إثر ذلك أعلن برتراند تبعيته للملك بلدوين الأول و" **تسلم براءة تقلده الأراضي التي اقطعها له ملك بيت المقدس، ملتزماً له بالتبعية الإقطاعية المعتادة**"[٨]، ومنذ ذلك الحين أصبحت كونتية طرابلس عبارة عن إمارة إقطاعية تابعة لمملكة بيت المقدس، و يؤكد ذلك وليم الصوري بقوله:" **وأعلن أن طاعته- برتراند- للملك حق في عنقه، وأصبح تابعاً إقطاعياً، وصار خلفاؤه منذ هذا الحين حتى اليوم ملتزمين بنفس هذه التبعية لملك بيت المقدس**"[٩]، وبناء على ذلك توجب على كونت طرابلس المشاركة في الحملات العسكرية لمملكة بيت المقدس، ومن الأمثلة على ذلك المشاركة في حصار الملك بلدوين الأول لمدينة بيروت سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م، والانضمام إلى قوات الملك

(١)- واجه برتراند مشكلة وجود أخيه ألفونسو جوردان في بلاد الشام، لذلك سعى لإعداد إتفاق عائلي لتقاسم أملاك ريموند في الشرق وأوربا نص على: تنازل برتراند عن المطالبة بأملاك والده في أوربا، مقابل تخلي ألفونسو جوردان عن ميراثه في إمارة طرابلس. رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥.
(٢)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٤،٤٣٥.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٥.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥،٩٧.
(٣)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٨.- سالم، طرابلس، ص ١٨٦.
(٤)- سالم، طرابلس، ص ١٨٦.
(٥)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٨.
(٦)- سالم، طرابلس، ص١٨٦.
(٧)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٨.- سالم، طرابلس، ص١٨٧.
(٨)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٦.
(٩)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٩.

للمشاركة في إنقاذ إمارة الرها من حملة الآتابك مودود سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م، ومهاجمة أعمال دمشق سنة ٥٠٤هـ/ ١١١١م[١].

وبقيت كونتية طرابلس تابعة لمملكة بيت المقدس طوال حكم برتراند؛ نتيجة لحاجة هذا الأخير لحليف قوي يسانده ضد تانكرد من جهة، والعرب المسلمين من جهة أخرى. إلا أن هذه العلاقات الودية - التبعية- بدأت تتزعزع في عهد بونز خليفة برتراند؛ نتيجة تقربه من تانكرد إذ أصبح أحد أتباعه الإقطاعيين[٢]، ويؤكد ذلك وليم الصوري بقوله:**"وحدث وهو مسجى- تانكرد- على فراش موته أن كان ممن يقومون على خدمته شاب اسمه"بونس"هو ابن برترام- برتراند- كونت طرابلس..."**[٣]، كما يذكر ابن القلانسي ذلك بقوله:**" ورد الخبر بهلاك بدران- برتراند- بن صنجيل صاحب طرابلس بعلة لحقته، وأقام ابنه في الأمر من بعده، وهو طفل صغير كفله أصحابه، ودبروا أمره مع طنكري- تانكرد- صاحب أنطاكية، وجعلوه من خيله وأقطعه أنطرسوس وصافيتا، ومرقية وحصن الأكراد"** [٤]، ولم يكتف بذلك بل أوصى بعد وفاته بأن تتزوج أرملته سيسيليا من الكونت بونز[٥].

وعلى الرغم من أن ابن القلانسي ووليم الصوري ذكرا قيام بونز بخدمة تانكرد كتابع إقطاعي، إلا أنهما لم يشيرا إلى الأسباب التي أدت إلى التقارب بين الأسرتين الحاكمتين في أنطاكية وطرابلس. ولعل المرد في هذا التقارب هو سعي تانكرد لإبعاد كونتية طرابلس عن المشاركة في أي مخطط بيزنطي ضد إمارة أنطاكية، كذلك الوقوف ضد محاولة ملك بيت المقدس التدخل في شؤون أنطاكية على إثر وفاة تانكرد، أما برتراند وخليفته بونز فيبدو بأنهما سعيا من وراء هذا التقارب إلى استعادة طرطوس والمناطق المحيطة بها، والتي كانت جزء من كونتية طرابلس في عهد الكونت ريموند، والتي استولى عليها تانكرد على إثر مقتل وليم جوردان الذي أصبح تابعاً له. ونتيجة للتقارب بين طرابلس وأنطاكية أصبح اشتراك كونتية طرابلس في الحملات العسكرية لمملكة بيت المقدس يتم في فتور شديد.

وسرعان ما شهدت سنة٥١٦هـ/١١٢٢م توتر في العلاقات بين الطرفين على إثر خلع بونز ولائه للملك بلدوين الثاني، ورفضه أن يؤدي التزاماته الإقطاعية اتجاهه[٦]، ولعل مرجع ذلك يعود إلى إدراك بونز مدى خطر التقارب الذي جرى بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية على إثر تولي بلدوين الثاني عرش المملكة والذي كانت إحدى أخواته زوجة لروجر حاكم أنطاكية، و برر وليم الصوري هذا التمرد بقوله:**"غير أن أعداء السلام ومحبي الفوضى كانوا يحاولون في هذه الأثناء إثارة المتاعب، فراح بعضهم يوغر صدر بونز ... ضد ملك بيت المقدس"**[٧].

وعدّ الملك بلدوين الثاني ذلك إهانة له كونه الزعيم الأعلى لصليبيي الشرق، فجمع قواته وزحف صوب كونتية طرابلس، ونظراً لأن هذا الصراع سيؤدي إلى ازدياد اضطراب أوضاع الإمارات الصليبية، وبالتالي إفادة العرب المسلمين من هذا الأمر، اتجه بعض النبلاء الصليبيين

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٢٦٨،٢٧١،٢٧٧.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٨٠، ٢٩٦، ٣٠١.

[٢]- سالم، طرابلس، ص١٨٨.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٩.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٩.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٩.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٥٦.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٩٢.- سالم ، طرابلس، ص١٨٩.

[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٦٢.

للتدخل لإصلاح الحال بين بلدوين الثاني وبونز[١]. ويبرر رانسيمان موافقة بونز على ذلك بعدم امتلاكه القوات العسكرية الكافية للتصدي لقوات المملكة[٢].

ولكن وقوع الملك بلدوين الثاني في الأسر لدى الأمير بلك بن بهرام الأرتقي سنة٥١٧هـ/١١٢٣م، وما نتج عن ذلك من اضطراب أحوال الصليبيين، فرض على حكام كل من مملكة بيت المقدس وطرابلس للسعي إلى تناسي خلافاتهم والعمل للوقوف في وجه الحملات العربية الإسلامية، وبناء على ذلك اشترك الكونت بونز في حصار مدينة صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، مما دفع بالملك بلدوين الثاني - بعد إطلاق سراحه- إلى تقديم العون لبونز في الاستيلاء على رفينة، بينما اشترك بونز في التحضيرات لمهاجمة دمشق [٣]، وبذلك فإن الأوضاع العامة للإمارات الصليبية والخطر الإسلامي عليها هي التي أدت لإيجاد هذا التقارب، وليس اعترافاً من بونز أو من خلفه في حكم طرابلس بالتبعية لأي ملك يتولى عرش مملكة بيت المقدس.

ويظهر هذا الأمر عند مقتل بوهيموند الثاني حاكم أنطاكية سنة٥٢٥هـ/١١٣٠م، ووفاة الملك بلدوين الثاني سنة٥٢٦هـ/١١٣١م الذي عد أخر الحكام الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى. فبعد مقتل بوهيموند الثاني تولى الوصاية على إمارة أنطاكية الملك بلدوين الثاني ومن بعده خلفه الملك فولك الأنجوي، الذي يعد من القادمين الجدد إلى الشرق، لذلك فإن الجيل الثاني من الأمراء الصليبيين الذين نشأؤوا في بلاد الشام لم يوافقوا على أن يكون الملك فولك- القادمحديثاً إلى الشرق- سيدهم الأعلى. لذلك وقف الكونت بونز إلى جانب الأميرة آليس - ابنة بلدوين الثاني- وأرملة بوهيموند الثاني سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م، التي حاولت الإنفراد في حكم أنطاكيةبعيداً عن تدخل الملك فولك[٤].

ومن الأسباب الأخرى التي جعلت الكونت بونز يقف إلى جانب آليس، هي امتلاكه لعدد من الحصون في إمارة أنطاكية، ومنها حصن بنو الأحمر" حصن بلاطنس"[٥]، والتي حصل عليها كبائنة من زوجته سيسيليا[٦]، ويبدو أن بونز اتخذ هذا الموقف على اعتباره أحد كبار بارونات إمارة أنطاكية[٧]. إضافة لذلك كان بونز يدرك أن تحرر أنطاكية من تدخل ملك بيت المقدس في شؤونها سوف يمكن كونتية طرابلس من السير على نفس الدرب.

وظهر موقف بونز المعارض لتحرك الملك فولك ضد الأميرة آليس على إثر منعه قوات الملك من عبور أراضي كونتية طرابلس، مما اضطر الملك للإبحار من بيروت إلى السويدية[٨]، ولم يكتفِ بونز بذلك بل قام بوضع العراقيل في وجه الملك والبارونات المؤيدين له في أنطاكية، إذ قام بتحصين القلاع التابعة له في أنطاكية وحشدها بالرجال والعتاد، واتخذها قاعدة لمضايقة قوات الملك فولك[٩]. مما اضطر الملك لمهاجمة منطقة الروج والاشتباك مع بونز وحلفائه في معركة كان النصر فيها من نصيب الملك، الذي اكتفى بذلك ولم يقم بمعاقبة المهزومين؛ ربما لعدم امتلاكه القوة العسكرية الكافية[١٠]، أو لخوف الملك من تدخل جوسلين الثاني كونت الرها المؤيد للأميرة آليس، كما أن

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٦٢.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٩٢.

[٢]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٠.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٨،٥٥.- رانسيمان، ج٢، ص٢٢٤. - سالم، طرابلس ، ص١٨٩.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٧،٩٦.

[٥]- عرف حصن بلاطنس الذي يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة القرداحة، بهذا الاسم نسبة لبني الأحمر الذين قاموا ببنائه في بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. - الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ٤٢٠.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٧.

[٧]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٠.

[٨]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٧.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٢،٢٢٠.- سالم، طرابلس، ص١٨٩.

[٩]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٧.

[١٠]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٨،٩٧.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٢.

المصلحة العليا للصليبيين اقتضت حل الخلاف خشية استفادة العرب المسلمين من الفُرقة بين صفوفهم. إلا أن انتصار الملك فولك كان لا يعني حصوله على اعتراف كل من بونز، وجوسلين الثاني، وآليس بالتبعية له، وذلك نظراً لأن هذا الحلف رغم هزيمته إلا أنه لم يتم القضاء عليه نهائياً[١].

وبعد ذلك ساد التوتر في العلاقات بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس إلى أن تعرضت طرابلس للإغارة من قبل جموع التركمان[٢] القادمين من حلب في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م، حيث لقي الكونت بونز الهزيمة على أيديهم بالقرب من حصن بعرين، ونتيجة لذلك تم طلب النجدة من الملك فولك - الذي كان في طريقه لنجدة إمارة أنطاكية- فلبى طلب النجدة[٣]، وأدت هذه الحادثة إلى إعادة علاقات الود بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس، كما اتبع الملك فولك سياسة جديدة لإجبار طرابلس على الاعتراف بالتبعية لمملكة بيت المقدس تمثلت بتزويج أخت ملكة بيت المقدس هوديرنا من ريموند الثاني ابن بونز[٤].

كما هب الملك فولك للدفاع عن طرابلس من هجمات عماد الدين زنكي سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، وكاد أن يقع أسيراً في أيدي العرب المسلمين، وهكذا فإن العلاقات الأسرية لعبت دوراً هاماً في التقارب بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس، ويظهر هذا الأمر عند مقتل ريموند الثاني سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م[٥]، فقد تولى الملك بلدوين الثالث الوصاية على إدارة الكونتية بصفته أقرب الأقرباء الذكور، وليس بصفته ملك بيت المقدس والسيد الأعلى للصليبيين[٦]. وتكرر هذا الأمر سنة٥٥٩هـ/١١٦٣م عند وقوع الكونت ريموند الثالث أسيراً لدى نور الدين محمود فتولى الملك عموري الاول حق الوصاية على الكونتية[٧]، وبذلك فإن ملوك بيت المقدس أصبحوا يمارسون حق الوصاية على كونتية طرابلس بعد مقتل أو أسر حاكمها بصفتهم أقرب الأقرباء الذكور[٨]، وهذا الأمر يفسر أيضاً تولى ريموند الثالث الوصاية على مملكة بيت المقدس في عهد الملكين بلدوين الرابع وبلدوين الخامس.

٢- العلاقات بين إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس:

اتسمت العلاقات بين العناصر النورماندية والبروفانسية المشاركة في الحملة الصليبية الأولى بالعداء، وظهر ذلك جلياً أثناء صراع ريموند وبوهيموند على حكم مدينة أنطاكية بعد الاستيلاء عليها. وهذا الصراع دفع ريموند للبحث عن حليف يسانده فوجد ضالته في الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس -عدوه السابق-، وبذلك فإن الصراع النورماندي البروفانسي دفع ريموند للتحول من زعيم للحزب المعارض للإمبراطور البيزنطي إلى حليف له يناصره ضد عدوهما المشترك بوهيموند. وبعد إخفاقات ريموند المتكررة في الحصول على أراضي خاصة به في أنطاكية وفلسطين، اتجه للإقامة في

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٢.
[٢]- لم تذكر المصادر اسم القادة لهذه الجموع.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٨٠.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٩.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٧.- سالم، طرابلس، ص ١٨٩.
[٤]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٧.
[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٤٥.
[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٨٥.
[٧]- سالم، طرابلس، ص ١٩٠.
[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٨٥.

مدينة اللاذقة الخاضعة للسيطرة البيزنطية، هذا الأمر فضلاً عن وجود حامية بيزنطية قوية في المدينة شكل خطراً على إمارة أنطاكية الصليبية الناشئة حديثاً[١].

وإزداد توتر العلاقات عند مهاجمة تانكرد للمناطق المجاورة للاذقية[٢]، واستمر ذلك لغاية سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م التي شهدت قدوم الكونت ريموند إلى أنطاكية مع بقايا الحملة اللومباردية، وعند ذلك اعتقله تانكرد ولم يطلق سراحه، إلا بعد تنازله عن المطالبة باستعادة الأماكن التي كانت خاضعة له في المدينة قبلى أن تخضع بمجملها لسيطرة بوهيموند، كما تعهد أيضاً بعدم التدخل في شؤون إمارة أنطاكية، وبالتالي الحد من نشاطه في الجزء الشمالي من الساحل الشامي، وهذا الأمر اضطره إلى سحب قواته من مدينة اللاذقية،والتوجه جنوباً للسيطرة على مدينة طرطوس لتكون النواة الأولى لإمارته المنشودة في الشرق[٣]. وفرض الاتفاق الذي تم بين تانكردوريموند نوعاً من الهدوء بين أنطاكية والكونت ريموند، كما رسخ هذه الحالة انشغال أمراء أنطاكية بالتوسع على حساب المناطق العربية الإسلامية المحيطة بهم من جهة، ومحاولة الاستيلاء على اللاذقية وصد الحملات البيزنطية على منطقة كيليكية من جهة أخرى[٤]، بينما ركز ريموند جهوده للاستيلاء على المناطق التابعة لإمارة بني عمار في طرابلس.

وما لبث التوتر في العلاقات بين إمارة أنطاكية وأسرة ريموند أن عاد عند قدوم برتراند بن ريموند إلى بلاد الشام للمطالبة بإرث والده في طرابلس وأنطاكية سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وفي طريقه إلى المناطق الخاضعة لسيطرة أبيه بالقرب من طرابلس، توقف في إمارة أنطاكية للمطالبة بتسلم جميع الأماكن التي كانت خاضعة لسيطرة والده في مدينة أنطاكية عند استيلاء الحملة الصليبية الأولى عليها. فأبدى تانكرد استعداده لردها مقابل أن يساعده برتراند في انتزاع مدينة المصيصة من الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن برتراند رفض ذلك نتيجة إدراكه بأن هذا الفعل يفقده دعم الإمبراطور البيزنطي الذي وعده بالحصول على ميزات إمبراطورية مقابل أن يقسم على الولاء له، مما اضطر تانكرد لإجبار برتراند على مغادرة أراضي إمارة أنطاكية[٥].وهكذا فإن ظهور برتراند شكل خطراً على إمارة أنطاكيةنظراً لتحالفه مع الإمبراطورية البيزنطية العدو الأخطر على أنطاكية.

ونتيجةلذلك نشأ نوعاً من الحقد والعداوة بين الطرفين، وسرعان ما ظهر عند تدخل تانكرد في الصراع بين وليم جوردان وبرتراند حول إرث ريموند في الشرق، فقد وجد الفرصة مناسبة لإضعاف خصمه برتراند بن ريموند، وذلك عن طريق تقديم العون لوليم جوردان الذي اعترف مقابل ذلك بالتبعية الإقطاعية لتانكرد، وهذا الأمر اضطر برتراند لطلب النجدة من ملك بلدوين الأول[٦] الذي يعد الخصم اللدود لتانكرد منذ القتال في منطقة كيليكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م.

ولكن ما لبث هذا الخلاف والتوتر بين الفرقاء أن حل في الاجتماع الذي دعا إليه الملك بلدوين الأول لحل الخلافات الصليبية - الصليبية، والذي عقد بالقرب من طرابلس ونتج عنه تسوية الصراع على إرث ريموند، حيث تم تقسيمه بين برتراند ووليم جوردان، لكن هذا الأخير قتل في ظروف غامضة وكان المستفيد الأكبر من ذلك هو برتراند الذي سيطر على عدد من المواقع الخاضعة لوليم

---

(١)- سالم، طرابلس، ص١٩١، ١٩٢.

(٢)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٥.

(٣)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٥،٦٦.

(٤)- آنا كومنين، الألكسياد، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص٦١.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٦٦،٧٦.

(٥)- فولتشرأو تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٤.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٥- ٩٧.

(٦)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٥.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٨.

ومنها عرقة[١]، بينما قام تانكرد بالاستيلاء على مدينة طرطوس[٢]. وبذلك أصبحت حدود إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس متجاورة، كما اشتد الخلاف بينهما بعد فقدان البروفانسيين لمدينة طرطوس، التي تعد أول مدن الساحل الشامي التي خضعت لسيطرتهم. إلا أن العلاقات بين أنطاكية وطرابلس شهدت تحسناً ملحوظاً اقتضته الحاجة لتوحيد صفوف الصليبيين للتصدي للحملات العربية الإسلامية، إذ شارك برتواند وتانكرد جنباً إلى جنب مع قوات الملك بلدوين الأول في صد هجوم الأتابك مودود على كونتية الرها سنة٥٠٣هـ/١١٠٩م[٣] .

وازدادت العلاقة ارتباطاً في أواخر عهد برتراند، وظهر ذلك بشكل واضح عند تولي بونز حكم كونتية طرابلس خلفاً لوالده، حتى أن وليم الصوري عد بونز أحد أتباع تانكرد بقوله:**"وحدث وهو مسجى- تانكرد- على فراش موته أن كان ممن يقومون على خدمته شاب اسمه"بونس"هو ابن برترام- برتراند - كونت طرابلس..."**[٤]، كما يؤكد ابن القلانسي ذلك بقوله:**" ورد الخبر بهلاك بدران- برتراند- بن صنجيل صاحب طرابلس بعلة لحقته، وأقام ابنه في الأمر من بعده، وهو طفل صغير كفله أصحابه، ودبروا أمره مع طنكري- تانكرد- صاحب أنطاكية، وجعلوه من خيله وأقطعه أنطرسوس وصافيتا، ومرقية وحصن الأكراد"**[٥]، ولم يكتف بذلك بل أوصى بعد وفاته بأن تتزوج زوجته سيسيليا من بونز، ومنحه بعض الحصون الواقعة في منطقة الروج كبائنة على زواجه منها[٦].

وهنا يطرح تساؤل ما هي الأسباب التي دفعت تانكرد للتقرب من حاكم كونتية طرابلس، ومنحه بعض الإقطاعيات التابعة لإمارة أنطاكية، وما هي الأسباب التي جعلت بونز يعزز علاقاته مع إمارة أنطاكيةمخالفاً بذلك سياسة والده برتراند المعادية لتانكرد؟

ويبدو بأن تانكرد سعى من وراء ذلك العمل على ضمان أمن إمارة أنطاكية في حال وفاته، بحيث تشكلكونتية طرابلس عائقاً أمام تدخل الملك بلدوين الأول في شؤون الإمارة النورماندية، إضافة لإبعادها عن الإمبراطورية البيزنطية العدو اللدود لصليبيي أنطاكية، والتي كانت تعد حليفاً للحكام الصليبيين في طرابلس، وهكذا استطاع تانكرد جعل كونتية طرابلس تدور في فلك نفوذ إمارة أنطاكية عن طريق جعل حاكمها بمثابة إقطاعي تابع لحكام أنطاكية، ويظهر ذلك من خلال منحه بعض الحصون في منطقة الروج كأملاك إقطاعية له[٧]، وهذا الأمر يقضي من بونز عدم الإخلال بمصالح إمارة أنطاكية، والدفاع عنها ضد أي خطر خارجي.

أما بونز فقد هدف من وراء هذا التقارب العمل على التخلص من التبعية لمملكة بيت المقدس، فإذا كان الكونت برتراند قد خضع لسيادة الملك بلدوين الأول كي يوفر الحماية لنفسه من عدوان تانكرد[٨]، فإن بونز لم يعد يرى هنالك حاجة لهذا الخضوع نتيجة لتقارب المصالح مع تانكرد،فضلاً عن سعيه لاستعادة مدينة طرطوس والمناطق المحيطة بها التي خسرتها كونتية طرابلس لصالح تانكرد بعد مقتل وليم جوردان. وهكذا ارتبطت مصالح كونتية طرابلس مع إمارة أنطاكيةارتباطاً وثيقاً، مما شجع بونز على خلع ولائه لمملكة بيت المقدس سنة٥١٦هـ/١١٢٢م.

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩٨.

[٢]- سالم ، طرابلس، ص١٩٣.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٧٢،٢٧١.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٦.- سالم، طرابلس، ص١٩٣،١٩٤.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٩.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٨٩.

[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٩،ج٣، ص٩٧. – رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٥٦. - سالم، طرابلس، ص١٩٥.

[٧]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٠.- سالم، طرابلس، ص١٩٥.

[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٠.

واستمرت العلاقات والمصلحة المشتركة طيلة حكم بونز، وتجسد ذلك من خلال وقفه إلى جانب الأميرة آليس أرملة بوهيموند الثاني حاكم أنطاكية، والتي سعت للإنفراد في حكم الإمارة بعيداً عن ابنتها كونستانس الوريثة الشرعية في سنة٥٢٦هـ/١١٣١م ، وتجلى ذلك التعاون عند رفض بونز عبور الملك فولك بقواته لأراضي كونتية طرابلس للوصول إلى أنطاكية لمحاربة آليس، ولم يكتف بونز بذلك بل جعل الحصون التابعة له في إمارة أنطاكية بمثابة قاعدة لمهاجمة قوات الملك ووضع العراقيل في طريقه[1]. وبقيت العلاقات على حالها وأخذ حكام طرابلس بالانخراط في مشكلات إمارة أنطاكية، ويظهر ذلك من خلال اشتراك الكونت ريموند الثالث في محاربة نورالدين محمود التي هاجم أنطاكية سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م.

[1]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ٩٦،٩٧.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢٢٠،٢٢٢.- سالم، طرابلس، ص١٨٩.

الفصل الرابع

آثار الحروب الصليبية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية

أولاً- موقف مسيحيي بلاد الشام من قدوم الصليبيين.

ثانياً- مشكلة اللاجئين وتهجير السكان العرب.

ثالثاً- أوضاع السكان العرب في ظل السيطرة الصليبية على الساحل الشامي.

رابعاً- المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في الساحل الشامي.

خامساً- الاستيطان الصليبي في الساحل الشامي.

سادساً- أثر الحروب الصليبية على التقارب الإسلامي - الإسلامي.

سابعاً- تأثر الصليبيين بالمجتمع الشرقي من الناحية الاجتماعية.

ثامناً- تأثر الصلبيين بالمجتمع الشرقي من الناحية الفكرية.

تاسعاً- أثر الحروب الصليبية على العلاقات الاقتصادية بين الصليبيين والعرب المسلمين.

كانت للحروب الصليبية العديد من الآثار والنتائج على السكان الوطنيين أو الصليبيين الذين وفدوا إلى بلاد الشام في مختلف نواحي الحياة الإجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية، ومن تلك الآثار:

أولاً - موقف مسيحيي بلاد الشام من قدوم الصليبيين:

تميزت بلاد الشام منذ القدم بتنوع سكانها من الناحية الدينية والعرقية، وعند قدوم الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي احتوت بلاد الشام على العديد من الطوائف الدينية المسيحية مثل اليعاقبة والنساطرة والموارنة والروم الأرثوذكس، التي اختلفت فيما بينها حول بعض معتقدات المسيحية وبخاصة فيما يتعلق، فضلاً عن التنوع العرقي للمنتسبين لها، وعانت تلك الطوائف في بعض العصور الإسلامية لنوع من الاضطهاد، لذلك اختلفت في بداية الأمر نظرة مسيحيي بلاد الشام عن نظرة العرب المسلمين للصليبيين الذين ادعوا بأنهم قدموا لنصرة مسيحيي الشرق، وتحرير القبر المقدس، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الروايات المتنوعة، والمتعارضة، التي أوردتها المصادر التاريخية وخاصة الصليبية منها.

فصاحب كتاب أعمال الفرنجة اتهم الأرمن والسريان بالتجسس على الحشود الصليبية المحاصرة لمدينة أنطاكية، ونقل أخبارها للقوات السلجوقية المتواجدة داخل المدينة، وذلك بقوله:" **ودأب الأرمن والسريان الذين كانوا داخل أنطاكية على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالهرب، وعليه وجدوا بين صفوفنا كل يوم بينما بقيت عائلاتهم داخل المدينة، وجرت عادتهم على تقصي أخبار أحوالنا ومواقفنا ثم كانوا يحملون هذه الأخبار إلى المحاصرين**"[(١)]، وهذا يناقض ما يورده ابن الأثير عن قيام يغي سيان حاكم أنطاكية بإخراج الذكور من مسيحيي المدينة للقيام بحفر خندق حولها عند بلوغه أنباء وصول حشود الصليبيين، ثم أصدر أوامره بعدم السماح لهم بالعودة إلى داخل المدينة، إلا أنه تعهد بحماية عائلاتهم[(٢)]، وعلى الرغم من اختلاف الروايتين حول طريقة خروج الأرمن والسريان من المدينة، فإنهما تتفقان على بقاء عائلاتهم داخل المدينة . ويمكن الاستنتاج من الروايتين أن يغي سيان أدرك خطر بقاء الذكور من مسيحيي المدينة خشية تعاونهم وتعاطفهم الديني مع الصليبيين، ولكن في الوقت ذاته وجد عدد من المسيحيين الذين قاموا بأعمال الجاسوسية لصالح يغي سيان،فضلاً عن قيام بعض العناصر الأرمينية بالقتال إلى جانب السلاجقة، واشتهر منهم فيروز الذي قام بتسهيل استيلاء الصليبيين على المدينة.

إلا أن فولتشر أوف تشارتر يذكر لوحده رواية تفيد قيام الحامية السلجوقية لأنطاكية بقتل أعداد كبيرة من مسيحيي المدينة، ورمي رؤوسهم بالمجانيق على مرأى من عيون الصليبيين، انتقاما من قيام الصليبيين بقتل ما يقارب سبعمئة مقاتل من الحامية السلجوقية عند وصولهم إلى جسر مدينة أنطاكية[(٣)].وإذا صحت هذه الرواية فهذا يعطي دليلاً على سوء إدارة يغي سيان وقواده لمجريات الحصار، نظراً لأن العنصر المسيحي كان يشكل الغالبية العظمى من سكان المدينة التي سيطر عليها السلاجقة المسلمون بقيادة سليمان بن قتلميش في سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م أي لم يمضِ على الحكم السلجوقي للمدينة سوى اثنتا عشر سنة فقط.

ويبدو أن العديد من مسيحيي شمال بلاد الشام قد أبدوا فرحاً بقدوم الصليبيين، فقاموا بالانضمام إلى الحشود الصليبية، واشتركوا بقتال قوات العرب المسلمين، نتيجة لنزعتهم الطائفية والميل إلى أبناء ديانتهم، أو نتيجة حقدهم على الفئة السلجوقية الحاكمة التي قامت باضطهادهم، فقد أكَدَ صاحب

---

(١)- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٠٩.
(٢)- ابن الأثير، الكامل، تح: عمر عبد السلام تدمري، ج٨، ص ٤١٦.
(٣)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٣٨.

كتاب أعمال الفرنجة قيام الأرمن والسريان بنصب الكمائن لقوات قلعة حارم التي هزمت أمام القوات الصليبية، وذلك بقوله:**"ولما علم الأرمن والسريان خبر فرار التركمان في هذه الموقعة خرجوا من قراهم وتربصوا في المكامن التي نصبوها لهم في الممرات والمسالك وقتلوا العديد منهم..."**[١]، كما أشار ريموند دي جيل لهذه المساعدة ولكن أحاطها بهالة دينية إذ نسب زيادة عدد القوات الصليبية إلى المساعدة الربانية، حيث وصف ذلك بقوله:**" لقد زاد الرب حجم وحدات الفرسان الست من دون السبعمائة رجل إلى أكثر من ألفين..."**[٢]، ومن خلال هذه الرواية يمكن القول: أنَّ الصليبيين سعوا لتفسير وصول الإمدادات والتعزيزات من بعض العرب المسيحيين، بأنها عبارة عن هبة ربانية منحها الرب للجنود الذين حملوا شارة الصليب، وتعهدوا بتحرير القبر المقدس، في محاولة منهم لإنكار المساعدة التي حصلوا عليها من بعض مسيحيي الشرق، والذين يعدهم الصليبيون عبارة عن هراطقة مارقين خارجين عن المعتقدات المسيحية الكاثوليكية، حتى أن ريموند دي جيل حاول تسويغ مساهمة السكان الأرمن في بناء الحصن الذي شيده تانكرد بالقرب من أنطاكية، بعدم امتلاك الصليبيين للخدم أوالعبيد لاستخدامهم في عمارة هذا الحصن، مما اضطرهم لاستخدام الأرمن والإغريق كعبيد وتسخيرهم في بناء هذا الحصن[٣]. إلا أن السبب الحقيقي لاستخدامهم الأرمن والإغريق و السريان في ذلك يعود إلى عدم معرفة الصليبيين بنمط بناء الحصون، وعدم احتواء تلك الجموع على متخصصين في بناء القلاع المبنية من الحجارة علىخلاف ما كان سائداً في أوربا حيث انتشرت القلاع المصنوعة من الأخشاب.

وما لبثت العلاقات أن توطدت بين بعض مسيحيي بلاد الشام والصليبيين ويظهر ذلك بوضوح عند التحاق العديد منهم بالقوات الصليبية عند وصولها إلى مدينة اللاذقية سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، خلال زحفها نحو مدينة بيت المقدس، ويصف وليم الصوري ذلك بقوله:**" خرج الجيش بعدئذ من لاذقية الشام، وقد اشتد بأسه بالمسيحيين من أهل تلك المدينة، كما جاء غيرهم من أنطاكية وقليقية ومدن تلك الناحية ممن لم يكونوا قادرين من قبل على المغامرة لأمور كانت تشغلهم..."**[٤]، لكن هذه الرواية لم ترد سوى لدى وليم الصوري حيث لم يذكر أي مؤرخ صليبي رافق الحملة الصليبية الأولى قيام المسيحيين المحليين الالتحاق بالقوات الصليبية عند مدينة اللاذقية، كما أن المناطق التي ذكرها وليم الصوري في روايته كانت خاضعة للسلطة البيزنطية كما في اللاذقية ، أومنطقة كيليكية التي يستقر فيها الأرمن، وهذا يدل على أن تلك العناصر التي انضمت إلى الصليبيين هي عبارة عن مساعدات عسكرية قُدمت من قبل الإمبراطورية البيزنطية، وبالتالي هذا ينفي ادعاء الصليبيين بعدم حصولهم على أي دعم بيزنطي بعد انسحاب القوات البيزنطية المرافقة لهم في بدايات حصار مدينة أنطاكية.

كما قدم كل من ريموند دي جيل، ووليم الصوري مظهراً آخر من مظاهر تعاون العرب المسيحيين مع الصليبيين، وذلك عند إشارتهما لقيام المسيحيين من الطائفة المارونية باستقبال الصليبيين بالترحاب وإرشادهم إلى أسلم الطرق المؤدية إلى مدينة بيت المقدس[٥]، كذلك فولتشر أوف تشارترز يذكر بأن مسيحيي بيت لحم (السريان) عندما علموا بقرب وصول قوة صليبية إلى مدينتهم، أبدوا فرحهم وسرورهم بذلك، ويصف ذلك بقوله:**" وعندما اكتشف النصارى(المسيحيون) من أبناء المنطقة من الإغريق والسريان بأن الفرنجة قد وصلوا، شعروا بالسعادة والسرور... وتيقنوا بأنهم**

---

[١]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١١٨.

[٢]- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٩٨.

[٣]- ريموند دي جيل،تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٠٦.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥١.

[٥]- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٦، ص٢٧٥-٢٧٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٢.

فرنجة طاروا فرحاً، وحملوا على الفور صلبانهم وخرجوا للترحيب بهم وهم يبكون وينشدون بخشوع..."[١].

وعلى الرغم من محاولة المؤرخين الصليبيين تبرير قدومهم إلى بلاد الشام بنصرة المسيحيين وتحرير بيت المقدس من العرب المسلمين، ووصفهم لمشاعر الفرح والسرور التي شعر بها مسيحيو بلاد الشام لقدومهم، مما دفعهم للسير في ركابهم ومشاركتهم في قتال العرب المسلمين، وإن صح وجود عدد من المسيحيين المحليين(العرب والأرمن) في صفوفهم والذين قدّموا لهم التسهيلات، فإن هذا لا يعطي دليلاً على أن جميع مسيحيي بلاد الشام كانوا يحملون مشاعر موحدة تجاه الصليبيين، وخاصة بأنهم هم أنفسهم عانوا من قدوم الصليبيين الذين قاموا عند استيلائهم على مدينة أنطاكية بقتل المئات من سكانها دونما تفريق بين مسلم ومسيحي[٢]، لذا تعاون العرب المسيحيون والمسلمون في قتال القوات الصليبية في عدة مواقع، كما حدث أثناء حصار الحملة الصليبية الأولى لمدينة جبلة[٣]. فضلاً عن ذلك فإن موقف الصليبيين الديني من العرب المسيحيين خير دليل على عدم وجود أي انسجام بين حشود الصليبيين والسكان العرب المسيحيين.

ولا بد هنا الإشارة إلى أن بعض مؤرخي الحروب الصليبية، قد حاولوا الإيحاء أن تلك الحروب ، تركت أثاراً سلبية على العلاقات بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين، وذلك نتيجة تعاون بعض العرب المسيحيين مع الصليبيين في قتال أخوانهم العرب المسلمين،فضلاً عن اعتقاد بعض المسلمين بقيام العرب المسيحيون بمراسلة الأوربيين؛ للقدوم لتخليصهم من سلطة إخوانهم المسلمين، وأشار وليم الصوري إلى ذلك بقوله:**" وأساء المسلمون السيرة فيهم اعتقاداً منهم بأن هؤلاء السوريين هم بعثوا برسلهم وكتبهم يستدعون أمراء الغرب..."[٤].**

ثانياً - مشكلة اللاجئين وتهجير السكان العرب:

كانت من أخطر نتائج الحروب الصليبية هي مشكلة اللاجئين، الذين اضطروا للفرار بحياتهم خوفاً من الوقوع ضحايا للأعمال الوحشية التي ارتكبتها الحشود الصليبية، وهذه المشكلة لم تلق اهتماماً كبيراً من قبل المؤرخين العرب المسلمين، أو الصليبيين، إلا أن كتاباتهم ضمت بعض الإشارات التي تفيد هذا الموضوع، وبدأت هذه المشكلة مع توغل الصليبيين في بلاد الشام، ولم تنتهي إلا بطردهم منها، ويمكن تصنيف اللاجئين في الحقبة الواقعة بين ٤٩١- ٥٦٩هـ/ ١٠٩٧- ١١٧٣م إلى ثلاث مجموعات:

- المجموعة الأولى: تتكون من السكان أو العسكريين الهاربين من المذابح التي ارتكبها الصليبيون- أو حلفائهم- في السنوات الأربعة عشر الأولى من استقرارهم في بلاد الشام واستيلائهم على بعض مدنها[٥]، ومن الأمثلة على ذلك: ما ذكره ابن القلانسي عن عصيان القلاع المجاورة التابعة لمدينة أنطاكية عند اقتراب الحشود الصليبية، وقتل العديد من المتواجدين فيها، بقوله:**" فعند ذلك عصى من كان في الحصون المعاقل المجاروة لأنطاكية وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها وفعل أهل**

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٥٩.
[٢]- زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص٩٣.
[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٤٧.
[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣١٨.
[٥]- حسين (حسن عبد الوهاب)، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٧م، ص ٧٩.

ارتاح مثل ذلك واستدعوا المدد من الأفرنج"[١]. وكما أن استيلاء الصليبيين على أنطاكية أدى إلى هرب مجموعة من السكان والعسكريين إلى قلعة المدينة، ثم خروجهم من المدينة ناجين من القتل بناء على اتفاقية مع بوهيموند، نصت على " **يأذن - بوهيموند- بموجبها للكفرة الذين يرغبون في اعتناق المسيحية بالبقاء معه، ويسمح لمن يرغبون عنها بالانصراف سالمين أمنين دون أن ينزل بهم أدنى ضرر أو أذى"**[٢]. كما لابد أن جميع هجمات القوات الصليبية أدت لهروب سكان القرى والمدن إلى أماكن أكثر أماناً ولا تخضع للسيطرة الصليبية.

- المجموعة الثانية: تتكون من سكان المدن التي كانت قد استسلمت، والتزم الصليبيون فيها ببنود الاتفاقيات التي نصت على الحفاظ على حياة السكان وضمان حرية مغادرتهم هذه المدن[٣]، من الأمثلة على ذلك سكان أرسوف وأشار ابن القلانسي ذلك بقوله:**"وملكوا أرسوف بالأمان، وأخرجوا أهلها منها"**[٤]، بينما ذكر المؤرخ الصليبي فولتشر أوف تشارترز وجهت السكان بعد سقوط المدينة بيد الصليبيين، إذ يقول:**" ثم غادروا المدينة مصطحبين معهم كامل أموالهم، وأعطى الملك الإذن بالسفر بأمان للذين غادروا إلى عسقلان مكسوري الخاطر"**[٥]. وعند الاستيلاء على مدينة عكا تم إخراج سكان المدينة، ويصف وليم الصوري ذلك بقوله:**" وكانت شروط التسليم التي فرضت على الأهالي السماح لمن يريد ترك المدينة بالخروج والذهاب حيثما شاؤوا، مع ضمان سلامة أرواحهم ومن معهم من حريمهم وصغارهم، وماملكت أيديهم من المتاع ..."**[٦]، كذلك عند الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، نصت اتفاقية تسليم المدينة **" بإعطاء الأمان للمسلمين وعدم قتلهم والسماح لهم بالذهاب حيث أرادوا وبلا ممانعة..."**[٧].

وتكرر هذا الأمرأيضاً عند الاستيلاء على مدينة صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م **" تقررت الحال على تسليمها إليهم بحيث يؤمن كل من بها ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية بما يقدرون عليه من أحوالهم ويقيم من أراد الاقامة"**[٨]، ويؤكد ذلك فولتشر أوف تشارترز بقوله:**" وبعدما تساوم الطرفان ...، تبادلا الرهائن، وغادر المسلمون المدينة ودخلها المسيحيون بأمان، وقضت الشروط بالسماح لمن أراد من المسلمين البقاء في المدينة والعيش بسلام"**[٩]. ويعد سكان مدينة عسقلان أخر الأمثلة على هذا النموذج، إذ تم إخلاء المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م و**"استجاب الملك لشروط العهد فأمدهم بالمرشدين الذين رافقوهم حتى بلغوا العريش"**[١٠].

- المجموعة الثالثة:تتكون من السكان الذين أخلوا مدنهم بالكامل خوفاً من الصليبيين، وأثروا اللجوء إلى المدن البعيدة عن خطر الصليبيين ، ومن الأمثلة على ذلك: إخلاء مدينة طرطوس عند تعرضها لهجوم من بعض قوات الحملة الصليبية الأولى، ويعبر عن ذلك صاحب يوميات أعمال الفرنجة بالقول: **" فاستولى الرعب على الكفرة، واستغلو حلول الظلام فانسلوا هاربين خفية، وخلفوا البلدة**

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢١٩.
[٢]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٥١.
[٣]- حسين، مقالات ، ص ٨٠.
[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٥٨.
[٥]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٥.
[٦]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٤٧.
[٧]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٣٦.
[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٧.
[٩]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٥٠٣.
[١٠]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٧١.

وراءهم، وتركوا بها متاعهم الكثير"[١]، كذلك اضطرار سكان مدينة الرملة لإخلاء مدينتهم[٢]، واللجوء إلى عسقلان؛ وذلك نظراً لافتقار المدينة للتحصينات العسكرية اللازمة للتصدي للصليبيين من أسوار وقلاع، وكذلك هروب سكان القرى التي تقع ما بين مدينتي أسدود وعسقلان سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، ويذكر فولتشر أوف تشارترز ذلك بقوله:" **... ولقد دمرنا بلاد الأعداء، وتابعنا تقدمنا فوجدنا الكثير من القرى وقد هجرها أهلها من المسلمين واصطحبوا معهم دوابهم ومقتنياتهم، ولجأوا إلى الكهوف خوف منا ..."**[٣]. وتكرر هذا الأمر في منطقة وادي عربة[٤].

ولعل هنالك قسم من هؤلاء اللاجئين قد لجأ إلى القرى المجاورة لتلك المدن والبلدات التي تقع في المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية.

ونظراً لخلو المصادر من البيانات العددية فلا يمكن قياس حجم هذه الهجرة، كما لابد من الإشارة إلى عدم المعرفة بمصير سكان القرى المحيطة بتلك المدن[٥]، باستثناء بعض الحالات كما حدث عند الاستيلاء على صيدا إذ نصت الاتفاقية بين حامية المدينة والملك بلدوين الأول على أن يستبقي الفلاحين للإفادة منهم في الزراعة[٦]. كما لا تورد المصادر العربية الإسلامية أية معلومات عن كيفية استيعاب المدن الداخلية في بلاد الشام لهذه الأعداد المتدفقة من اللاجئين، وما هي الإجراءات التي اتخذتها السلطات للتخفيف من وطئت ذلك على اللاجئين أنفسهم. فلابد أن تدفق اللاجئين كان له نتائج سلبية على المناطق التي استوعبت تلك الأعداد من ناحية ارتفاع الأسعار، مثال على ذلك مدينة صور التي كانتمستقراً للعديد من سكان المدن التي سقطت بأيدي الصليبيين مثل عكا، صيدا، بيروت. وإلى ارتفاع أعداد سكان المدن المستضيفة.

كما لم ترد في المصادر العربية الإسلامية أي معلومة على أماكن إقامة هؤلاء عند لجوئهم إلى المدن الأخرى باستثناء مدينة الصالحية- بالقرب من دمشق- التي تعد النموذج الوحيد المعروف عن استقرار اللاجئين بصورة جماعية، كما قدم المقريزي إشارات إلى احتواء مدينة عسقلان لبعض الأشخاص القادمين من مدينة بيروت عند حديثه عن قيامهم بقتل واليها سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م؛ نتيجة لتقاربه مع الصليبيين[٧].

وبرز من بين هؤلاء اللاجئين أو من بين ذريتهم عدد من الأشخاص الذين لعبوا دوراً هاماً في المدن والبلدان التي وفدوا إليها، ومنهم:

[١]- مولف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦٣.
[٢]- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص ٢٨١. - مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦٦. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٣٥٨.
[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٣٨٧،٣٨٨ .
[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٣٨٩، ٣٩٠.
- وادي عَرَبة: يقع إلى الجنوب من البحر الميت، يمتد حتى خليج العقبة، يبلغ طوله ١٧٩كم، وهو قفر وليس فيه سوى بعض الينابيع الشحيحة، يمتاز بارتفاع درجة حرارته.- الدباغ، بلادنا، ج١، ق١، ص ١٠٧.
[٥]- حسين، مقالات، ص٨١.
[٦]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"،ج٦، ص ٤٤٠.
[٧]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٠،٥١.

- القيسراني: أبو عبد الله شرف الدين محمد بن نصر بن صغير[١]، بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي القيسراني[٢]، ولد في مدينة عكا سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م[٣] سكن مدينة حلب، ودمشق بعد استيلاء الصليبيين على ساحل بلاد الشام، يعد من كبار شعراء بلاد الشام في عهد الملك العادل نور الدين محمود[٤]. ويقول عنه ابن عساكر(ت٥٧١هـ /١١٧٥م): **" شاعر مكثر له ديوان كبير حسن سكن دمشق مدة وامتدح بها جماعة، وتولى إدارة الساعات التي على باب الجامع ... وسكن حلب مده وتولى فيها خزانة الكتب"**[٥]، توفي في دمشق سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م[٦]، بينما يذكر ابن خلكان وياقوت الحموي وفاته سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٧].

- ابن منير الطرابلسي: مهذب الدين عين الزمان أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي ولد في مدينة طرابلس سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م[٨]، قدم دمشق بعد استيلاء الصليبيين على مدينة طرابلس، فأقام فيها لعدة سنوات ثم ارتحل إلى حلب، ويعد منافساً للقيسراني في مجال الشعر[٩]، وكانت وفاته في مدينة حلب سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[١٠]، وتتلمذ على يديه العديد من الشعراء ، وله عدة قصائد تمجد أعمال نور الدين محمود ضد الصليبيين، ومثال عليها هذه الأبيات:

أبـداً تباشـر وَجـه غـزوك ضَـاحِكا   وتـــؤوب مِنْـــهُ مـــؤيّداً منصـــوراً

تـــني لَـــك الأمـــل البعيـــدَ سَـوَاهُم   محقـــت أهـــلتها وَكـــنّ بـــدوراً

مثـل السِّـهَام لـو ابْتغـى ُنو أرْبــعٍ   فـــي الجـــو مُطَّ بـــا َ كـــن طيـــوراً

غسـل العواصـم أمـس مـن أدرانهـم   وَالْـــيَوْم ردّ بِـــهِ الســـواحل بـــورا

غادرت أنطرسوس كالطرس امّحى   رسـماً وحّمـر درعهـا يحمـورا[١١]

---

[١]- السمعاني (عبد الكريم بن محمد)، التحبير في المعجم الكبير، تحقيق: منيرة ناجي سالم، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، ١٩٧٥م، ج ٢، ص ٢٤٢. - ياقوت الحموي (أبو عبد الله)، معجم الأدباء "إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب"، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ج٦، ص ٢٦٥٤.

[٢]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٤٥٨.

[٣]- السمعاني، التحبير، ج٢، ص٢٤٤.

[٤]- السمعاني، التحبير، ج٢، ص ٢٤٣.- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٦، ص٢٦٥٤. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٤٥٨.

[٥]- ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٦، ص ١٠١.

[٦]- السمعاني، التحبير، ج ٢، ص ٢٤٢-٢٤٤.

[٧]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٦٥٤. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٤٦١.

[٨]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٥٦.

[٩]- الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٨، ص ١٢٥. - تدمري (عمر عبد السلام)، الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، مؤسسة دار فلسطين للتأليف والترجمة، ١٩٧٢م، سص٣٣.

[١٠]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٥٩.

[١١]- أبو شامة، الروضتين، ج١، ق١، ص٢١٦، ٢١٧.

- عبد الله بن أحمد بن الحسين، أبو محمد ابن النقار الطرابلسي، ولد في طرابلس سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، قدم دمشق عند استيلاء الصليبيين على طرابلس، وتقدم في كتابة الإنشاء فيها، توفي سنة٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م[١].

- القاضي الفاضل: مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن بهاء الدين علي بن الحسن بن الحسن[٢] بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني[٣]، ويقال له البيساني؛ لأن والده كان يتولى قضاء مدينة بيسان[٤]، ولد في مدينة عسقلان سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م[٥]. يقول عنه ياقوت الحموي:" **كان أوحد دهره وفريد عصره عقلاً ونبلاً وفصاحة وبياناً، لم يكن أحد يضاهيه في صناعة الانشاء، وكان هيوباً وقوراً نزه المجلس ...**"[٦]، وكان ذا حظوة عند السلطان صلاح الدين الأيوبي. توفي في القاهرة سنة ٥٩٦هـ /١١٩٩م[٧].

ثالثاً- أوضاع السكان العرب في ظل السيطرة الصليبية على الساحل الشامي:

ضم النسيج الاجتماعي لبلاد الشام عند قدوم الحملة الصليبية الأولى تنوعاً عرقياً ودينياً، فمن الناحية العرقية شكل العرب الغالبية العظمى إلى جانب الأرمن وأتباع الإمبراطورية البيزنطية الذين تمركزوا بخاصة في منطقة كيليكية،والجزء الشمالي من الساحل الشامي، فضلاً عن الغز السلاجقة الذين تسربوا إلى بلاد الشام خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وسرعان ما أصبحوا رغم قلة أعدادهم الفئة العسكرية الحاكمة لمعظم مناطق بلاد الشام، أما من الناحية الدينية فقد توزع السكان مابين أتباع الديانة الإسلامية وأتباع الديانة المسيحية فضلاً عن وجود اليهود في بعض المدن الكبرى، وبعض الصابئة في شمال بلاد الشام.

وعانى السكان العرب على مختلف معتقداتهم الدينية من الأعمال الوحشية التي ارتكبها الصليبيون خلال توسعهم في بلاد الشام، فعند استيلائهم على مدينة أنطاكية سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م قاموا بقتل كل من صادفوه من سكانها، دون تمييز بين مسلم ومسيحي، ولم ينجُ من الموت إلا من احتمى بالقلعة[٨]، ويصف ابن القلانسي ذلك بقوله:" **فقتل منها وأسر وسبي من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه حصر...**"[٩]، كما تكرر هذا الأمر عند استيلاء الصليبيين على مدينة قيسارية سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م، إذ قاموا بنهب الدور وقتلوا الأهالي،مما دفع الذين قُدِّر لهم النجاة القيام بقتل أنفسهم بأيديهمخوفاً من الوقوع في الأسر[١٠]،وقدم فولتشر أوف تشارترز وصفاً لأعمال القتل التي قام بها الصليبيون في قيسارية بقوله:" **ثم أعملوا سيوفهم قتلاً في كل من صدفوه في طريقهم ...، ولم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور، لكننا احتفظنا بكثير من النساء، حيث من الممكن الإفادة**

---

[١]- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٢، ص ٤٠٩.

[٢]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٤، ص ١٥٦٢.

[٣]- ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج٣، ص ١٥٨.

[٤]- بيسان: يصفها ياقوت الحموي بقوله:"**مدينة بالأردنّ بالغور الشامي ...، وهي بين حوران وفلسطين...، وتوصف بكثرة النخل**".- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٧.

[٥]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٤، ص١٥٦٣،١٥٦٢.

[٦]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٥٦٢.

[٧]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٦٢.

[٨]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص١٢٩. - زابوروف، الصليبيون، ص٩٣.

[٩]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٠.

[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٢٤. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٢٠-٢٢٢.

منهن على الأقل في تحريك الطواحين، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفرنجة، الجميلات منهن والقبيحات ..."[١]، وكذلك قوله:" **وشهدت عدد كبيراً من جثث المسلمين الذين قتلوا هناك وقد في كومة كبيرة وأضرمت فيها النيران..."**[٢].

وأدت أعمال القتل والنهب التي قام بها الصليبيون، إلى إشاعة الخوف والهلع بين السكان العرب، لذلك اضطر سكان العديد من المدن، والقرى في الساحل الشامي لمغادرتها والهجرة إلى مناطق أكثرأمناً خوفاً من اقتراب الحشود الصليبية، وخير مثال على ذلك قيام سكان طرطوس بإخلاء مدينتهم سنة٤٩٢هـ/١٠٩٩م،عند اقتراب الصليبيين منها خوفاً من أن يلحق بهم ما لحق بسكان أنطاكية من القتل والسبي، ويصف صاحب يوميات أعمال الفرنجة ذلك بقوله:" **فاستولى الرعب على الكفرة واستغلوا حلول الظلام، فانسلوا هاربين خفية، وخلفوا البلدة وراءهم، وتركوا بها متاعهم الكثير"**[٣]، وتكرر هذا الأمر في مدينة الرملة التي قام سكانها بإخلائها، عند وصول أنباء اقتراب الحشود الصليبية إليها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م[٤]، كما أدت الأعمال الحربية للملك بلدوين الأول في منطقة عسقلان سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م، إلى هجرة الكثير من سكان القرى المحلية خوفاً من اضطهاد الصليبيين، ووصف وليم الصوري ذلك بقوله:" **تابعنا تقدمنا فوجدنا الكثير من القرى، وقد هجرها أهلها من المسلمين ... ولجئوا إلى الكهوف خوفاً منا، وعندما تعذر علينا إخراجهم منها أشعلنا النيران أمام مداخل الكهوف وسرعان ما خرجوا منها بسبب الدخان "**[٥].

كما تميَّز الصليبيون بنقضهم للعهود التي منحوها لسكان المدن التي استولوا عليها، مثل ما حدث عند استيلائهم على عكا سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م، حيث منحوا الأمان لسكانها، ولكن عند مغادرتهم المدينة صوب الأراضي الخاضعة للعرب المسلمين، قام البحارة الجنويون بمهاجمتهم وقتلوا الكثير منهم[٦]، وتكرر هذا الأمر مع سكان مدينة جبيل سنة٤٩٦هـ/١١٠٣م، حيث يصف ابن القلانسي ذلك بقوله:" **فلما حصل - ثغر جبيل- في ملكيتهم، غدروا بأهله، ولم يفوا بما بذلوه من الأمان وصادروهم واستنفذوا أحوالهم وأموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب"**[٧]، وتكرر هذا الشيء أيضاً مع سكان مدينة طرابلس سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م[٨].

فضلاً عن هذا فقد نتج عن استيلائهم على بعض المدن بالأمان بعد قتال شديد، أن فرضوا على الحكام العرب المسلمين المهزومين توقيع اتفاقيات نصت على تهجير سكان تلك المدن والعمل على إخلائها، وهذا ما حدث في كل من أرسوف وصيدا وصور وعسقلان. وفي حالات أخرى فرض الصليبيون على السكان العرب الذين اختاروا البقاء في مدنهم ضرائب باهظة أرهقتهم، وخير مثال على ذلك ما حدث عند الاستيلاء على مدينة صيدا[٩]، ويصف ابن الأثير ذلك بقوله:" **ورحل بغدوين**

---

[١]- فولتشرأوفتشارترز، تاريخ الحملة، "من الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩٦.
[٢]- فولتشرأوفتشارترز، تاريخ الحملة، "من الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩٧.
[٣]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦٣.
[٤]- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ١٦٦.- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة،"من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٢٨١. - فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٥٨. - وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٦.
[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٨٧-٣٨٨.
[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١١٩.
[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٢٣١.
[٨]- فولتشرأوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٤٣٦. - ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٦٢. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٤.
[٩]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ٥٨٢،٥٨٣.- سالم، صيدا، ص ١٠٥.

عنها إلى القدس، ثم عاد إلى صيدا، بعد مدة يسيرة، فقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فأفقرهم، واستغرق أموالهم"[١].

وبدءاً من العقد الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حدث تحوّل في السياسة الصليبية التعسفية ضد السكان العرب، حيث حاول أفراد طبقة النبلاء منع عمليات نهب وذبح أهالي المدن التي يتم الاستيلاء عليها، ليس من جانب إنساني بل رغبة في استسلام الأهالي وتسليم مدنهم وأسواقهم التجارية دون أن يلحق بها الدمار، وبالتالي يحصل عليها النبلاء الصليبيون كإقطاعيات[٢].

ولكن على الرغم من سيطرة الصليبيين على الساحل الشامي وتهجير سكانه، إلا أنهم لم يشكلوا أكثرية سكانية، حيث بقي السكان العرب من المسلمين والمسيحيين يشكلون غالبية سكان المناطق الريفية التي سيطر عليها الصليبيون، واستمروا بممارسة أعمالهم السابقة وخاصة زراعة الأرض، بينما عاش الصليبيون كسادة إقطاعيين، أو فرسان مقاتلين تمركزوا في المدن والحصون[٣]، وقاموا باغتصاب الأراضي الزراعية، وتحوّل بعض الفلاحين العرب إلى أقنان ارتبطوا بالأرض[٤]، في حين فقد أكثر الفلاحين ملكية أراضيهم، وصاروا عبارة عن مستأجرين لها، ولم يُقم الأسياد الجدد أي فرق بين الفلاحين المسلمين والمسيحيين بل عاملوهم بالقسوة نفسها[٥].

- العلاقة بين الإقطاعي الصليبي والفلاحين العرب:

وكان السيد الإقطاعي يترك للفلاح العربي ثلثي أو ثلاثة أرباع إنتاج الأرض، ولكن توجب على الفلاح المستأجر للأرض، أن يقوم بدفع أجرة المزارعين الذين يعملون معه في الأرض، ودفع ثمن البذور التي قام بشرائها، وبذلك كان الإقطاعي يحصل على نسبة من عائد الأرض الزراعية دون أن يبذل أي جهد، ولهذا لم يبق للفلاح إلا القليل من إنتاج الأرض ليسد رمق جوعه وجوع عائلته[٦]، وألزم الفلاحين العرب بنقل الحاصلات الزراعية إلى الأماكن المخصصة لتجميعها، حيث يرسل السادة الإقطاعيون موظفيهم للقيام بجمع حصة سادتهم من إنتاج الأرض ونقلها إلى مخزن الغلال الخاص بالإقطاعي[٧].

وفضلاً عن هذا توجب على الفلاحين العرب تأدية عدة ضرائب عينية ونقدية للسيد الإقطاعي الصليبي، منها ضريبة الخراج التي يعود وجودها إلى العصور السابقة للسيطرة الصليبية، إلا أن تسميتها حورت إلى "تراج - Terrage"، وتراوحت قيمتها ما بين ثلث وربع إنتاج المحصول الزراعي مقابل استئجار الأرض التي يعملون فيها [٨]، وضريبة الرأس " Capitation tax"، التي تدفع مرة واحدة كل سنة، تجبى من كل شخص بلغ سن الرشد، وكانت قيمتها تعادل وزن ٢٣٠ كيلو

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٥٨٢،٥٨٣.
[٢]-عوض(محمد مؤنس)، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنيين ١٢-١٣م/٦-٧هـ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص١٣٠.
[٣]- الحايك (منذر)، العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٧٧.
[٤]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٤. - زابوروف، الصليبيون، ص١٣٤.
[٥]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٥.
[٦]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٦٤.
[٧]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٦٤.- براور، الاستيطان، ص١٩٠.- الشاعر (محمد فتحي)، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، كلية الآداب - جامعة المنوفية، مصر، ١٩٨٩م ، ص١٨.
[٨]- الشاعر، أحوال المسلمين، ص ١٥.- زابوروف ، الصليبيون، ص١٣٤.

غـرام مــن القمــح، أي مــا يعــادل إنتــاج هكتــار واحــد[١] فــي الســنة[٢]، فــي حــين ذكــر ابــن جبير(ت٦١٤هـ/١٢١٧م) هذه الضريبة باسم الجزية وجعل مقدارها دينار وخمسة قراريط[٣]، وبالرغم من الاختلاف حول قيمتها ، فإنها كانت شديدة الوطأة على الفلاحين.

وفضلاً عن ذلك توجب عليهم تقديم هدايا عينية للسيد الإقطاعي الصليبي ثلاث مرات في السنة، ودفع ضريبة على تربية النحل وإنتاجه من العسل، وعلى تربية الحيوانات الداجنة، كما كان عليهم دفع مبلغ من المال مقابل السماح لهم برعاية مواشيهم في منطقة الغابات التي تعد ملك للإقطاعي[٤]، كما احتكر الإقطاعيون الصليبيون حق امتلاك المعاصر والمطاحن وأفران الخبز، ولم يسمح للفلاح العربي باستخدامها إلا بعد دفع مبلغ من المال مقابل ذلك.

ومما زاد من مصاعب الفلاحين تلك القوانين التي شرعها الصليبيون، والتي نصت في أحد بنودها على عدم السماح لهم بترك القرية التي يقيمون فيها إلى أي مكان أخر لكسب الرزق، ويحق للإقطاعي الصليبي ملاحقتهم ، وإعادتهم بالقوة للعمل في أراضيه[٥].

ومن الأسئلة التي تطرح هنا ما هي الأسباب التي دفعت الصليبيين السماح للعديد من السكان العرب بالبقاء في أراضيهم، والاستمرار في ممارسة أعمالهم الزراعية؟

يعود ذلك إلى قلة عدد الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام بعد استيلاء الحملة الصليبية الأولى على مدينة بيت المقدس، وعدم تمكن الصليبيين التفرغ للعمل بالزراعة نتيجة انشغالهم بأمور الحرب والقتال، وحتى يوفر السكان العرب الغذاء والمؤن والإمدادات لهم[٦]، كما أن الحشود الصليبية لم تحتو على الأشخاص الذين يمكنهم العمل بالزراعة، فتلك الجموع تألفت من النبلاء والفرسان الذين يأنفون العمل في الحقول وشكلوا طبقة السادة الإقطاعيين، كما أن الفئات الفقيرة من فلاحين وأقنان، عدوا أشخاصاً أحراراً بمجرد مشاركتهم بالحملة الصليبية، وبالتالي لم يكن باستطاعة الأمراء الإقطاعيين تسخيرهم للعمل في الأراضي الزراعية التي استولوا عليها.

أما طبقة العبيد:

تألفت من السكان العرب الذين وقعوا تحت نير العبودية للصليبيين عند استيلائهم بالقوة على مدن الساحل الشامي، فضلاً عن الأسرى العرب المسلمين خلال المعارك[٧]، فقد اهتم الصليبيون بالاحتفاظ بأسرى العرب المسلمين، إما لاستخدامهم في بعض الأعمال التي لم يكن الصليبيون يستطيعون أدائها، أو الحصول على فدية مالية مقابل إطلاق سراحهم، أو مبادلتهم ببعض آسراهم لدى العرب المسلمين[٨]، لذلك قام الصليبيون عند استيلائهم على مدينة قيسارية سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م، بتحويل من بقي على قيد الحياة من نساء تلك المدينة إلى أرقاء، إذ يصف فولتشر ذلك بقوله:" **لم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور، لكننا احتفظنا بكثير من النساء، حيث من الممكن الإفادة**

---

[١]- يساوي الهكتار الواحد ما يقارب ١٠٠٠٠آلاف متر مربع.
[٢]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٥.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص١٨.
[٣]- ابن جبير(محمد بن أحمد)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٢٧٥.
[٤]- الشاعر، أحوال المسلمين، ص١٦.- براور، الاستيطان، ص١٩٠.
[٥]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٥،١٣٧.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٦٥.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص١٦.
[٦]- عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٢٩.
- السّاحلي، الاستيطان الفرنجي، ص ٢١١، ٢٥١.
[٧]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٣.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص٢٤.
[٨]- علي، العلاقات الاقتصادية ، ص١٨.

منهن على الأقل في تحريك الطواحين، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفرنجة الجميلات منهن والقبيحات، وكذلك فعل بالذكور أيضاً "[١].

وعانى العبيد من أعمال الضرب والتعذيب، إذ قام الصليبيون بسن تشريعات تسمح بضرب العبيد، مثلما حدث في المجمع الكنسي الذي عقد في مدينة نابلس سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م، الذي أقر بفرض سلسلة من العقوبات على العبيد العاصين لأسيادهم[٢]، ويبدو بأن هذه العقوبات أملاها بالمقام الأول الخوف من احتمال غضب العبيد وثورتهم على الصليبيين .

ولم يجد العبيد طريقاً للتخلص من العبودية سوى اعتناق الديانة المسيحية، إلا أن وضعهم بقي متقلقلاً تبعاً للسيد المُعتق، فكان يتم إعادة الشخص الذي تخلص من نير العبودية إلى عبوديته عند قيامه باهانة سيده السابق[٣]، ومن الأمثلة عن الأسرى الذين وقعوا في العبودية وتمكنوا من التحرر ذلك الشخص الذي وقع أسيراً لدى الملك بلدوين الأول، فقام بالارتداد عن الإسلام وأعلن اعتناقه الديانة المسيحية، وعند ذلك رحب به الملك بلدوين الأول، وسماه باسم، وجعله واحداً من حاشيته، غير أن هذا الرجل اعتنق المسيحية ظاهراً فقط، إذ حاول اغتيال الملك أثناء حصاره لمدينة صيداً سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، بتشجيع من قادة المدينة، إلا أن هذه المؤامرة كُشفت فكان نصيب هذا الشخص الموت شنقاً[٤].

وهكذا فإن أحوال العبيد والجواري العرب المسلمين الخاضعين للحكم الصليبي، كانت تثير الأسى والحزن الشديد، وقد قدم ابن جبير وصفاً لمن يقع أسيراً من العرب المسلمين بيد الصليبيين، بقوله:**"ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة ..."**[٥].

- الأوضاع القانونية للسكان العرب في ظل الحكم الصليبي:

خلال السيطرة الصليبية احتفظت المجتمعات المحلية في بداية الأمر بمحاكمها الخاصة، التي اختصت النظر في القضايا المتعلقة بالسكان العرب، الذين سمح لهم التقاضي وفق القوانين والأعراف السائدة قبل قدوم الصليبيين، وكان قضاة تلك المحاكم من السكان العرب[٦]، و لكن سرعان ما أعيد تشكيل المحاكم، وخاصة في مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك عموري الأول(٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م)، حيث أسست محكمة المدينة "Cour de la fordc"، التي اختصت النظر في القضايا التجارية، والقضايا البسيطة الخاصة بسكان المدينة على اختلاف طوائفهم، فضلاً عن توليها مهمة تسجيل صفقات بيع وتأجير العقارات التي تعود للسكان العرب[٧]، وترأس هذه المحكمة موظف صليبي يدعى " بيلي" "Billi"، يتم اختياره من طبقة الفرسان أو من الطبقة البرجوازية، ويساعده ستة محلفين أربعة من السكان الوطنيين- العرب- واثنان من الصليبيين.

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، من خلال الموسوعة الشامية ، ج٦، ص٣٩٦

[٢]- زابوروف، الصليبيون، ص ١٣٤.

[٣]- زابوروف، الصليبيون، ص١٢٣.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص٢٤،٢٥.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٢،٢٩٣.

[٥]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٨٠.

[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٥٠.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٠٠،٣٨٣.- براور، الاستيطان، ص١٨٥.

[٧]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٥٠.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٠٠،١٠١.

ومن المحاكم الأخرى التي اختصت النظر في شؤون السكان العرب، محكمة القرية التي يترأسها أكبر شخصية في القرية والذي يحمل لقب لريس، ويساعده إثنا عشر محلفاً من سكان القرية، واعتمدت هذه المحكمة على الأعراف والتقاليد المحلية في إصدار أحكامها[١]. وسمح للسكان العرب في المحاكم الخاضعة للصليبيين الحلف على كتابهم المقدس سواء القرآن أو الإنجيل[٢].

ولكن على الرغم من منح السكان الوطنيين نوعاً من الاستقلال من الناحية القضائية، إلا أن هذا الاستقلال يُعد استقلالاً شكلياً نظراً لأن هذه المحاكم ترتبط ارتباطاً مباشراً بالسيد الإقطاعي الصليبي، وبالتالي يجب أن تكون الكثير من الأحكام الصادرة عنها متوافقة مع رغبة ومصلحة السيد الإقطاعي.

- الأوضاع الدينية للسكان العرب في ظل الحكم الصليبي:

أما الأوضاع الدينية للسكان العرب، فقد نظر الصليبيون إلى العرب المسلمين الخاضعين لسيطرتهم على أنهم عبارة عن كفره يتصفون بالدونية، وقد رسخت هذه النظرة أقوال البابا أوربان الثاني[٣]، حيث ألصق بهم صفات الدونية والتحقير، والتي نقلها فولتشر أوف تشارترز عنه بقوله:**" يا للخزي ويا للعار إذا ما انتصر علينا هذا الجنس - أي المسلمين- بمثل هذه الدناءة والحقارة، إذا ما انتصر هذا الجنس الذي تستعبده الشياطين والعفاريت ..."**[٤].

ولم ينعم السكان العرب الخاضعون للسيطرة الصليبية بحرية ممارسة شعائرهم، إذا قام الصليبيون بتحويل المساجد التي كانت قائمة إلى كنائس، ولم يسمح لهم ببناء مساجد جديدة[٥].إلا أن السكان العرب المسلمين احتفظوا بعدد من المساجد التي لم تصل إليها أيدي التدمير، مثل المسجد المتبقي في مدينة صور، وجزء من مسجد عين البقر[٦] بظاهر مدينة عكا[٧]، كما تمكن المسلمون من الاحتفاظ بجزء من مسجد مدينة عكا، وأخذ يعمه العرب المسلمون الغرباء القادمون إلى عكا، ويصف ذلك ابن جبير بقوله:**"وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة، وعند محرابه قبر صالح النبي صلى الله عليه وسلم ..."**[٨].

وجراء تعرض المسلمين للاضطهاد الديني، والمعاناة من أعمال القتل الوحشية التي نفذها الصليبيون، اضطر العديد من العرب المسلمين لإعلان اعتناقهم للديانة المسيحية،إما خوفاً أو هرباً من الوقوع في العبودية، ويؤكد ذلك ريموند دي جيل خلال وصفه لزحف الحملة الصليبية الأولى عبر مناطق الساحل الشامي بقوله:**" قام بعض المسلمين بدافع الخوف أو الحماس لطريقتنا في الحياة بالتنصر ..."**[٩]، كذلكقدم لنا فولتشر أوف تشارترز دليلاً على قيام بعض العرب المسلمين باعتناق الديانة المسيحية، خلال وصفه لحملة الملك بلدوين الأول على منطقة عسقلان سنة

---

[١]- باركر، الحروب الصليبية، ص٦٤.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ١٠٢،٣٨٥.
[٢]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٥٠.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٠٣.
[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣١٤.
[٤]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة ، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣١٤.
[٥]- كاهن، الشرق والغرب، ص ١١٣.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص٢٢،٢٣.
[٦]- عين البقر: يقول عنها ياقوت الحموي: تقع **" قرب عكا تزار، يزورها المسلمون والنصارى(المسيحيين) واليهود ويقولون: إن البقر الذي ظهر لآدم فحرث عليه خرج منها، وعلى هذه العين مشهد ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه...".**
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص ١٧٦.
[٧]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٦، ٢٧٩.
[٨]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٦.
[٩]- ريموند دي جيل، تاريخ الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٢٥٨.

٤٩٥هـ/١١٠١م، بقوله:" **اجتمعنا مع بعض السكان المحليين الذين كانوا مسلمين من قبل، غير أنهم اعتنقوا الآن المسيحية، واستوضحنا منهم ما يعرفونه عن الأراضي الخصبة...**"[١]. ويبدو أن هؤلاء السكان قاموا بالارتداد عن الإسلام نتيجة الضغوطات التي مارسها الصليبيين عليهم، إذ كان الصليبيون في الكثير من الأحيان يخيرون السكان المسلمين ما بين اعتناق المسيحية أو القتل.

أما بالنسبة لوضع مسيحيي الشرق العرب من الناحية الدينية، فعلى الرغم من ادعاء الصليبيين أنهم أتوا إلى الشرق لإنقاذ مسيحييه من اضطهاد العرب المسلمين، فإنهم في حقيقة الأمر نظروا تجاه مسيحيي بلاد الشام على أنهم فئة مارقة، ووصفوهم بالهرطقة، ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي أرسلها القادة الصليبيون إلى البابا أوربان الثاني يخبروه فيها عن استيلائهم على مدينة أنطاكية، إذ يقولوا:" **لقد أخضعنا الأتراك والكفار، وأما الهراطقة من الإغريق والأرمن والسريان واليعاقبة فلم نتمكن من إخضاعهم لهذا نعاود السؤال أن تقدم أنت...**"[٢].

كما عَد الصليبيون مسيحيو بلاد الشام في وضع غير متكافئ، وغير متساو معهم، فقاموا بمصادرة أملاك الكنائس العربية، وأحلوا رجال الدين الأوربيين في المناصب التي كان يشغلها رجال الدين العرب[٣]، ويصف ميخائيل السوري ذلك بقوله:" **لما ملك الإفرنج أنطاكية أخرجوا اليونانيين من البيع الكبيرة، وطردوا رؤساء كهنتهم، وأقاموا بطريرك كان سفيهم، ووضعوا مطارنة في طرسوس والمصيصة ...**"[٤]، وحدث هذا الأمر أيضاً في المناطق التي خضعت لحكم مملكة بيت المقدس الصليبية، حيث قام بطريرك بيت المقدس الصليبي أرنولف باستبعاد العرب المسيحيين من الكنائس، وتابع هذه السياسة خليفته البطريرك ديمبرت الذي طردهم من أديرتهم والمنشآت التابعة لها، كما منعهم من ممارسة طقوسهم الدينية داخل الكنائس الكبرى[٥]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخل رجال الدين الكاثوليك في أمور الكنائس العربية، ومن الأمثلة على ذلك تدخل البطريرك اللاتيني - الكاثوليكي- في أنطاكية لحل الخلاف القائم بين رجال الكنيسة اليعقوبية سنة ٥١٢/ ١١١٨م، والذي أصدر أمره بجلد أثاناسيوس بطريرك الكنيسة اليعقوبة، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل سعى الصليبيون لفرض ضريبة العشور عليهم، على غرار فرضها على السكان العرب المسلمين[٦].

إلا أن هذه السياسة لم تستمر في المناطق التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية، إذ سرعان ما حاول ملوك بيت المقدس كسب ودّ العرب المسيحيين، فسمحوا لهم بممارسة شعائرهم، وحظيت بعض أديرتهم بعطف الملوك ومنحوها بعض الأوقاف، وخاصة دير القديس سابا، هذا الدير كان من أهم الأديرة الأرثوذكسية التي بقيت في فلسطين خلال عصر الحروب الصليبية، وجاء هذا العطف نتيجة لحاجة ملوك بيت المقدس إلى جهود العرب المسيحيين من أجل القيام بالأعمال اليدوية نظراً لانشغال الصليبيين بالحروب التي تقتضي حشد كل طاقاتهم البشرية المقاتلة[٧]، وبسبب النقص السكاني التي عانت منه المملكة؛ لذلك شجعوا هجرة العرب المسيحيين الذين يقطنون في منطقة ما

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٨٨.
[٢]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٥٥.
[٣]- براور، الاستيطان، ص٢٦٥،٢٦٨.- محمد، محمد سيد،الكنيسة، ص ٩٩.
[٤]- ميخائيل السوري، روايات المؤرخ ميخائيل، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥، ص١١٣.
[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٦٩-٣٧١.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٣٧٠،٣٧١.- محمد، محمد سيد، الكنيسة، ص١٠٠،١٠١.
[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٦٦،١٦٥،٣٧٠.
[٧]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٣٧١.- الحايك، العلاقات الدولية، ج١، ص٨٢.

وراء نهر الأردن[١]، كما يمكن القول: إن أهم أسباب عطف ملوك بيت المقدس على المسيحيين المحليين(العرب والأرمن)، كان تأثير زوجاتهم اللاتي كنّ في معظمهن من أتباع الكنائس الشرقية.

أما بالنسبة للمسيحيين العرب في كونتية طرابلس لم تختلف نظرة الصليبيين لهم، إذ اعتبروهم هراطقة مارقين عن الديانة المسيحية، وكان المذهب الماروني هو السائد بينهم، وقد رحّب أتباع هذا المذهب بالصليبيين عند قدومهم، ولكن على الرغم من ذلك عدّ الصليبيون أتباعه هراطقة، إلى أن قام رجال الدين من أتباع المذهب الماروني بتذليل الفوارق بين مذهبهم وبين المذهب الكاثوليكي، إذ تم الإعلان عن الاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية،فضلاً عن الاعتراف بسيادة بابا روما عليهم وذلك سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م [٢].

أما علاقة الأرمن وكنيستهم بالصليبيين والكنيسة الكاثوليكية، فكانت أكثر وداً ويمكن إرجاع ذلك إلى أن الأرمن كانوا أول من رحّب بقدوم الصليبيين؛ لأنهم رؤوا فيهمخلاصاً لهم ولكنيستهم من تصرفات البيزنطيين المعادية لهم[٣].

- المناصب الإدارية التي بقيت في أيدي السكان العرب:

على الرغم من الموقف المعادي الذي اتخذه الصليبيون تجاه السكان العرب، وعدهم إما كفرة أو هراطقة، فإن الظروف التجارية والاقتصادية اضطرت الصليبيين إلى الاستعانة ببعض الشخصيات المحلية لإدارة شؤون المناطق التي سقطت بأيديهم، ومن تلك المناصب:

أ- رئيس القرية:

يعد هذا المنصب امتداداً لما كان يتمتع به كبير العائلة أو شيخ العشيرة من مكانة مرموقة بين أبناء عشيرته في العصور السابقة لقدوم الصليبيين، لذا كان رئيس القرية خلال الحكم الصليبي عبارة عن زعيم أكبر عشيرة في كل قرية، ومن الأسباب التي دفعت الصليبيين للاعتماد عليه، أن السيد الإقطاعي الصليبي كان لا يقيم عادة في القرى المقطعة له، فضلاً عن سعيه لإيجاد طريقة للتواصل مع الفلاحين العرب الخاضعين لسيطرته[٤].

لذا كان يتم تعيين زعيم أكبر عشيرةمندوباً عن السيد الإقطاعي، كما عد رئيس القرية من صغار الأتباع الإقطاعيين[٥]، وبناء على ذلك كان عبارة عن شخص حر يدير وظيفته التي أصبحت وراثية[٦]، وتوجب على رئيس القرية ومعاونيه من أعيان القرية تقديم فروض الطاعة والتبعية للسيد الإقطاعي، وأن يتعهدوا بتقديم الطعام له ولحاشيته عند قيامه بزيارة القرية[٧].

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣١٨.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٢.- براور، الاستيطان، ص ٢٧٧.- محمد، محمد سيد، الكنيسة، ص١٠٣.

-الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ١٢١،١٢٣.

[٣]- محمد، محمد سيد،الكنيسة ودورها، ص١٠٢.

[٤]- براور، الاستيطان، ص٤٣٧،٤٣٨.

- Rough Tolerance, Christopher Macevitt, The Crusades and the Christian World of the East, university of Pennsylvania press, USA,p149.

[٥]- براور، الاستيطان، ص٤٣٨.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢٥١.

[٦]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥١.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص ٢٠.

[٧]- براور، الاستيطان، ص٤٣٨،٤٣٩.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص٢٠.

ومن أهم الواجبات الملقاة على عاتق رئيس القرية، القيام بدور الوسيط بين السيد الإقطاعي الصليبي والفلاحين العرب[١]، كما توجب عليه القيام بحفظ الأمن في قريته، والعمل على جمع الضرائب المفروضة على سكانها وإرسالها للسيد الإقطاعي،وبذلك عد ممثلاً رسميا لقريته أمام السلطات الصليبية[٢]. كما توجب عليه في كونتية طرابلس تزويد جيش الكونت بالخيالة المحليين[٣].

وكان يحق لرئيس القرية سن التشريعات والقوانين ضمن مجتمعه، يعضده في ذلك التقاليد ومؤازرة سيده الصليبي، ومن أهم تلك القوانين قانون انتقال الملكية من شخص لآخر من أهالي القرية[٤]. كما قام بدور السلطة القضائية من خلال القيام بفض المنازعات التي تنشأ بين سكان القرية[٥].

وامتلك رئيس القرية منزلاً يعد من أكبر منازل القرية، مزوداً بكل وسائل الراحة التي تناسب استقبال الزوار[٦]، وقد قدم ابن جبير وصفاً لاستقبال قافلته من قبل أحد رؤساء القرى القريبة من عكا بقوله: **" فنزلنا يوم الاثنين ... بضيعة من ضياع عكا، على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عُمّارها من المسلمين، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله، وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم..."**[٧]. ومن الأمثلة على من تولى هذا المنصب شخص يدعى عبد المسيح، الذي تولى رئاسة(أو رياسة) مدينة مرقب في إمارة أنطاكية، ويبدو أن هذا المنصب كان وراثي إذ خلفه في هذا المنصب ولده جورج[٨].

وإضافة لرئيس القرية فقد عاونه عدد من الموظفين منهم، المترجم و الكاتب.

ب- المترجم:

وتمثلت مهمته القيام بترجمة الأحاديث التي تتم بين السيد الإقطاعي الصليبي والسكان العرب، وعدت وظيفته ذات أهمية حكومية تدر على صاحبها دخلاً مرتفعاً[٩]، وتولى هذا المنصب عناصر من السكان العرب غالباً، وفي بعض الأحيان أحد الصليبيين ممن يتقن اللغة العربية[١٠].

أما فيما يتعلق بالموارد التي يتقاضاها الترجمان فقد حددتها إحدى الوثائق التي تحدثت عن قرية لفرسان الإسبتارية بما يلي:

يلتزم كل فلاح من فلاحي القرية بتقديم مكيال[١١] واحد من القمح،ومكيالاً من الشعير عن كل كاريوكا[١٢] من الأراضي الزراعية التي يعمل فيها، كما يتلقى نسبة من المحصول العادي من كل من

---

[١]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٤٥.
[٢]- براور، الاستيطان، ص٤٣٨.- الشاعر، أحوال المسلمين، ص٢١.
[٣]- سالم، طرابلس، ص ٢٢٩.
[٤]- براور، الاستيطان، ص٤٣٨.
[٥]- براور، الاستيطان، ص١٨٩.- ماير ، تاريخ الحروب، ص٢٥١.
[٦]- براور، الاستيطان، ص٤٣٨.
[٧]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٥.
[8] - Tolerance, Macevitt, The Crusades and The christian,p149.
[٩]- براور، الاستيطان، ص٤٣٩.
[١٠]- الشاعر، أحوال المسلمين، ص٢٢.
[١١]- الكيل = ما يقارب ١٧ كغم. - فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٧٠
[١٢]- الكاريوكا: هي وحد قياس استخدمت لدى الصليبيين، وكانت تستعمل على أساس أنها وحدة إدارية تخدم الأغراض الضريبية، والكاريوكا نوعان:
أ - غير رسمية وتعادل الفدان العربي الذي يساوي أربعة دونمات، أي ما يعادل أو يزيد عن أربعة ألاف متر مربع.

السيد الإقطاعي والفلاحين على السواء، بالإضافة إلى نسبة ٦% من إنتاج المحصول الموسمي المخصص لكل من السيد الإقطاعي والفلاحين. وتطورت هذه الوظيفة حتى أصبحت تباع مقابل مبلغ قدر بـ٢٥٠ بيزنت[١].

وإضافة لهذه الوظائف هنالك إشارات ضئيلة عن منصب يعود إلى العصور العربية الإسلامية السابقة للحكم الصليبي، ألا وهو منصب المحتسب[٢]. كما أن ازدهار التجارة القادمة إلى سواحل بلاد الشام الخاضعة لسيطرة الصليبيين، واضطرارهم للتعامل مع التجار العرب المسلمين، دفعهم إلى تعيين عدد من السكان العرب المسيحيين في وظائف تحصيل الضرائب على المنتجات التي تحملها القوافل القادمة من داخل بلاد الشام أو مصر، ويؤكد ذلك ابن جبير بقوله:"**... وحملنا إلى الديوان، وهو خان مُعّد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب من الديوان من النصارى(المسيحيين) ... وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب...**"[٣].

كما تولى العديد من النبلاء العرب منصب دوق كل من مدينتي اللاذقية وجبلة، ومن الأمثلة على ذلك تولي شخص يدعى منصور بن نبيل أمور مدينة جبلة عند إغارة صلاح الدين الأيوبي على أنطاكية سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٤]، وإن كانت هذه الحادثة وقعت في حقبة لاحقة لفترة هذه الدراسة، إلا أن ذلك يعطي انطباعاً بوجود حالات مماثلة لتولي عدد من النبلاء العرب لبعض المناصب في الحقب المختلفة للحروب الصليبية.

أما مدينة أنطاكية فكان يساعد حاكمها موظف يحمل لقب فيكونت، وفي كثير من الأحيان يتم اختياره من السكان المحليين(العرب أو الأرمن)[٥]؛ فضلاً عن ذلك فإن كتب التاريخ تورد إشارات لبعض المناصب التي أسندت لأحد السكان العرب، ومنها، قيام الملك بلدوين الأول بتعيين أحد السكان العرب صاحباً لبيت المال، ولم يكتف بذلك بل عمده ومنحه اسمه[٦]، وكذلك قيام رينالد الثاني صاحب قلعة المرقب، بتعيين ناظراً للمال من أصول محلية [٧].

ولم يقتصر الأمر على هذه المناصب فقد استطاع عدد من السكان العرب، وبخاصة من أتباع الديانة المسيحية التدرج في السلم الإقطاعي، وخير مثال على ذلك أسرة عرابي(Arrabi)، فقد كان أحد أفرادها المدعو موسى عرابي (Muisse Arrab) من بين حاشية هيو أمير يافا سنة

ب- رسمية: تساوي خمسة وثلاثين هكتاراً (أي ٣٥٠٠٠٠م^{2})، ما يعادل ٣٥٠ دونماً.
- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٤٦٨.
[١]- براور، الاستيطان، ص٤٣٩،٤٤٠.
- بيزنت: هي عبارة عن عملة نقدية تصدر في الإمبراطورية البيزنطية، وهي إحدى العملات التي كانت تتداول في الكيانات الصليبية.
[٢]- ماير، تاريخ الحروب، ص٢٥٢.
[٣]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٥.
[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٨.
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، تحقيق: خليل شحادة ، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٥، ص ٣٦٤.
[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٥٦.
[٦]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥١.
[٧]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٢.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٢٥.

٥١٦هـ/١١٢٢م [١]. كما أن ابنه جون كان أحد أتباع أسرة أبيلين الصليبية، فقد ظهر اسمه في أحد الوثائق العائدة إلى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م [٢].

وهكذا على الرغم من الاضطهاد والتنكيل الذي لحق بالسكان العرب بمختلف انتمائتهم الدينية والعرقية على أيدي الصليبيين، إلا أن هؤلاء الأخيرين اضطروا بعد استقرارهم في بلاد الشام لسد الثغرة الحضارية القائمة بينهم وبين الإمارات العربية الإسلامية المجاورة لهم، بالإضافة للحفاظ على المصالح التجارية القادمة من تلك الإمارات، فلم يجدو سبيلاً في ذلك إلا من خلال الاعتماد على السكان العرب في المناطق التي خضعت للسيطرة الصليبيية.

رابعاً- المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في الساحل الشامي:

أبدى سكان الساحل الشامي مقاومة عنيفة ضد الصليبيين منذ الأيام الأولى لقدومهم، حيث اشتركوا مع الحاميات العسكرية العربية الإسلامية في الدفاع عن مدنهم وقراهم، ولكن على أثر سقوط العديد من مدن الساحل الشامي، اضطر أكثر سكانها للهجرة إلى المدن والقرى التي تخضع للإمارات العربية الإسلامية داخل بلاد الشام، في حين أصر البعض على البقاء بالقرب من موطنهم الأصلي.

فقام هؤلاء بتنظيم أنفسهم في مجموعات شعبية، تمثلت مهمتها بمقاومة الغزاة الصليبيين خارج نطاق المدن، واستغلت هذه المجموعات الإمكانات الطبيعية والجغرافية المتوافرة في مناطقهم، مثل الكهوف والغابات الكثيفة، والوديان وجعلوها مقرات لإقامتهم، وقواعد لانطلاق هجماتهم ضد القوات الصليبية وإلحاق الخسائر بهم[٣].

وأقامت مجموعات المقاومة الشعبية الكمائن لجموع الصليبيين على الطرق التي تربط الساحل بمدينة بيت المقدس، وتمكنوا من قتل العديد منهم، وأصبحوا يشكلون خطراً على الكيانات الصليبية الناشئة، واحتوت المصادر الصليبية على العديد من الروايات التي تشير إلى مقاومة الشعب للصليبيين، ومنها ما رواه الرحالة الصليبي سيولف(٤٩٦-٤٩٧هـ/١١٠٢-١١٠٣م) بقوله:" **وقضينا من يافا إلى مدينة القدس، وهي رحلة يومين، عبر طريق جبلي وصخري وخطر جداً، لأن المسلمين كانوا يقيمون الكمائن دوماً لاصطياد الفرنجة، فقد كانوا يختبؤون في الأماكن المجوفة في الجبال، وفي الكهوف الصخرية، يراقبون الأوضاع ليل نهار، وينتظرون دوماً أولئك الذين يمكنهم مهاجمتهم بحكم صغر تعداد المجموعة المسافرة، أو مهاجمة الذين تخلفوا وراء مجموعتهم بسبب الإرهاق، ففي لحظة واحدة يمكن أن تراهم حولك في مكان ما، ثم ما يلبثون أن يختفوا كلياً، ويمكن لكل واحد يقوم بهذه الرحلة أن يرى هذا، آه، كم كان عدد الأجساد البشرية الملقاة على الطريق أو على أطرافه، وقد مزقت من قبل الحيوانات الضارية...**"[٤].

---

[1]- Jonathan Riley Smith, The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem 1174-1277, Palgrave Macmillan, p10.

[2] - Tolerance, Macevitt, The Crusades and the Christian ,p149.

[٣]- سيولف، رحلة حج سيولف، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٣١، ص٢٣٢. - البيشاوي(سعيد)، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مج ١٥، ٢٠٠١م، ص ٣٧٠.

[٤]- سيولف، رحلة حج سيولف، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣١، ص٢٣٢.

كما يصف الرحالة الروسي دانيال الراهب الذي زار بلاد الشام بين سنتي(٥٠٠-٥٠١هـ/١١٠٦-١١٠٧م)، المصاعب والمقاومة التي تعرض لها الصليبيون والقادمون من أوربا الغربية عند مدينة اللد (القديس جورج) بقوله:" **وفي هذا المكان كثير من الينابيع، حيث يستريح الحجاج ليلاً وهم في ذعر لأن المكان مهجور، وهو ليس بعيداً عن مدينة عسقلان حيث يقوم المسلمون بذبح الحجاج على الطريق...**"[١]، وكذلك ذكر أن الصليبيين تعرضوا للهجوم من قبل مجموعات المقاومة الشعبية في موقع أرطاس[٢]، بقوله:" **هناك جبل صخري مرتفع مكسو بغابة واسعة كثيفة، والطريق خطرة فوق هذا الجبل المخيف، وكان المسلمون يتكسبون في هذا الممر بالإغارة على هؤلاء الذين كانوا يغامرون بالمرور بأعداد صغيرة... وهذا المكان غير بعيد من مدينة عسقلان، حيث يتجمع الكفار بأعداد كبيرة ويهاجمون المسافرين في هذا الممر...**"[٣].

كذلكقدم وليم الصوري وصفاً للمقاومة التي أبدها السكان العرب ضد الصليبيين بقوله:" **وكان قطاع الطرق واللصوص قد أزعجوا هذا القطر، كما بات الطريق الواصل بين الرملة و بيت المقدس شديد الخطورة لكثرة ما أنزلوه بالدروب والمسالك من الأهوال بسبب هجماتهم المتكررة، كما أنهم طالما أعملوا سيوفهم البتارة في المسافرين يقاتلونهم فيأخذونهم غدراً**"[٤].

واستمرت المقاومة الشعبية في منطقة اللد ضد قوافل الوافدين من أوربا عبر مرفأ يافا لغاية حكم الملك فولك، كما بقيت عسقلان قاعدة لدعم تلك المقاومة، إذ يشير وليم الصوري إلى ذلك بقوله:"... **شيدوا - الصليبيون- هناك قلعة من الحجر الأصم ليؤمنوا عبر هذا الدرب طريق الحجاج الذين كانوا يتعرضون لأخطار جمة بالغة أثناء اجتيازهم الممر الجبلي الضيق، وأثناء اختراقهم الشعاب التي كان من المستحيل عليهم تجنبها، إذ كان العسقلانيون قد اعتادوا مباغتتهم بالنزول عليهم منها، فلما نجح الصليبيون في إتمام البناء، نعتوه بقلعة أرنولد...**"[٥].

ويبدو أن المؤرخين الصليبيين حاولوا تصوير أعمال المقاومة الشعبية على أنها أعمال قتل ونهب ارتكبت بحق الحجاج الصليبيين المسالمين، الهادفين لزيارة بيت المقدس لممارسة طقوسهم الدينية[٦].

ولكن هذا الوصف فيه إجحاف بحق السكان العرب وبخاصة المسلمين، نظراً لأن الحقائق التاريخية تشير إلى قدوم الحجاج المسيحيين سنوياً لزيارة الأماكن المقدسة في بلاد الشام، وبأعداد كبيرة قبل قدوم الحملة الصليبية الأولى، ولم يتعرض المسيحيون للاضطهاد إلا في مراحل معينة ولوقت قصير، كما أن وصف الصليبيين أعمال المقاومة الشعبية، بأنها عبارة عن أعمال لصوصية همها السلب والنهب، هي محاولة منهم لتسويغ أعمال القتل التي ارتكبها الصليبيون بحق السكان العرب وفي محاولة منهم لتأجيج مشاعر سكان أوربا الغربية عندما تصل إليهم تلك الأخبار، مما يدفعهم للتوجه بأعداد كبيرة نحو بلاد الشام لإنقاذ الصليبيين، فضلاً عن أن سيولف ودانيال اللذين قدما لأداء مناسك الحج في الأراضي المقدسة حسب زعمهما، لم يتعرضا للهجوم من قبل مجموعات المقاومة الشعبية، وهذا يدل على أن هذه المجموعات ركزت هجومها على الحشود العسكرية

---

[١]- دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي- داود إسماعيل أبو هدبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣م، ص ٤٧،٤٨.

[٢]- أرطاس: تقع إلى الجنوب من مدينة بيت لحم، تمتاز بكثرة الينابيع.- الدباغ، بلادنا، ج٨، ق٢، ص.٤٨٠

[٣]- دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة، ص٧٧.

[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٠٨.

[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية،ج ٣، ص١٠٢.

[٦]- سيولف، رحلة حج سيولف، من خلال الموسوعة الشامية، ج٣١، ص٢٣٢.- دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة، ص٤٧،٤٨،٧٧.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٠٨.- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٨٩،٩٠.

للصليبيين، أو ربما أن القافلة التي قدم معها كلاً من سيولف ودانيال كانت تحظى بحماية قوة عسكرية أمنت لهم الوصول بسلامة إلى مدينة بيت المقدس.

ولم تقتصر المقاومة الشعبية على المناطق التي تقع على الطرق التي تصل بيت المقدس بمدينة يافا؛ المرفأ الوحيد الذي يخضع للصليبيين في السنوات الأولى لاستقرارهم في فلسطين، بل شكل جبل الكرمل أحد معاقل المقاومة الشعبية، وعائقاً أمام استيلاء الملك بلدوين الأول على عكا، مما دفعه لشن حملة عسكرية على جبل الكرمل في سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، كان هدفها تطهيره من تواجد مجموعات المقاومة الشعبية، إلا أنه أخفق في ذلك، وتمكنت إحدى مجموعات المقاومة من نصب كمين للملك بلدوين الأول بالقرب من عثليث(١)، ونجحت بإصابته بجروح خطيرة كادت أن تودي بحياته(٢).

ورداً على هذه المقاومة الشعبية في المناطق الخاضعة لسلطة مملكة بيت المقدس، استخدم بلدوين الأول القسوة في إخمادها، والبحث عن مخابئ العناصر المقاومة في الكهوف والعمل على إضرام النار على مداخلها، مما يضطر المتواجدين داخلها للخروج والاستسلام، وعندئذ قام الصليبيون بالقبض عليهم وقتلهم على الفور(٣).

وبعد استيلاء الصليبيين على جميع مدن الساحل الشامي، شهدت حركة المقاومة الشعبية نوعاً من الانتكاسة، نتيجة اضطرار السكان لهجر مدنهم الكبرى نتيجة اتفاقيات التسليم" الاستسلام الرسمي"، وما تعرضوا له من مجازر ارتكبها الصليبيون بحقهم، ولكن العديد من السكان العرب في الأرياف أصروا على التمسك بأراضيهم، وبقوا يشكلون الغالبية العظمى في العديد من المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية وبخاصة في المنطقة الممتدة مابين بانياس الجولان وعكا، وفي منطقة تبنين(٤). وعلى الرغم من أنهم فقدوا ملكية أراضيهم لصالح الإقطاعيين الصليبيين، كما فُرضت عليهم الكثير من الضرائب التي أرهقتهم(٥)، إلا أنهم أصروا على التمسك بالبقاء في قراهم، وبذلك شكل هذا الإصرار نمطاً جديداً من أنماط المقاومة الشعبية التي أبداها السكان ضد الصليبيين.

وأخذوا يعبِّرون عن غضبهم وسخطهم على الإقطاعيين الصليبيين من خلال التمرد والانتفاض عليهم(٦). ففي سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م قام فلاحو منطقتي بيروت وصيدا بانتفاضة شعبية تمثلت برفضهم دفع الضرائب المفروضة على أراضيهم، وشكلت هذه الانتفاضة خطراً كبيراً على سيد بيروت غوتيه الأول، الذي طلب العون من سيده الأعلى الملك بلدوين الثاني (٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م) لإخمادها، وبالفعل تلقى العون من الملك، وتم القضاء على تلك الانتفاضة، وفي سبيل إحكام السيطرة الصليبية على بيروت ومنعاً لقيام أي انتفاضة أخرى، قام الصليبيون بتشيد قلعة "غلافينوس"(٧)على أحد الجبال المحيطة بها، وتمثلت مهمتها بمراقبة تحركات الفلاحين وإحكام

---

(١)- عثليث: تقع على ساحل البحر المتوسط إلى الجنوب الغربي من مدينة حيفا، ويقول عنها ياقوت الحموي:" **اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر...".** - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٨٥.

(٢)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٣.- ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٥١، ص ٢٢٩، ٢٣٠. - رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٢، ١١٨.- البيشاوي، المقاومة الشعبية، ص٣٧٢.

(٣)- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٠٨.

(٤)- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤، ٢٧٥.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٨٥.

(٥)- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٤.

(٦)- البيشاوي، المقاومة الشعبية، ص٣٧٤.

(٧)- ذكرها وليم الصوري باسم "مونت جلافيانوس" . – وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٩.

إخضاعهم[١]، كما قام فلاحو كونتية طرابلس بانتفاضة شعبية سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م[٢].

وفضلاً عن ذلك تحتوي المصادر على بعض المعلومات غير المباشرة التي تدل على مبلغ ضراوة المقاومة الشعبية التي أبداها الفلاحون ضد الإقطاعيين الصليبيين، إما عن طريق رفض زرع الحقول كي تفتك المجاعة بالصليبيين، ويصف وليم الصوري ذلك بقوله:**" كانوا يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا، بل أنهم كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوت إلى المسيحيين الذين يعدونهم أعداء لهم"**[٣]، وإما عن طريق مهاجمة الأسياد الإقطاعيين الصليبيين والقرى الصليبية، حيث شكل بعض الفلاحين والأقنان فصائل مسلحة تجوب البلاد وتنكل بالصليبيين[٤]. وفي سبيل محاربة هذه التحركات أصدر الصليبيون عدة قوانين تهدف إلى ربط الفلاح بالأرض التي يعمل بها، ومنح السيد الإقطاعي الصليبي حق ملاحقة الفلاحين الهاربين وإعادتهم[٥].

ومن الأشكال الأخرى للمقاومة الشعبية، مساندة الجيوش العربية الإسلامية التي تقوم بمهاجمة الإمارات الصليبية، فعلى إثر معركة الصنبرة[٦]سنة٥٠٧هـ/١١١٣م توغلت القوات العربية الإسلامية في أراضي مملكة بيت المقدس، ولقيت مساندة السكان العرب في المنطقة الواقعة بين عكا ونابلس[٧]، حيث يصف فولتشر أوف تشارترز ذلك بقوله:**"ولقد هجرنا في تلك الأيام خدمنا، وكذلك الشرقيون الساكنون في قرانا المسماة المستعمرات، وانضموا إلى كتائب العدو وأرشدوهم إلى كيفية القضاء علينا..."**[٨]، كما يذكر أسامة بن منقذ أن سكان قرى عكا، كانوا يقدّمون العون للأسرى العرب المسلمين الذين تمكنوا من الهرب من نير عبودية الصليبيين، ويؤمّنون عودتهم إلى داخل بلاد الشام[٩].

وتكرر هذا الأمر أيضاً في المناطق الخاضعة لإمارة طرابلس الصليبية ففي سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م تمكنت قوات دمشق من إلحاق الهزيمة بقوات طرابلس وقتل الكونت بونز[١٠]، وكان الفضل في هذا الانتصار يعود إلى السكان العرب المسحيين الذين كانوا خير مرشد لقوات دمشق على أماكن تجمع القوات الصليبية[١١]، وقد أشار وليم الصوري إلى تعاون السكان العرب مع قوات دمشق بقوله:**"... أما هو- الكونت بونز- فقد وقع أسيراً في أيدي العدو، وقد غدر به السوريون الذين يعيشون على مرتفعات لبنان"**[١٢]، لذا ما إن تولى ريموند الثاني حكم إمارة طرابلس حتى بادر للانتقام من السكان العرب الذي ساهموا في هزيمة والده، فأغار على قراهم وقتل العديد من سكانها، بينما باع من تبقى منهم كعبيد في طرابلس[١٣]، وقدم وليم الصوري وصفاً لأعمال ريموند الثاني

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٥١٨.- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٦.

[٢]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٦.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨٠.

[٤]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٦،١٣٧.- البيشاوي، المقاومة الشعبية، مج١٥، ص٣٧٤.

[٥]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٧.

[٦]- الصنبرة: تقع بالقرب من نهر الأردن مقابل بلدة عقبة أفيق، وبينها وبين طبرية ثلاثة أميال. - الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٤٢٥.

[٧]- البيشاوي، المقاومة الشعبية، مج١٥، ص ٣٧٥.

[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٠٢.

[٩]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص ٢٠٣.

[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٠٦.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٣٣.

[١١]- سالم، طرابلس، ص١٥١.

[١٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٣٣.

[١٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص١٣٣.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٢٣٤.- سالم، طرابلس، ص ١٥٢.

القمعية بقوله:"**... وهناك ألقى القبض على كثير ممن صادفهم من أولئك القتلة وحملهم مقيدين بالسلاسل إلى طرابلس ومعهم نساؤهم وصغارهم، ... فأذاق هؤلاء القوم شتى صنوف العذاب أمام الجميع، وعذبهم بما يتكافأ وشناعة جرمهم الذي اقترفوه، وجرعهم غصص الموت في أفظع صورة له"**[١].

كما شملت هذه المقاومة رجال العلم، فمنذ السنوات الأولى للاستقرار الصليبي في بلاد الشام، اشترك العلماء في التصدي للصليبيين، ففي بيت المقدس برز عبد السلام الأنصاري المعروف بابن الرُميلي، الذي استشهد خلال تصديه للقوات الصليبية[٢]. ومن الأمثلة الأخرى ابن صليحة حاكم وقاضي جبلة.

وبذلك شكل وجود السكان العرب ضمن الكيانات الصليبية خطراً عليها، وأدرك فولتشر أوف تشارترز ذلك مبكراً بقوله:"**ليس هناك وباء أشد فتكاً بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته"**[٣]، وأدرك الصليبيون منذ القرن السادس الهجري/ العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي خطر وجود السكان العرب بين ظهرانيهم، ولذلك وجه حاكم مملكة كيليكية الأرمنية طوروس الثاني انتقاده للملك عموري الأول لسماحه ببقاء العرب المسلمين داخل مملكته، حيث يتمثل خطرهم بمعرفتهم جميع السبل والطرق، وبأنهم سيقدّمون النصيحة والعون للجيوش العربية الإسلامية، كما أنهم سوف يخفون أفراد تلك الجيوش في حالة انهزامها[٤]، وسعى الصليبيون لإيجاد حل لذلك، فاهتموا بتشجيع استيطان الأشخاص القادمين من أوربا، ومنحهم الكثير من الامتيازات مقابل الإقامة في المستوطنات الصليبية، فضلاً عن ذلك أنشؤوا العديد من القلاع والحصون في مختلف المناطق التي سيطروا عليها، وكانت تلك القلاع بمثابة مخافر أمامية ضد القوات العربية الإسلامية، بالإضافة إلى وظيفتها المتمثلة بحماية الأسياد الإقطاعيين من العدو القريب ألا هو الفلاحون العرب[٥].

وهكذا فإن الشعب العربي في بلاد الشام قد أسهم بدور كبير في التصدي للغزو الصليبي، إلا أن معظم المصادر العربية الإسلامية قد أهملت ذلك الدور، بل على العكس كرست جل اهتمامها إلى وصف وتعظيم جهود الحكام وقواتهم في التصدي للصليبيين دون أن تلقي الضوء على المساهمة الشعبية في التصدي للجيوش الصليبية.

---

[١]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ١٣٣،١٣٤.
[٢]- السمعاني (عبد الكريم بن محمد)، الأنساب، تحقيق: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد،١٩٦٢م، مج٦، ص١٧٣.
- البواعنة (لؤي)، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي (٤٩٠- ٦٤٨هـ/ ١٠٩٧-١٢٥٠م)، دار اليازوري، الأردن ، ٢٠٠٧م، ص ٢١١.
[٣]- فولتشرأوفتشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٠٢.
[٤]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٧،١٣٨.
[٥]- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٩.

خامساً- الاستيطان الصليبي في الساحل الشامي:

شهدت بلاد الشام منذ السنوات الأولى للحروب الصليبية قدوم موجات من المهاجرين من أوربا الغربية، وقد استقر هؤلاء المهاجرين في الأراضي والمدن التي هُجر منها أصحابها، كما تعد هذه الهجرات من النتائج التي أفرزتها الحروب الصليبية، لذا كان لابد من التعرف على حركة الاستيطان خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أسبابها، أهدافها، وأنماطها ، وكذلك نتائجها.

١- أسباب ظهور الاستيطان:

أدى اجتياح الحملة الصليبية الأولى لمناطق الساحل الشامي، وما رافقها من تدمير للمدن والقرى، وارتكاب الصليبيين المجازر بحق سكان المناطق التي مروا بها، إلى اضطرار الكثير منهم لِى الهجرة قسرياً عن أراضيهم، مما أدى إلى حدوث فراغ سكاني في تلك المناطق. ثم زاد هذا الأمر عند قيام الكثير ممن اشتركوا بالحملة الصليبية الأولى بمغادرة فلسطين إلى أوطانهم أو إلى شمال بلاد الشام بعد استيلائهم على بيت المقدس، وانتصارهم على القوات الفاطمية بالقرب من عسقلان سنة ٤٩١هـ/١٠٩٩م، إذ رؤوا بأنهم قد حققوا هدفهم باستعادة المدينة المقدسة من سيطرة العرب المسلمين[١]، ونتيجة لذلك عانى الصليبيون من قلة عددهم مقارنة مع المحيط العربي الإسلامي المعادي لهم، فيصف فولتشر أوف تشارترز ذلك بقوله:" **وملك بلدوين في بداية عهده بضعة بلدان وقليل من الناس فقط**"[٢]، وكذلك قوله:"... **بقيت الأراضي المقدسة خلوة من السكان، ولم يوجد فيها ما يكفي من الناس للدفاع عنها لو أن المسلمين أقدموا على مهاجمتنا**"[٣]، كما عبر وليم الصوري عن ذلك بقوله:" **وكان سكان قطرنا قليلي العدد قلة ملحوظة، ويعيشون في فقر مدقع، حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعاً واحداً من شوارعها**"[٤].

إلا أن وصول أنباء نجاح الحملة الصليبية الأولى إلى أوربا، شجع الكثير من سكان البلدان الأوربية على الهجرة إلى بلاد الشام رغبة في الحج إلى الأماكن المقدسة، فضلاً عن رغبة الكثير منهم في الحصول على المكاسب المادية التي ينعم بها لشرق، أو هرباً من الرق في الغرب والأمل بالحصول على الحرية تنفيذاً لوعود الكنيسة البابوية[٥]، ولم يكن بمقدور الأسياد الإقطاعيين في أن يمنعوا أقنانهم وعبيدهم من الهجرة للمشاركة في الحروب الصليبية، كما لم يفرض على الحشود الذاهبة إلى الأراضي المقدسة للحج أو المشاركة في المعارك أي نوع من الالتزامات وواجبات التبعية الإقطاعية، فقد عُدَّ جميع المشاركين في الحروب الصليبية على اختلاف الفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها أحراراً، وهذا شجع الطبقات الدنيا من المجتمع الأوربي على الهجرة و الاستيطان في بلاد الشام[٦].

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٧١.- زابوروف، الصليبيون، ص١٢٦.
[٢]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٩١.
[٣]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٣٩٢.
[٤]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣١٨.
[٥]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٠٣. - شاهين (رياض مصطفى أحمد)، الآغا (حسام حلمي)، الاستيطان الصليبي في فلسطين (٤٩١-٦٥٠هـ/١٠٩٨-١٢٥٢م)، دار مؤسسة فلسطين للثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م، ص٤٩.
[٦]- براور، الاستيطان، ص٩٩،١٠٠.

لذلك توالت موجات الهجرة الأوربية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وكانوا يأتون بعشرات الألوف حجّاجاً وجنوداً مسلحين في مجموعات صغيرة يقودها الأمراء الإقطاعيون، أو على شكل جيوش ضخمة يتولى قيادتها أكبر حكام أوربا مثلما حدث في الحملة الصليبية الثانية التي قادها كل من الإمبراطور الألماني كونرادالثالث والملك الفرنسي لويس السابع[١]، وأدى ذلك لظهور متعهدين قاموا بمفاوضة السادة الإقطاعيين من أجل إحضار المستوطنين وإسكانهم في قرى السكان العرب[٢].

كما أدرك الصليبيون ضرورة العمل على تشجيع هجرة سكان بلدان أوربا، واتخذ قادة الكيانات الصليبية عدة إجراءات لتشجيع تلك الهجرة، منها العمل على تطوير قانون وراثة الإقطاع حيث أصبحت الإقطاعياتتمنح للشخص وبعد وفاته تصبح حقاً لكل أقاربه المباشرين وغير المباشرين، فضلاً على منح الإناث حقوراثة الإقطاع خلافاً للعرف السائد في أوربا، وهذا الأمر كفل فرصة للذين سيهاجرون في المستقبل من أجل حيازة الأملاك الإقطاعية[٣].

ومن الأسباب الأخرى التي شجعت على الهجرة إلى المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون من بلاد الشام، حدوث زيادة سكانية في أوربا خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وكانت الهجرة صوب بلاد الشام متنفساً لتصريف تلك الزيادة[٤]، كما أدى استرداد العرب المسلمين لأراضي إمارة الرها الصليبية سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م، لحدوث هجرة صليبية من تلك الإمارة إلى بقية المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون بما فيها الساحل الشامي[٥].

٢- أهداف الاستيطان:

ما إن استقر الصليبيون في المناطق التي استولوا عليها من بلاد الشام حتى أنشؤوا الكثير من المستوطنات، وهدفت سياسة الاستيطان التي اتبعها الصليبيون إلى:

أ- السيطرة على الأراضي الزراعية وتحويل أصحابها إلى فلاحين مستأجرين أو أقنان، واستغلالهم للعمل في تلك الأراضي نظراً لعدم توافر العبيد والأقنان بين صفوفهم، إذ عدّ جميع من يشارك في الحروب الصليبية ويبقى في الشرق حراً، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي السابق في موطنهم الأصلي، مما يساعد على تثبيت سيطرة السادة الإقطاعيين الصليبيين[٦].

ب- أدرك حكام الكيانات الصليبية في بلاد الشام أهمية إنشاء المستوطنات الزراعية من أجل توفير المنتجات الزراعية التي تعود بالفائدة الكبيرة على تلك الكيانات، وزيادة دخلها، وتحقيق الأمن الغذائي للصليبيين[٧].

ج- إيجاد حل لمشكلة نقص العنصر البشري الصليبي في الكيانات الصليبية الناشئة، وما ينتج عن ذلك من مخاطر أمنية، تمثلت في تمكن الجيوش العربية الإسلامية من اختراق حدود تلك الكيانات بكل سهولة؛ نتيجة قلة العنصر الصليبي في الأرياف، وتمركزه في المدن والحصون والقلاع[٨]، لذلك

---

[١]- قاسم (قاسم عبده)، أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، من خلال موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣١.

[٢]- شاهين، الآغا، الاستيطان، ص٥٠.

[٣]- براور، الاستيطان، ص٩٣.

[٤]- براور، الاستيطان، ص٩٩.

[٥]- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص٥٥.

[٦]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٨٤.- شاهين -الآغا، الاستيطان، ص٦٧.

[٧]- شاهين- الآغا، الاستيطان، ص٨٣.

[٨]- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص٦٨.

حرص الصليبيون على إنشاء مستوطنات خاصة بهم في مواقع ذات أهمية جغرافية، بهدف تمزيق المنطقة جغرافياً وسياسيا[١]، وبالتالي يسهل عليهم صد أي عدوان،فضلاً عن إضعاف مقاومة المدن العربية التي يهدفون الاستيلاء عليها، مثلما حدث أثناء حصار ريموند لمدينة طرابلس حيث أنشأ حصن تلة الحجاج، فكان عبارة عن مستوطنة ذات طابع عسكري، وتكرر هذا الأمر مع مدينة عسقلان التي أحيطت بعدة مستوطنات وقلاع، مما أدى لسقوطها بعد صراع دام لمدة خمسين سنة.

ح- إيجاد حل للمشكلة التي عانى منها الصليبيون، والمتمثلة بصعوبة تزويد القلاع - التي قاموا ببنائها في مناطق معزولة - بالمؤن والعسكر، فلذلك عملوا على حلها عن طريق إنشاء مستوطنات زراعية بجوار تلك القلاع، وهذا يساعد على توفير الاحتياجات الغذائية لحاميات القلاع، كما تزودها بالعسكر حيث فرض على المستوطنين تأدية بعض الالتزامات العسكرية[٢].

٣- نمط إدارة المستوطنات الصليبية:

قام الصليبيون خلال سيطرتهم على الساحل الشامي بتشجيع هجرة مواطنيهم من سكان أوربا، كما انشؤوا العديد من المستوطنات، وتولى رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة هذه المهمة، حيث قاموا بتأسيس العديد من المستوطنات في الإقطاعيات التي حصلوا عليها من الدوق غودفروي سنة٤٩٢هـ/١٠٩٩م[٣]، ثم شاركهم في ذلك حكام الكيانات الصليبية والأمراء الإقطاعيين.

وتم إنشاء المستوطنات على أراضي القرى العربية التي هجرها سكانها، أو التي تم تهجير سكانها منها إلى قرى عربية مجاورة[٤]، وكانت القرى الاستيطانية الصليبية أكبر حجماً من نظيراتها المحلية، حيث كان عدد سكانها يصل إلى ما يقارب مئة وخمسين أسرة أي ما يعادل خمسمئة نسمة، وخضعت هذه المستوطنات لإجراءات أمنية فكان العديد منها محصن ومزوّد ببرج حراسة لمراقبة تحركات العدو، وخير مثال على ذلك مستوطنة بيت جبرين التي قام الملك فولك (٥٢٦-٥٣٩هـ/١١٣١-١١٤٤م) بتحصينها سنة٥٣١هـ/١١٣٦م[٥].

وتألف سكان المستوطنات الصليبية من الأفراد الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى، وأولئك الذين وفدوا إلى الأراضي المقدسة خلال عصر الحروب الصليبية، وكانوا ينتمون إلى مختلف مناطق أوربا الغربية[٦]، وفي بعض الأحيانضمت عدداً من المسيحيين الشرقيين (السريان)[٧]، ولم يكن جميعمن أقام في المستوطنات يمتهن الزراعة فحسب ، بل وجد فيها أيضاً أصحاب المهن المختلفة مثل الخياطة والنجارة وغيرها[٨].

وامتلك كل مستوطن قطعة أرض تبلغ مساحتها على الأغلب ما يعادل سبعين هكتاراً - أي ما يعادل ٧٠٠ألف م٢-، ومقابل ذلك توجب عليه دفع إيجار نقدي عنها، كما توجب على سكان المستوطنة تقديم سُبع أو عُشر إنتاج محصولهم،فضلاً عن عُشر إنتاج أشجار الفاكهة، وكان يحق للمستوطن

---

(١)- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص ٦٧،٦٨.
(٢)- عوض، الحروب الصليبية، ص٣٩.
(٣)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٨٥.
(٤)- براور، الاستيطان، ص١٠٧.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٣.
(٥)- براور، الاستيطان، ص١٠٧.
(٦)- براور، الاستيطان، ص١٠٨.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٦٨.
(٧)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٦٨.
(٨)- براور، الاستيطان، ص١٠٧.

التنازل عن الأرض الممنوحة له للغير[١]. وقد تختلف نسبة الضرائب المفروضة على المستوطنيين من مستوطنة لأخرى.

أما فيما يتعلق بالنظام القضائي الذي كان سائداً في المستوطنات الصليبية، فقد احتوت المستوطنات على محاكم برجوازية اختصّت بمعالجة القضايا المتعلقة بشؤون أفراد الطبقة البرجوازية، وترأس هذه المحاكم أحد رجال الدين ويساعده اثنا عشر محلفاً، وتعقد لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع، وهي الاثنين والأربعاء والجمعة، وللمحكمة البرجوازية مجموعة من القوانين تستند في معظمها إلى العُرف والتقاليد المرعية أكثر من كونها قوانين مدونة[٢]، وفي المستوطنات التابعة للكنيسة كانت السلطة فيها لرجال الدين الكاثوليك الذين يصدّقون على العقود المبرمة مع المستوطنين والتي تتعلق بأسلوب الزراعة ونظام الدفع، فضلاً عن ذلك احتكر رجال الدين الكاثوليك المقيمون في المستوطنات حق إقامة المطاحن والأفران، وألزموا المستوطنين بطحن غلالهم وصنع خبزهم فيها[٣].

وإلى جانب المستوطنات التابعة لحكم الكيانات الصليبية والكنيسة الكاثوليكية، فقد وُجد العديد من المستوطنات التي تتبع المدن الإيطالية، التي حصلت عليها كمكافأة على اشتراكها في الاستيلاء على مدن الساحل الشامي، وكانت هذه المستوطنات عبارة عن أحياء في بعض المدن الساحلية، وفي بعض الأحيان كانت عبارة عن مدن كاملة مثل مدينة جبيل.

وشكل سكان هذه المستوطنات طبقة مستقلة عن باقي الفئات الاجتماعية للصليبيين، وكانت تتمتع بالعديد من الامتيازات في مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والقضائية والاجتماعية، كما لم تطبق على المقيمين في هذه المستوطنات قوانين الكيانات الصليبية، وبالتالي تمتعوا بالحكم الذاتي إلى حدٍّ اعتبرت المستوطنات الإيطالية دولة داخل دولة، واحتكر المستوطنون الإيطاليون التجارة الخارجية للكيانات الصليبية، فضلاً عن الأنشطة المصرفية وأعمال الشحن.

وفي الحقبة المبكرة للوجود الصليبي كانت الأحياء الايطالية عبارة عن مراكز تجارية أكثر من كونها مراكز استقرار سكني، ولكن اعتباراً من العقد الثاني للقرن السادس الهجري/ العقد الثالث للقرن الثاني عشر الميلادي، تحول الاستقرار المؤقت للإيطاليين إلى استقرار دائم، مثل ما حدث سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م عندما حصلت مدينة البندقية على ثلث مدينة صور وثلث ريفها، نتيجة مشاركتها في الاستيلاء على مدينة صور[٤]. ولابد بأن هذا الأمر أدى لتوافد أعداد كثيرة من البنادقة للاستقرار فيها والعمل على إدارتها.

٤- المستوطنات الصليبية في الساحل الشامي:

أنشأ الصليبيون خلال تواجدهم في بلاد الشام مئات المستوطنات، فقد بلغ عددها في مملكة بيت المقدس لوحدها مئة مستوطنة[٥]، أنشئت حول القلاع والحصون التي أقاموها أمام المدن التي بقيت بيد العرب المسلمين، ومن بين تلك المستوطنات التي أنشئت على الساحل الشامي :

أ- مستوطنة حصن تل الحجاج(قلعة صنجيل):

تقع بجوار مدينة طرابلس، يعود تأسيسها للكونت ريموند الذي سعى للسيطرة على مدينة طرابلس، فقام بفرض حصار بري عليها عن طريق تشييد حصن على التلة الغربية المشرفة على

(١)- براور، الاستيطان، ص١٠٨.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٨٨.
(٢)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٨٢.
(٣)- براور، الاستيطان، ص١٠٩.
(٤)- براور، الاستيطان، ص١١٠،١١١،١١٤،١١٥.
(٥)- براور، الاستيطان، ص٤٩٩.

المدينة سنة٤٩٧هـ/١١٠٣م، والذي دعي بحصن تلة الحجاج(Monsperegrinus) نسبة للمشاركين-الحجاج- في الحملة الصليبية الأولى والذين بقوا في بلاد الشام وأسهموا في بنائه[١].

وشيّد ريموند هذا الحصن على بعض الأبنية القديمة التي يعود تشييدها إلى ما قبل الحروب الصليبية، ومنها مشهد ومقبرة للمسلمين، فقام ريموند بتحويلها إلى كنيسة وبنى حولها الحصن، ثم شيّد بجوار الحصن معسكرات وأسواقاً لجنوده، واحتفر الخنادق من حولها، وقد أعانه على بناء هذا الحصن الإمبراطورية البيزنطية[٢]، وشكل ذلك نواة لنشوء تجمع أو مدينة صليبية بصبغة عسكرية .

تمتع موقع هذا الحصن بأهمية استراتيجية حيث كان يشرف على مدينة طرابلس والأرباض المحيطة بها، ويمكن من خلاله مراقبة حركة قوات المدينة، أوالنجدات القادمة لإنقاذها، فضلاً عن تحكمه بمجرى النهر الذي يسقي مدينة طرابلس[٣]، وأدرك الأمير فخر الملك بن عمار حاكم طرابلس خطورة هذا الحصن على مدينته، فقام بمهاجمته وقد تم له نهبه وإحراقه في ١٩ ذي الحجة ٤٩٧هـ/١١٠٤م[٤]. وعلى إثر ذلك تفقد ريموند الحصن ولكن أحد سقوفه سقطت عليه، فأصيب بجروح، وما لبث أن توفي في ٤جمادى الأولى ٤٩٨هـ/١١٠٥م، ثم قام خليفته وليم جوردان بإعادة بناء الحصن وترميم ما تهدم منه ومن ربضه[٥].

وهكذا يمكن القول: إن هذه المستوطنة نشأت لأسباب عسكرية في بداية الأمر، وذلك للتحكم بالطرق المؤدية إلى مدينة طرابلس من أجل تضييق الخناق عليها، وأدرك الكونت ريموند في الوقت نفسه أهمية تواجد كثافة سكانية من الصليبيين لإمداد الحصن بالمقاتلين، لذلك أنشأ بجوار الحصن معسكرات لإقامة جنوده فضلاً عن الأسواق، وهذا يعطيدليلاً على أن موقع الحصن أصبح قبلةٍ يقصدها العديد من الصليبيين للإقامة فيها، كمالعب هذا الحصن دوراً كبيراً في التمهيد للاستيلاء على طرابلس .

ب- مستوطنة الزيب (Casal imbert):

تعد من أولى المستوطنات التي أسسها الصليبيون على الساحل الشامي، وقد أقيمت على أراضي قرية الزيب العربية التي تقع على بعد ١٤كم إلى الشمال من مدينة عكا، وعرفت هذه المستوطنة في العصر الصليبي باسم Casal imbert نسبة للفارس الصليبي الذي استولى عليها سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م[٦]، وعدُّت من ممتلكات الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس، ولكن سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م دخلت القرية مرحلة التنظيم، يث شهدت تطوراً ونمواً زراعياً وعمرانياً بعد أن أصبحت تابعة للتاج الملكي بعد قيام رهبان كنيسة القديسة مريم بالتخلي عنها[٧]، ولقيت هذه

---

[١]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٤.- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٤٠.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.- التدمري، السيادة، ص٢١،٢١٢.

[٢]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٩١.- التدمري، السيادة، ص٢١٢.- السّاحلي، الاستيطان الفرنجي، ص٢٣٨.

[٣]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٤.- التدمري، السيادة، ص٢١٢.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣٦.- التدمري، السيادة، ص٢١٣.

[٥]- التدمري، السيادة، ص٢١٤،٢١٥.

[٦]- ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة، ص١٤٨.- الدباغ ، بلادنا،ج٧ ، ق٢، ص٣٤٤.

[٧]- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص٩٥-٩٧.

المستوطنة اهتماماً من قبل الملك بلدوين الثالث(٥٣٩-٥٥٨هـ/١١٤٤-١١٦٢م)مما دفع بعض المصادر إلى اعتباره مؤسسها[١].

وفي سبيل جذب المهاجرين الأوربيين للإقامة فيها قُدّم لكل مستوطن منزلاً يقيم فيه مع أسرته، وقطعة أرض يعمل فيها، وتوجب على مستوطني الزيب أن يدفعوا سُبع محصولهم، وربع إنتاج حدائقهم وكرومهم، وثلثين من محصول الزيوت الذي تنتجه أراضي المستوطنة[٢]، وإذا أرادوا أن يستعملوا فرن السيد، توجب عليهم أن يقدموا رغيفاً عن كل خمسين رغيف يُخبَز في فرن السيد[٣].

وقدر عدد سكان هذه المستوطنة مابين ٢٠٠-٥٠٠ نسمة، يعودون في أصولهم بنسبة كبيرة إلى سكان المدن الإيطالية والفرنسية فضلاً عن الجنسيات الأوربية الأخرى، كما وجد إلى جانبهم عدد من السريان اليعاقبة الذين تواجدوا بكثرة في المنطقة [٤].

ومن أجل تأمين الحماية لهذه المستوطنة عمل الصليبيون على بناء حصن بالقرب منها، ويحدد الشريف الإدريسي موقع هذا الحصن بقوله:**"ومن عكا إلى حصن الزيب اثنا عشر ميلاً[٥] وهو حصن على ضفة البحر المالح"**[٦]، وذكره ابن جبير بقوله:**" واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة ..."**[٧].

ج- مستوطنة قلعة اسكندرونة- سكاندليون-:

بنيت هذه القلعة من قبل الملك بلدوين الأول في سنة ٥١١هـ/١١١٨م على بعد خمسة أميال جنوب مدينة صور، وترك فيها حامية عسكرية مهمتها تشديد الحصار على مدينة صور[٨]، وتعد هذه المستوطنة من المستوطنات التي أنشئت لأسباب عسكرية، وعدت هذه القلعة وما ألحق بها مستوطنات من أملاك التاج الملكي، ولكن بعد استيلاء الصليبيون على مدينة صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م قل الإهتمام بها، ويمكن استنتاج ذلك من وصف ابن جبير لها بأنها عبارة عن قرية تمتلك أسواراً[٩].

ح- مستوطنة قلعة الداروم:

عمل الصليبيون بعد استيلائهم على مدينة عسقلان، والمنطقة المحيطة بها على ملء الفراغ السكاني في تلك المنطقة[١٠]،ونظراً لأهميتها العسكرية كبوابة لغزو مصر، قام الملك عموري الأول ببناء قلعة الداروم إلى الجنوب من مدينة غزة سنة٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، وتتمثل مهمتها في كونها قاعدة

---

[١]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٦٥.
[٢]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٦٦.- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص٩٦.
[٣]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٦٦.
[٤]- شاهين- الآغا، الاستيطان، ص٩٧.
[٥]- الميل: وحدة من مقاييس الطول، ويساوي حوالي ٢كم. - فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٩٥.
[٦]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٥.
[٧]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٧.
[٨]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٤٥٨.- ثيودريش، وصف الأماكن، ص ١٤٧.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٨.
[٩]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٧.
[١٠]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٦٦.

انطلاق للقوات الصليبية للتوغل في الأراضي المصرية، إضافة لكونها مركزاً لجباية الجزية السنوية المفروضة على القرى المحيطة بها، ولفرض الضرائب على القوافل العربية القادمة من مصر إلى بلاد الشام وبالعكس[(١)].

كما قام الصليبيون بتأسيس مستوطنة زراعية إلى جوار القلعة؛ لتتولى مهمة تأمين احتياجاتها من الغذاء والمقاتلين، وتألف سكان المستوطنة من المهاجرين الأوربيين ذوي الأصول الفلاحية والمراتب الدنيا[(٢)]، ووصف وليم الصوري تأسيس هذه المستوطنة بقوله:**" تجمع هنا عدد قليل من مزارعي الحقول المجاورة مع بعض التجار وشكلوا مستعمرة صغيرة، وبنوا قرية وكنيسة على مقربة من القلعة، واتخذوا مقر سكناهم هناك، وكان موقفاً بهيجاً توفرت فيه شروط الحياة للناس ذوي المراتب الدنيا أفضل مما كان في المدن"**[(٣)]، ومنح المستوطنين مساحة واسعة من الأراضي؛ بهدف العمل على زيادة الرقعة الزراعية، ومقابل ذلك تم إعفائهم من الضرائب[(٤)]، وكلّف فرسان هيئة الداوية الإشراف على هذه القلعة[(٥)].

خ- مستوطنة غزة:

سعى الصليبيون في خضمّ صراعهم مع مدينة عسقلان إلى إحاطتها بسلسلة من القلاع والمستوطنات لمنع سكانها من الاستفادة من الأراضي الزراعية التي تحيط بها، ومن بين تلك القلاع كانت قلعة غزة التي أعاد تشييدها الملك بلدوين الثالث سنة٥٤٥هـ/١١٥٠م، وعهد بها إلى فرسان هيئة الداوية[(٦)].

وأدى إعادة بناء قلعة غزة إلى تشجيع السكان الصليبيين على استيطان بقية أجزاء هضبة غزة التي لم تشملها القلعة، ونتيجة الخوف من غارات حامية مدينة عسقلان **" حاول الناس الذين أتوا إلى هناك للعيش، أن يحموا بقية الهضبة بسور وبوابات ليحتاطوا لسلامتهم، إلا أن هذا السور كان منخفضاً بعض الشيء ولم يكن قوياً"**[(٧)].

ومن المستوطنات التي تقع في المناطق الداخلية لكن نشأتها ارتبطت بأحداث الساحل الشامي:

أ- مستوطنة بيت جبرين:

قام الملك فولك بتشييد قلعة بيت جبرين سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، بهدف الاحاطة بمدينة عسقلان وتضييق الخناق عليها، فضلاً عن التحكم بالطرق التي تصل ما بين بيت المقدس والخليل من جهة، وغزة وعسقلان من جهة أخرى.

واستقر الصليبيون في بيت جبرين منذ قدومهم إلّا أنهم كانوا عرضة لهجوم حامية عسقلان، لذلك سرعان ما سُلِّمت هذه القلعة لفرسان هيئة الإسبتارية لتولي مهمة الدفاع عنها سنة ٥٣١هـ/

---

(١)- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت، "من خلال الموسوعة الشامية"،ج٧، ص٣٤٥.-مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص٩٠.- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص١٠١.

(٢)- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص١٠١.

(٣)- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص٣٤٦.

(٤)- براور، الاستيطان، ص٣٦٠.

(٥)- مقامي، فرق الرهبان الفرسان، ص٩١.

(٦)- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص٣٤٦.

(٧)- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص٣٤٦.

١١٣٦م[١]، فقام فرسان الإسبتارية بتأسيس مستوطنة زراعية مجاورة للقلعة، كما عملوا على تحصين هذه المستوطنة[٢]، واستوطنتها عناصر أوربية من أصول فلاحية، وبعض أصحاب المهن من نجارة وخياطة وغيرها، ومنح كل مستوطن على بيت وقطعة أرض لزراعتها تعادل ٦٢٠٠٠م٢، ومقابل ذلك توجب عليهم دفع ضريبة سنوية تعادل عُشر المحصول، وعُشر إنتاج الفاكهة، ومبلغ ثابت يدفع سنوياً، ويحق للمستوطن بيع الأرض التي حصل عليها، وألزم مستوطني بيت جبرين على أداء الخدمة العسكرية مقابل حصولهم على نصيب من الغنائم[٣]، وإضافة للمستوطنين الأوربيين فقد أقام في هذه المستوطنة بعض المسيحيين العرب(السريان)[٤]، ويبدو أن حامية عسقلان أدركت خطر قلعة بيت جبرين ومستوطنتها، لذلك قامت بمهاجمتها وإحراق بيادرها[٥].

ب- مستوطنة تل الصافية:

قام الملك فولك بتشييد قلعة في موقع تل الصافية سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م على بعد ثمانية أميال للشرق من مدينة عسقلان، ودعيت هذه القلعة خلال الحروب الصليبية باسم برج المراقبة الأبيض "Blanche orade"، وتمثلت مهمة هذه القلعة بتأمين الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس وصد غارات حامية عسقلان[٦].

واستدعى تشييد قلعة تل الصافية إنشاء مستوطنة صليبية زراعية لتأمين المتطلبات الغذائية لحامية القلعة، وحصل كل مستوطن على قطعة أرض مقابل أن يدفعوا إيجار نقدي، وتقديم عُشر إنتاج محصولهم وعُشر إنتاج أشجار الفواكه، ودفع نسبة من الغنائم التي يحصلون عليها من الإغارة على الأراضي، كما كان من حق المستوطنين بيع الأراضي التي حصلوا عليها والتنازل عنها للغير[٧].

٥- نتائج الاستيطان الصليبي:

أدت سياسة الاستيطان التي اعتمدها الصليبيون في المناطق التي خضعت لسيطرتهم، إلى عدة نتائج:

أ- تغيير التركيب السكاني لتلك المناطق، فقد تم تهجير السكان العرب للقرى التي أنشئت عليها المستوطنات الصليبية دون النظر إلى رغبتهم أو حقهم في البقاء في قراهم، وعمل الصليبيون كل ما بوسعهم على تفريغ البلاد من أصحابها سواءً كان ذلك بارتكاب المجازر والمذابح ضد السكان، أو القيام بطردهم وتهجيرهم وما رافق ذلك من أعمال قمع ومعاملة سيئة أجبرت الكثيرين على مغادرة بلادهم بحثاً عن الأمان والاستقرار، كما ترتب على ذلك فقدانهم كل ما يملكون مثل المنازل

---

[١]- عوض، الحروب الصليبية، ص٧٦.- مقامى، فرق الرهبان، ص٧٨. - براور، الاستيطان، ص١٠٧.
[٢]- براور، الاستيطان، ص١٠٧.
[٣]- براور، الاستيطان، ص١٠٨.- مقامى، فرق الرهبان، ص ٧٨.- شاهين- الآغا، الاستيطان، ص ١٠٠.
[٤]- شاهين - الآغا، الاستيطان، ص١٠٠.
[٥]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص١٤٩.
[٦]- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٤٦.- عوض، تاريخ الحروب الصليبية، ص٧٦،٧٧.
[٧]- براور، الاستيطان، ص ١٠٨.

والطواحين والمحاريث والمخابز والمعاصر وإلى ما شابه ذلك من عقارات، وأسهمت الكنيسة اللاتينية بدور كبير في ذلك[١]. بينما استقر الكثير من الأوربيين في بلاد الشام.

ب- حدث تغيير في طبيعة العلاقات بين الفئات الاجتماعية داخل تلك المناطق، إذ تحولت الأقليات إلى أكثريات في بعض المناطق الخاضعة للصليبيين[٢].

ج-تغيير أسماء العديد من القرى العربية، التي لم تعد تذكر بأسمائها القديمة، أياً كان أصلها، بل تم استخدامها بشكل محرف في اللغة الفرنسية أواللاتينية، حتى أن البعض منها عرفت باسم المحارب الصليبي الذي استولى عليها[٣]، وخير مثال على ذلك قرية الزيب التي عرفت خلال عصر الحروب الصليبية بقرية إمبرت نسبة للفارس الصليبي الذي استولى عليها.

د- حققت سياسة إنشاء المستوطنات في المناطق الزراعية، الأمن الغذائي لجموع الصليبيين، الذين سعوا للتقليل من الاعتماد على السكان الأصليين في العمل الزراعي، وذلك بمنح سكان تلك المستوطنات مساحات واسعة من الأراضي الزراعية للعمل فيها[٤].

هـ- حصلت الكنيسة نتيجة هذه السياسة على الكثير من الممتلكات والأراضي الزراعية على شكل هبات وإقطاعيات، وأدى هذا الأمر مع مرور الوقت إلى ازدياد نفوذها، حتى أنها أصبحت عبارة عن دولة داخل الكيانات الصليبية، ولذلك فقد منع القانون الملكي في مملكة بيت المقدس خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بيع الإقطاعيات والأراضي إلى الكنيسة، ولكن دون فائدة فالملوك أنفسهم كانوا يهبون الكنيسة الكثير من الأراضي[٥].

و- أدت تلك السياسة والتوسع العسكري التي اتبعها الصليبيون إلى تحويل سيطرتهم على بعض المدن القليلة المتناثرة إلى سيادة ثابتة على أقاليم متصلة آخذة في التوسع[٦]. وتطلب ذلك بناء العديد من القلاع والحصون في المناطق الريفية بهدف إخضاع ما تبقى من السكان الأصليين، ومنعهم من القيام بأي تحرك يهدد تواجد الصليبيين في بلاد الشام، فضلاً عن دورها في تأمين الحماية للمستوطنات الصليبية التي تم تأسيسها في المناطق البعيدة عن تمركزهم[٧].

ز- إن أهمية موقع بعض المستوطنات وقربها من المناطق العربية الإسلامية، دفعت الصليبيين لتحويلها إلى قلاع محصنة، وخير مثال على ذلك مستوطنة بيت جبرين الواقعة على الطريق بين عسقلان وبيت المقدس، والتي قام الملك فولك بتحصينها سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م بهدف التصدي لغارات حامية مدينة عسقلان[٨].

ح- تغلب الصليبيون على المشاكل الناتجة عن تشييد القلاع في مناطق نائية والمتمثلة بصعوبة نقل الجنود وتموينهم وإيوائهم، عن طريق تأسيس مستوطنات زراعية بجوار تلك القلاع، الأمر الذي كفل توفير المؤن الغذائية لأفراد الحاميات العسكرية، وفي الوقت ذاته كان المستوطنون يؤدون التزامات عسكرية مقابل الحصول على جزء من الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها من العرب المسلمين[٩].

---

[١]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص١٨٤، ٣٧٣.
[٢]- قاسم، أثر الحروب الصليبية، ص ١٢٧.
[٣]- نعيمه، الاستيطان الفرنجي، ص٢٥٠.
[٤]- شاهين، الآغا، الاستيطان الصليبي، ص٨٣.
[٥]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣٧.
[٦]- قاسم، أثر الحروب الصليبية، ص ١٣٠.
[٧]- نعيمه، الاستيطان الفرنجي، ص٢٢٠،٢٢.
[٨]- براور، الاستيطان، ص ١٠٧.
[٩]- براور، الاستيطان، ص ٣٩.- نعيمه، الاستيطان الفرنجي، ص٣٦٧.

ط- صارت القرى المحصنة عبارة عن وحدات مستقلة تتمتع بالاكتفاء الذاتي وتحمي حدود الكيانات الصليبية، وتزودها بقوات عسكرية جاهزة لغزو البلدان العربية الإسلامية[١].

سادساً- أثر الحروب الصليبية على التقارب الإسلامي - الإسلامي.

على الرغم من أن الخلاف الديني بين حكام بلاد الشام ومصر في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، كان من العوامل التي ساعدت الحشود الصليبية على التقدم والتوسع في مناطق بلاد الشام، لكن ما إن أدرك المسلمون بمختلف مذاهبهم الهدف الأساسي من الحملة الصليبية الأولى، حتى أصبح الوجود الصليبي وكياناته المصطنعة على أرض الشام من أهم العوامل التي أدت إلى حدوث نوع من التقارب بين حكام الإمارات العربية الإسلامية في بلاد الشام (ذات التوجه السني) وبين حكام الدولة الفاطمية (ذات التوجه الشيعي)، وكان للأتابك طغتكين حاكم دمشق والوزير الفاطمي الأفضل الدور الأكبر في هذا التقارب، وإن تركز على الناحية العسكرية إلا أنه كان الخطوة الأولى على طريق تحقيق الوحدة العربية الإسلامية في مواجهة المشروع الصليبي.

١- التقارب بين دمشق والدولة الفاطمية:

شكلت الأعمال التوسعية والوحشية للصليبيينخطراً كبيراً على ممتلكات كل من دمشق ومصر، فسعى حكام كلا البلدين للعمل على التصدي للتوسع الصليبي متناسين الخلافات المذهبية بينهما، وكان خير وسيلة للمواجهة، هو إيجاد نوع من التنسيق العسكري بينهما في قتال الصليبيين، وتجلى ذلك في عدة مناسبات ففي سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م قامت الدولة الفاطمية بإرسال حملة عسكرية بقيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل وتمركزت في عسقلان بانتظار وصول التعزيزات، فقام شرف المعالي بمكاتبة الملك دقاق حاكم دمشق طالباً الحصول على دعم قوات دمشق ومشاركتها في قتال صليبيي بيت المقدس، ولقي هذا الأمر ترحاباً من قبل دقاق وأتابكه طغتكين، إلا أن اضطراب الأوضاع في بلاد الشام نتيجة للصراع ما بين دقاق حاكم دمشق و رضوان حاكم حلب، حال دون قيام دقاق بإرسال قوات دمشق للمشاركة في قتال الصليبيين[٢]. إلا أن المصادر لم تورد ذكر للأسباب التي دفعت شرف المعالي لطلب العون من دمشق دون القاهرة، على الرغم من عدم وجود أي نوع من الاتصالات السياسية بين الطرفين قبل ذلك. وربما يمكن تبرير أسباب هذا الإتصال بين شرف المعالي ودقاق؛ إلى إضطراب الأوضاع في مصر وبخاصة بعد وفاة الخليفة المستعلي، والتهاء الوزير الأفضل في ضبط أوضاع مصر على إثر ذلك.

ولكن هذه المكاتبة كانت بداية لقيام نوعٍ من التقارب بين دمشق والدولة الفاطمية ضد تحركات الصليبيين في فلسطين والساحل الشامي، وفيما بعد تعززت عند قيام الملك دقاق والأتابك طغتكين بإكرام وفادة زهر الدولة الجيوشي والي عكا ومن معه بعد استيلاء الصليبيين على مدينة عكا[٣] سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م ، ومن ثم قاما بتجهيز الوالي على أحسن صورة وسيروه إلى الوزير الأفضل[٤]، لذلك عادت المكاتبة بين الطرفين سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م عند إرسال الدولة الفاطمية حملة عسكرية إلى عسقلان بقيادة شرف المعالي، والذي قام بمكاتبة الأتابك طغتكين - الحاكم الجديد لدمشق-طالباً المعونة والاعتضاد على قتال الصليبيين، ولكن اضطراب الأوضاع الداخلية في دمشق؛ نتيجة

---

[١]- براور، الاستيطان، ص ٤٠.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣١.

[٣]- كان لاستيلاء الصليبيون على مدينة عكا أثار سلبية على الحياة الاقتصادية لدمشق، إذ عدت عكا هي الميناء الرئيسي الذي تشحن من خلاله بضائع دمشق إلى الغرب، وترك ذلك أثر كبير في النشاط الاقتصادي في دمشق لبضع سنيين. رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١١٩.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣٢.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٤.

لعصيان أرتاش بن تاج الدولة تتش[١] ومطالبته بعرش دمشق، ومؤازرة ايتكين الحلبي والي بصرى له حال دون استجابة طغتكين مبشرة لطلب شرف المعالي، فقد كان مهتماً بحصار بصرى[٢]، وبخاصة مع سعي أرتاش بن تاج الدولة الحصول على المساعدة العسكرية من صليبيي بيت المقدس وإغرائهم بخيرات البلاد[٣].

ونتيجة لتطور الأحداث على هذا الشكل أدرك ضرورة الاستجابة لطلب شرف المعالي في المشاركة في قتال الصليبيين بالقرب من عسقلان، لأن انتصار القوات الفاطمية على الصليبيين سوف يريح دمشق من خطر إتمام التحالف بين أرتاش ومملكة بيت المقدس[٤]. لذا بادر إلى إرسال قوة عسكرية إلى عسقلان تقدر بألف وثلاثمائة مقاتل بقيادة الأمير أصبهذ صباوو للقتال إلى جانب القوات الفاطمية[٥]، بينما بقي هو يحاصر مدينة بصرى[٦]، إلا أن المؤرخ ابن القلانسي المعاصر للحدث ذكر بأن الأتابك طغتكين هو من سار بنفسه إلى عسقلان[٧]، ولكن هذا الأمر غير مرجح فكيف يبادر الآتابك طغتكين إلى ترك دمشق ولم يتمكن بعد من توطيد نفوذه فيها بعد وفاة الملك دقاق سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، فذهابه إلى عسقلان سوف يتيح لأرتاش الفرصة لاسترداد عرش دمشق لصالح أسرة تاج الدولة تتش.

وما لبثت قوات العرب المسلمين المرابطة عند عسقلان أن هزمت أمام قوات الصليبيين[٨]، أما ابن الأثير فيشير إلى أن كفة النصر لم ترجح لأي من الطرفين المتقاتلين، وذلك بقوله:" **فوقع المصاف بينهم بين عسقلان ويافا فلم تظهر إحدى الطائفتين على الآخر فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك أمير عسقلان، فلما رأى المسلمون أنهم تكافؤوا في النهاية قطعوا الحرب، وعادوا إلى عسقلان وعاد صباوو إلى دمشق...**"[٩].

وعلى الرغم من الهزيمة التي حلت بقوات الدولة الفاطمية ودمشق بالقرب من عسقلان، إلا أن التنسيق بينهما لقتال الصليبيين لم يتوقف، ويظهر ذلك جلياً في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م عند مهاجمة الملك بلدوين الأول لمدينة صيدا، فاشتركت قوات كل من الدولة الفاطمية ودمشق في الدفاع عن المدينة، فالأولى قامت بإرسال أسطولها الذي استطاع الانتصار على سفن جنوى التي تفرض الحصار البحري على المدينة، بينما أرسلت دمشق قواتها لمناوشة القوات الصليبية من ناحية البر[١٠].

---

[١]- هو أرتاش أو ألتاش بن تتش بن ألب أرسلان، قام أخيه دقاق باعتقاله في مدينة بعلبك، وعند وفاة دقاق استولى طغتكين على مقاليد الأمور في دمشق، إلا أنه اضطر للبحث عن أحد أبناء تتش ليحكم من خلاله، فوجد ضالته في أرتاش فاطلق سراحه وعينه مكان أخيه، لكنه سرعان ما خاف طغتكين، فهرب من دمشق وتحالف مع صليبيي بيت المقدس ضد طغتكين.

- ابن منظور(محمد بن مكرم)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م، ج٤، ص ٢٣٢.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٤٠.

[٣]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٥.

[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٤٠.

[٥]- ابن الأثير، الكامل ، مج ٩، ص٨٥.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٥.

[٦]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٥.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ص ٢٤١،٢٤٠.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٤١،٢٤٠.- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٦٤،٢٦٣.
- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٥.

[٩]- ابن الأثير، الكامل، ج٨ ، ص ٥١٣.

[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٠.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٥٦١.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٣.

وسرعان ما ترسخ هذا التعاون عند قيام طغتكين بالدفاع عن مدينة صور ضد هجمات الصليبيين سنة ٥٠٥هـ/١١١١م، وهذا الأمر دفع والي وأهالي سكان صور إلى مراسلة الأتابك طغتكين سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م عارضين عليه تسلم حكمها، وتدبر أمور الدفاع عنها خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها، فما كان من طغتكين إلا أن قبل ذلك العرض، وبادر على الفور إلى إرسال قوة عسكرية إليها، ولم يحاول القيام بأي تغيير في مختلف نواحي الحياة تؤدي إلى إثارة سخط السكان والدولة الفاطمية، فقام بتطييب خاطر السكان، كما سعى لعدم إثارة غضب الدولة الفاطمية فأبقى الدعوة والسكة للخليفة الفاطمي، ولم يحاول تغيير ذلك أو إقامة الدعوة للخليفة العباسي[١]، لذلك قام بمراسلة الوزير الأفضل مبرراً له ما اتخذه من إجراءات تهدف للحيلولة دون سقوط صور بيد الصليبيين، وقد أورد ابن القلانسي جانباً من هذه المكاتبة بقوله:" **إن بغدوين قد جمع وحشد للنزول على صور، وإن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا في دفعه عنهم، فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها، والمراماة دونها إليه، وحصلوا فيها، ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها، ويذب عنها، ويحميها بادرت بتسليمها إليه، وخروج نوابي منها، وأنا أرجو أن لا يهمل أمرها، وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها، والتقوية لها** "[٢].

ولاقت هذه الإجراءات استحسان الأفضل الذي بادر إلى شكر طغتكين على جهوده في حماية صور من الصليبيين، وأصدر أوامره بتجهيز الأسطول المتوجه إليها بالمؤن، وبالمال الذي يجب أن ينفق على العسكر[٣]، كما أنه " **أنفذ معه بخلع جليله إلى ظهير الدين طغتكين وولده تاج الملوك وخواصّه، ولمسعود متولي صور...** "[٤]، وبناء على هذا التقارب غدت مدينة صور تخضع لإدارة مشتركة دمشقية فاطمية، وكان لهذا النظام الجديد في الحكم دوراً مهماً في صمود صور أمام هجمات الصليبيين، ولم يتخلل هذا النظام من شوائب إلا قيام الوزير الفاطمي الجديد مأمون البطائحي[٥] بالقبض على والي المدينة المعين من قبل طغتكين دون تنسيق مع هذا الأخير سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م[٦]، وعلى ما يبدو أنه اتخذ هذا القرار رغبة منه في استعادة السيطرة الفاطمية الكاملة على المدينة، في حين برر ابن القلانسي وابن الأثير ذلك بكثرة شكوى أهالي صور إلى الخليفة الأمر بأحكام الله على الإجراءات التي يتخذها الوالي مسعود المعين من قبل طغتكين[٧]، إلا أن هذا الفعل كان له أثر سلبي على الأوضاع الداخلية في صور. مما اضطر الخليفة الفاطمي لإعادة حكم صور إلى يد طغتكين سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م[٨]، ومنحه لقب سيف أمير المؤمنين[٩] واستمر ذلك إلى أن سقطت المدينة بيد صليبيي بيت المقدس سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م .

وهكذا يمكن القول: إنَّ الدولة الفاطمية سعت للحفاظ على حليفها الشامي نظراً لقربه من المدن الساحلية الخاضعة للسيطرة الفاطمية، وقدرته على تقديم الدعم العسكري لها في وجه الهجمات الصليبية، ريثما يأتي الدعم من قبل الأسطول الفاطمي، كما يمكن القول: إنَّ نظام الحكم المشترك

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٩٠،٢٩١.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥١.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٩١.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص ٣٠٠.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥١.

[٤]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٢.

[٥]- البطائحي: هو المأمون أبو عبد الله محمد بن أبي شجاع البطائحي، تولى الوزارة بعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، واستمر في ذلك إلى أن قبض عليه الخليفة الأمر بأحكام الله وأودعه السجن سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م ، ثم قتل البطائحي سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م.
- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١١٢، ١٢١.- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٣٨٢.

[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٢٩.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٩٣. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٩٦.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٢٩.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٩٣.

[٨]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٩٣. – المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٠١.

[٩]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠١.

الذي اعتمد في صور، جعل من طغتكين بمثابة أحد الأمراء التابعين للدولة الفاطمية، ويدل على ذلك قيام الأفضل بمكاتبة طغتكين معاتباً له لعدم مهاجمته مملكة بيت المقدس عند قيام ملكها بلدوين الأول بمهاجمة مدينة الفرما سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، وأورد المقريزي هذه المعاتبة بقوله:**" كانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق، بعتبه ويقول له:" لا في حق الإسلام ولا في حق الدّولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها أن يتوجه الفرنج بجملتها إلى الدّيار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد"**[١]، وهذا الأمر دفع طغتكين للمسير بعسكره إلى عسقلان [٢]حيث تم استقباله بحفاوة وحمل إليه وللقادة الذين أتوا معه الهدايا والخيول، واشترك في الغارات التي شنتها حامية عسقلان على المناطق الخاضعة لسيطرة الصليبيين ثم عاد إلى دمشق[٣]، وبالرغم من معاتبة الأفضل لطغتكين إلا أن هذا الأخير كان يحظى بمكانة مرموقة لديه، وخير دليل على ذلك قول ابن الأثير: "... **فاجتمع بهم - حامية عسقلان- طغتكين وأعلن المقدم عليهم أن صاحبهم تقدم إليه بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به ...**"[٤].

وعلى الرغم من مقتل الوزير الفاطمي الأفضل سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد استمر التقارب بين الطرفين لمواجهة التحركات العسكرية لصليبيي مملكة بيت المقدس، ففي بداية سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م قدم رسل طغتكين حاكم دمشق وبلك حاكم حلب إلى القاهرة، وتمثلت مهمتهم في حث الخليفة الآمر بأحكام الله على مهاجمة الساحل الشامي الخاضع للصليبيين[٥] وأمام ما قدمه الرسل من صورة سيئة عن وضع العرب المسلمين في بلاد الشام، بادر الخليفة الآمر بأحكام الله إلى الموافقة على مهاجمة الساحل لشامي، وأمر بإعداد الجيش وإنشاء أسطول جديد نظراً لانشغال الأسطول الرئيسي في الغزو، وقام بتعيين حسام الملك البرني مقدماً على الجيش والأسطول، وكلفه بالإشراف على صناعة أربعين سفينة من نوع الشواني[٦]، وأمر أن يصحبه عشرون أميراً وعدد من الأطباء والمؤذنين والحجاب، وأنفق على هذه الحملة الكثير من الأموال[٧]، وما إن استكملت الحملة حتى انطلق الجيش البري والأسطول صوب عسقلان. ولكن الأسطول الفاطمي المشارك في الحملة اشتبك مع أسطول البندقية القادم إلى موانئ مملكة بيت المقدس، وانتهى هذا الاشتباك بهزيمة الأسطول الفاطمي وتمكن البنادقة من الظفر بعدة سفن[٨].

---

[١]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥٣،٥٤.

[٢]- يورد العظيمي مسير الآتابك طغتكين إلى عسقلان في أحداث سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، في حين أورد ابن الأثير هذا الخبر في أحداث سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، أما المقريزي فأنه يورد خبر قيام الملك بلدوين الأول بمهاجمة مدينة الفرما وقيام طغتكين بالمسير إلى عسقلان سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م، ثم يعود لذكر وفاة الملك بلدوين في أحداث سنة ٥١١هـ/١١١٧م وبما أن العظيمي كان معاصراً للأحداث فإن تحديده لمسير طغتكين إلى عسقلان في سنة ٥١١هـ/١١١٧م هو الأصح.

- العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٦٨.- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٣٣،٦٣٤. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٤، ٥٣.

[٣]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٤.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٣٤.

[٥]- ابن المأمون، نصوص من أخبار، ص ٦٠.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٩٩.- العبادي، سالم، تاريخ البحرية، ص ١٢١.

[٦]- الشواني:مفردها شينية، وهي مركب طويل يجدف بمائة واربعين مجدافاً ويحمل حوالي مئة وخمسون مقاتلاً، وتعد الشواني من أهم قطع الأسطول الفاطمي ويمتاز هذا النوع بوجود الأبراج على سطحها لغايات الهجوم والدفاع. كما تمتاز بوجود فأس كبيرة في مقدمتها تعرف باللجام مدببة الرأس أسفلها مجوف تستخدم لمهاجمة السفن المعادية وتحطيمها.

- العمايرة، الجيش الفاطمي، ص ١٨٩.

[٧]- ابن المأمون، نصوص من أخبار، ص ٦٠-٦٢، ٦٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٩٩،١٠٠.

[٨]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٣.- العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٧٣.

واستمر تبادل السفارات بين الطرفين خلال حكم طغتكين فابن القلانسي يؤكد ذلك بقوله: **"وفي شهر رمضان من السنة - ٥١٧هـ - توجه الحاجب علي بن حامد إلى مصر، رسولاً عن ظهير الدين أتابك"**[١]، إلا أن ابن القلانسي لم يورد ذكراً للأسباب التي دفعت طغتكين لإرسال هذه السفارة إلى الدولة الفاطمية. كما تكررت هذه المراسلات في سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م عند حصار الصليبيين لمدينة صور، حيث اضطربت أوضاعها مما دفع طغتكين لمراسلة الدولة الفاطمية طالباً العون وإرسال الأسطول الفاطمي[٢]، ولكن دون جدوى نتيجة انشغال الوزير المأمون بن البطائحي بالمشكلات الداخلية في الدولة الفاطمية[٣]، وسرعان ما سقطت صور بيد الصليبيين في السنة ذاتها. كما شهدت سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م إرسال الخليفة الأمر بأحكام الله الأمير المنتضى بن مسافر الغنويّ رسولاً إلى كل من طغتكين صاحب حاكم دمشق وآقسنقر البرسقي صاحب الموصل[٤]، ولكن المقريزي يشير إلى أنَّ الرسول الفاطمي كان متجهاً إلى آقسنقر البرسقي، وبينما كان في طريقه إلى الموصل سمع بمقتل صاحبها فعاد إلى مصر[٥]. ولكن رواية ابن القلانسي تعد الأصح وبخاصة أنه كان معاصراً للحدث، إضافة إلى إشارته إلى أنَّ السفارةالفاطمية كانت رداً على سفارة أرسلها طغتكين بقوله: **"ووصل إليه أمير الدولة كمشتكين والي بصرى من مصر بجواب الرسالة التي كان نفذ لأجلها، ومعه الأمير المنتضى ابن مسافر الغَنوىّ، رسول الأمر بأحكام الله صاحب مصر"**[٦]. ولكن لم يشير كل من ابن القلانسي والمقريزي إلى الهدف من هذه السفارة ، هل هو تنسيق الجهود المبذولة للوقوف في وجه التحركات العسكرية للصليبيين وبخاصة صليبيي بيت المقدس.

وما لبث أن عاد التنسيق بين دمشق ومصر في سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م إذ تم تبادل السفارات بين الطرفين، وأشار المقريزي إلى ذلك بقوله:**" وفيها جُهز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثّاب بن مسافر الغَنوىّ رسولاً في الرابع من ذي القعدة بجواب شمس الملوك، صاحب دمشق..."**[٧]. إلا أن هذه السفارة لم يرد ذكر لها في بقية المصادر العربية الإسلامية.

ويبدو أن العلاقات بين دمشق والدولة الفاطمية قد شهدت بعض التوتر خلال سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م، نتيجة هروب الوزير الأفضل رضوان بن ولخشي[٨] من مصر إلى صلخد، حيث استقبله واليها كمشتكين[٩]، وأقام في ضيافته، ثم اتجه إلى دمشق[١٠]، وتمكن من الحصول على

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٣٥.
[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٧.- ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٩٤.
[٣]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠٧.
[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٣٤٢. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١١٧.
[٥]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١١٧.
[٦]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٤٢.
[٧]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٦،١٤٧.
[٨]- هو الملك الأفضل أبو الفتح رضوان بن ولخشي، تولى منصب الوزارة في الدولة الفاطمية بعد انتصاره على الوزير السابق بهرام سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، ثم غضب عليه الخليفة الحافظ لدين الله، فهرب إلى بلاد الشام طالباً العون من أمرائها، فاستطاع حشد ألف فارس وتمكن العودة إلى مصر سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وحاول الاستيلاء على مقاليد الأمور فيها، ولكنه هزم وألقي القبض عليه، وفي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م قتل من قبل الخليفة الحافظ لدين الله .
- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٩، ١٦١، ١٨٣، ١٨٤
[٩]- أمين الدولة كمشتكين، يعد من كبار أمراء الدولة البورية، ولي قلعتي صلخد وبصرى منذ حكم الأتابك طغتكين، وامتد حكمه لهما إلى أن توفي سنة ٥٤١هـ /١١٤٦م .
- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٧٧٧. - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص ٢٧٦.
[١٠]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٢٣،٤٢٤.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٧١،١٧٢.
- ويورد أسامة بن منقذ بأن الأمير رضوان قد تلقى دعوة من الأتابك زنكي بالقدوم عليه، حيث كان يحاصر بعلبك، وهذا الأمر دفع الأمير معين الدين أنر لإرسال أسامة لاقناعه بالتوجه إلى دمشق، لما قد يترتب على انضمامه إلى زنكي من ضرر بدمشق.
- ابن منقذ، الاعتبار، تح: فليب حتي، ص ٣٠.

مساعدة عسكرية قدرت بألف فارس لاستخدامها في قتال خصومه داخل الدولة الفاطمية، إلا أنه هزم وتم إلقاء القبض عليه[١]. ولكن ما لبثت العلاقات أن عادت إلى طبيعتها في سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، إذ أرسل الخليفة الحافظ لدين الله رسولاً إلى الأتابك معين الدين أنر[٢]- المتحكم بأمور دمشق- ويقدم ابن القلانسي وصفاً لهذه السفارة بقوله:**"وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر، وصل رسول مصر إلى دمشق بما صحبه من تشريف وقود ومال برسم ظهير الدين ومعينه، على جاري الرسم في مثل ذلك"**[٣].

كما لم تقتصر العلاقات والمراسلات مع الدولة الفاطمية على أمراء دمشق، بل شملت حكام بعض المناطق الخاضعة لدمشق، ومن الأمثلة على ذلك ما يورده القلقشندي عن قيام مراسلات بين محمد بن بوري حاكم بعلبك والخليفة الحافظ لدين الله، والتي تمحورت حول قيام محمد بن بوري بالتوسط للأمير بزواج أن يرد على بلاط الخليفة[٤]؛ على إثر فساد أموره مع حاكم دمشق شهاب الدين محمود بن بوري سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م، ويقدم ابن القلانسي وصفاً لذلك بقوله:**" وفي يوم الأحد النصف من جمادى، نهض الأمير بزواج من دمشق في عسكره إلى ناحية الأفرنج، وقد فسد أمره مع شهاب الدين صاحب دمشق لعجرفة فيه وإقدام على استعمال الشر، ونودي عليه بفساد أمره، وظهور غدره ومكره، وكثرة جهله، وتناهيه في سوء فعله، وأقام بظاهر البلد مدة، وعاد أمره انصلح، ودخل البلد، وأقام فيه مستقيم الحال مُبلغاً غاية الآمال فعمل عليه شهاب الدين، وقتله بقلعة دمشق"**[٥]، كما تضمن الرد الذي أرسله الخليفة الحافظ لدين الله على مكاتبة محمود بن بوري ما يدل على العلاقات الطيبة بين الخلافة الفاطمية و بين هذا الأخير والأسرة البورية،**" وقد استقر بحضرة أمير المؤمنين مكانك من المشايعه، وموقعك من المخالصه؛ وكونك من ولاء الدولة على قضية كَسَبَتكَ شرفاً تفيَّأت ظلاله، وأفاضت عليك ملبساً جَررت أذياله، وسمت بك إلى محلٍّ لا يباهى من لغه ولا يطال من ناله؛ وكنت في ذلك سالكاً للمنهج القويم، ومعتمداً ما أهلُ بيتك عليه في القديم ..."**[٦].

وعلى الرغم من أن هذه العلاقات لم تثمر في الحفاظ على بقاء آخر ثغر بحري بيد العرب المسلمين، إلا أنها أثمرت في كسر الجمود الذي اتصفت به العلاقات بين حكام بلاد الشام والدولة الفاطمية عند قدوم الحملة الصليبية الأولى من جهة، كما أنها مهدت السبيل فيما بعد لتدخل الملك العادل نور الدين - حاكم الشام- في أمور الدولة الفاطمية والعمل على توحيد الجبهتين الشامية والمصرية لقتال الصليبيين.

---

[١]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٧٣.
[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٥٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٨٢.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٥٩.
[٤]- القلقشندي (أحمد)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٥م، ج٦، ص٤٥٠،٤٥١.
- حمادة(محمد ماهر)، الوثائق السّياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية- دراسة نصوص- مؤسسة الرسالة ، د.م.ن، ١٩٨٠م.
[٥]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤١٤،٤١٥.
[٦]- القلقشندي، صبح الاعشى، ج٦، ص ٤٥٠.

٢- التقارب بين الدولة الزنكية والدولة الفاطمية:

تمثل أول اتصال بين إمارة الزنكيين في حلب والدولة الفاطمية في سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م إذ شهدت هذه السنة قدوم سفارة فاطمية اجتمعت مع عماد الدين زنكي عند حمص[١]، وعلى الرغم من أن ابن القلانسي يورد ذكر لهذه السفارة إلا أنه لم يشير إلى أسباب قدومها، ولعل الهدف منها الوقوف على تحركات الإمبراطورية البيزنطية وغزوها لبلاد الشام في سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م .

وعلى الرغم من هذه السفارة لم تذكر المصادر التاريخية قيام علاقات سياسية بين الدولتين طوال حكم عماد الدين زنكي، واستمر ذلك إلى أن تولى حكم حلب نور الدين محمود بعد مقتل والده سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، وسرعان ما قام التعاون والتنسيق بينه وبين الوزير الفاطمي العادل علي بن السلار، ففي سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م سعى الصليبيون للسيطرة على مدينة عسقلان التابعة للدولة الفاطمية، فقاموا بإعادة تشييد قلعة غزة المدمرة، وشكل هذا خطراً كبيراً على عسقلان التي أصبحت محاصرة براً من الجهات جميعها. لذا سعى الوزير العادل علي بن السلار لمهاجمة غزة، لكنه أراد أن يبعد أنظار صليبيي بيت المقدس عن سعيه هذا، فسعى لإقناع نور الدين بمهاجمة مدينة طبرية، ولهذه الغاية أرسل أسامة بن منقذ إلى نور الدين محمود، إلا أن هذا الأخير اعتذر عن القيام بمهاجمة طبريةبانشغاله بمناوشة قوات دمشق، وخوفه من أن يصبح محاصراً من قوات دمشق والصليبيين في وقت واحد.

ولكن على ما يبدو لم يرغب نور الدين محمود بأن يؤدي اعتذاره عن مطلب العادل علي بن السلار إلى قطع العلاقة بينهما، لذلك سمح لأسامة بن منقذ بتجنيد من يرغب الذهاب إلى عسقلان لمحاربة الصليبيين، فتمكن من جمع ثمانمئة فارس، كما سير معه الأمير عين الدولة الياروقي في ثلاثين فارساً[٢]. ويبدو أن مساهمة نور الدين محمود بهذا العدد من فرسانه في هذه الحملة - بالرغم من قلة عددهم- كانت ذات دلالات معينة، فمن جهة هدف إلى الضغط عسكرياً على الصليبيين في مختلف الجبهات الشامية والمصرية، ومن جهة أخرى ربما هدف إلى الإطلاع على الأوضاع الداخلية للدولة الفاطمية.

ويبدو بأن القوة الصغيرة التي أرسلها نور الدين إلى عسقلان كانت مفتاحاً لتنسيق دائم بين الطرفين، ففي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م اتفق نور الدين محمود والوزير الفاطمي العادل علي بن السلار على محاربة الصليبيين، ونص الاتفاق على أن يهاجم الأسطول الفاطمي مدن الساحل الشامي الخاضعة للصليبيين (يافا- عكا- صيدا- بيروت- طرابلس)، بينما وعد نور الدين محمود بالمسير إلى الساحل للاجتماع بالأسطول الفاطمي، لكنه لم يستطع القيام بذلك نظراً لانشغاله بأمر السيطرة على دمشق والعمل على مضايقتها[٣]. وهكذا كان هجوم الأسطول الفاطمي في تلك السنة أول خطوة على طريق التنسيق العسكري بين الدولتين الزنكية والفاطمية، ولم يتوقف الأمر على هذه المناسبة، بل استمر التعاون والتنسيق بين نور الدين محمود والدولة الفاطمية في عهد الوزير الصالح طلائع بن رزيك، ففي ١٢ ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م قام نور الدين محمود بإرسال سفارة إلى مصر رداً على سفارة فاطمية[٤]، ويذكر ابن القلانسي ذلك بقوله:" **وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، توجه زين الحجاج كتب الله سلامته، إلى ناحية مصر رسولاً من المولى نور الدين، لإيصال**

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٤٢٠.
[٢]- ابن منقذ، الاعتبار، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج ١٢، ص ١٤٣-١٤٧.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٤٨٨.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٢.
[٤]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٥١٩.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣٠.

ما صحبه من المطالعات إلى صاحب الأمر فيها، وصحبته أيضاً الرسول الواصل منها"[(١)]، ولكن لم تذكر المصادر العربية الإسلامية الغاية التي أرسلت من أجلها السفارة الفاطمية إلى دمشق.

وبقيت سفارة نور الدين محمود في مصر لغاية شهر رمضان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، وربما مرد ذلك يعود إلى رغبة الصالح طلائع الوقوف على ما ستؤول إليه أحوال بلاد الشام على إثر مرض نور الدين محمود، وعند شفاء هذا الأخير سير الصالح طلائع السفارة إلى دمشق. وقدم ابن القلانسي وصفاً لعودة السفارة بقوله**:" في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر رمضان من السنة- ٥٥٣هـ - وصل الحاجب محمود المسترشدي من ناحية مصر بجواب ما تحمَّله من المراسلات من الملك الصالح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة الملكية النورية، وأنواع الأثواب المصرية والجياد العربية..."**[(٢)]، كما قدم المقريزي وصفاً للهدايا المرسلة من قبل الصالح طلائع بقوله**:" وجُهّز رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العَيْن ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج ..."**[(٣)].

ويمكن الاستنتاج من خلال قول كل من ابن القلانسي والمقريزي: إنَّ هدف سفارة نور الدين محمود تمثل في الحصول على الدعم المالي للوقوف في وجه الصليبيين، وبخاصة بعد الخراب والدمار الذي نتج عن الزلازل التي ضربت بلاد الشام سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

كما شهد شهر صفر سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م إرسال نور الدين محمود سفارة إلى مصر[(٤)]، وتمثل هدفها إعلام الصالح طلائع عن رغبة نور الدين بمهاجمة الإمارات الصليبية في الشمال، ومطالبته للصالح طلائع بالعمل على مناوشة صليبيي بيت المقدس لمنعهم من تقديم العون لباقي الصليبيين، وأثمرت هذه الاتصالات عن قيام الصالح طلائع بإرسال سرية لمهاجمة مدينة غزة[(٥)].

ولكن بعد مقتل الوزير الصالح طلائع في سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م انقطعت العلاقات بين الدولة الفاطمية ونور الدين محمود؛ نتيجة لانشغال أمراء مصر في الصراع على منصب الوزارة والتحكم بالخليفة، واستمر ذلك إلى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، عندما استطاع شاور بن مجير السّعدي الاستيلاء على الوزارة بعد قتل الناصر رزيك بن الصالح طلائع[(٦)]، وأخذ شاور بالتودد إلى نور الدين محمود ليكون خير عون له على من يريد منافسته على منصب الوزارة، ويذكر المقريزي ذلك بقوله**:" ثم إنَّ شاور جهّز الخلع إلى العادل نور الدّين بالشام، فلبسها يوم الاثنين ثاني عشري رمضان، وقبض المال المسَّير إليه"**[(٧)]، وبالفعل لم يمضِ على حكمه تسعة أشهر حتى دخل في صراع مع ضرغام والي الصعيد(ت٥٥٩هـ/١١٦٣م)، مما دفع شاور للهروب إلى دمشق الدين طلباً للعون من نور الدين محمود، وفي الوقت نفسه أرسل ضرغام إلى نور الدين يطلب منه القبض على شاور، إلا أن نور الدين فضل تقديم الدعم لشاور لاستعادة منصبه؛ نتيجة لما قدمه شاور من وعود بأن يكون ثلث دخل مصر لنور الدين، وأن يدخل إلى مصر مع شاور عدد من أمراء الشام، وأن يتصرف هو بأوامر نور الدين[(٨)]، ولكن نور الدين بقي متردداً في تقديم هذا العون كما يشير أبو شامة بقوله**:" يقدم في ذلك**

---

(١)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ ، ص٥١٩.
(٢)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٥٣٩.
(٣)- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣٤.
(٤)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٥٤٤.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٣٦.
(٥)- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣٦
(٦)- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٥٨،٢٥٩
(٧)- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٠.
(٨)- ابن الأثير ، الكامل ، ج٩، ص ٣٠٥.- أبو شامة ، الروضتين ، ج١، ق ٢، ص٣٣٢.- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٦١-٢٦٤.

رجلاً ويؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة في الملك و التقوّي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه..."[1]، كما كان يخشى غدر شاور وانقلابه عليه[2].

وعلى الرغم من ذلك يمكن القول: إنَّ العادل نور الدين محمود قبل تقديم الدعم لشاور، ولكن ليس حباً في السلطة، بل كان يدرك أن دعمه لشاور هو الخطوة الأولى على طريق توحيد بلاد الشام ومصر في محاربة الصليبيين، إضافة لإدراكه غنى مصر بالمال والرجال، التي يمكن تسخيرها في قتال الصليبيين.

وبالفعل قام نور الدين محمود بإرسال قوة عسكرية بقيادة الأمير شيركوه[3] صحبة شاور إلى مصر سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م واستطاع شاور بفضل هذا الدعم من استعادة منصبه، إلا أنه سرعان ما نكث بعهوده التي قطعها لنور الدين، وسعى لطرد شيركوه والقوات المرافقة له من مصر، ولكنه كان في حالة ضعف تمنعه من ذلك، مما دفعه للاستنجاد بملك بيت المقدس الصليبي وأخذ يخوفه من استيلاء نور الدين على مصر[4]، ويصف ذلك المقريزي بقوله: **" كتب إلى مُري- عموري- ملك الفرنج بالسَّاحل يستنجده ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر، ويقول له متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا، وضمن له مالاً وعلفاً، ويقال إنه جعل له عن كلّ مرحلة يسيرها ألف دينار، وسير إليه بذلك مع ظهير الدّين بدران. فسر الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر"**[5]، وعند ذلك قام الصليبيون بحشد قواتهم والزحف نحو مصر، وقاموا بمحاصرة القوات الشامية في مدينة بلبيس[6]،ورداً على ذلك هاجم نور الدين محمود معاقل الصليبيين في بلاد الشام، مما دفعهم للدخول في مفاوضات صلح مع شيركوه، نصت على انسحابهم من مصر مقابل عودة شيركوه إلى الشام وتسليم ما بيد القوات الشامية لشاور[7].

وعلى الرغم من عدم وفاء شاور بالعهود التي قطعها على نفسه لنور الدين محمود، إلا أن نور الدين محمود استفاد من دخول قواته إلى مصر دعماً لشاور من عدة نواحي:

١- قام قائده شيركوه بكسب ود الشعب في مصر إضافة لعدد من أمرائها، وحبب لهم الإنضمام إلى دولة نور الدين.

٢- أضحت مصر منطقة صراع بينه وبين صليبيي بيت المقدس.

٣- إطلع على ضعف الدولة الفاطمية واضطراب أحوالها، وعدم قدرتها على مواجهة الأطماع الصليبية للتوسع على حساب أراضي مصر، لذا بذل كل ما في وسعه لضمها، وإصلاح أحوالها، وتوحيد جهودها مع جهود بلاد الشام في الإطباق على الصليبيين.

---

(١)- أبو شامة، الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٣٣٢.

(٢)- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٦٥.

(٣)- الملك المنصور أسد الدين أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان بن أيوب، عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان من كبار أمراء دولة نور الدين محمود، تولى قيادة الحملات العسكرية التي أرسلها نور الدين محمود إلى مصر، اشتهر شيركوه بقتاله للصليبيين، توفي في مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٧٩، ٤٨٠. - الذهبي، تاريخ الإسلام،ج١٢، ص٣١٩.

(٤)- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٦.- أبو شامة، الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٢١. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٦٤،٢٦٥.

(٥)- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٦.

(٦)- بلبيس تقع إلى الشرق من القاهرة، تحدث ياقوت الحموي عنها قائلاً :" **بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام"**. - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج١، ص ٤٧٩.

(٧)- ابن الأثير،الكامل، ج٩، ص ٣٠٦.- أبو شامة، الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٢٣٦. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٧.

ويبدو أن عودة أسد الدين شيركوه إلى بلاد الشام لم ينسه مصر حيث بقي هواه متعلقاً بها، وبخاصة بعد اضطلاعه على ضعفها واضطراب أمرها، لذا كان يلح على نور الدين محمود للعودة إليها، ويصف ابن الأثير ذلك بقوله:**"وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها، ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير"**[١]، ويبدو أنه أراد الانتقام من شاور لغدره به، فضلاً عن أن النبوءة التي تتحدث عن توليه مصر أخذت تداعبه[٢]. ونتيجة لإلحاحه بالمسير إلى مصر، وافق نور الدين على ذلك سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، فقام شاور بمكاتبة الملك عموري الأول يعلمه بمسير شيركوه إلى مصر، ويطلب العون من صليبيي بيت المقدس[٣]، فلبوا دعوته **" فأتوه على الصعب، والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدين، فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه، ومع نور الدين..."**[٤]، إلا أن هذه الحملة كان لها نتائج سلبية على مجاهدة الصليبيين، فقد أدت لارتماء شاور في أحضان الصليبيين، بل وصل الأمر به لتسليم مفاتيح القاهرة لهم، وأشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله:**" استقر بينهم وبين المصريين، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، تكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة، مائة ألف دينار..."**[٥].

وبالرغم من هذه الحملة فقد استمرت المراسلات بين نور الدين محمود ورجال الدولة الفاطمية، ومنها قيام الخليفة العاضد بالله بمكاتبة نور الدين محمودطلباً للنجدة عند مهاجمة الملك عموري لمصر سنة٥٦٤هـ/١١٦٨م، فسارع نور الدين لتسيير قواته بقيادة شيركوه، فما إن أصبح على مقربة من القاهرة حتى اضطر الصليبيون للرحيل،وتكريماً لجهود شيركوه قام الخليفة العاضد بالله بمنحه منصب الوزارة[٦]. و أدى هذا لتمهيد الطريق أمام جعل مصر إحدى الولايات التابعة لنور الدين، وبالتالي إتمام فرض الحصار على الصليبيين.

ولم تقتصر وجوه التعاون بين العرب المسلمين على اختلاف مذاهبهم في قتال الصليبيين عند هذا التعاون بل حملت كتب التاريخ في طياتها العديد على الأمثلة الأخرى، ومنها: ما يذكره ابن القلانسي في أحداث سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م عن قيام الملك بلدوين الثاني بمهاجمة أعمال دمشق، ورد الأتابك طغتكين على ذلك بحشد قواته لقتال الصليبيين، والتحق بقواته العديد **"من أحداث دمشق والشباب الأغرار، ورجال الغوطة والمرج والأطراف، وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها..."**[٧].

ومن الأمثلة أيضاً، مساهمة أتباع المذهب الإسلامي الإسماعيلي في قتال الصليبيين عند محاولتهم الاستيلاء على شيزر سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م مستغلين مرض نور الدين محمود، ويصف ابن القلانسي ذلك بقوله:**" وتواصلت عقيب هذا الحال الأراجيف بالملك نور الدين، فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الأفرنج، فقصدوا مدينة**

---

[١]- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢٧.

[٢]- يورد المقريزي تلك النبوءة بقوله:**"... وركب شيركوه إلى مصر ورآها، وقصد الفقهاء مثل الكيزاني وابن حطيه، واجتمع بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق وأخبره كما أخبر ابن نجا أنّه يملك الدّيار المصرية ويزيل هذه الدولة، لكنّه لا يملكها إلاّ بعد أن يرجع إلى الشّام ويأتيها ثانياً، ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرة وحينئذ يملكها"**. - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٧٢،٢٧٣.

[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢٧.- أبو شامة، الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٤.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢٧.

[٥]- ابن الأثير، الكامل ، ج٩، ص٣٢٩.

[٦]- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٩٣-٢٩٩، ٣٠٢.

[٧]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٣٣٩.

شيزر، وهجموها وحصلوا فيها فقتلوا واسروا، وانتهبوا، وتجمع من عدة جهات خلق كثير من رجال الإسماعيلية وغيرهم، فاستظهروا عليهم، وقتلوا منهم، وأخرجوهم من شيزر"(١).

سابعاً- تأثر الصليبيين بالمجتمع الشرقي من الناحية الاجتماعية:

تعرضت بلاد الشام خلال مختلف العصور التاريخية لعدة غزوات، وخضعت في بعض تلك العصور لحكم عناصر غريبة عن نسيجها الاجتماعي، إلا أن تلك العناصر مثلت سلطة حاكمة لم يكن لها تأثير كبير على العادات الاجتماعية السائدة، بل على العكس من ذلك فقد تأثرت تلك العناصر بالنمط الاجتماعي السائد في بلاد الشام؛ بمعنى أن بلاد الشام بما لها من حضارة عريقة تمكنت من استيعاب كل العناصر الغريبة التي قدمت إليها، ومن تلك العناصر الصليبيون الذين قدموا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

فعلى الرغم من سعي الجموع الصليبية التمسك بالعادات والتقاليد التي اعتادت عليها في الغرب الأوربي، إلا أنهم ما لبثوا أن تأثروا بالمجتمع المحلي مع تعاقب العقود، وبخاصة عن طريق اختلاطهم بالكثير من السكان العرب - المسلمين والمسيحيين- ، الذين أصروا على التمسك والبقاء بأراضيهم على الرغم من خضوعها للسيطرة الصليبية، كما أن مظاهر الترف والبذخ التي شهدها الصليبيون خلال استيلائهم على مدن الساحل الشامي قد لعبت دوراً في تليين طبائعهم، فضلاً أن العوامل المناخية السائدة في بلاد الشام دفعت القادمين من أوربا إلى مخالفة ما كان مألوفاً لهم في العادات والملابس والأطعمة والطباع التي اعتادوا عليها في أوطانهم الأصلية، والتي لم تعد صالحة في حياة الشرق، لذا كان لابد لهم من أن ينتهجوا أساليب سكان بلاد الشام(٢).

فأخذ الصليبيون بعادات وتقاليد السكان الأصليين- سواء من المسيحيين أو المسلمين- الذين يقيمون في مراكز استيطان الصليبيين أو بالقرب منها . إذ كان لابد من حدوث احتكاك وقيام علاقات اجتماعية بين الطرفين(٣)، وقدم فولتشر أوف تشارترز صورة عن مدى تأثر الصليبيون الذين استقروا في بلاد الشام بنمط الحياة فيها، بقوله:**" إن الذين كانوا غربيين باتوا الآن شرقيين، والذي كان رومياً أو فرنجياً قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني، ومن قدم من الرايم أو تشارترز صار الآن من أهالي صور أو أنطاكية ولقد نسينا الآن أماكن ولادتنا..."**(٤)، وقوله أيضاً:**"ويمتلك بعضنا الآن البيوت والمساكن بالميراث، كما اتخذ بعضنا زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السريانيات والأرمنيات، بل وحتى من نساء السراسنة اللواتي حظين ببركة العماد،... وينضم إلينا بين آونه وأخرى أقرباؤنا وآباؤنا وذوونا، مضحين بكل ما ملكت أيديهم فيما مضى، وقد جعل الرب الذين كانوا فقراء في الغرب أثرياء في هذه الديار، والذين كان لديهم قليل من المال امتلكوا الآن هنا ما لا يحصى من القطع الذهبية، ومن لم تكن لديهم دار امتلكوا بنعمة الرب مدينة، فلماذا إذن يرجع إلى الغرب من وجد الشرق هكذا؟"**(٥).

---

(١)- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص ٥٣٤.
(٢)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٦٦.
(٣)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٤،٣٧٥.
(٤)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص٥٠٦.
(٥)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة،" من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٥٠٧.

بذلك ترك العديد من الصليبيين عاداتهم وتقاليدهم الأوربية، وأخذوا يقلدون مجتمع بلاد الشام في عاداته وتقاليده، ففي مجال الغذاء اقتبس الصليبيون العديد من الأطعمة الشرقية،ومن بينها الامتناع عن أكل لحم الخنزير [١]، وخير دليل على ذلك ما أورده أسامة بن منقذ عند وصفه زيارة أحد أصحابه إلى مدينة أنطاكية، والذي قام خلال ذلك بزيارة أحد الأمراء الصليبيين الذي صرح له بأنه لا يأكل من طعام الصليبيين، ولا يتناول لحم الخنزير مطلقاً؛ بل لديه خادمات مصريات يعدون له الطعام وفق التقاليد الشرقية[٢].

كما اهتم الصليبيون بتقليد ملابس السكان العرب، فأقبلوا على شراء الملابس الثمينة ذات الطابع العربي، والتي تمتاز بأنها فضفاضة، زاهية الألوان موشاة بالحرائر والتطريزات[٣]، كما كان الفارس الصليبي يرتدي برنساً[٤] من الحرير ويضع العمامة على رأسه في أوقات السلم، أما في وقت الحرب يرتدي فوق درعه سترة من الكتان للوقاية من حرارة الشمس، ويجعل على خوذته كوفيه مثل تلك التي يضعها الفارس المسلم على رأسه، وأقبلت المرأة الصليبية على مظاهر الترف وقلدت المرأة الشرقية، فارتدت الملابس الشرقية التي تألفت من ثوب داخلي طويل، وسترة قصيرة أو رداء بكمين وكلها موشاة بخيوط الذهب وأحياناً بالمجوهرات، وأخذت تضع الحجاب على وجهها فقط من أجل وقاية وجوهها، وترتدي لزينتها المجوهرات الدمشقية والقاهرية، ومواد التطرية من الخضاب والمساحيق[٥].

وعاش الصليبيون في الشرق حياة أقرب إلى الرفاهية على الرغم من استمرار الحروب بينهم وبين العرب المسلمين، فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصورهم الطراز العربي المتلائم مع ظروف البلاد، فسكنوا البنايات ذات الأفنية الفسيحة، والتي تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها البحرة، واتخذوا من الأثاث ما يتفق مع الروح الشرقية العربية، من الأوعية النحاسية والآنية الزجاجية والخزفية، والشموع[٦].

كما أقبلوا على ارتياد الحمامات التي كانت تنتشر بكثرة في المدن التي خضعت لسيطرتهم، فقصدوها طلباً للراحة فضلاً عن الفائدة الأولى منها ألا وهي النظافة، وكان يجري في الحمام حلاقة شعر الرأس وإزالة الشعر الزائد من الجسم[٧]. كما حذا الأمراء الصليبيون حذو الأمراء الشرقيين في ممارسة الصيد، فيقضون فيه أوقات فراغهم بعد طول القتال في ساحات الحرب، وكان كلا الطرفين يتبادلون رخص الصيد في الأراضي المجاورة لكل منهم[٨].

---

[١]- هونكه (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب"أثر الحضارة العربية في أوربة، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، مراجعة:مارون عيسى الخوري، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة ، بيروت،١٩٩٣م، ص٤١١.
- النقاش(زكي)، العلاقات الاجتماعيَّة والثقافيَّة والاقتصاديَّة بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ١٩٥٨م، ص١٤٨.

[٢]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج ١٢، ص٢٤٦.

[٣]- النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص١٤٧.

[٤]- البرنس: يقول الفراهيدي: " **البُرْنُس: كل ثوب رأسه منه مُلتزق به** ..."، أي هي عبارة عن معطف ضخم له قلنسوة، ولا يزال العديد من سكان المغرب العربي يرتدوه حتى الأن.
- الفراهيدي، كتاب العين، ج٧، ص ٣٤٣.
- إبراهيم (رجب عبد الجواد)، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م ، ص ٦٢.

[٥]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص ٣٦٥،٣٦٦.- النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص١٤٧.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٥، ٣٧٦.

[٦]- النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص ١٤٦، ١٤٧.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٥.

[٧]- النقاش ،العلاقات الاجتماعية، ص١٥٠.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٧.

[٨]- رانسيمان، تاريخ الحملات ، ج٢، ص ٣٦٧.- النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص١٤٨، ١٤٩.

فضلاً عن ذلك قامت علاقات صداقة وود بين عدد من الأمراء العرب المسلمين والصليبيين، وخير مثال على ذلك الأمير أسامة بن منقذ الذي كانت تربطه صداقة مع فرسان الداوية، وعبر عن ذلك بقوله:"**... كنت إذا زرت البيت المقدس، دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية، وهم أصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه...**"(١). كما لم تخلُ قصور الصليبيين من تواجد العرب(٢).

كما قام الصليبيون وبخاصة العامة منهم بالاختلاط بالسكان العرب وبخاصة المسيحيين منهم إضافة للأرمن، وأدى ذلك للتزاوج مع تلك العناصر(٣)، مما أدى إلى ظهور جيل جديد تأثر بالعادات والتقاليد الشرقية وأطلق عليه تسمية البولاني (Pullani)(٤)، إلا أن بعض المؤرخين المعاصرين ومنهم هانس ماير يروا بأن البولاني كانوا على الأقل الجيل الثاني من الصليبيين الذين أقاموا بصفة دائمة في بلاد الشام، ولم يكونوا على الإطلاق من دماء مختلطة(٥).

وقد اتهم المؤرخ الصليبي الفيتري أفراد هذه الطبقة أنهم ابتعدوا عن الغريزة القتالية للصليبيين، والتفتوا لحياة البذخ والرفاهية، وأنهم سبب الهزائم التي لحقت بالصليبيين على أيدي العرب المسلمين(٦)، ويبدو أن هذا الوصف يمثل وجهة نظر القادمين الجدد من أوربا، الذين صدمتهم حياة البذخ والرفاهية التي يعيشها أخوانهم الصليبيون، بعكس الحياة السائدة في أوربا الغربية التي يسودها التقشف(٧)، كما أخذوا على الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام مخالطتهم للعرب المسلمين بخاصة وللشرقيين بشكل عام، ويؤكد ذلك أسامة بن منقذ بقوله:"**كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين**"(٨).

وفضلاً عن ذلك فقد وجدت أساليب وثقافة الشرقيين طريقاً للتسرب لحياة الصليبيين عن طريق المربيّات المحليات اللاتي اتخذهم الأمراء والقادة الصليبيون لتربية أولادهم(٩).

وبذلك شكلت العلاقات الاجتماعية التي ربطت بعض الصليبيين بالشرقيين عامة والعرب المسلمين خاصةمنفذاً ووسيلة لانتقال عادات الشرق وآدابه إلى أوربا، كما أنها لعبت دوراً كبيراً في تليين طباع الغزاة التي اتسمت غالباً بالقسوة والوحشية وحولتهم إلى أناس يرغبون في بناء حضارة.

---

(١)- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص٢٤٢.

(٢)- الربيعي، أثر الحروب، ص ٤٣.

(٣)- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة ، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص ٥٠٧- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٨٠.

(٤)- فسر يعقوب الفيتري هذه التسمية بقوله:" **البولانية اسم أطلق على أولئك الذين ولدوا في الأراضي المقدسة بعد تحريرها، ولكنهم أيضاً وافدون جدد مثل الأفراخ،...أو لأن القسم الأكبر من أمهاتهم كن من الشعب الأبولي ... لأن الناس الذين قدموا إلى الأرض المقدسة ، لم يجلبوا إلا عدد قليلاً من النساء ، بالمقارنة مع عدد الرجال في جيش الأمراء الغربيين ، وهؤلاء الذين مكثوا في الأرض المقدسة دعوا النساء من مملكة أبوليا ، وتزوجوا منهن...**".
- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٩٧.

(٥)- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢١٨.

(٦)- الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ٩٨. - عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٢٤.

(٧)- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص٣٦٤.

(٨)- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج ١٢، ص ٢٤٢.

(٩)- رانسيمان، تاريخ الحملات ،ج٢، ص ٣٦٦.

ثامناً- تأثر الصليبيين بالمجتمع الشرقي من الناحية الفكرية:

لم تكن الحروب الصليبية مجرد صراع عسكري بين المجتمع الشرقي والصليبيين القادمين من أوربا، بل كانت صراعاً فكرياً بين الحضارة العربية الإسلامية ومفاهيم وأفكار الصليبيين أيضاً، إذ تمكن الصليبيون في أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من تحقيق الغلبة العسكرية، والتوسع في العديد من مناطق بلاد الشام، إلا أنهم تعرضوا خلال تواجدهم في الشرق للعديد من الهزائم من الناحية الفكرية.

فسرعان ما تأثر الصليبيون الذين استقروا في بلاد الشام بالثقافة المشرقية بمختلف منابعها، فتعلم بعضهم وبخاصة أبناء طبقة النبلاء اللغة العربية، إما نتيجة للعلاقات الودية التي قامت بين الأسر الإقطاعية الصليبية ومثيلاتها في الإمارات العربية الإسلامية المجاورة، أو نتيجة لوقوع العديد من الصليبيين في الأسر لدى العرب المسلمين، وخير مثال على ذلك ريموند الثالث كونت طرابلس الذي تعلم اللغة العربية، ومعارف العرب والمسلمين خلال وجوده أسيراً لدى الملك العادل نور الدين محمود بين ٥٦٠- ٥٦٨هـ/١١٦٤-١١٧٢م[١].

كما أن اضطرار الصليبيين التعامل مع التجار القادمين من الإمارات العربية الإسلامية لتصدير بضائعهم عبر موانئ الساحل الشامي، دفعهم لتعيين عدد من السكان العرب موظفي في الموانئ و في الخانات، ليكونوا وسطاء بين التجار العرب المسلمين والصليبيين، وقد أشار إلى ذلك الرحالة ابن جبير بقوله:" **وحملنا إلى الديوان، وهو خان مُعد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النصارى(المسيحيين) ... وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها...**"[٢]، وعن طريق هؤلاء الموظفين والتجار العرب المسلمين، اقتبس التجار الأوربيون القادمون إلى موانئ الساحل الشامي فضلاً عن الصليبيين العديد من الكلمات والمصطلحات العربية الفصحى والعامية، وأخذوا يستعملونها في لغاتهم، مثل كلمة "شراب" لتصبح في الفرنسية Sirop، وفي الإنكليزية Syrup، وفي الإيطالية Sciroppo ، وكلمة "سكر" في الإنكليزية Sugar، وفي الإسبانية Azúcar، وفي الفرنسية sucre، وكلمة"جرة" لتصبح في الفرنسية Jarre، وفي الإيطالية Giara ، وفي الإنكليزية Jar، وغيرها من الأمثلة التي لا يتسع المجال لذكرها[٣].

كما تركت الحروب الصليبية أثرها في شعر التروبادور[٤](Trapador) الأوربي، فقد اشترك في تلك الحروب العديد من شعراء التروبادور، وفي مقدمتهم وليم العاشر دوق مقاطعة اكيتاين في جنوب فرنسا(٤٧٤-٥٢١هـ/١٠٧١-١١٢٧م)، وأتيح لؤلئك الشعراء التعرف على الزجل الشامي الذي كان سائداً بين السكان العرب، واقتبسوا من الشعر العربي القافية الشعرية لكل بيت[٥].

---

[١]- الرّبيعي(عبد الله بن عبد الرحمن)، أثر الشرق في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، د.د.ن، الرياض،١٩٩٤م، ص٥٢.

[٢]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٥.

[٣]- عوض، العلاقات، ص ٣٦٥.- الرّبيعي، أثر الشرق، ص٥٤-٥٦.

[٤]- ظهر هذا النوع من الشعر في شمال إسبانيا وإقليم البروفانس جنوب فرنسا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ثم انتشر في بقية أنحاء غرب أوربا، اختلف العلماء حول أصل التسمية التي حملها هذا الشعر ، فالبعض يرى أنها مقتبسة من العبارة العربية دور الطرب والتي قلبت في أوربا إلى "طرب دور"، والبعض الآخر يرى أنها كلمة بروفانسية مشتقة من الفعل تروبار بمعنى يبحث ويبدع .
- الرّبيعي، أثر الشرق، ص ٦٠، ٦١.

[٥]- عوض، العلاقات، ص٣٦٥،٣٦٦.- الرّبيعي، أثر الشرق، ص٥٧-٥٩.

أما فيما يتعلق بفن كتابة التاريخ، فخلال زحف الحشود الصليبية ظهر عدد من الأشخاص وجلهم من رجال الدين، الذين قاموا بتدوين مذكراتهم ومشاهداتهم لأحداث المعارك، وعلى الرغم من أن بعض تلك الكتابات قد جمعت بين الواقع والخيال والمبالغات، إلا أنها ضمت العديد من المعلومات التي افتقدتها المصادر العربية الإسلامية [١]، ومن أهم تلك الكتب:

١- " أعمال الفرنجة " للمؤرخ المجهول الذي أوقف جل مواده على أعمال بوهيموند وتانكرد.

٢-" تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس" لريمون دي جيل راهب نوتردام الذي رافق الكونت ريموند، والذي اتصف بالتعصب الديني، وعدم التسامح مع الخصوم فقد سوغ أبشع الأعمال التي اقترفها الصليبيون.

٣- " تاريخ الحملة إلى القدس " لفولتشر أوف تشارترز، الذي أرخ ووثق أخبار الحملة الصليبية الأولى كما عد مؤرخاً لأعمال الملك بلدوين الأول، و"تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس" لبطرس توديبو، الذي أرخ أحداث الحملة الصليبية الأولى.

كما عاصرهم في أوربا الغربية آلبرت فون آخن الذي أرخ للحملة الصليبية الأولى والاستيلاء على بيت المقدس، وذلك في كتابه " الحملة المسيحية لأخذ وتطهير واسترداد مدينة بيت المقدس"، وقد اعتمد في كتابته على المعلومات التي استقاها وسمعها من الأشخاص الذين اشتركوا في أحداث الحملة الصليبية الأولى، وذلك عند عودتهم إلى أوطانهم في أوربا، وبذلك أفرزت الحملة الصليبية الأولى نتاجاً أدبياً ضخماً إحتوى على معلومات وافرة عن العلاقات بين الصليبيين والعرب المسلمين من جهة، وبين الصليبيين أنفسهم من جهة أخرى، كما مهدت هذه الكتابات لظهور حركة تدوين التاريخ في كل من المناطق الخاضعة للصليبيين في الشرق وأوربا على نحو لم يسبق له مثيل.

إلا أن الكتابة التاريخية لدى الصليبيين لم تشهد تقدماً ملحوظاً إلا على يدِ المؤرخ وليم الصوري، الذي أتيح له فرصة الإطلاع على المكتبة الملكية التي كانت تحتوي العديد من الكتب المدونة باللغة العربية[٢]، ومن بينها المكتبة الخاصة بأسامة بن منقذ التي استولى عليها الملك بلدوين الثالث أثناء نقلها من دمياط إلى عكا، والتي احتوت على أربعة آلاف مجلد[٣]، ولا ريب بأن هذه الكتب أمدت وليم بتصور عن أسلوب الكتابة التاريخية لدى العرب المسلمين، واستفاد منها في تطوير أسلوب الكتابة التاريخية لدى الصليبيين والأوربيين.

ومما مهد الطريق أمام وليم لتطوير أسلوب الكتابة التاريخية أيضاً، اهتمام الملك عموري الأول بالتاريخ واقتناء الكتب فضلاً عن سعيه لتخليد أعماله[٤]، لذلك كلف وليم بتأليف كتاب يؤرخ لحملاته على مصر، اسماه وليم"أعمال الملك عموري" واعتمد في ذكر أحداثه على روايات القادة والجنود الذين رافقوا الملك في حملاته، كذلك آلف كتاباً آخر أسماه "أعمال الأمراء الشرقيين" بتكليف من الملك عموري الأول، الذي رغب في معرفة أخبار الحكام العرب المسلمين.

---

[١]- الرّبيعي، أثر الشرق، ص٦١.
[٢]- الرّبيعي، أثر الشرق، ص٩٠.
[٣]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص١٦٤.
[٤]- ماير، تاريخ الحروب، ص١٦٧.

كما آلف وليم كتاباً آخر أسماه" أعمال ملوك بيت المقدس" أكمل فيه ما كتبه المؤرخون الصليبيون السابقون بدء من أحداث سنة٥٢١هـ /١١٢٧م، ثم قام في سنة ٥٨٧هـ/١١٨٢م بدمج كتاباه " أعمال الملك عموري" و " أعمال ملوك بيت المقدس" في مؤلف واحد بعنوان "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"[١].

كما تركت الحروب الصليبية أثرها على المعرفة الجغرافية للأوربيين عن الشرق وبلاد الشام، فقد ضمت حشود المشاركين في الحملات الصليبية ورحلات الحج، عدداً من الرحالة الذين قدموا إلى بلاد الشام، فعملوا على تدوين مشاهداتهم للمدن والقرى والمواقع الدينية، وعد الكثير من تلك الكتابات عبارة عن كتيب سياحي يقدم إرشاداً لمن أراد الحج إلى الأراضي المقدسة، وأدت هذه الكتابات والرحلات إلى اتساع معرفة أوربا بجغرافية الشرق بصورة غير مسبوقة[٢]، ولم تكن تلك الرحلات قاصرة على المعارف الجغرافية، بل احتوت على العديد من الصور عن المجتمعات التي قابلها الصليبيون[٣]، ومن الأمثلة على الرحالة الأوربيين خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي : سيولف الإنجلو سكسوني، الراهب الروسي دانيال، الرحالة الألماني ثيودريش، والرحالة فيتيلوس.

أما بالنسبة لعلم الطب، فعند قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام ظهرت لديهم الحاجة للاهتمام به؛ لعلاج العديد من الأمراض التي عانى منها الصليبيون خلال زحفهم، فضلاً عن محاولتهم الحفاظ على العنصر البشري المقاتل الذي يتعرض للنقص المتواصل نتيجة المعارك مع العرب المسلمين، إلا أن الطب الذي كان سائداً في أوربا الغربية والذي انتقل مع الصليبيين إلى الشرق، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة التي نظرت إلى المرض على أنه عقاب إلهي من جراء الذنوب والآثام التي اقترفها الناس، كما أن الأطباء تعرضوا للمهاجمة من قبل رجال الكنيسة، إذ عدوا وظيفة الأطباء تؤدي إلى إلحاق الآلام بالمرضى أكثر من تخفيف حدتها[٤].

ولكن بالرغم من ذلك ظهر في صفوف الصليبيين العديد من الأطباء، إلا أن معالجتهم لبعض الحالات المرضية بطريقة خاطئة انتهت بموت المرضى، وقد أورد أسامة بن منقذ العديد من الأمثلة عن ذلك[٥]، ومنها قوله:**" ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كيسام دبور صاحب طبرية... فحدثنا في الطريق، قال:كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا قلنا تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلانا؟ قال: نعم، ومشى معنا، ... فلما رأه قال: أعطوني شمعا، فأحضرنا له قليل من الشمع، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات، قال: نعم كان يتعذب سدت أنفه حتى يموت ويستريح"**[٦]، ولكن بالرغم من ذلك فإن أسامة بن منقذ يشير أيضاً لتمكن بعض الأطباء الصليبيين من معالجة بعض الحالات المرضية التي وصفت بأنها مستعصية[٧].

وهكذا فإن الطب العربي بقي متفوقاً بأشواط كبيرة على الطب المتداول لدى الصليبيين وسكان أوربا الغربية، وهذا ما دفع الحكام والأمراء الصليبيين، وبخاصة ملوك بيت المقدس للاستعانة بالأطباء العرب، وخير مثال على ذلك استقدام الملك عموري الأول طبيباً من مصر هو داود بن أبي

---

[١]- الرّبيعي، أثر الشرق، ص٩١،٩٢.
[٢]- عمران(محمود سعيد)، تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية ، مصر، ٢٠٠٠م، ص٣٤٧،- عوض، العلاقات، ص٣٦٩-٣٧٢.
[٣]- عوض، العلاقات، ص ٢٧٢.
[٤]- عوض، العلاقات، ص ٢٧٢،٢٧٣.
[٥]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص٢٤٠،٢٤٤.
[٦]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص ٢٤٤.
[٧]- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص ٢٤١.

المنى[١] لمعالجة ابنه بلدوين الرابع المصاب بمرض الجذام[٢]، كما اتخذ كونت طرابلس ريموند الثالث طبيباً عربياً يحمل اسم براق[٣]، وكذلك طلب حاكم حصن المنيطرة من حكام شيزر إرسال طبيب لمعالجة بعض الأشخاص المرضى[٤]، وأثار ذلك سخط وانتقاد رجال الكنيسة، ومن أبرزهم وليم الصوري الذي عبر عن سخطه على هذا الأمر بقوله:" **أمراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون بسبب نفوذ نسائهم، أدوية ومعالجات أطبائنا اللاتينيين، ولا يصدقون سوى الأطباء اليهود والسامريين والسريان والمسلمين، فلقد وضعوا أنفسهم بطريقة طائشة للغاية تحت عناية أطباء كهؤلاء، وعهدوا لأناس جاهلين بعلم الطب**"[٥].ويبدو أن هذا السخط قد نبع من نظرة التعالي والتعصب الديني التي كانت سائدة لدى الكثير من الصليبيين الذين عدوا الشرقيين بمختلف انتمائهم الديني والعرقي عبارة عن أناس مارقين وثنيين، لا يجب الاختلاط معهم.

كما توافد العديد من طلاب العلم في أوربا إلى بلاد الشام؛ بهدف الاستفادة من التطور الكبير التي شهدته العلوم على أيدي العرب المسلمين، ومنهم أدلارد أوف باث، الذي قام بزيارة كل من مصر، وبيت المقدس، وأنطاكية سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م للاستفادة من علماء العرب المسلمين في مجال الفلك والرياضيات، وقد عد نفسه أحد تلامذة العرب[٦]، وكانت مدينة طرابلس قبلة لطلاب العلم الأوربيين، إذ ضمت العديد من المدارس التي تولى التدريس فيها العديد من الأساتذة العرب والشرقيين[٧]وفضلاً عن طلاب العلم رافق الحملات الصليبية عدد من الأطباء الأوربيين[٨]، ولابد أن هذه الحروب أتاحت لهم فرصة الإطلاع على المعارف الطبية في الشرق والعمل على نقلها إلى أوطانهم.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تم في الكيانات الصليبية ترجمة بعض الكتب العلمية العربية الإسلامية إلى اللغات الأوربية، ومنها كتاب " كامل الصناعة الطبية " للمؤلف علي بن عباس المجوسي (ت٣٢٦هـ/٩٩٤م)، الذي وصفه ابن أبي أصيبعة(ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) بقوله:" **هو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها**"[٩]، وقد تم ترجمة هذا الكتاب من قبل ستيفن الأنطاكي[١٠] Stephenus Antionchenus في مدينة أنطاكية سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، وعرفت ترجمة هذا الكتاب في أوربا بعنوان:((Practica panteg et stephononis))، وتم تقسيم هذا الكتاب في الترجمة اللاتينية إلى قسمين، القسم النظري ويسمى Theorica، والقسم العملي ويسمى Practic،وهذا القسم أكثر شيوعاً من القسم النظري؛ لأنه يحتوي طرق العلاج وأساليبها

---

(١)- أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانة، من أصول مقدسية، نشأ في مصر، وعند زحف الملك عموري الأول بقواته إلى مصر، التقى به و" أعجبه طبه فطلبه من الخليفة بها- مصر- ونقله هو وأولاده الخمسة إلى بيت المقدس" .
- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم)، عُيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٥٨٧.

(٢)- الرّبيعي، أثر الشرق، ص١٢١.

(٣)- عمران (محمود سعيد)، سلامة (ابراهيم خميس ابراهيم)، حسين (حسن عبد الوهاب)، دراسات في حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢م، ص ٣٧٨.

(٤)- ابن منقذ، الاعتبار، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج١٢، ص٢٤٠.

(٥)- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٧، ص٢٤٨.

(٦)- الرّبيعي، أثر الشرق، ص ١٠٠، ١٠١.
- العبيدي (عبد العزيز بن راشد)، التأثيرات الحضارية الإسلامية على الغرب الأوربي خلال الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب ، جامعة إفريقيا العالمية، العدد ٣، ٢٠١٢م، ص١٥.

(٧)- النقاش (زكي)، الحروب الصليبية وما نتج عنها من علاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية بين العرب والإفرنج، د.ن، ١٩٤٦م، ص١٣٨.

(٨)- الرّبيعي، اثر الشرق، ص١٠١،١٢٣.

(٩)- ابن أبي أصيبعة، عُيون الأنباء، ص٣١٩.

(١٠)- تعود أصول ستيفن إلى مدينة بيزا الإيطالية. - العبيدي، التأثيرات الحضارية، ص ١٦.

المختلفة وفقاً لطبيعة كل مرض، وقد اتصف ستيفن الانطاكي بالأمانة العلمية، فلم ينسب الكتاب لنفسه بل ذكر في ترجمته اسم المؤلف الأصلي، وفضلاً عن ستيفن وجد مترجم أخر هو برنارد سلفستر Bernard Silvester الذي عمل على الترجمة من العربية إلى اللاتينية وعاصر عهد الملك عموري الأول[١].

ومن الطرق الأخرى لنقل العلوم والمعارف العربية والشرقية إلى الصليبيين، هي المكتبات التي كانت تزخر بها المدن العربية، وقلّ أن خلت مدن ساحل بلاد الشام من المكتبات العامة أو الخاصة، وعلى الرغم من تعرضها للتخريب والتدمير من قبل الصليبيين، إلا أن الحشود الصليبية قد احتوت على بعض المهتمين بالعلم والذين سعوا للحصول على ما احتوت عليه تلك المكتبات، ومن أهم تلك المكتبات التي ربما قد استفاد منها الصليبيون مكتبة دار العلم في مدينة طرابلس، التي شيدت من قبل جلال الملك ابن عمار سنة٤٧٢هـ/١٠٨٠م، و تعرضت هذه المكتبة للنهب والتخريب على أيدي الصليبيين[٢]، ويؤكد ابن الأثير ذلك بقول:**"... وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى..."**[٣].

وهكذا فإن هذه اللمحة السريعة عن مدى تأثير بلاد الشام والشرق على الصليبيين ومن خلفهم الحضارة الأوربية، تنفي ما ذهب إليه بعض المؤرخين الحديثين من القول: بأن الصليبيين قدموا إلى الشرق بصفة غزاة، مما جعل نمط حياتهم يتصف بالاستنفار العسكري، وهذا الأمر لم يتح لهم الاهتمام بالإطلاع على العلوم والمعارف التي شهدت تطوراً كبيراً لدى العرب المسلمين، وبأن أثر الفكر الشرقي اقتصر فقط على المهتمين بالعلم من الصليبيين الذين أتيح لهم التعرف على منجزات الحضارة العربية الإسلامية،فضلاً عن محاولة بعض المؤرخين الحديثين إنكار دور الشرق العربي في نقل المعارف والعلوم.

إلا أن الأدلة كثيرة على تأثر الصليبيين بالمجال الفكري المتطور السائد في بلاد الشام، بدءاً من انتقال العديد من المفردات والكلمات العربية إلى اللغات الأوربية، والتأثر بأسلوب الكتابة التاريخية السائد لدى العرب المسلمين، والاهتمام بعلم الطب والعلوم المرتبطة به من صناعة الأدوية، ونهاية بترجمة بعض الكتب.

---

[١]- عوض،الحروب الصليبية العلاقات، ص٣٧٥-٣٧٧.

[٢]- العش (يوسف)، دُور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمة:نزار أباظة، محمد صبّاغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م، ص ١٤٨.

[٣]- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٧٩.

سابعاً- أثر الحروب الصليبية على العلاقات الاقتصادية بين الصليبيين والعرب المسلمين:

شهدت بلاد الشام خلال الحروب الصليبية قيام علاقات اقتصادية بين الصليبيين والعرب المسلمين، وقد تضافرت عدة عوامل دفعت لقيام هذه العلاقات، منها:

أ- توفر عدد من المواد الخام في المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، والتي تعتمد عليها الكثير من الصناعات والحرف في المدن العربية في المناطق الداخلية لبلاد الشام ومصر، ومن الامثلة على ذلك توفر معدن الحديد في الجبال المحيطة بمدينة بيروت[١]، ويؤكد ذلك ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) بقوله:" **وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد...** "[٢].

ومن المواد الخام الهامة أيضاً الأخشاب التي تستخدم في البناء وصناعة الأثاث المنزلي، و العديد من الآلات العسكرية كالمنجنيق، واشتهرت المناطق التي تخضع للسيطرة الصليبية بغناها بالغابات، مثل غابة عسقلان، غابة أرسوف، وغابات جبال لبنان، كما اشتهرت العديد من المدن الساحلية بتوافر المواد الخام اللازمة لصناعة المنسوجات الحريرية، والبسط ، والسجاد، مثل مدن: أنطاكية، وطرابلس، وصور[٣].

ب- سيطرة الصليبيين على الموانئ الرئيسة لتصدير إنتاج المدن العربية الداخلية في بلاد الشام، وتحكمهم بالعديد من الطرق التجارية الواصلة بين بلاد الشام ومصر، وذلك عن طريق تشييد القلاع والحصون على طول الطرق التجارية الهامة، ومن الأمثلة على ذلك: تشييد قلعة الداروم سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، التي عدت مركزاً لتحصيل الرسوم الجمركية من القوافل التجارية القادمة من مصر إلى بلاد الشام وبالعكس[٤]، وقلعة تبنين التي شيدت سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م التي تحكمت في الطرق الواصلة التي تربط ما بين صور و بانياس ودمشق[٥].

ج- زيادة الطلب على منتجات بلاد الشام والشرق في أوربا.

د- اتفاقيات الهدن: فعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات كانت ثمرت الحروب والمعارك، وهدفت إلى إسادة السلام والهدوء لحقب قصيرة، واستغلال ذلك من أجل إعادة تنظيم القوى العسكرية، إلا أنها ضمت في طياتها الكثير من البنود التي تتعلق بالحياة الاقتصادية وتنشيطها، ومن الأمثلة على ذلك الهدنة التي عقدت بين دمشق ومملكة بيت المقدس سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، التي كان من أسباب عقدها أسباب تجارية؛ فالغارات المتبادلة بين الطرفين كانت تقضي على ما ينقل من تجارة، وبخاصة نتيجة غارات الصليبيين على القوافل التجارية المتجه من دمشق إلى مصر، أو تلك القادمة من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق[٦].

---

[١]- المقدسي البشاري (محمد بن أحمد)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٨٤.

[٢]- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٦م، ج ١، ص٢٦٢.

[٣]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٨٩.- علي، العلاقات الاقتصادية، ص ١٢، ١٣.

[٤]- وليم الصوري، تاريخ أعمال، " من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٣٤٥.- براور، الاستيطان، ص٣٩.

[٥]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص ١٥.

[٦]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٢، ص١٢٦،١٢٧.

١- التجارة:

أدى استيلاء الصليبيين لساحل بلاد الشام وبعض المناطق الداخلية إلى سيطرتهم على شبكة بالغة الأهمية من الطرق التجارية، التي ربطت بين مدن ومناطق بلاد الشام بعضها ببعض من جهة، وتلك الطرق القادمة من أواسط أسيا وجنوب الجزيرة العربية إلى سواحل بلاد الشام أو تلك الطرق التي تصل بين مصر وبلاد الشام[١]، ومما ساعدهم على ذلك استيلاؤهم على القلاع والحصون الهامة التي تتحكم بتلك الطرق[٢]، كما لابد من الإشارة إلى قيام بعض السكان العرب بتعريف الصليبيين الغرباء على تلك الطرق التجارية. وكل ذلك أدى إلى تعطيل حركة التجارة في بلاد الشام خلال السنوات الأولى من استقرارهم.

ولكن لم يمنع العداء بين الصليبيين والعرب المسلمين من قيام علاقات تجارية بينهما، فإن كلا الطرفين حرصا على المتاجرة مع الأخر؛ لأن فكرة المقاطعة الاقتصادية خلال عصر الحروب الصليبية لم تكن واردة لأنها تعني الانتحار لكلا الجانبين[٣]، فالمناطق التي خضعت للصليبيين تمتاز بتوفر الكثير من المواد الخام مثل الرخام والخشب وأشجار الزيتون وزيتها...وغير ذلك، وهي مواد لم يكن المسلمون في غنى عنها في صناعاتهم واستخداماتهم اليومية[٤]، فضلاً عن حاجة تجار المدن الداخلية في بلاد الشام لمنافذ بحرية لتصريف منتجاتهم، مما اضطرهم للتعامل مع الصليبيين الذين يسيطرون على موانئ بلاد الشام[٥]. كما أدرك الصليبيون مدى الفوائد والعائدات المالية التي تدرها عليهم التجارة مع العرب المسلمين[٦]، والتي يمكن الاستفادة منها في تمويل مشاريعهم العسكرية وتامين متطلباتهم الحياتية .

إذ أخذت القوافل التجارية الإسلامية منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي تدخل إلى الكيانات الصليبية للمتاجرة بعيداً عن النظر للعوامل الدينية، حتى أن الحروب لم توقفها، ويقدم الرحالة ابن جبير وصفاً لهذه الأمر بقوله:" **واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك. وتجار النصارى(المسحيين) أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض، وللنصارى(للمسيحيين) على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم...، وتجار النصارى(المسيحيين) يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم**"[٧].

وفضلاً عن التجار الشرقيين فقد جذبت سواحل بلاد الشام تجار المدن الإيطالية وجنوب فرنسا وبرشلونة، وعلى الرغم من أن تلك المدن كان لها علاقات تجارية مع بلاد الشام والشرق قبل الحروب الصليبية، إلا أن هذه الحروب أسهمت في توسيع نطاق تجارتها مع الشرق[٨]، وبذلك ازدادت معرفتهم بمنتجات الشرق، ووجد التجار الغربيون في موانئ بلاد الشام كل ما يحتاجونه من منتجات الشرق دون أن يضطروا للقيام برحلات طويلة إلى قلب قارة أسيا للحصول على ما يريدون

---

[١]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص١٤.- عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٧.
[٢]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص١٦.
[٣]- عوض،العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٩.
[٤]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٥٦.
[٥]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨١،١٨٢.
[٦]- السهيل (نايف عيد)، الأثر التجاري للاستيطان الصليبي في بلاد الشام، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب- جامعة القاهرة، تشرين الثاني، ٢٠٠٩م، ص ٨٤.
[٧]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٦٠.
[٨]- عمران، تاريخ الحروب، ص٣٤٧.

من منتجاتها، إذ كان هناك العديد من الطرق التجارية التي تأتي عبرها هذه المنتجات حتى سواحل بلاد الشام [١].

وأخذ التجار الأوربيون بتنظيم رحلاتهم التجارية خلال فصلي الربيع والخريف، وقدم خلال هذه الرحلات أعداداً كبيرة من أبناء الغرب الأوربي، وكان من بينهم العديد من التجار الذين يجلبون معهم بضائع ومنتجات الغرب للمتاجرة بها، وفي طريق عودتهم كانوا يحملون معهم منتجات الشرق وبلاد الشام [٢].

ونتيجة ازدهار حركة التجارة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وإدراك الصليبيين أهمية التبادل التجاري وفوائده الاقتصادية أقاموا أسواقاً موسمية في المدن الساحلية الخاضعة لسيطرتهم، اجتمع فيها تجار الغرب الأوربي، والتجار الشرقيين من المسلمين والمسيحيين، وأخذ كل طرف يعرض المنتجات التي جلبها من بلاده، كما أدت هذه المواسم التجارية إلى ارتفاع إيجارات البيوت والمخازن التجارية؛ بسبب كثرة التجار الذين يصلون إلى المدن الساحلية سواء من الغرب الأوربي أو من المناطق الإسلامية[٣].كما شهدت الموانئ الشامية تدفق العرب المسلمين من الغرب الإسلامي - المغرب العربي- والذين يودون مواصلة السير حتى مدينة دمشق أو غيرها من المدن العربية الإسلامية الداخلية[٤].

كما كانت مدن بلاد الشام الداخلية مركزاً تجارية هامة منذ القدم، وبخاصة دمشق التي تعد مركزاً لتلاقي القوافل القادمة من العراق وبلاد فارس وأسيا الصغرى من جهة، والقوافل القادمة من مصر وشبه الجزيرة العربية من جهة أخرى، كما عدت دمشق مركزاً لانطلاق قوافل الحج[٥]. ومن الأسواق والمراكز التجارية الإسلامية الهامة أيضاً،مدينة حلب التي تعد مركزاً لتصدير منتجات الشرق إلى مدن وموانئ الجزء الشمالي من الساحل الشامي[٦].ولقيت هذه المراكز إقبالا من قبل التجار الصليبيين والأوربيين منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٧].

وحققت الكيانات الصليبية أرباحاً طائلة من خلال الضرائب التي تم فرضها على تجارة العبور القادمة من الشرق ومن مناطق بلاد الشام، وتراوحت هذه الضريبة بين٤.١٦ و١١.٢ بالمئة من قيمة البضائع، في حين بلغت الضرائب المفروضة على المواد التي تستورد من أجل الاستهلاك داخل الكيانات الصليبية إلى نحو ٢٥بالمئة من قيمتها، كما توجب على السفن الأجنبية التي ترسو في الموانئ الصليبية أن تدفع رسوماً لدخولها إلى الميناء، كما أن الحجاج الأوربيين ذاتهم توجب عليهم دفع رسومٍ ماليةٍ على الثروة التي يصطحبونها معهم إلى الشرق، واستمر ذلك إلى أن تم إعفاؤهم من هذه الأعباء من قبل الملك بلدوين الثاني في سنة٥٢٥هـ/١١٣٠م [٨].

وبما أن حياة الكيانات الصليبية من الناحية الاقتصادية اعتمد على التعامل والاتجار مع العرب المسلمين فإن الصليبيين أتاحوا مرور المسافرين والقوافل التجارية القادمة من الإمارات العربية الإسلامية المجاورة، ومن أجل تحصيل الضرائب التي فرضت على تلك القوافل، أقام الصليبيون

[١]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٧٥.
[٢]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٨٣،٢٨٤.- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩١،١٩٢.- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٩٠.
[٣]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٨.- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٩٠.
[٤]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص ٥٨.
[٥]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٢.
[٦]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص ٩٣.
[٧]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٨٧،١٨٨.
[٨]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣٠،٢٣١.

بالقرب من الحصون والقلاع التي تلي الأراضي العربية الإسلامية مباشرة مراكز جمركية لتحصيلها، ومن أهمها في مملكة بيت المقدس حصن تبنين، وتحدث ابن جبير عن كيفية تحصيل الضرائب عنده بقوله:**"وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين، وهو موضع تمكيس القوافل ... والضريبة فيه دينار وقيراط من الدّنانير الصّورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موقع الملك ... وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار ....."**[١]، كما يصف ابن جبير منطقةجمركية أخرى لكنها تقع على الساحل ألا وهي عكا، قائلاً :"... **وحملنا إلى الديوان، وهو خان مُعَدّ لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النصارى(المسيحيين) ... وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان ...، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم"**[٢].

كذلك عدت مستوطنة الداروم الواقعة جنوب مدينة غزة مركزاً لتحصيل الضرائب المفروضة على القوافل القادمة من مصر إلى بلاد الشام أو بالعكس، والتي تضطر للمرور عبر أراضي مملكة بيت المقدس، وتتجه نحو الشمال الشرقي لتخرج منها عند مدينة طبرية[٣] كما أن القوافل القادمة من شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر والذاهبة نحو دمشق كانت تضطر عبور وادي نهر الأردن، الذي كانت تتحكم فيه قلعتا الكرك والشوبك، ومن المناطق الجمركية الصليبية في شمال بلاد الشام جسر نهر العاصي، لفرض الضرائب على القوافل القادمة من حلب نحو أنطاكية واللاذقية لتصدير منتجاتها إلى الغرب الأوربي ومصر[٤]، إلا أن هذه المراكز الجمركية كانت قابلة للتغيير بناء على مجرى الأحداث، وانتصارات أحد الطرفين على الأخر، وبخاصة بعد تحرير مدينة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وما تبعه من انحسار للمناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، وعلى الرغم من ذلك يمكن القول: إن أمراء الكيانات الصليبية في بلاد الشام قد جنوا أموال طائلة من التجارة التي اجتازت المناطق الخاضعة لسيطرتهم، والتي جلبها التجار العرب والشرقيون، على أنه لم يكن للصليبيين نصيب وافر من هذه التجارة.

أما فيما يتعلق بالبضائع والمواد التي قام بتصديرها واستيرادها كلٌ من العرب المسلمين وأبناء الغرب الأوربي، فقد تنوعت تلك البضائع، وعدت التوابل من أهم السلع التي تم تصديرها إلى أوربا، والتي لاقت رواجاً كبيراً نتيجة استخدامها في تحسين نكهة الطعام، وتعددت أنواعها من الفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل... وغيرها[٥].

كما أقبل الصليبيون وأبناء أوربا الغربية على استيراد المنسوجات بأنواعها المختلفة وبخاصة الحريرية، إذ اشتهرت العديد من مناطق بلاد الشام الداخلية بهذه الصناعة منذ القدم وبخاصة مدن دمشق وحلب والموصل، وكانت هذه المنتجات تلقى اقبالاً شديداً من قبل الصليبيين وفي أوربا الغربية أيضاً، فضلاً عن مواد الصباغة اللازمة لمنتجات المنسوجات الأوربية[٦]، كما أن الصليبيين أيضاً سعوا لتقليد العرب المسلمين في اقتناء الأثاث الفاخر، لذلك أقبلوا على شراء السجاجيد الفاخرة المصنعة في بلاد فارس، كما سعوا وبخاصة النساء منهم على اقتناء الحلي الذهبية المصنوعة في مناطق بلاد الشام الخاضعة للسيادة العربية الإسلامية فضلاً عن طلبهم من صناع الحلي صناعة العديد من الأواني الكنسية، والتي كانت ترصع بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وليس هذا فحسب

---

[١]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٤.
[٢]- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧٥،٢٧٦.
[٣]- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت، "من خلال الموسوعة الشامية" ، ج٧، ص٣٤٥.
[٤]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص ٩٨،٩٩.
[٥]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص٨٦.- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٥٩.
[٦]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٤٩.

بل حرص الصليبيون والأوربيون على استيراد المصنوعات النحاسية المجلوبة من دمشق والموصل ، وحرصوا على تزيين منازلهم وقصورهم بها.

كما أقبل الصليبيون والأوربيون على استيراد الشموع التي اشتهرت بصناعتها بعض المدن العربية الإسلامية مثل دمشق وغيرها، وامتازت هذه الشموع بأنها مخضبة بالطيوب بحيث تفوح منها الروائح العطرة عند إشعالها[١].

كما كان الرقيق الأسود من أهم صادرات العرب المسلمين إلى الصليبيين، واحتكر البنادقة والجنوية في المدن التي خضعت للصليبيين عملية استيراد هؤلاء الرقيق، الذين يتم جلبهم من بلاد الحبشة إلى ميناء جدة ثم يتم نقلهم إلى بلاد الشام، فيباعون في أسواق النخاسة في المدن العربية الإسلامية، حيث يتجه إليها تجار المدن الإيطالية لشراء أولئك الرقيق، ثم بيعهم في الأسواق التابعة لهم في المدن الخاضعة لسيطرة الصليبيين[٢].

وكانت أهم المواد الغذائية التي حرص الصليبيون والغرب الأوربي على استيرادها من بلاد الشام،هو السكر الذي تعرف عليه الصليبيون لأول مرة خلال مرور الحملة الصليبية الأولى بالقرب من مدينة طرابلس، وتظهر أهمية السكر كون معظم أوربا قبل الحروب الصليبية كانت تستخدم العسل والفواكه كمصدر رئيسي في صناعة الحلوى والمشروبات الحلوة، لذلك قام الصليبيون بإعفائه من الضرائب تشجيعاً لاستيراده، كما تم تصدير الليمون والمشمش والخوخ والإجاص والكمثرى... وغيرها[٣]. ومن المواد الأخرى التي تم تصديرها إلى أوربا خشب الصبر والكافور، والبخور المهم في القداسات، والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها مثل الفيروز واللازورد والياقوت والعقيق، والعطور بأنواعها، والفخار الصيني، والسروج المصنوعة من الجلود و الفولاذ الدمشقي[٤].

كما أن الكيانات الصليبية لم تكن مجرد مناطق عبور لتجارة العرب المسلمين، بل وجد التجار الأوربيون في تلك الكيانات الكثير من المنتجات والموارد الزراعية التي تستحق التصدير إلى الغرب الأوربي، فقد امتازت المناطق الخاضعة لسيطرة الصليبيين بزراعة الأشجار المثمرة والفواكه، والكرمة التي صنع منها أشهر أنواع النبيذ الذي لقي رواجاً في الغرب الأوربي، كما اشتهرت تلك المناطق منذ القدم بإنتاج القطن والحرير[٥]. كما كانت تصدر إلى مصر الأسماك المملحة والفواكه وزيت الزيتون والسمسم، بينما استوردت منها الحبوب والملح والفخار والدواجن.

أما الواردات من أوربا بغرض العبور إلى البلدان العربية الإسلامية المجاورة للمناطق الصليبية، فتمثلت في المنسوجات الأوربية من فرنسا والفلاندر وانكلترا، والمعادن مثل النحاس والزئبق والرصاص والحديد والخشب ، ولحم الخنزير المملح لبيعه في مناطق الصليبيين[٦].

وفي نهاية المطاف يمكن القول: إنّ التجارة وتبادل السلع وما تبعها من إقامة المواسم التجارية سواء في المدن الإسلامية أو تلك التي أقيمت في المدن التي خضعت للسيطرة الصليبية، أسهمت في إيجاد وسيلة للتعارف والتقارب بين العرب المسلمين والصليبيين، ففي وقت استمرت فيه جيوش الطرفين في خوض المعارك،بقي التجار يمارسون تجارتهم بحرية بعيداً عن الاعتبارات الدينية، فالمصلحة المشتركة في ضمان استمرار تدفق قوافل التجارة بين البلدان العربية الإسلامية والمناطق

---

[١]- علي، العلاقات، ص ٥٩، ٦٠، ٦٢.
[٢]- علي، العلاقات، ص ٦٣.
[٣]- علي، العلاقات، ص٦١.
[٤]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص٨٦.- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٤٩.- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٥٩.
[٥]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٧-١٨٩.
[٦]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٤٩،٢٥٠.

الخاضعة للصليبيين، اضطرت الطرفين في الكثير من الأحيان لعقد الهدن والتي لم تخلُ من البنود التي تتعلق بالتجارة وضمان تدفقها، كما لعب التجار دوراً هاماً إذ قام عدد منهم بدور الوسيط والرسل بين الطرفيين. كما لابد من الإشارة إلى أن الحروب الصليبية شغلتدوراً في ازدياد ظاهرة التعامل النقدي في أوربا ولدى الصليبيين في الشرق؛ نتيجة للتبادل التجاري مع بلاد الشام ومصر.

٢- الزراعة:

كان للحروب الصليبية أثر كبير على صعيد الزراعة وممارستها سواء في بلاد الشام أو في أوربا الغربية، فعند استيلاء الصليبيين على ساحل بلاد الشام، وبعض المناطق الداخلية واجهتهم مشكلة وجود مساحات واسعة من الأراضي الزراعية قد خلت من سكانها العرب؛ نتيجة للأعمال الوحشية التي ارتكبها الصليبيون بحقهم، والتي أودت بحياة الآلاف، فضلاً عن قيام الصليبيين بتهجير سكان العديد من مناطق بلاد الشام. وبما أن الحشود الصليبية كرست كل جهدها على الأعمال القتالية ضد العرب المسلمين، فإنهم أهملوا العمل الزراعي وكان ذلك يهدد أمنهم الغذائي، لذلك سمحوا لمن تبقى من الفلاحين العرب ممارسة الزراعة تحت إشراف السادة الإقطاعيين الصليبيين.

إلا أن الفلاحين العرب أعلنوا عصيانهم في العديد من المناسبات نتيجة للظلم والضرائب التي فرضت عليهم، وخير مثال على ذلك ثورة فلاحي بيروت وصيدا سنة٥١٩هـ/١١٢٥م، وفي طرابلس سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م[١]، كما وصل الحد إلى قيام بعض الفلاحين العرب بإحراق المحاصيل الزراعية على أمل أن تودي المجاعة بحياة الصليبيين[٢]، وبذلك أدرك الصليبيون أن الحل العسكري لن يخمد تمرد الفلاحين، وأن أمنهم الغذائي سيبقى مهدداً، وأن الحل الوحيد هو العمل على استثمار الأراضي الزراعية بأنفسهم والعمل على التقليل من الاعتماد على الفلاحين العرب، ومنع احتكارهم ممارسة الزراعة[٣]، لذلك شجعوا الهجرة الأوربية إلى بلاد الشام من أجل إحلالهم محل السكان العرب، وأقاموا لهم الكثير من المستوطنات في المناطق الزراعية[٤]، وأسهمت الكنيسة بدور كبير في ذلك إذ كان رجال الدين يقومون بتهجير السكان العرب من قراهم إلى قرى عربية أخرى ويقومون بتوطين المهاجرين الأوربيين فيها، كما أوجد حكام الكيانات الصليبية مؤسسات استيطانية تمثلت مهمتها بالعمل على تطوير الزراعة، فضلاً عن مهمتها الأساسية، ألا وهي منع احتكار السكان العرب لممارسة الزراعة[٥].

لذلك اهتم الصليبيون بالزراعة حيث تميزت الكثير من المناطق الخاضعة لسيطرتهم بتوفر التربة الخصبة، عالية الإنتاج والتي تصلح لزراعة الكثير من المحاصيل، فعملوا على تنظيم الأراضي الزراعية فقسموها إلى وحدات مساحية عرفت كل وحدة باسم كاروكا Carruca، التي تبلغ ما يقارب ٣٥هكتار أي نحو أربعة آلاف، كما تم تقسيم الأراضي الزراعية بسلاسل من الحجارة، تجنباً لحدوث أية مشاكل بين أصحاب الأراضي المتجاورة، أو منعاً لانجراف التربة[٦]، كما فرضوا

---

[١]- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة، "من خلال الموسوعة الشامية"، ج٦، ص٥١٨.- زابوروف، الصليبيون، ص١٣٦.

[٢]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨٠.

[٣]- عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٦.

[٤]- شاهين، الآغا، الاستيطان ، ص٥٠،٥١.

[٥]- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٣،٦٥.

[٦]- ماير، تاريخ الحروب، ص٢٥٢.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٨٨.- عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٥.

رقابة شديدة على الأراضي التي منحت للمستوطنين الأوربيين فكل شخص يتقاعس عن العمل في الأراضي الزراعية يعاقب بدفع غرامات مالية وتسحب الأرض من المعاقب[١].

أما عن الأساليب الزراعية التي اتبعها الصليبيون، فكانت تعتمد على الأساليب التقليدية القديمة التي استخدمها فلاحو بلاد الشام، بحيث يتم تقسيم الأراضي الزراعية إلى قسمين. ويقومون بزراعة النصف الأول بالمحاصيل الشتوية كالحبوب، بينما تزرع بعض أراضي النصف الثاني بالخضراوات، ويترك بعضها للراحة بعد أن يتم حراثتها، وفي فصل الصيف تزرع كلُّ الأرض بالمحاصيل الصيفية. وفي السنة التالية تترك أراضي القسم الأول للراحة، بينما تزرع أراضي القسم الثاني بالحبوب الشتوية[٢].

كما تعرف الصليبيون خلال تواجدهم في بلاد الشام على العديد من المحاصيل الزراعية التي لم تكن معروفة في الغرب الأوربي، وفي مقدمتها: قصب السكر الذي نال طعمه إعجابهم حين كانت الحملة الصليبية الأولى تجتاز مناطق الساحل الشامي[٣]، وعندما استقروا في المنطقة تعلموا من السكان العرب زراعته، وطريقة استخلاص السكر من القصب، وأخذوا يتوسعون بزراعته فاهتموا بإنشاء قنوات الري من أجل إيصال المياه إلى الأراضي المزروعة به، وبذلوا كل جهد ممكن للإكثار من زراعته في المناطق التي خضعت لهم[٤]. ومن المناطق التي اشتهرت بزراعته في الكيانات الصليبية مقاطعة صور، التي كان سيدها الإقطاعي يحصل على دخل كبير من محصول القصب، كما اشتهرت بزراعته صيدا والمناطق المجاورة لها، والأراضي الواقعة في وادي نهر الأردن، و حول طبرية، و نابلس وقيسارية وعكا والشوبك[٥]، ونظراً لاحتياج أوربا الغربية لمادة السكر قام تجار المدن الإيطالية بنقل زراعة قصب السكر إلى أوربا[٦].

ومن المحاصيل الأخرى شجرة الكرمة التي اشتهرت بزراعتها بلاد الشام منذ القدم، ولقيت اهتماما كبيراً من قبل الصليبيين، فحصلت الكنيسة اللاتينية على الكثير من الأراضي المزروعة بأشجار الكرمة وأولتها عناية كبيرة، حتى أنها وضعت مراقبين على الأراضي المزروعة بها وعلى المشتغلين بها، فإذا أهمل أي شخص من أصحاب الأراضي المزروعة بأشجار الكرمة أرضه يتم تنبيهه من قبل رجال الكنيسة، ويظهروا له سوء فعله وعدم اهتمامه بأرضه، فإذا لم يبدِ أي اهتمام يفرضون عليه غرامة مالية، وفي حال عدم التزامه بالعمل الزراعي يتم منح تلك الأرض إلى شخص آخر[٧].

كما تَعرف الصليبيون خلال تواجدهم في بلاد الشام على العديد من المحاصيل الأخرى ومنها: السمسم، والليمون، والبطيخ، والأرز، والخوخ، والإجاص، والمشمش الذي كان يعرف في أوربا باسم تمر دمشق[٨]، والبصل - المسمى " الأسقال"- الذي دعاه الصليبيون باسم "Scallions" نسبة لمدينة عسقلان التي اشتهرت بزراعته[٩]، وهذه المحاصيل التي لم تعرف سابقاً في أوربا، سرعان ما انتقلت

(١)- ماير، تاريخ الحروب، ص٢١٧.

(٢)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٨٩.

(٣)- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٩.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٩٦.

(٤)-هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٩.- رانسيمان، تاريخ الحملات،ج٣، ص٤٠٩.- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٩٦،٣٩٧.

(٥)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٩٧.

(٦)- النقاش، الحروب الصليبية، ص١١١.- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٦١.

(٧)- البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٤٠٨،٤٠٩.

(٨)- المطوي(محمد العروسي)، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، د.م.ن، ١٩٨٢م، ص١٦٥.- النقاش، الحروب الصليبية، ص١١١.

(٩)- الدباغ، بلادنا، ج٧ ، ق٢ ، ص ٢٣٥.

إليها عن طريق التجار الإيطاليين، وخير دليل على أصلها المشرقي أنّ الكثير منها بقي يحتفظ باسمه العربي.

ولم يقتصر تأثر الصليبيين بالشرق وبلاد الشام في مجال الزراعة بنقل زراعة بعض المحاصيل، بل تأثروا بطرق الري المتبعة في بلاد الشام، وقاموا بنقلها إلى أوربا، ومن تلك الطرق استخدام النواعير والدواليب المائية، فإذا ما وُجد هذا النوع في أوربا قبل الحروب الصليبية، فلاشك أن الأوربيين الذين عادوا من بلاد الشام أضافوا عليه الكثير من التعديلات التي رأوها هنالك[١].

هذا وقد نجم عن الحروب الصليبية الكثير من المشكلات السياسية والاقتصادية الخاصة بالمناطق المتنازع عليها بين العرب المسلمين والصليبيين، لذلك كان من الضروري العمل على إيجاد نظام إداري جديد لتنظيم تلك المناطق يكفل حل العديد من المشكلات وبخاصة فيما يتعلق بالزراعة وجني المحاصيل، هذا الأسلوب اصطلح على تسميته بنظام بلاد المناصفات[٢].

ولعل أول ظهور لهذا النظام بشكله البسيط يعود إلى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، حيث اتفق كل من الكونت ريموند وفخر الملك بن عمار حاكم طرابلس على تقسيم المنطقة المحيطة بمدينة طرابلس فيما بينهما، ويؤكد ذلك ابن القلانسي بقوله:**"وردت الأخبار بهلاك صنجيل مقدم الإفرنج النازلين على ثغر طرابلس في رابع جمادى الأولى/٤٩٨هـ/، بعد أن كان الأمر استقر بينه وبين فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس من المهادنة، على أن يكون ظاهر طرابلس لصنجيل بحيث لا يقطع الميرة عنها، ولا يمنع المسافرين منها"**[٣]. ثم تكرر هذا الأمر سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م بين بلدوين ملك بيت المقدس وطغتكين حاكم دمشق، حيث تم تقسيم منطقة السواد وجبل عوف بينهما، وتكرر هذا الأمر طوال عصر الحروب الصليبية.

ومع مرور الزمنشهد هذا النظام تطور كبيراً، فغدت هذه المناطق خاضعة لإدارة عربية إسلامية - صليبية مشتركة يرأسها نائبان أحدهما يمثل الحاكم المسلم والأخر يمثل الحاكم الصليبي، وكان يتم النص في المعاهدات على ألا ينفرد أحد منهما بشيء إلا باتفاق الجهتين[٤]، ويبدو أن هذا النظام فرضته عدة عوامل منها انغماس البلدان العربية الإسلامية في صراعاتها الداخلية، وعدم قدرتها صد الهجمات الصليبية في بداية الأمر، فضلاً عن عدم قدرة الصليبيين على إدارة تلك المناطق الزراعية نتيجة انشغالهم بالحروب، أو وقوعها في مناطق يصعب فيها فرض سلطة أي من الطرفين.

---

[١]- النقاش، الحروب الصليبية، ص١١٢. - العبيدي، التأثيرات الحضارية، ص ٢٠.
[٢]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٤٣.
[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ، ص٢٣٨.
[٤]- علي، العلاقات الاقتصادية، ص٤٥.

٣- الصناعة:

امتازت بلاد الشام عبر تاريخها السابق للحروب الصليبية بتطور الصناعة فيها، ولكن مجيء الحملة الصليبية الأولى، وما تبعها أدى إلى تعطيل الصناعة في العديد من مدن الساحل الشامي نتيجة ما لحق بسكانها من قتل وتهجير إلى المناطق الداخلية من بلاد الشام، أو إلى المدن الساحلية الأخرى التي بقيت بيد العرب المسلمين، إلا أن هذه الحالة لم تستمر طويلاً ، ففي العقد الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أدرك الصليبيون مدى الفوائد التي يمكن أن يحصلوا عليها عند استلام المدن دون تعرضها للتدمير أو التخريب، كما سمحوا لمن أراد من السكان العرب بالبقاء في تلك المدن ولكن عليهم الخضوع لأحكام وقوانين الصليبيين.

وأدى ذلك لبقاء العديد من الصناع العرب، الذين احتكروا ممارسة العديد من المهن في المدن الساحلية، نتيجة عدم احتواء جموع الصليبيين على من يمتهن الصناعة. ولكن هذا الأمر تغيَّر على إثر هجرة أفراد الطبقة البرجوازية الأوربية نحو بلاد الشام، وبذلك تشكلت طبقة من الصناع الصليبيين الذين انتشروا في المدن والمستوطنات. إلا أن هؤلاء الصناع لم يعمدوا مطلقاً للاندماج في مهنة واحدة مع الصناع العرب[١]، وهذا يعطي انطباعاً عن حدوث صراع بين الفئتين.

وأسهم الصناع الصليبيون بعد تعلمهم العديد من الصناعات الشرقية بنقلها إلى أوربا، ومن تلك الصناعات: صناعة السكر، فقد تعلّم الصليبيون أسرارها بعد اختلاطهم بالسكان العرب، والتعرف على طريقة استخلاص السكر من قصب السكر، وأقيمت لذلك العديد من المصانع وكان أضخمها في عكا، بينما عدت منطقة صور المركز الرئيسي لهذه الصناعة، وبذلك شهدت هذه الصناعة في الكيانات الصليبية ازدهاراً كبيراً، حتى أن السكر المستهلك كله في أوربا خلال القرنيين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي كان يأتي من تلك الكيانات[٢].

كما اشتهرت المدن الساحلية بصناعة الحرير، حيث امتازت كل من بيروت وطرابلس بتربية دودة القز المنتجة للحرير، وكانت الأنسجة الحريرية المطرزة بالذهب والفضة تصنع في كل من عكا وبيروت واللاذقية[٣]، واشتهرت صور بصناعة الأقمشة البيضاء والتي لاقت رواجاً كبيراً في أوربا، ويؤكد ذلك ابن الإدريسي بقوله: **" يعمل بها الثياب البيض المحمولة إلى كل الآفاق كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ثمين القيمة قليلاً ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها"**[٤]، حتى قيل أن سفن مدينة البندقية كثيراً ما كانت تنتظر الانتهاء من صنعها لتشحنها[٥]، كما اشتهرت مدن الساحل الشامي وبخاصة طرابلس وطرطوس بصناعة المنسوجات المخملية التي أقبل الأوربيون على استيرادها بكثرة[٦]، وكانت الأقمشة بمختلف أنواعها تصبغ بألوان متنوعة، وبذلك ازدهرت صناعة الصباغة، ومما ساعد على ذلك توفر المواد الأولية اللازمة لقيام تلك الصناعة في المناطق الخاضعة للصليبيين، فكانت تنتج النيلة بوادي الأردن، وتنبت الفوة في وادي نهر العاصي، والأرجوان يردُ من صور[٧]. وامتازت مدينة أنطاكية بصناعة المنسوجات المطرزة بالفضة والذهب،فضلاً عن العباءات الكهنوتية[٨].

---

[١]- ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٤٤.
[٢]- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٣، ص ٤٠٩.
[٣]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٠.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٣، ص٤١٠.
[٤]- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٦.
[٥]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٠.
[٦]- النقاش، الحروب الصليبية، ص١١٣،١١٤.
[٧]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٠.- رانسيمان، تاريخ الحملات، ج٣، ص٤١٠.
[٨]- السهيل، الأثر التجاري، ص ٨٥.

كما اشتهرت الكثير من مدن الساحل الشامي بصناعة الزجاج، ومنها مدينة صور[١] التي اشتهر زجاجها منذ القدم بشفافيته عالية الجودة، وسبب هذه الشهرة أنها تعود إلى جودة المواد الأولية المستخدمة، فضلاً عن مهارة الصناع[٢]، كما تميزت مدينة أنطاكية بتصدير المصنوعات الزجاجية وعلى ما يبدو أن السكان المحليين اليهود هم من احتكر هذه الصناعة فيها[٣].

ومن الصناعات التي تعرف عليها الصليبيون والأوربيون عند استقرارهم في بلاد الشام، صناعة الورق، واشتهرت مدينة طرابلس بصنعه، وامتاز الورق الطرابلسي بجودته، وبذلك أصبحوا يستخدمونه في عملية التدوين والمراسلات بدلاً من الجلود وورق البردي الباهظ الثمن[٤].

وفضلاً عن ذلك فإن توفر المواد الزراعية من زيتون وزيته والذي اشتهرت مناطق الساحل الشامي بإنتاجه منذ القدم، ساعد على استمرار حرفة صنع الصابون في المدن التي خضعت للصليبيين، فأنشئت العديد من المصابن لصنعه وبخاصة في أنطاكية، وطرطوس، وعكا ونابلس[٥]. وقد أسهم الصليبيون بعد تعلمهم لهذه الحرف بنقلها لبلادهم الأصلية في أوربا الغربية وهذا الأمر ساعد فيما بعد على نشوء نهضة صناعية في أوربا الغربية.

ولم تقتصر نتائج الحروب الصليبية خلال السنوات السبعين الأولى من استقرار الصليبيين في بلاد الشام على ما ذكرناه سابقاً، بل أدت هذه الحروب إلى إلحاق الدمار بالكثير من المنشأت العمرانية العسكرية أو المدنية سواء في منطقة الساحل الشامي، أو في المناطق الداخلية لبلاد الشام. فالعديد من المنشأت التي كانت توجد قبل قدوم الصليبيين، لم يعد لها أي وجود خلال فترة الحروب الصليبية.

[١]- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص٣٦٥.
[٢]- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩١.
[٣]- التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ص٢٣٠.
[٤]- السهيل، الأثر التجاري، ص ٨٧، ٨٨.
[٥]- النقاش، الحروب الصليبية، ص١١٥.

- الخاتمة:

وفي نهاية البحث عن أوضاع الساحل الشامي، خلال السنوات السبعين الأولى لاستقرار الصليبيين في بلاد الشام، وما نتج عن ذلك من دمار وقتل، إذ سقط مئات الألوف من سكانها ضحايا على أيدي الصليبيين، ولا سيما في مدن أنطاكية، معرة النعمان، بيت المقدس، وأدت الحروب الصليبية إلى نشوء أربع كيانات صليبية على أرض بلاد الشام، امتلكت ثلاث منها إطلالة على الساحل الشامي، وتفاوتت مساحة كل منها، وطبيعة نظام الحكم السائد فيها.

وتركت الحروب الصليبية آثارها على بلاد الشام وأوربا على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، الفكرية ... وغيرها، كما أدت الصراعات ما بين مختلف القوى السياسية الموجودة في بلاد الشام إلى قيام علاقات سياسية واتفاقيات بين تلك القوى المتنافرة، فرضتها الأوضاع السياسية والعسكرية التي شهدتها بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فأدى ذلك لظهور تحالفات عسكرية وسياسية ما بين عدد من الحكام العرب المسلمين وبعض الحكام الصليبيين، بهدف مواجهة أبناء جلدتهم ، متناسين الخلافات الدينية في سبيل تحقيق بعض المكاسب السياسية والعسكرية.

أما السكان العرب الذين بقيوا في المناطق التي خضعت للصليبيين، فقد أبوا الخضوع للأمر الواقع ، فقاموا بتشكيل مجموعات شبه عسكرية مثلت المقاومة الشعبية التي هدفت إلى إلحاق الأضرار بجموع الصليبيين، وتمكنت هذه المقاومة الشعبية من زعزعت استقرار الكيانات الصليبية في وقت غابت فيه المقاومة الرسمية للإمارات العربية الإسلامية للتصدي للكيانات الصليبية، كما سعى السكان العرب لمواجهة السياسة الاستيطانية للكيانات الصليبية بالتمسك بأرضهم وعدم مغادرتها، ويمكن عد هذا التمسك أحد أنواع المقاومة الشعبية خارج النطاق العسكري.

كما كانت للحروب الصليبية أثر إيجابي على العلاقات السياسية الإسلامية - الإسلامية، إذ أدرك العديد من الحكام العرب والمسلمين في بلاد الشام ومصر والموصل ضرورة تناسي الخلافات المذهبية السنية الشيعية- أو على الأقل حصرها في الناحية الدينية- ، والعمل على توحيد الجهود العسكرية والسياسية لمواجهة الوجود الصليبي.

كما لعبت الحروب الصليبية دوراً في حصول تبادل للمؤثرات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ما بين العرب والمسلمين من جهة ، والصليبيين من جهة أخرى، وكان للعرب والمسلمين اليد العليا في هذا المجال، إذ سعى الصليبيون لاستفادة من ازدهار العلوم بمختلف اختصاصاتها في بلاد الشام، كما اقتبسوا العديد من العادات الاجتماعية من سكان بلاد الشام والشرق العربي.

ولابد في النهاية من التنويه إلى النتائج التي تم التوصل إليها، وهي:

- إن التفكك السياسي والديني والعرقي الذي كانت تعاني منه بلاد الشام أسهم في تسهيل مهمة القوات الصليبية في السيطرة على العديد من المناطق الشامية.

- إبراز الأساليب الوحشية التي اتبعها الصليبيون في سبيل السيطرة على مدن الساحل الشامي.

- تحامل الكثير من المصادر العربية الإسلامية والمراجع الحديثة على الدولة الفاطمية، ووصفها بالتخاذل أمام الصليبيين في الدفاع عن ممتلكاتها في بلاد الشام، بل واتهام حكام الدولة الفاطمية بدعوة الحشود الصليبية للقدوم إلى بلاد الشام، فالوقائع التاريخية تنفي ذلك، إذ أسهمت الدولة الفاطمية في قتال الصليبيين بعد التعرف على مخطط سيطرتهم على مدينة بيت المقدس وبلاد الشام، إذ قامت بإرسال العديد من الحملات العسكرية لمجاهدة الصليبيين، إلا أن الإخفاق كان من نصيبها، بسبب سوء التنظيم والخلافات بين القادة العسكريين، وهذا الأمر دفع الوزير الأفضل للعمل على إعادة تنظيم القوات الفاطمية، إلا أن الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت تمر بها الدولة الفاطمية خلال الحروب الصليبية حال دون إظهار ذلك الدور.

- بالرغم من الصراع الديني بين طرفي الصراع العربي الإسلامي - الصليبي، إلا أن الظروف السياسية والعسكرية دفع الكثيرين لتناسي ذلك الخلاف بل والعمل على التحالف مع الأعداء ضد أبناء جلدتهم؛ مقابل احتفاظهم بالمكتسبات التي بين أيديهم.

-إن الظروف السياسية دفعت لنشوء نوعاً من العلاقات والمهادنات بين العرب المسلمين والصليبيين، ومنها عدم قدرة الصليبيين البقاء في حالة استنفار دائم نتيجة قلة أعدادهم، ومسألة تبادل الأسرى اضطرت الطرفين للتواصل .

- أثر الحروب الصليبية على حدوث نوعاً من التقارب السياسي بين إمارة دمشق السلجوقية ذات الطابع السني، والدولة الفاطمية ذات الطابع الشيعي، وأثمر هذا التقارب عن حدوث تنسيق في المجال العسكري بينهما في سبيل مجاهدة الصليبيين وبخاصة ضد مملكة بيت المقدس.

- أثبتت هذه الدراسة أن الصراع العربي الإسلامي- الصليبي ارتبط بالأرض، إذ سعى الصليبيون لتغييرالتركيب السكاني للمناطق الخاضعة لسيطرتهم، إذ قاموا بإبادة أو تهجير السكان العرب من العديد من المدن الشامية الساحلية وبعض المناطق الريفية، كما قاموا ببناء العديد من المستوطنات في مناطق امتازت بأهميتها الجغرافية وتحكمها بالطرق التجارية، وكل ذلك بهدف بسط سيطرتهم على الأراضي العربية

- أظهرت هذه الدراسة أن الكيانات الصليبية قد تعرضت لمشكلة لنقص العنصر البشري - مقارنة بأعداد سكان بلاد الشام بمختلف انتمائتهم العرقية والدينية- الناتج على فقدان العديد من الذكور الصليبيين خلال المعارك، فضلاً عن ارتفاع نسبة الوفيات بين الصليبيين نتيجة جهلهم الطبي وتفشي الأوبئة والأمراض بينهم، لذلك سعت لتشجيع الهجرة العديد من سكان غرب أوربا، وفي سبيل إغراءهم وتشجيعهم للقدوم إلى بلاد الشام والاستقرار بها، قدموا لهم الكثيرمن التسهيلات والامتيازات الإقتصادية.

- مساهمة الحروب الصليبية في نقل المعارف والعلوم العربية إلى أوربا، إذ شهدت بلاد الشام قدوم عدد من طلاب العلم من أوربا إلى بلاد الشام بحثاً عن تحصيل العلوم المتطورة، كما ظهرت حركة ترجمة بسيطة، فضلاً عن اقتباس الأوربيون العديد من الكلمات العربية المتعلقة بالأمور التجارية، وتعرفهم على العديد من الصناعات الهامة.

- تشابه النشاط الاستيطاني للكيانات الصليبية، بالنشاط والتوسع الاستيطاني الصهيوني الذي يمارس حالياً في أرض فلسطين والجولان، فكل من الطرفين سعى للسيطرة على الأرض والمناطق التي تتمتع بأهمية جغرافية استراتيجية، وتهجير السكان الوطنيين وإحلاء المستوطنيين بدلاً عنهم، وإلى تغيير الطابع الحضاري للمناطق التي خضعت لسيطرتهم. كتغيير أسماء المدن والقرى من العربية إلى لغاتهم ، سعيهم لطمس تاريخها العريق وربطها بهم.

ومن أهم التوصيات:

- ضرورة العمل على إنشاء مراكز علمية متخصصة لدراسة تجربة الحروب الصليبية، والعمل على الاستفادة من الدروس والتجارب التي مر بها أجدادنا في صراعهم مع الصليبيين، من أجل مواجهة أعمال الكيان الصهيوني من تهجير للسكان الوطنيين في فلسطين والجولان، وإنشاء العديد من المستوطنات فيها.

- ضرورة العمل على دراسة أوضاع اللاجئين- النازحين- خلال الحروب الصليبية، الذين هجروا من أراضيهم إلى المدن والمناطق الداخلية في بلاد الشام؛ وذلك نتيجة قلة الدراسات العربية عن هذه المسألة، وعدم تطرقها إلى هذه المشكلة أو التعرف على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية التي عانى منها أولئك اللاجئين، وعدم معرفة الإجراءات التي اتبعتها السلطات في المدن العربية الإسلامية في بلاد الشام لاستيعاب اللاجئين.

- ضرورة العمل على إظهار مساهمة الشعب العربي في مقاومة الوجود الصليبيين، في وقت تقتصر العديد من المصادر العربية الإسلامية التركيز على دور الطبقات الحاكمة فقط .

الصور والخرائط

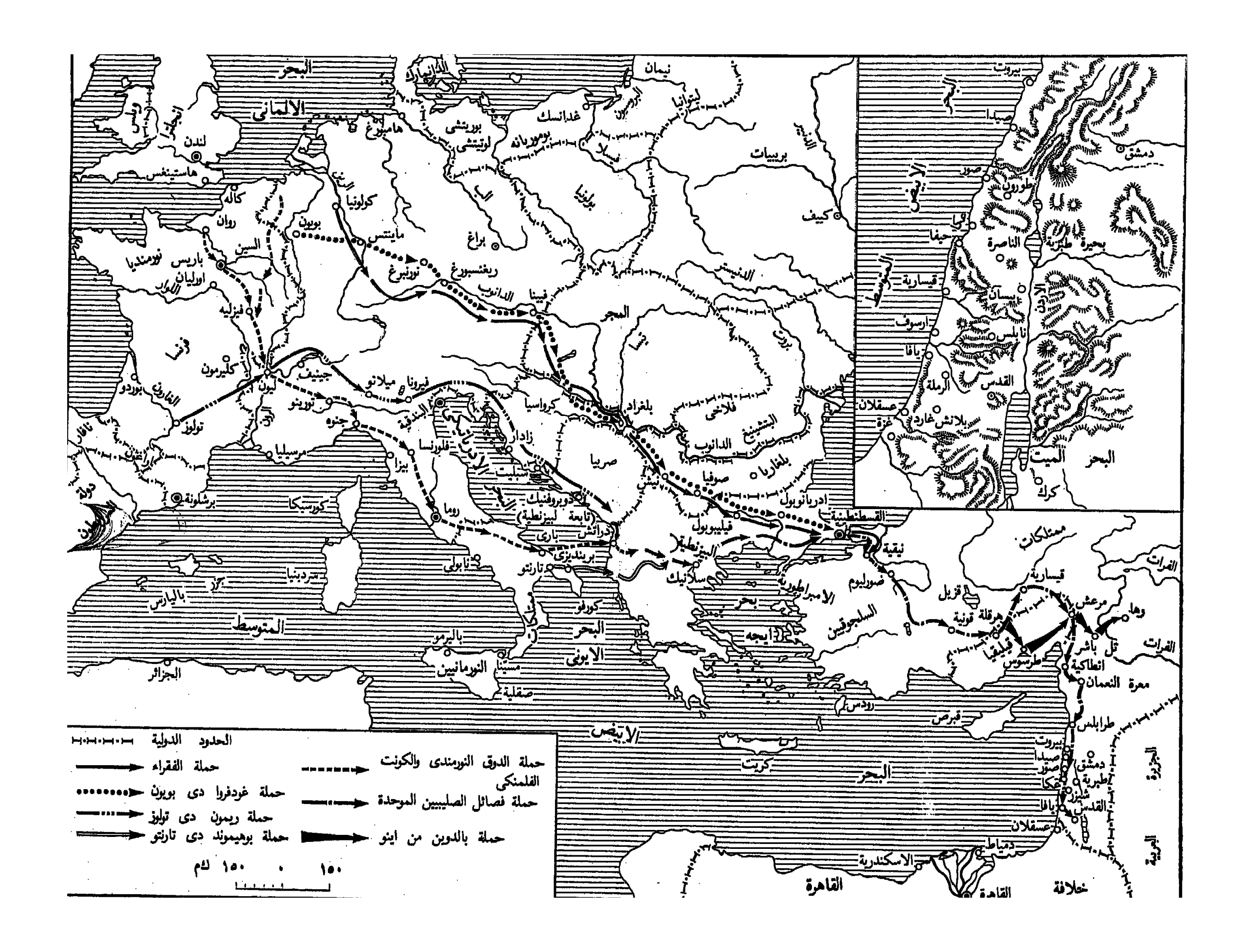
برج صافيتا[١]

[١] -نقلاً عن مولر، القلاع ، ص ١٦٦.

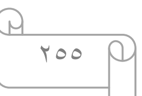
قلعة المرقب [١]

[١]-نقلاً عن مولر ، القلاع ، ص١٨٥.

خط سير الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩-٤٩٣هـ / ١٠٩٥- ١٠٩٩م[1]

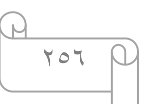


[1] نقلاً عن زابوروف، الصليبيون في الشرق.

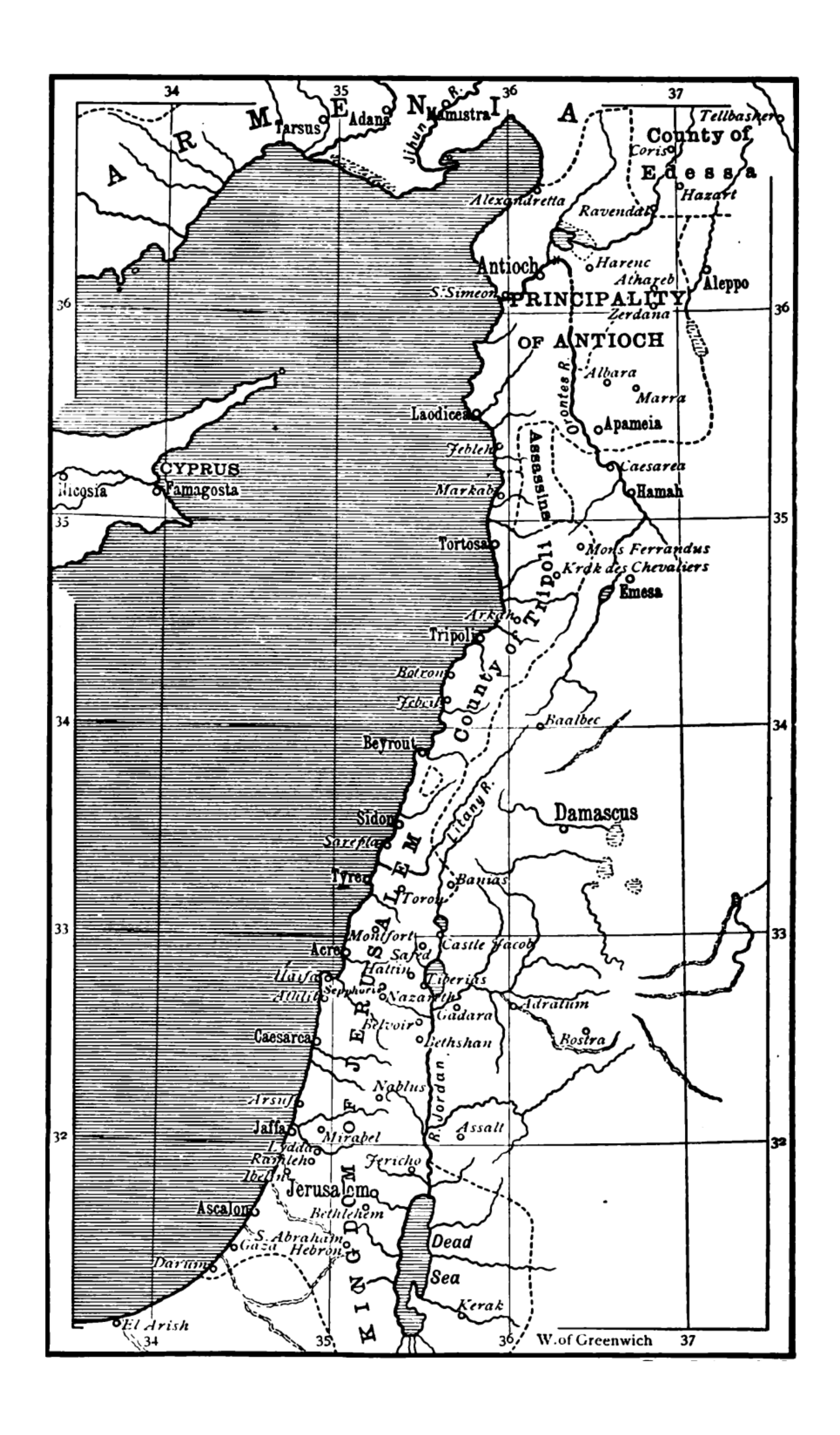


حدود كونتية طرابلس وقلاعها[١].

[١]-نقلاً عن عبد الله، منتخبات التواريخ، ص٤١٣.

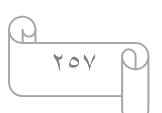


حدود الإمارات الصليبية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[1]



---

[1]- Archer, Kingsford, The Crusades, p108.



حدود إقطاعيات مملكة بيت المقدس قبل معركة حطين[١]



---

(1)-Riley smith, The feudal Nobility, p 169

المصادر والمراجع

أولاً – المصادر العربية:

- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم)، (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م).

١- عُيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- ابن الأثير(علي بن أبي الكرم)، (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

٢- الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م.

- الإدريسي (محمد بن محمد)، (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).

٣- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.

- الإصطخري (إبراهيم بن محمد)، (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م).

٤- المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت.

- الأنطاكي (يحيى بن سعيد)، (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م).

٥- تاريخ الأنطاكي، المعروف بـ" صلة تاريخ أوتيخا"، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٠م.

- بامخرمة (الطيب بن عبد الله)، (ت ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م).

٦- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري، خالد زواري، دار المنهاج، جدة، ٢٠٠٨م.

- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

٧- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٦م.

- البنداري(الفتح بن علي)، (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).

٨- تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،١٩٨٠م.

- ابن تغردي بردي (أبو المحاسن يوسف)، (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).

٩- الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م.

١٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

- ابن جبير(محمد بن أحمد)، (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

١١- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت.

- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي)، (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

١٢- المنتظم في تاريخ الأمم و الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا - مصطفى عبد القادر عطا، مراجعة وصححه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

- الحميري (محمد بن عبد الله)،(٩٠٠هـ/١٤٩٤م).

١٣- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م.

- خسرو (ناصر)، (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م).

١٤- سفرنامه، ترجمة وتقديم: أحمد خالد البدلي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م.

- ابن خلكان (أحمد بن محمد)، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).

١٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

- ابن خلدون (عبد الرحمن)،(ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).

١٦- تاريخ ابن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، تحقيق: خليل شحادة ، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م.

- الذهبي (محمد بن أحمد)، (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

١٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، د.ن، ٢٠٠٣م.

١٨- سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

- ابن سباط (حمزة بن أحمد)، (ت بعد ٩٢٦هـ/١٥١٩م).

١٩- صدق الأخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣م.

- سبط ابن الجوزي(يوسف بن قزاوغلي)، (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).

٢٠- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"حوادث ٤٨١-٥١٧هـ/١٠٨٨-١١٢٣م" تحقيق: مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٩٨٧م.

- السمعاني (عبد الكريم بن محمد)، (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م).

٢١- الأنساب، تحقيق: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد،١٩٦٢م.

٢٢- التحبير في المعجم الكبير، تحقيق: منيرة ناجي سالم، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، ١٩٧٥م.

- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).

٢٣- الروضتين في أخبار الدولتين النوّرية والصّلاحيَّة، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.

- ابن شداد (محمد بن علي)،(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).

٢٤- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،/ تاريخ لبنان والأردن ودمشق/، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م.

- ابن شداد (بهاء الدين يوسف)، (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).

٢٥- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق:جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.

- شيخ الربوة (محمد أبو طالب)، (٧٢٧هـ/١٣٢٦م).

٢٦- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨١م.

- الصفدي (خليل بن أيبك)، (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).

٢٧- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

- ابن الطُّوير(عبد السلام بن الحسن القيسراني)، (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م).

٢٨- نزهة المقلتين في أخبار الدُّولتين، أعاد بناءهُ وحققه: أيمن فؤاد سيِّد ، دار النشر فرانتس شتايز، شتوتغارت، ١٩٩٢م.

- ابن العديم (عمر بن أحمد)، (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م).

٢٩- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٣٠- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٧م.

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق:سامي دهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، د.ت.

- العظيمي (محمد بن علي)، (ت ٥٥٦هـ/ ١١٦١م).

٣١- تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور ،د.م.ن، دمشق، ١٩٨٤م.

- ابن عساكر(علي بن الحسن)، (ت٥٧١هـ /١١٧٥م).

٣٢- تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٩٩٥م.

- الفارابي (إسماعيل بن حماد)، (ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م).

٣٣- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.

- أبو الفداء(إسماعيل بن علي)، (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).

٣٤- تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.

٣٥- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، د. ت.

- الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، (ت١٧٠هـ/ ٧٨٦م).

٣٦- كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

- ابن الفوطي (عبد الرزاق بن أحمد)، (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م).

٣٧- مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ١٩٩٥م.

- ابن فضل العمري (أحمد بن يحيى)،(ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م).

٣٨- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو طبي، ٢٠٠٢م.

- ابن قاضي شُهبة (بدر الدين)،(٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).

٣٩- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

- القزويني (زكريا بن محمد)، (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م).

٤٠- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.

- ابن القلانسي (حمزة بن أسد)، (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م).

٤١- ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان ،دمشق ،١٩٨٣م.

- القلقشندي (أحمد بن علي)، (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

٤٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية ، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٥م.

- الكتبي (محمد بن شاكر)، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).

٤٣- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

- ابن كثير(إسماعيل بن عمر)، (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).

٤٤- البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ١٩٩٨م.

- ابن المأمون (موسى)،(ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م).

٤٥- نصوص من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣م.

- المسعودي (علي بن الحسين)، (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).

٤٦- التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت.

- المقدسي البشاري (محمد بن أحمد)، (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م).

٤٧- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

- المقريزي(أحمد بن علي)، (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

٤٨- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م.

٤٩- المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

- ابن منظور(محمد بن مكرم)، (ت ٧١١هـ/١٣١١م).

٥٠- لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير- محمد حسب الله- هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٥١- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.

- ابن منقذ (أسامة)، (ت٥٨٤هـ/ ١١٨٨م).

٥٢- الاعتبار، " من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، د.ت، ج١٢.

- الاعتبار، تحقيق: فليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

- المهلبي (الحسن بن أحمد)، (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).

٥٣- الكتاب العزيزي " المسالك والممالك"، جمع وتعليق: تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٦م.

- المؤيد في الدين الفاطمي، (ت القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي).

٥٤- سيرة المؤيد في الدين، تحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م.

- ابن ناصر الدين (محمد بن عبد الله)، (ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م).

٥٥- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)،(ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).

٥٦- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، إدارة إحياء التراث القديم - مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م.

٥٧- تاريخ الصالحي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ٢٠١٠م.

- ياقوت الحموي (أبي عبد الله)،(ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

٥٨- معجم البلدان، دار صادر، د.ت.

٥٩- معجم الأدباء "إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب"، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

ثانياً - المصادر المعربة:

١- آلبرت فون آخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧م، ج ٥١.

٢- بورتشارد، وصف الأرض المقدسة، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ج٣٧.

٣- التطيلي(بنيامين)، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حدّاد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.

٤- توديبود (بطرس)، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، نقله إلى الانكليزية: جون هيوج هيل، لوريتال هيل، نقله للعربية: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، مصر،١٩٩٩م.

٥- ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٤.

- ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد عبد الله البيشاوي- رياض شاهين، دار الشروق،عمان، ٢٠٠٣م.

٦- دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي- داود إسماعيل أبو هدبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣م.

٧- روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية "، تحقيق وترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ج ٣٩.

٨- ريمون دي جيل، تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦.

٩- سيولف الأنكلوسكسوني، رحلة حج سيولف،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية" ، ترجمة وتحقيق:سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٣١.

١٠- فورزبورغ (يوحنا)، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧م.

١١- فولتشر أوف تشارترز، تاريخ الحملة إلى القدس، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر ، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦.

١٢- فوقاس(يوانس)، رحلة يوانس فوقاس، تحقيق: سهيل زكار، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج ٣٤.

١٣- الفيتري (يعقوب)، تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨م.

١٤- كومنين (آنا)، الألكسياد، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦.

١٥- متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، د.ت، ج٥.

١٦- مؤلف مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، "من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ج٦ .

١٧- ميخائيل السوري الكبير، روايات ميخائيل السوري،"من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م، ج٥.

١٨- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٢م.

- وليم الصوري، تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج٧.

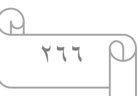
ثالثاً- المصادر باللغات الأجنبية:

1-Albert of Aachen's, History of the Journey to Jerusalem, translated by Susan B. Edgington, vol2, Ashgate, 2013.

رابعاً- المراجع العربية :

١- إبراهيم (رجب عبد الجواد)، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٢- أبو مصلح (حافظ)، تاريخ الدروز في بيروت، دار الفنون للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٨م.



٣- أحمد (أحمد عبد الله)، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٦م.

٤- البواعنة (لؤي)، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي (٤٩٠- ٦٤٨هـ/ ١٠٩٧-١٢٥٠م)، دار اليازوري، الأردن ، ٢٠٠٧م.

٥- البيشاوي (سعيد)، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت.

٦- تدمري(عمر عبد السلام)، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، دار الإيمان، طرابلس لبنان،١٩٩٤ م.

٧- ـــــــــــــــــ، الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، مؤسسة دار فلسطين للتأليف والترجمة، ١٩٧٢م.

٨- توفيق (عمر كمال)، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين- دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي (٤٩١-٦٩٠هـ/١٠٩٧-١٢٩١م) – مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،١٩٨٦م.

٩- الحايك (منذر)، العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٠- حسين (حسن عبد الوهاب)، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

١١- ـــــــــــــــــ، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٧م.

١٢- الحلو (عبد الله)، تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية استناداً للجغرافيين العرب، دار بيسان، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١٣- حمادة (محمد ماهر)، الوثائق السّياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية- دراسة نصوص- مؤسسة الرسالة ، د.م.ن، ١٩٨٠م.

١٤- حمود (سوزي)، لبنان في العصر الوسيط منذ العهد الراشدي إلى نهاية عهد المماليك (١٣-٩٢٢هـ/٦٣٤-١٥١٦م)، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م.

١٥- الحناوي (مصطفى محمد)، العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام، مكتبة الرُشد ناشرون، د.ت.

١٦- الخطيب (مصطفى عبد الكريم)، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

١٧- خليل (عماد الدين)، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٠م.

١٨- الدباغ (مصطفى)، بلادنا فلسطين،دار الهدى، كفر قرع، فلسطين، ١٩٩١م.

١٩- دهمان (محمد أحمد)، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.

٢٠- الرّبيعي (عبد الله بن عبد الرحمن)، أثر الشّرق في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، د.د.ن، الرياض،١٩٩٤م.

٢١- الزركلي (خير الدين بن محمود)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٢- رزوق (معروف)، تاريخ شيزر من القدم وأخبار من مر بها من البشر، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢م.

٢٣- زكار(سهيل)، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية (المشرق)" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية " ، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج١.

٢٤- ــــــــــ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية الحركات الدينية في أوربا الوسيطة،" من خلال الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية "، دمشق، ١٩٩٥م.

٢٥- ــــــــــ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٣٣.

٢٦- زيان (حامد)، الصراع السياسي بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣م.

٢٧- زيد (أسامة زكي)، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

٢٨- السّاحلي (نعيمه عبد السلام)، الاستيطان الفرنجي وتأثيره في البيئة السّياسّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة للكيانات الصليبية في فلسطين واالسّاحل الشّامي، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٩م.

٢٩- سالم (السيد عبد العزيز)، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٦م.

٣٠- ــــــــــــــــ، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

٣١- الشاعر (محمد فتحي)، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، كلية الآداب - جامعة المنوفية، مصر، ١٩٨٩م.

٣٢- شاهين (رياض مصطفى أحمد)، الآغا (حسام حلمي)، الاستيطان الصليبي في فلسطين (٤٩١-٦٥٠هـ/١٠٩٨-١٢٥٢م)، دار مؤسسة فلسطين للثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م.

٣٣- الشهابي (قتيبة)، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٨م.

٣٤- الشيخ (محمد)، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

٣٥- الصباغ (ليلى): دراسة في منهجية البحث التاريخي، جامعة دمشق، ١٩٩٩م.

٣٦- طقوش (محمد سهيل)، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ٤٧١-٥١١هـ/١٠٧٨-١١١٧م، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩م.

٣٧- عاشور(سعيد عبد الفتاح)، أوربا العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٨- ـــــــــــــــــــ، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠١٠م.

٣٩- عامر(سامية)، الصليبيون في فلسطين " جبيل - لبنان"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٢م.

٤٠- العبادي(أحمد مختار)، سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأمل، بيروت، ١٩٧٢م.

٤١- عبد الحميد (رأفت)، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٨م.

٤٢- عبد الله (جوزف)، منتخبات التواريخ والآثار حول عكار والجوار، د.ن، ٢٠١٠م.

٤٣- العش (يوسف)، دُور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمة:نزار أباظة، محمد صبّاغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م.

٤٤- عطية (حسين محمد)، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة ، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

٤٥- علي (علي السيد)، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٦م.

٤٦- العمايرة (محمد عبد الله سالم)، الجيش الفاطمي، دار كنوز المعرفة ، عَمان، ٢٠١٠م.

٤٧- عمران (محمود سعيد)، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ت.

٤٨- ـــــــــــــ، تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية ، مصر، ٢٠٠٠م.

٤٩- عمران (محمود سعيد)، سلامة (ابراهيم خميس ابراهيم)، حسين (حسن عبد الوهاب)، دراسات في حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢م.

٥٠ - عوض (محمد مؤنس)، الحروب الصليبية "دراسات تاريخية ونقدية "، دار الشروق، عمان، ١٩٩٩م.

٥١- ـــــــــــــ، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنيين ١٢-١٣هـ/٦-٧هـ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٩٩٩-٢٠٠٠م.

٥٢- الغامدي (علي محمد عودة)، المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين، مكتبة الصديق أبو بكر للنشر والتوزيع، الطائف، ١٤١١هـ.

٥٣- الغزي (كامل بن حسين)، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ١٩٩٨م.

٥٤- قاسم (عبدو قاسم)، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة ، ١٩٩٠م.

٥٥- قلعجي (قدري)، صلاح الدين الأيوبي" قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٢م .

٥٦- الكناني (مصطفى حسن محمد)، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى ٤٨٨-٥٦٧هـ/ ١٠٩٥-١١٧١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١م.

٥٧- لامنس (هنري)، تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، دار الرائد اللبناني، لبنان، د.ت.

٥٨- محمد (فتحي عبد العزيز)، محمد سيد (أشرف صالح)، الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية (١٠٩٩-١١٨٧)، دار ناشري، الكويت، ٢٠١٣م.

٥٩- محمد علي (محمد علي بن محمد توفيق)، الرحلة الشامية، حرره وقدم له: علي أحمد كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م.

٦٠- المطوي (محمد العروسي)، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، د.م.ن، ١٩٨٢م.

٦١- مفرج (طوني)، موسوعة قرى ومدن لبنان، دار نوبليس، بيروت، د.ت.

٦٢- مقامى، (نبيلة ابراهيم)، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٤م.

٦٣- موسى (تيسير)، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، الدار العربية للكتاب، د.ت.

٦٤- النقاش(زكي)، العلاقات الاجتماعيَّة والثقافيَّة والاقتصاديَّة بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ١٩٥٨م.

٦٥- ــــــــــ، الحروب الصليبية وما نتج عنها من علاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية بين العرب والإفرنج، د.ن، ١٩٤٦م.

٦٦- نوار(صلاح الدين)، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠-٥١٥هـ/١٠٩٧-١١٢١م)، دار الدعوة ، الإسكندرية، ١٩٩٢م.

٦٧- يوسف (جوزيف نسيم)، العرب والرّوم و اللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

خامساً – المراجع المعربة:

١- باركر(أرنست)، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

٢- براور(يوشع)، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.

٣- رانسيمان (ستيفن)، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د. ت.

٤- زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون في الشرق، ترجمة دار التقدم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م.

٥- سميث (جوناثان)، الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠- ١٣١٠م، ترجمة: صبحي الجابي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م.

٦- ــــــــــ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩م.

٧- فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٧٠م.

٨- ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

٩- كاهن(كلود)، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، مصر، ١٩٩٥م.

١٠- كروسيه (رنيه)، الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ترجمة: أحمد ايبش، دار قتيبة، دمشق، بيروت، ٢٠٠٢م.

١١- لويس (برنارد)، الحشيشية، ترجمة: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٢- ماير(هانس ابرهارد)، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م.

١٣- مولرفيز(فولفغانغ)، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.

١٤- هارولد فنك، تأسيس الإمارات اللاتينية ١٠٩٩م- ١١١٨م ، من خلال كتاب تاريخ الحروب الصليبية، إشراف كينث سيتون، ترجمة: سعيد عبد الله البيشاوي وآخرون، بيت المقدس للنشر والتوزيع، رام الله، ٢٠٠٤م.

١٥- هوراث(ستيفن)، فرسان الهيكل، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٦- هونكه (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب"أثر الحضارة العربية في أوربة، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، مراجعة:مارون عيسى الخوري، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة ، بيروت،١٩٩٣م.

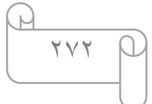
سادساً- المراجع باللغات الأجنبية:

1-Andrew Jotischky, Crusading and the crusader states, Routhle, London and New York, 2013.

2- Adrian J .Boas, Archaeology of the Military Orders, Routledye, 2006.

3- Daved Nicolle, Adam Hook, Crusader Castles in the Holy Land 1097-1192, Osprey, UK , 2004.

4- Denys Pringle, The Church of The Crusader Kingdom of Jerusalem, vol II, Cambridg University press,1998.



5-Harold S. Fink, The Foundation of The Latin States 1099-1118, A History of The Crusades, volume I, The University of WisconsinPress,1969.

6-Hugn kenned, Crusader Castles, The university Cambridge ,United Kingdom, 2008.

7-Jonathan Riley- Smith, The Motives of the Earliest Crusaders and Settlement of Latin Palestine 1095-1100,The English Historical Review, Vol 98, No 389(Oct 1983), Oxford University press.

8- Jonathan Riley Smith, The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem 1174-1277, Palgrave Macmillan.

9- Paul L .Sidelko , The acquisition of The Land estates of the Hospitallers in the Latin east 1099-1291, submitted in conformity with the requirements for the degree of Doctor of Philosophy Graduate Department of History, University of Torento, Canada, 1998.

10-R. scott peoples, Crusade of kings ,The Wildside press ,Rockville, Maryland, 2008.

11- Rough Tolerance, Christopher Macevitt, The Crusades and the Christian World of the East, university of Pennsylvania press, USA.

12 - T. A. Archer, Charles L. Kingsford, The Crusades The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem, G.P. Putnam's Sons, New York – T.Fisher Unwin , 1902.

13 - Thomas Asbridge , The Creation of The Principality of Antioch 1098-1130 , The Boydell Press, Woodbridge,2000.

14-T .S .Asbridge, The Crusader Community at Antioch :The Impact of Interaction with Byzantium and Islam, Transaction of the Royal Historical Society, 6th Ser., Vol 9, London, 1999.

سابعاً: المجلات والدوريات:

١- البيشاوي(سعيد)، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مج ١٥، ٢٠٠١م

٢- الدويكات (فؤاد عبد الرحيم)، هيئة فرسان القديس لعازر في مملكة بيت المقدس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ١٢، العدد١، ٢٠١٥م.

٣- الزنكي (جمال محمد حسن)، تطلع المرأة الصليبية للسلطة وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – الحولية ٢٩، ٢٠٠٨م.

٤- السهيل (نايف عيد)، الأثر التجاري للاستيطان الصليبي في بلاد الشام، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب- جامعة القاهرة، تشرين الثاني، ٢٠٠٩م.

٥- عبد الرحيم (رائد مصطفى)، وسائل الدعاية الصليبية (صورة المسلمين في أدب الرحلات الأوربية والروسية إلى الأماكن المقدسة في العصور الوسطى أنموذجا)، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد١ (A)، مج ١٣، ٢٠١١م.

٦- العبيدي (عبد العزيز بن راشد)، التأثيرات الحضارية الإسلامية على الغرب الأوربي خلال الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب ، جامعة إفريقيا العالمية، العدد ٣، ٢٠١٢م

٧- الغامدي (علي محمد علي عودة)، حصن بغراس ودوره الحربي في عصر الحروب الصليبية،" من خلال ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٩٩٦م.

8- Alan V. Murray, Daimbert of Pisa, the Domus Godefridi and the Accession of Baldwin I of Jerusalem/ From Clermont to Jerusalem, The Crusades and Crusader Societies 1095-1500, International Medieval Research Selected Proceedings of the International Medieval Congress University of Leeds, edited by Turnhout, Brepols, 1998

9-Lieut. Col .C.R. Conder, LL.D,M.R.A.S,R.E, The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 To 1291 A.D,Publisher by The Committee of The Palestine Exploration Fund,24, Hanover Square, London,1897.

10- Prawer J ,Colonization Activities in the latin Kingdom of Jerusalem In: Revue belge de philologie et d'histoire. Tome 29 fasc. 4, 1951.

ثامناً- الموسوعات:

١- قاسم (قاسم عبده)، أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، من خلال موسوعة الحضارة العربية الإسلامية.

تاسعاً- رسائل جامعية:

١- أبو عون (عبد الرحيم حسين سعد الدين)، إقطاعية حيفا ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩٣- ٦٩٠هـ/١١٠٠- ١٢٩١م)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٤م.

2-Alethea Wiel, The Navy Of Venice ,E. P .Dutton and company ,New York,1910.

3- Samuel James Wilson, The Latin Principality of Antioch and Its Relationship with the Armenian Kingdom of Cilicia, 1188-1268, A thesis submitted in partial fulfilment of the requirements of Nottingham Trent University for the degree of Doctor of Philosophy,2016.